



مجلة العلوم الإنسانية

علمية محكمة - نصف سنوية

تصدرها كلية الآداب / الخمس

جامعة المرقب . ليبيا

12

العدد

الثاني

عشر

مارس 2016م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ^ط وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ^ج

صدق الله العظيم

(سورة الرعد - آية 17)

هيئة التحرير

- د. علي سالم جمعة رئيساً
 - د. أنور عمر أبوشينة عضواً
 - د. أحمد مريجيل حريش عضواً

المجلة علمية ثقافية محكمة نصف سنوية تصدر عن جامعة المرقب /كلية الآداب الخمس، وتُنشر بها البحوث والدراسات الأكاديمية المعنية بالمشكلات والقضايا المجتمعية المعاصرة في مختلف تخصصات العلوم الإنسانية.

- كافة الآراء والأفكار والكتابات التي وردت في هذا العدد تعبر عن آراء أصحابها فقط، ولا تعكس بالضرورة رأي هيئة تحرير المجلة ولا تتحمل المجلة اية مسؤولية اتجاهها.

توجه جميع المراسلات إلى العنوان الآتي:

هيئة تحرير مجلة العلوم الإنسانية

مكتب المجلة بكلية الآداب الخمس جامعة المرقب

الخمس /ليبيا ص.ب (40770)

هاتف (00218924120663 د. على)

(00218926724967 د. احمد)- أو (00218926308360 د. انور)

البريد الإلكتروني: journal.alkhomes@gmail.com

صفحة المجلة على الفيس بوك: journal.alkhomes@gmail.com

قواعد ومعايير النشر

-تهتم المجلة بنشر الدراسات والبحوث الأصيلة التي تتسم بوضوح المنهجية ودقة التوثيق في حقول الدراسات المتخصصة في اللغة العربية والانجليزية والدراسات الاسلامية والشعر والأدب والتاريخ والجغرافيا والفلسفة وعلم الاجتماع والتربية وعلم النفس وما يتصل بها من حقول المعرفة.

-ترحب المجلة بنشر التقارير عن المؤتمرات والندوات العلمية المقامة داخل الجامعة على أن لا يزيد عدد الصفحات عن خمس صفحات مطبوعة.

-نشر البحوث والنصوص المحققة والمترجمة ومراجعات الكتب المتعلقة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية ونشر البحوث والدراسات العلمية النقدية الهادفة إلى تقدم المعرفة العلمية والإنسانية.

-ترحب المجلة بعروض الكتب على ألا يتجاوز تاريخ إصدارها ثلاثة أعوام ولا يزيد حجم العرض عن صفحتين مطبوعتين وأن يذكر الباحث في عرضه المعلومات التالية (اسم المؤلف كاملاً- عنوان الكتاب- مكان وتاريخ النشر- عدد صفحات الكتاب- اسم الناشر- نبذة مختصرة عن مضمونه- تكتب البيانات السالفة الذكر بلغة الكتاب).

ضوابط عامة للمجلة

- يجب أن يتسم البحث بالأسلوب العلمي النزيه الهادف ويحتوى على مقومات ومعايير المنهجية العلمية في اعداد البحوث.

- يُشترط في البحوث المقدمة للمجلة أن تكون أصيلة ولم يسبق أن نشرت أو قدمت للنشر في مجلة أخرى أو أية جهة ناشرة اخرة. وأن يتعهد الباحث بذلك خطيا عند تقديم البحث، وتقديم إقراراً بأنه سيلتزم بكافة الشروط والضوابط المقررة

في المجلة، كما أنه لا يجوز يكون البحث فصلاً أو جزءاً من رسالة (ماجستير - دكتوراه) منشورة، أو كتاب منشور.

- لغة المجلة هي العربية ويمكن أن تقبل بحوثاً بالإنجليزية أو بأية لغة أخرى، بعد موافقة هيئة التحرير..

- تحتفظ هيئة التحرير بحقها في عدم نشر أي بحث وتُعدُّ قراراتها نهائية، وتبلغ الباحث باعتذارها فقط إذا لم يتقرر نشر البحث، ويصبح البحث بعد قبوله حقاً محفوظاً للمجلة ولا يجوز النقل منه إلا بإشارة إلى المجلة.

- لا يحق للباحث إعادة نشر بحثه في أية مجلة علمية أخرى بعد نشره في مجلة الكلية، كما لا يحق له طلب استرجاعه سواء قُبِلَ للنشر أم لم يقبل.

- تخضع جميع الدراسات والبحوث والمقالات الواردة إلى المجلة للفحص العلمي، بعرضها على مُحكِّمين مختصين (محكم واحد لكل بحث) تختارهم هيئة التحرير على نحو سري لتقدير مدى صلاحية البحث للنشر، ويمكن ان يرسل الى محكم اخر وذلك حسب تقدير هيئة التحرير.

- يبدي المقيم رأيه في مدى صلاحية البحث للنشر في تقرير مستقل مدعماً بالمبررات على أن لا تتأخر نتائج التقييم عن شهر من تاريخ إرسال البحث إليه، ويرسل قرار المحكمين النهائي للباحث ويكون القرار إما:

* قبول البحث دون تعديلات.

* قبول البحث بعد تعديلات وإعادة عرضه على المحكم.

* رفض البحث.

-تقوم هيئة تحرير المجلة بإخطار الباحثين بآراء المحكمين ومقترحاتهم إذ كان

المقال أو البحث في حال يسمح بالتعديل والتصحيح، وفي حالة وجود تعديلات طلبها المقيم وبعد موافقة الهيئة على قبول البحث للنشر قبولاً مشروطاً بإجراء التعديلات يطلب من الباحث الأخذ بالتعديلات في فترة لا تتجاوز أسبوعين من تاريخ استلامه للبحث، ويقدم تقريراً يبين فيه رده على المحكم، وكيفية الأخذ بالملاحظات والتعديلات المطلوبة.

- ترسل البحوث المقبولة للنشر إلى المدقق اللغوي ومن حق المدقق اللغوي أن يرفض البحث الذي تتجاوز أخطاؤه اللغوية الحد المقبول.

- تنشر البحوث وفق أسبقية وصولها إلى المجلة من المحكم، على أن تكون مستوفية الشروط السالفة الذكر.

- الباحث مسئول بالكامل عن صحة النقل من المراجع المستخدمة كما أن هيئة تحرير المجلة غير مسئولة عن أية سرقة علمية تتم في هذه البحوث.

- ترفق مع البحث السيرة العلمية (CV) مختصرة قدر الإمكان تتضمن الاسم الثلاثي للباحث ودرجته العلمية ونخصه الدقيق، وجامعته وكليته وقسمه، وأهم مؤلفاته، والبريد الإلكتروني والهاتف ليسهل الاتصال به.

- يخضع ترتيب البحوث في المجلة لمعايير فنية تراها هيئة التحرير.

- تقدم البحوث الى مكتب المجلة الكائن بمقر الكلية، او ترسل إلى بريد المجلة الإلكتروني.

- اذا تم ارسال البحث عن طريق البريد الإلكتروني او صندوق البريد يتم ابلاغ الباحث بوصول بحثه واستلامه.

- يترتب على الباحث، في حالة سحبه لبحثه او إبداء رغبته في عدم متابعة

إجراءات التحكيم والنشر، دفع الرسوم التي خصصت للمقيمين.

شروط تفصيلية للنشر في المجلة

-عنوان البحث: يكتب العنوان باللغتين العربية والإنجليزية. ويجب أن يكون العنوان مختصراً قدر الإمكان ويعبر عن هدف البحث بوضوح ويتبع المنهجية العلمية من حيث الإحاطة والاستقصاء وأسلوب البحث العلمي.

- يذكر الباحث على الصفحة الأولى من البحث اسمه ودرجته العلمية والجامعة او المؤسسة الأكاديمية التي يعمل بها.

-أن يكون البحث مصوغاً بإحدى الطريقتين الآتيتين: _

1:البحوث الميدانية: يورد الباحث مقدمة يبين فيها طبيعة البحث ومبرراته ومدى الحاجة إليه، ثم يحدد مشكلة البحث، ويجب أن يتضمن البحث الكلمات المفتاحية (مصطلحات البحث)، ثم يعرض طريقة البحث وأدواته، وكيفية تحليل بياناته، ثم يعرض نتائج البحث ومناقشتها والتوصيات المنبثقة عنها، وأخيراً قائمة المراجع.

2:البحوث النظرية التحليلية: يورد الباحث مقدمة يمهد فيها لمشكلة البحث مبيناً فيها أهميته وقيمه في الإضافة إلى العلوم والمعارف وإغنائها بالجديد، ثم يقسم العرض بعد ذلك إلى أقسام على درجة من الاستقلال فيما بينها، بحيث يعرض في كل منها فكرة مستقلة ضمن إطار الموضوع الكلي ترتبط بما سبقها وتمهد لما يليها، ثم يختم الموضوع بملخص شامل له، وأخيراً يثبت قائمة المراجع.

-يقدم الباحث ثلاث نسخ ورقية من البحث، وعلى وجه واحد من الورقة (A4) واحدة منها يكتب عليها اسم الباحث ودرجته العلمية، والنسخ الأخرى تقدم ويكتب عليها عنوان البحث فقط، ونسخة الكترونية على (Cd) باستخدام البرنامج الحاسوبي (MS Word).

- يجب ألا تقل صفحات البحث عن 20 صفحة ولا تزيد عن 30 صفحة بما في ذلك صفحات الرسوم والأشكال والجداول وقائمة المراجع .
-يرفق مع البحث ملخصان (باللغة العربية والانجليزية) في حدود (150) كلمة لكل منهما، وعلى ورقتين منفصلتين بحيث يكتب في أعلى الصفحة عنوان البحث ولا يتجاوز الصفحة الواحدة لكل ملخص.

-يُترك هامش مقداره 3 سم من جهة التجليد بينما تكون الهوامش الأخرى 2.5 سم، المسافة بين الأسطر مسافة ونصف، يكون نوع الخط المستخدم في المتن Times New Roman 12 للغة الانجليزية و مسافة و نصف بخط Simplified Arabic 14 للأبحاث باللغة العربية.

-في حالة وجود جداول وأشكال وصور في البحث يكتب رقم وعنوان الجدول أو الشكل والصورة في الأعلى بحيث يكون موجزاً للمحتوى وتكتب الحواشي في الأسفل بشكل مختصر كما يشترط لتنظيم الجداول اتباع نظام الجداول المعترف به في جهاز الحاسوب ويكون الخط بحجم 12.

-يجب أن ترقم الصفحات ترقيماً متسلسلاً بما في ذلك الجداول والأشكال والصور واللوحات وقائمة المراجع .

طريقة التوثيق:

-يُشار إلى المصادر والمراجع في متن البحث بأرقام متسلسلة توضع بين قوسين إلى الأعلى هكذا: (1)، (2)، (3)، ويكون ثبوتها في أسفل صفحات البحث، وتكون أرقام التوثيق متسلسلة موضوعة بين قوسين في أسفل كل صفحة، فإذا كانت أرقام التوثيق في الصفحة الأولى مثلاً قد انتهت عند الرقم (6) فإن الصفحة التالية ستبدأ بالرقم (1).

-ويكون توثيق المصادر والمراجع على النحو الآتي:

أولاً: الكتب المطبوعة: اسم المؤلف ثم لقبه، واسم الكتاب مكتوباً بالبنط الغامق، واسم المحقق أو المترجم، والطبعة، والناشر، ومكان النشر، وسنته، ورقم المجلد - إن تعددت المجلدات- والصفحة. مثال: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان. تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط2، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1965م، ج3، ص40. ويشار إلى المصدر عند وروده مرة ثانية على النحو الآتي: الجاحظ، الحيوان، ج، ص.

ثانياً: الكتب المخطوطة: اسم المؤلف ولقبه، واسم الكتاب مكتوباً بالبنط الغامق، واسم المخطوط مكتوباً بالبنط الغامق، ومكان المخطوط، ورقمه، ورقم اللوحة أو الصفحة. مثال: شافع بن علي الكناني، الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور. مخطوط مكتبة البودليان باكسفورد، مجموعة مارش رقم (424)، ورقة 50.

ثالثاً: الدوريات: اسم كاتب المقالة، عنوان المقالة موضوعاً بين علامتي تنصيص " "، واسم الدورية مكتوباً بالبنط الغامق، رقم المجلد والعدد والسنة، ورقم الصفحة، مثال: جرار، صلاح: "عناية السيوطي بالتراث الأندلسي- مدخل"، مجلة جامعة القاهرة للبحوث والدراسات، المجلد العاشر، العدد الثاني، سنة 1415هـ/ 1995م، ص179.

رابعاً: الآيات القرآنية والاحاديث النبوية:- تكتب الآيات القرآنية بين قوسين مزهرين بالخط العثماني ﴿﴾ مع الإشارة إلى السورة ورقم الآية. وتثبت الأحاديث النبوية بين قوسين مزدوجين « » بعد تخريجها من مظانها.

ملاحظة: لا توافق هيئة التحرير على تكرار نفس الاسم (اسم الباحث) في عديدين متتاليين وذلك لفتح المجال امام جميع اعضاء هيئة التدريس للنشر.

فهرس المحتويات

الصفحة	عنوان البحث
12.....	1- مشكلة الحدود السياسية في القارة الأفريقية د عاشور مسعود النجار
33.....	2- الحياة السياسية لقبائل لواته في منطقة مسلاته وظهيرها خلال العصر الوندالي (455 م - 533 م)
44.....	3- الحوار الوطني في تراث الثقافة السياسية الليبية تحت الاستعمار 1911-1922م د. عياد اعبيليكة
67.....	4- دراسة في التقاطع والمسار التاريخي للتجربة الليبية في آليات الحوار وبناء السلم وفض النزاعات د. عزالدين عبدالسلام العالم
99.....	5- سورة التوبة معان وأحكام فقهية د. امحمد عبد الحميد المدني
122.....	6- نظرية الفيض بين الفلاسفة والمتكلمين (الفارابي والكرماني أنموذجاً) د: أمينة عبدالسلام الزائدي
136.....	7- قطع أشجار الغابات وآثاره على عملية التصحر (في المنطقة الممتدة من تاجوراء إلى غرب مدينة الخمس)
158.....	8- الهادي عبد السلام عليوان . 7- موقف الشريعة الإسلامية من استخدام مشتقات الخنزير في المواد الاستهلاكية د. عبد العزيز عبد المولى علي
	8- اللمسات الفنية للمحذوف (سورة البقرة أنموذجاً) د. علي عبد السلام بالنور

9- أوضاع مدينة لبدّة الكبرى خلال حكم الأسرة السيفيرية (192 - 235 م)

- د. عبد السلام عبد الحميد أبو القاسم.....189
- 10- العلاقات الثقافية بين مدينة فاس وبعض أقاليم العالم الإسلامي
448-541هـ/1056-1146م
- د. فتحية محمد الوداني.....208
- 11- العلاقات المكانية الصناعية لمنطقة مصراته
- د. ابتسام عبدالسلام كشيبي.....248
- 12- واقع وآفاق الخدمات التعليمية للتعليم المتوسط لمنطقة الخمس عام 2015م
- د. بشير عمران أبوناجي و د. أنور عمر أبوشينة.....276
- 13- نموذج نظري لتصور العلاقة بين الاكتئاب وتصور الانتحار
- د. عثمان علي أميم و أ. زينب محمد حمودة.....301
- 14- التنبؤ بأثر الرضا الوظيفي، وفعالية الذات في خفض الضغوط النفسية دراسة أمبريقية على عينة من أطباء مستشفى زليتن التعليمي
- د. مفتاح محمد أبوجناح.....333
- 15- علاقات أباضيي ورقلة التجارة مع شمال الصحراء وجنوبها
- د. لمياء محمد شرف الدين.....370
- 16-Exploring English teachers' beliefs about CLT and difficulties in implementing it in Libyan schools
- Rabiah Mohammed Almalul.....410
- 17-Caravan trade between Kuwait and "markets of Arabian Peninsula, Levant and Southern Iraq" in the pre-oil era (A study in modes and relations of production)
- D. Mustafa Ahmed Sakr.....421

مشكلة الحدود السياسية في القارة الأفريقية

د. عاشور مسعود النجار

مقدمة:

لم يعرف الإنسان البدائي الحدود عندما انتشر على سطح الأرض وهو يتجول للحصول على قوته من الصيد أو جمع الثمار من الأشجار .

والحدود لغةً: تعني الفاصل أيًا كان خطأً محدودًا أو منطقة متسعة، أما المعنى المتفق عليه في الجغرافيا السياسية فهو الخطوط التي تحد كيان الدولة وتحدد مساحتها إقليمها البري أو المائي والتي تباشر الدولة عليها سيادتها وسلطانها، فالحدود موضع جغرافي تلتقي عنده قوى دولتين وينتهي عند هذا الحد نفوذ كل منهما وقوانينهما⁽¹⁾.

وخطوط الحدود إجراء حديث ارتبط بظهور الوحدات السياسية وهي لا ترتبط بقومية أو بسلالة معينة ولا لغة، وإنما هي خطوط صناعية من عمل الإنسان ولفائدته.

ويتطلب تخطيط الحدود الإمام بطبوغرافية المنطقة والعوامل البشرية المتعلقة بالاختلاف بين الجماعات البشرية من حيث الجنس واللغة وغيرها.

وهناك العديد من أنواع الحدود فالحدود الطبيعية هي التي تستغل الظواهر الطبيعية مثل الأنهار أو الجبال أو البحيرات وغيرها، أما الحدود الهندسية وهي التي تختط متمشية مع خطوط الطول أو العرض وهي من أسوأ أنواع الحدود.

والحدود الإفريقية هي من هذا النوع وياعتراف الأوروبيين أنفسهم حيث اعترف بعض الكتاب الأوروبيين بأن الحدود التي اصطنعها الاستعماريون الأوروبيون أقيمت وهم يجهلون الكثير من الحقائق الطبيعية والبشرية عن القارة، بل إنهم عبّروا عن الحدود التي

(1) فيليب رفة وعزالدين فريد، الجغرافيا السياسية لأفريقيا، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، 1965، ص

رسموها بأنها "الحدود الاستعمارية" Colonial boundaries (1)، فقد بلغت نسبة الحدود المستقيمة 30% من مجموع حدود القارة تقريباً.

مشكلة الدراسة:

تتمثل مشكلة الدراسة فيما نتج عن استيلاء البلدان الأوروبية الاستعمارية للقارة الأفريقية وتقسيم أراضيها فيما بينهم، إذ أن الأرض الأفريقية مازالت بكرًا في ذلك الوقت، وكان همُّ البلدان الاستعمارية في البداية هو التسابق من أجل اكتساب أكبر مساحة من مناطق النفوذ لكل منها ولذلك فقد جاء التقسيم السياسي للأراضي الأفريقية سريعًا ودونما تفكير في ملائمتها للظروف الطبيعية أو البشرية والمتمثلة في الأراضي التي تمتلكها القبائل الأفريقية المختلفة وامتدادها لمساحات كبيرة، خاصة القبائل الرعوية، وما إن حصل التقسيم حتى تبين أن هناك الكثير من الحدود السياسية الناتجة عن فترة الاستعمار لا تتماشى مع الكثير من المظاهر الطبيعية مثل اتخاذ الأنهار كعامل فصل، وهي في الواقع يجب أن تكون عامل وصل، ولم يكن هناك إعتبار أيضًا لأحواض الأنهار وخطوط تقسيم المياه ناهيك عن الاعتبارات الإنسانية بخصوص القبائل التي أصبح بعضها يعيش بدولة والبعض الآخر بدولة أخرى، والأمثلة على ذلك كثيرة، حيث نتج عنها الكثير من النزاعات والمشاكل بين البلدان الأفريقية، وتتمحور المشكلة في التساؤلات الآتية:

س1/ هل يوجد توافق بين الحدود السياسية للبلدان الأفريقية والأوضاع الطبيعية والبشرية؟

س2/ لماذا جاء أكثر من ثلث الحدود السياسية كخطوط هندسية تتماشى مع خطوط الطول والعرض؟

س3/ ما النتائج السياسية والاقتصادية والاجتماعية المترتبة على تقسيمات الحدود الاستعمارية؟

س4/ هل يمكن تغيير الحدود بشكل يرضي كل البلدان الأفريقية لتفادي المشاكل المترتبة عنها؟

(1) نفس المرجع السابق، ص 92.

فرضيات الدراسة

جاءت الفرضيات للتساؤلات الواردة بالمشكلة على النحو الآتي:

1. لا يوجد توافق في الحدود السياسية بين البلدان الأفريقية والأوضاع الطبيعية والبشرية.
2. كان أكثر من ثلث أطوال الحدود الأفريقية عبارة عن خطوط هندسية لا تتماشى والظروف الطبيعية والبشرية.
3. ظهرت الكثير من النتائج السلبية للتقسيمات الحدودية الاستعمارية بين البلدان الأفريقية وتمثلت في وجود دول لا سواحل لها وعرقلة التواصل القومي والنمو الاقتصادي.
4. لم يتم التصرف في تغيير الحدود بين الدول الأفريقية بعد الاستقلال إلا بشكل طفيف تفادياً للحروب والنزاع بينها.

أهميتها:

بالرغم من أهمية الحدود كوسيلة لحفظ الأمن والتحكم في تجارة الممنوعات وانتشار الأفكار الهدامة بين الدول، غير أن مساوئ هذه الحدود وما ارتبطت به من التحكم والسيطرة على مقدرات الشعوب الأفريقية وتمزيق النسيج الاجتماعي للقبائل الأفريقية ونهب خيراتها قد فاق أهميتها المذكورة سابقاً، ومن هنا اكتسبت هذه الدراسة أهميتها التي يمكن اختصارها في النقاط الآتية:

1. تتمثل أهمية هذه الدراسة في الكشف عن حجم المعاناة التي يعيشها الإنسان الأفريقي جزاء هذه الحدود المتمثلة في عرقلة حركة الأيدي العاملة من منطقة لأخرى لكسب قوتها والحد من حركة التواصل القومي وانتشار القبائل الرعوية التي لم تكن تعرف أي معنى للحدود.
2. تكمن الأهمية في التعرف على مدى حجم المؤامرات الاستعمارية في غياب أصحاب الأرض أنفسهم من الأفارقة والتي تستهدف نهب خيرات القارة.
3. الكشف عن نتائج التقسيم لأراضي القارة والتي كانت كلها في غير صالح البلدان الأفريقية والدليل على ذلك هو اتحاد بعض البلدان الأفريقية بعد الاستقلال ووجود

أكبر عدد من الدول الحبيسة التي لا سواحل لها مقارنة ببقية القارات الأخرى وشكل خطوط المواصلات التي كانت اتجاهاتها تخدم المصالح الاستعمارية فقط.

أهدافها:

تهدف هذه الدراسة إلى ما يلي:

1. التعرف على الأساليب الاستعمارية التي استخدمت في احتلال أراضي القارة وتقسيمها حيث لم تراعى مصلحة للأفارقة. فقد أسست البلدان الاستعمارية شركات باسمها في البداية لإيهام الأفارقة بأن هذه الشركات تعمل للنهوض باقتصاد القارة ومصحتها.
2. التعرف على النتائج السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي ترتبت على الاحتلال والتقسيم.

منهجية الدراسة:

يقصد بالمنهجية هو الأسلوب أو الطريقة أو الكيفية التي يعالج بها الباحث موضوع بحثه وتعتمد أي دراسة على عدد من المناهج أو البعض منها حسب طبيعة الموضوع المبحوث.

وفي هذا البحث تم استخدام المنهج التاريخي والمنهج التحليلي فالمنهج التاريخي فيما يخص المراحل الزمنية التي مرت بها القارة خلال العقود التي تم فيها الاحتلال والتمهيد له في البداية والخرائط التي تترجم مواقع التقسيم للقارة على مر فترة ليست بالقصيرة.

أما المنهج التحليلي فعن طريق تحليل ما توفر من معلومات وبيانات من المراجع بغية الوصول إلى نتائج وأهداف يحققها البحث.

عناصر الدراسة:

1. الحدود الهندسية ومشكلاتها: لا تقل نسبة الحدود الأفريقية المستقيمة أو الهندسية عن ثلث الحدود الأفريقية بين دول القارة، وهي التي تتماشى مع خطوط الطول أو دوائر العرض من ذلك⁽¹⁾.

أ. قُسمت أراضي قبائل المازاي بين كينيا وتنزانيا بخط مستقيم لأكثر من 200,000 نسمة في مساحة لا تزيد عن 41,000 ميل مربع، وكنتيجة لهذا التقسيم فقد أصبح حوالي 90,000 نسمة منهم يسكنون في مساحة 15,000 ميل مربع فقط من المساحة المذكورة في كينيا، وحوالي 110,000 نسمة يسكنون بباقي المساحة في تنزانيا والتي تقدر بحوالي 26,000 ميل مربع وتحترف هذه القبائل الرعي وتنتقل بقطعانها من منطقة إلى أخرى في كل تلك المساحة ولا تضع حساباً للحدود وخاصة في موسم تذبذب الأمطار من يونيه إلى نوفمبر، ورغم مطالبة هذه القبائل بالمحافظة على وحدة أراضيها قبل استقلال الدولتين إلا أن بريطانيا التي تمثل الدولتين رفضت إلى أن استقلت الدولتان فيما بعد وأصبحت الحدود حقيقة واقعة "de facto"⁽²⁾.

ب. تتماشى الحدود بين ليبيا ومصر كما هو معروف لدى الجغرافيين مع خط 25° شرقاً وكذلك بين ليبيا والسودان في الزاوية الجنوبية الشرقية لخريطة ليبيا، كما جاءت الحدود بشرق ناميبيا بينها وبين الكونغو متمشية مع خط 20° شرقاً كحد شمالي لأفريقيا الجنوبية الغربية وهي مستعمرة ألمانية وتمتد نحو الشمال إلى خط 22° شمالاً وشرقاً إلى خط طول 21° شرقاً ثم شمالاً إلى خط أو دائرة عرض 18° شمالاً، ومعظم هذه الحدود بمنطقة صحراوية هي جزء من صحراء كلهاري، انظر الخريطة رقم (1).

(1) فيليب رفة وعز الدين فريد، الجغرافيا السياسية لأفريقيا، مكتبة الوعي العربي، القاهرة،

1965، ص 92.

(2) نفس المرجع السابق، ص 258.

خريطة رقم (1)



المصدر: فليب رفلة وعزالدين فريد، جغرافية العالم السياسية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1982، ص 159.

2. المشكلات القبلية المتعلقة بالحدود: ظهرت الكثير من المشكلات جزاء الحدود الأفريقية نتيجة لتقطيع أراضي القبائل الأفريقية وتمزيق وحدتها العرقية، نورد منها ما يلي:

أ. الحدود بين غانا والتوجو حيث أدت إلى تقسيم الشعب الايوي Ewe إلى قسمين متساويين تقريباً والذي يبلغ عدده مليوني نسمة بحيث أصبح حوالي نصفهم يعيشون جنوب شرق غانا والباقي في جنوب التوجو، وقبل الاستقلال طالب ممثلو هذا الشعب بتعديل هذه الحدود ولكن دون جدوى إلى أن استقلت الدولتان فيما بعد وبقت المشكلة قائمة⁽¹⁾.

ب. **مشكلة الحدود بين الصومال و أثيوبيا وكينيا:** يرجع أصل الحدود السياسية للصومال إلى الفترة الممتدة بين سنتي 1885 - 1900 من قبل الدول الإستعمارية الثلاث فرنسا وإيطاليا وبريطانيا حيث سيطرت بريطانيا على كينيا والصومال البريطاني وكان نصيب فرنسا الصومال الفرنسي وهو ما يعرف بجيبوتي وإيطاليا على الصومال الإيطالي، وفصلت هذه الحدود بين المرعى الواحد للقبيلة الواحدة، وكذلك بين المراعي الشتوية والصيفية، فقد نصت الاتفاقية الثنائية بين إيطاليا والحبشة على أن يمر خط الحدود إلى الشمال الغربي من نهري جوبا وشبيلي بحيث تكون أراضي إقليم أوجادين ضمن حدود أثيوبيا، وقد ترتب على هذا الحد الكثير من المشكلات بحدود أراضي القبائل بخلاف الحدود بين الصومال البريطاني وأثيوبيا الذي أعطى الصوماليين حق العبور إلى أراضيهم التقليدية في إقليم هود بأثيوبيا حسبما نصت عليه المعاهدة البريطانية الأثيوبية عام 1897، ورغم وجود الحدود بين الصومال وكينيا فقد استمر الصوماليون في ضغوطهم على قبائل الجالا الكينية في شمال شرقها لمحاولة زحزحتهم إلى الغرب من نهر جوبا، ولكن عدد الصوماليين أنخفض بكينيا بعد تنازل بريطانيا لإيطاليا عن الجزء الواقع بين نهر جوبا وحدود الصومال الإيطالي، واتفق الطرفان على أن يكون خط الحدود على بعد 60 ميلاً شرقي نهر تانا⁽²⁾، انظر الخريطة رقم (2).

(1) فتحي محمد أبوعيانة، جغرافية أفريقيا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2013، ص 49.

(2) المرجع نفسه، والصفحة.

خريطة رقم (2)



المصدر: علي أحمد هارون، أسس الجغرافيا السياسية، دار الفكر العربي، ط2، القاهرة، 2003، ص

260

ومُنعت هجرات الصوماليين إلى الغرب من هذا الخط حمايةً لقبائل الجالا، وترتب على هذا الوضع الكثير من المشكلات على الحدود، وتطور النزاع بين الدولتين منذ عام 1961 عندما طالب الصوماليون بعمل استفتاء لتقرير المصير بشمال كينيا تحت إشراف الأمم المتحدة، وذلك لأن نسبة الصوماليين بالإقليم أكبر من الكينيين، ولكن كينيا رفضت هذا الاستفتاء لأنه يؤدي إلى اقتطاع أكثر من 20% من مساحتها للصومال لو تمت الموافقة عليه⁽¹⁾.

وحدث النزاع على الحدود بين إيطاليا وإثيوبيا 1935 وعلى إثره احتلت إيطاليا الحبشة في نفس السنة وربطت بين القبائل الصومالية في الصومال الإيطالي وأوجادين في الحبشة⁽²⁾.

3. الحدود النهرية ونتائجها: تعتبر الأنهار عامل وصل وليس فصل كما هو

(1) نفس المرجع السابق، ص 260.

(2) علي أحمد هارون، أسس الجغرافيا السياسية، دار الفكر العربي، ط2، القاهرة، 2003، ص 260.

معروف، وذلك عندما تستخدم كطرق مواصلات، ولكن هناك العديد من الأمثلة بالقارة الأفريقية ترتب عليها الكثير من النتائج السلبية سواء فيما يتعلق بالنواحي السياسية أو الاقتصادية وفيما يلي بعض الأمثلة:

أ. أثناء وضع الحدود بين ساحل العاج وليبيريا على الضفة اليمنى لنهر كافالي وهي الضفة الغربية ولكن نتيجة للجهل بطبيعة الأنهار من قبل واضعي الحدود من الأوروبيين أُعتبرت الضفة الشرقية هي الضفة اليمنى حيث تم النظر إلى النهر من ناحية ساحل المحيط وبذلك حرمت إحدى الدولتين من النهر⁽¹⁾.

ب. مشكلة الحدود بين موريتانيا والسنغال تعتبر كل من موريتانيا والسنغال مستعمرتان فرنسيتان، وقد أقامت فرنسا حدوداً إدارية بينهما منذ عام 1905 وتأكد ذلك بصدور مرسوم حكومي فرنسي عام 1933 حيث اعتبرت الضفة الشمالية لنهر السنغال حُدّاً فاصلاً بين الدولتين، ونتيجة لرغبة فرنسا في إقامة كيان سياسي يفصل بين المغرب والسنغال فقد أعلنت عن قيام دولة موريتانيا عام 1960 فتحول الحد الإداري السابق الإشارة إليه كحد سياسي يفصل بين الدولتين وقد تعرض للتعديل من قبل الدولتين عام 1972 بحيث يكون بوسط النهر لتستفيد منه الدولتان ولم يكن هذا الحد رادعاً قوياً لحركة القبائل المجاورة للنهر على الجانبين، ونظراً للتوجه السياسي لموريتانيا للحضيرة العربية والانضمام للجامعة، فقد أثار هذا القبائل الزنحية بجنوب موريتانيا، وشكلت جبهة مقاومة وساعدتها السنغال حيث انتهت هذه المقاومة بانقلاب كان مصيره الفشل عام 1987 مما أدى إلى زيادة التوتر بين الدولتين واقترحت موريتانيا فيما بعد إقامة سددين على النهر بالقرب من المصب لصالح الدولتين، ولكن السنغال رفضت هذا العرض عندما رأت أن الفائدة الأكثر ستكون لموريتانيا بالإضافة إلى زيادة أهمية ميناء نواكشوط كمنافس لداكار⁽²⁾.

(1) يسري الجوهري، وناريمان درويش، الجغرافيا السياسية والمشكلات الدولية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1989، ص 179.

(2) علي أحمد هارون، مرجع سابق، ص 280.

وقد استمرت أعمال العنف بعد ذلك بين الدولتين منذ عام 1989 عندما بدأت السنغال بطرد الموريتانيين المقيمين بالسنغال وكان رد فعل موريتانيا طرد السنغاليين الموجودين بها، فتأججت نار الفتنة وبدأت الغارات المتبادلة من الطرفين وتكونت منظمات مقاومة مثل جبهة الغلام التي تنتمي إليها قوات تحرير موريتانيا، وجبهة الفورام التي تضم العناصر الزنجية من موريتانيا، وجبهة الفروديم التي تضم عناصر من الزوج وبعض العرب من قبيلة المور وقتل العديد من الأفراد من الدولتين ومازالت المشكلة قائمة بينهما⁽¹⁾.

ج. أقامت بريطانيا دولة غمبيا حول حوض نهر غامبيا من الغرب إلى الشرق حيث تتوغل لمسافة 480 كم تقريباً داخل الأراضي السنغالية، بالرغم من عدم وجود الإمكانيات المتكاملة لهذه الدولة فمن حيث السكان لا يزيد عددهم عن 250 ألف تقريباً، وهذه الدولة الشريطية لا يزيد عرضها في بعض المناطق عن 20 كيلومتر، حيث أعاققت حركة التواصل بين شمال السنغال وجنوبه⁽²⁾.

د. اقتطعت منطقة كاراسالا غرب نهر تركوبل من كينيا ومُنحت لأوغندا عام 1931 نتيجة للإحتكاك بين جماعات السولا في غرب كينيا والكاراموجوفي شرق أوغندا، ونتيجة للضغوط التي مارستها قبائل التركانا الرعوية في شرق كينيا أخذت قبائل السولا في الزحف غرباً، وللتقليل من حدة النزاع بين هذه القبائل أقامت بريطانيا التي كانت تستعمر الدولتين حداً دولياً على طول امتداد نهر تركوبل وبذلك ضمت لأوغندا معظم منطقة قبائل السولا ولازالت هذه المنطقة تعاني من الإضطرابات بسبب تقسيم أراضي القبائل بشكل غير مناسب⁽³⁾.

هـ. وضعت الحدود بين أحد روافد نهل النيل بمنطقة هضبة البحيرات وهو بحر الغزال وروافد

(1) علي أحمد هارون، مرجع سابق، ص 279.

(2) فتحي محمد أبوعيانة، جغرافية أفريقيا، مرجع سابق، ص 48.

(3) فليب رفة وعزالدين فريد، جغرافية العالم السياسية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1982، ص

نهر الكونغو على خط تقسيم المياه، لكن أراضي قبيلة الأزاندي تضم المنطقة كلها أي أن جزءاً منها بروافد نهر النيل والقسم الآخر داخل الأراضي التي يجري بها أحد روافد نهر الكونغو مما أدى إلى تقسيم أراضي هذه القبيلة⁽¹⁾.

و. جاءت الحدود في غرب أفريقيا بساحل غانا وبالتحديد جمهورية سيراليون غير متماشية مع الأوضاع القبلية ووحدة أصولها ولا مع طبوغرافية الأرض حيث قُسمت أراضي قبال الماندي والسوسو بين سيراليون وجارتها غينيا في الشمال والشرق وليبيريا في الجنوب⁽²⁾.

ز. تتمشى حدود دولتي الكونغو (زائير) والجابون مع نهر الكونغو حيث لا يفصل بين برازفيل وليوبولدفيل غير مجرى النهر⁽³⁾.

4. **المشكلات الاقتصادية الناتجة عن الحدود الاستعمارية:** أمكن إبراز أهم المشاكل الاقتصادية في الآتي:

أ. تسبب استقلال بعض البلدان الأفريقية على مساحة صغيرة من القارة في وضع اقتصادي غير مناسب حيث أصبحت هذه البلدان منهكة الاقتصاد نظراً لعدم تكامل مواردها الطبيعية ومقوماتها الاقتصادية وعدم قدرتها على الإيفاء بمتطلبات شعوبها، وكان في عهد الاستعمار كجزء مترابط مع بقية المنطقة الموجودة بها لعدم وجود حدود، وبهذا الوضع أصبحت هذه البلدان عالة على البلدان المتقدمة في الحصول على المساعدات، مما أدى إلى توفير مناخ ملائم لتدخل الدول الأوروبية اقتصادياً في شكل شركات وهو ما يعرف بالاستعمار الجديد للقارة والأمثلة على هذه الدويلات كثيرة بأفريقيا وهذا ما ساهم في طول الحدود الأفريقية أيضاً فالقارة تزيد أطوال حدودها عن قارة آسيا وهي أكبر منها مساحة.

(1) المرجع نفسه، 260.

(2) نفس المرجع السابق، ص 260.

(3) يسرى الجوهري وناريمان درويش، الجغرافيا السياسية والمشكلات الدولية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1989، ص 179.

ب. هناك الكثير من البلدان الأفريقية التي لا تمتلك سواحل بحرية غنية بمواردها الطبيعية والزراعية المتنوعة، ولكنها تواجه صعوبات في استغلالها وتجارتها لخضوعها للعبور لدول أخرى كما أن الأيدي العاملة اللازمة للإنتاج قد لا تتوفر بها بالقدر الكافي ولذلك يضطر العمال من الدول المجاورة إلى الهجرة إليها أو عبور الحدود وهي عملية تستغرق الكثير من الوقت والإجراءات المعقدة مما يؤدي إلى عرقلة الإنتاج بهذه البلدان والتخلف الاقتصادي ومن أمثلتها مالي، وتشاد والنيجر وأفريقيا الوسطى وروندا وبورندي وغيرها⁽¹⁾.

ج. نتيجة لقيام دولتي ليبيريا وسيراليون إلى الجنوب من غينيا فقد أصبح جنوب شرق غينيا معزولاً عن باقي الدولة في الغرب نتيجة لوجود خط سكة الحديد في الغرب وهو أقرب إلى ساحل المحيط الأطلسي، وهذه مشكلة اقتصادية سببها الحدود المصطنعة من قبل الاستعمار دونما حساب لمصلحة الأفارقة⁽²⁾.

5. **المشكلات المتعلقة بعدم استقرار الحدود:** قد تتفق الحدود السياسية مع الظواهر الطبيعية وأحياناً لا تقيم وزناً لتلك المناطق الجغرافية الطبيعية، والمناطق الحدية سواء أكان طابعاً طبيعياً أم دينياً أم لغوياً أم جنسياً لا يمكن نقله إنها قد يتغير طابعها وقد تفقد كثيراً من وظيفتها الحدية، ولكنها يجب أن تظل في مكانها الأصلي، وأما الخطوط الحدية فعلى النقيض من ذلك لا يمكن أن تكون غير متحركة على الإطلاق⁽³⁾، انظر الخريطة رقم (3) والخريطة رقم (4) لمقارنة تغير الحدود بعد إكمال السيطرة الاستعمارية على القارة.

(1) فيليب رفة وعزالدين فريد، جغرافية العالم السياسية، مرجع سابق، ص 275.

(2) المرجع نفسه ص 95.

(3) S. B. Jones, Boundary Making, Washington. 1945.

خريطة رقم (3)

مناطق النفوذ الأجنبي في أفريقيا

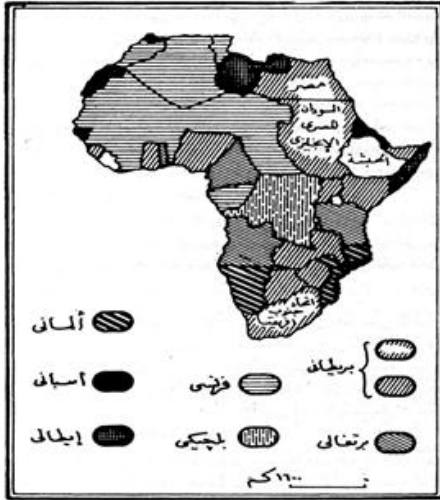
سنة 1880



خريطة رقم (4)

مناطق النفوذ الأجنبي في أفريقيا

سنة 1914



المصدر: فتحي محمد أبو عيانه، جغرافية أفريقيا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2013، ص 49.

واستناداً إلى هذا القول فإن الكثير من الحدود الإفريقية غير ثابتة بل ينتابها التغيير لعدد الأسباب سواءً منها السياسية أو الاقتصادية أو السكانية لعل أبرزها بقارة أفريقيا الآتي:

1. مشكلة الحدود بين السودان وكينيا: تتلخص هذه المشكلة في الأراضي المتنازع عليها بالمثلث المشترك بين السودان وكينيا عند التقاء الحدود للدول الثلاث. وتبلغ مساحة هذا المثلث الذي أطلق عليه مثلث إليمي (Elemi) 2460 كم²، وقد بدأ النزاع بين السودان وكينيا حول هذا المثلث منذ عام 1938 عندما قررت بريطانيا التي كانت تستعمر الدولتين في ذلك الوقت منح السلطة الإدارية على هذه المنطقة لكينيا، بالرغم من تأكيد بريطانيا قبل ذلك أن هذا الجزء

يقع ضمن الأراضي السودانية⁽¹⁾.

وبعد استقلال الدولتين ظهر هذا الإقليم في الخرائط الرسمية لكل منهما وكانت السودان قد استقلت عام 1956 وكينيا 1963 فبدأت حدة النزاع تزداد بينهما خاصة بعد إتهام السودان لكينيا بمساعدة الانفصاليين في جنوب السودان، وتأزم الموقف عام 1988 عندما نشرت كينيا خريطة جديدة تضمنت هذا المثلث مع زيادة في مساحته حيث أصبحت 6225 كم²، وأعلنت السودان أنها ستلجأ إلى القانون الدولي للمطالبة بحقوقها لأنها تملك الوثائق المؤيدة لذلك مع تمسك كينيا به أيضاً، خاصة عندما تولى عمر البشير الحكم في السودان بعد الصادق المهدي حيث أعلن أنه سوف يقدم الدعم للمعارضة الكينية ومازالت المشكلة قائمة⁽²⁾.

2. **مشكلة الحدود بين مصر والسودان:** لم تكن هناك مشاكل حدودية بين مصر والسودان منذ أقدم العصور على اعتبار وحدة وادي النيل، ولم تكن هناك مراقبة للتجارة سواء بالنسبة للطريق الشرقي عبر الصحراء الشرقية (شرق النيل) أو درب الأربعين وهو الطريق عبر الصحراء الغربية (غربي النيل) وهو الرابط بين الواحات الداخلة ودار فور حتى عام 1820 عندما ضم محمد علي حاكم مصر السودان إلى مصر، واعترف السلطان العثماني آنذاك بسلطة والي مصر على السودان أيضاً، وذلك في فرمان السلطاني الصادر في 27 مايو 1866، الذي يقضي باندماج السودان ومصر في دولة واحدة، واستمر الوضع على هذا الحال في العهد العثماني⁽³⁾.

وأثناء الثورة المهديية اضطرت مصر إلى إخلاء مديريات السودان ما عدى مديرتي حلفا وسواكن، ولم يترتب على هذا أي آثار سياسية تتعلق بالحدود، كما اعترفت بريطانيا بأن السودان يشكل جزءاً من الأراضي المصرية، ولكن بعد هزيمة الثورة

(1) علي أحمد هارون، مرجع سابق، ص 255.

(2) علي أحمد هارون، مرجع سابق، ص 255.

(3) المرجع نفسه، والصفحة.

المهدية أخذت بريطانيا تعمل على تقليص الحدود المصرية ناحية الشمال، وتؤكد ذلك في اتفاقية بين مصر وبريطانيا عقدت في 19 يناير 1899 أي بعد احتلال بريطانيا لمصر وقد نصت الاتفاقية على أن يُطلق اسم السودان على الأراضي الواقعة جنوب خط عرض 22° شمالاً الذي ظل ساريًا حتى الآن، ولكن هذا الخط لم يكن له أي دلالة قانونية أو سياسية بل هو خط يمثل فاصلاً إدارياً فقط حتى عام 1914، عندما آلت السيادة لمصر على كل السودان، وتؤكد هذا أيضاً في معاهدة لوزان 1923 والتي تخلت فيها تركيا عن كل حقوقها فيما كان يعرف بالولايات التابعة للدولة العثمانية مثل ذلك⁽¹⁾.

ولكن هذا الوضع تغير بعد عام 1956 وهي السنة التي استقل فيها السودان عن بريطانيا، ومنذ ذلك التاريخ تحول خط 22° شمالاً إلى حد سياسي دولي بالمعنى القانوني، وقد أُجريت عدة تعديلات على الحدود فيما بعد، وعندها بدأ الخلاف بين الدولتين، خاصة بعد أن رأت مصر ضم قبائل المنطقة ضمن حدود إدارية واحدة أي أن تصبح القبائل التي أراضيها على جانبي الحدود داخل حدود دولة واحدة، ومنها قبائل البشارية، حيث أن البعض من سكان هذه القبائل يسكنون جبل غلبة والمناطق المجاورة شمال شرق خط الحدود، وبناءً على ذلك أصدر وزير الداخلية المصري قراراً إدارياً في 14 نوفمبر 1952 بتعديل الحدود في منطقة جبل غلبة أو ما يعرف بمنطقة الحلايب التي تبلغ مساحتها 12500 كم² وهي منطقة جبلية غنية بثرواتها المعدنية وإمكاناتها الزراعية، وكذلك منطقة وادي حلفا التي يمر بها وادي النيل وهي بلدة حدودية وأغلب سكانها بالأراضي المصرية وأكبر مساحة من الأراضي الزراعية حولها تقع في الشمال وبضغط من الحكومة البريطانية تم ضم منطقة شمال حلفا إلى الأراضي السودانية إلى مسافة 25 كم تقريباً شمال خط 22 وبهذا القرار في 26 مارس 1866 تخلت مصر عن 4000 فدان من الأراضي الزراعية وحوالي 13000 نسمة من السكان، ولكن هذه المنطقة قلت أهميتها بعد

(1) نفس المرجع السابق، ص 246.

تحتل ليبيا ووجود فرنسا في تشاد وتبلغ مساحة هذا القطاع 114,000 كم² و تم هذا التنازل بموجب معاهدة "لا فال يوسليني" والتي سميت رسمياً "معاهدة روما لتنظيم المصالح الإيطالية والفرنسية بأفريقيا" في يناير 1935 والتي نصت على تنازل فرنسا لإيطاليا عن واحة أوزو وبعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة إيطاليا تنازلت عن حقها في المطالبة بحقوقها في مناقشة مصير مستعمراتها بأفريقيا ومنها ليبيا، وفي عام 1950 أصدرت الأمم المتحدة القرار رقم 192 الذي نص على أن تحديد حدود ليبيا باعتبارها من المستعمرات الإيطالية يتم من خلال المفاوضات بين ليبيا وفرنسا التي تحتل تشاد في ذلك الوقت، وتم توقيع معاهدة صداقة وحسن جوار بين فرنسا وليبيا في عام 1955 جاء فيها: "إن الحدود التي تفصل بين ليبيا وتشاد هي المنصوص عليها وقت استقلال المملكة الليبية"⁽¹⁾.

وبذلك اعتبر قطاع أوزو ضمن الأراضي التشادية، ولكن ليبيا لعدة اعتبارات رأت أن هذا القطاع يتبع الأراضي الليبية انطلاقاً من مرجعية فترة الجهاد حيث تركز بها السنوسيون لممارسة نشاطهم الديني والسياسي وانضم إليهم التبو والقرعان والزغاوة وأولاد سليمان وغيرهم إلى أن تم سقوط المنطقة في أيدي الفرنسيين عام 1913⁽²⁾.

وتدخلت القوات الليبية لضم هذا القطاع عام 1973 فاحتجت تشاد وبمساعي من منظمة الوحدة الأفريقية وبعض البلدان العربية اتفق الطرفان على أن تحل المشكلة بالوسائل السلمية بين الطرفين، حيث تم الاتفاق بينهما في أغسطس عام 1989 بالجزائر أن يطرح الخلاف على محكمة العدل الدولية في حالة فشل الحوار بالطرق السلمية وتم تشكيل لجنة بين الطرفين ولكن دون جدوى لاختلاف وجهات النظر بين الطرفين واجتمعت اللجنة في ليرفيل عاصمة الجابون عام 1995 انتهت إلى تشكيل لجنة فرعية لتخطيط الحدود بقطاع أوزو ولكن لم تخرج اللجنة بقرار يرضي الطرفين فلم يكن هناك بد من عرض المشكلة على محكمة العدل الدولية وتم إحالتها بالفعل في قمة ليبية تشادية عام 1995

(1) نفس المرجع السابق، ص 256.

(2) المرجع نفسه، والصفحة.

وبعد سقوط نظام حسين حبري في ديسمبر من السنة نفسها تحسنت العلاقات بين الطرفين وصدر قرار المحكمة لصالح تشاد وانتهت المشكلة بين الدولتين⁽¹⁾، انظر الخريطة رقم (6).

خريطة رقم (6)

أفريقيا السياسية سنة 2000



المصدر: فتحي محمد أبو عيانة، جغرافية أفريقيا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2013، ص 47.

(1) علي أحمد هارون، مرجع سابق، ص 256 - 257.

النتائج

من خلال العرض السابق يمكن إبراز النتائج الآتية:

كان وضع الحدود الأفريقية بهذا الشكل المحصلة النهائية لاقتسام مناطق النفوذ بالأراضي الأفريقية.

وُضعت الحدود بشكل سريع دونما مراعاة للأوضاع الطبيعية أو الأنتوجرافية الاجتماعية. لم تراعى مصلحة الأفارقة أثناء تقسيم أراضي القارة، بل كانت استجابة لرغبات وأهواء ومصالح المستعمرين، مثال ذلك شريط كابريقي بناميبيا المستعمرة الألمانية وهو شريط ضيق للوصل بين هذه المستعمرة في غرب القارة والمستعمرات الألمانية في الشرق وتكوين دولة غامبيا بوسط السنغال تمشياً مع حوض نهر غمبيا.

ظهرت أشكال بعض الدول الأفريقية طويلة متجهة من الساحل إلى الداخل مثل بعض دول ساحل غانا كالتوجو وغمبيا وغانا وغيرها لأن تمركز المستعمرين كان في البداية على نقاط ساحلية ثم توغلوا إلى الداخل للبحث عن الثروات المختلفة واستغلالها عبر الموانئ على السواحل.

ظهرت نتيجة لاقتسام مناطق النفوذ العديد من البلدان الأفريقية الحبيسة أو الداخلية التي لا سواحل لها يفوق عددها عدد البلدان الداخلية بقارة آسيا رغم كبر مساحة الأخيرة، وأدى هذا إلى صعوبة استغلال موارد تلك البلدان لعدم وجود موانئ خاصة بها، وبعد المسافة عن السواحل فدولة مثل روندا أو بورندي يزيد بعدها عن الساحل أكثر من 1000 كم. أدى اقتسام أراضي القارة بهذا الوضع إلى وجود الكثير من الدويلات صغيرة المساحة قليلة الإمكانيات ليس لها مقومات الدولة مثل غامبيا وملايو وليسوتو وغيرها.

كانت معظم المشكلات بين البلدان الأفريقية ناتجة عن عدم المعرفة بالأراضي القبلية في القارة فكثيراً ما قُسمت أراضي القبيلة الواحدة بين أكثر من دولة في معظم مناطق القارة. استُغلت الأنهار كعامل فصل بدل أن تكون عامل وصل بين البلدان الأفريقية والأمثلة على ذلك كثيرة بالقارة مثل نهر السنغال الذي يفصل بين السنغال وموريتانيا شمالاً ونهر

الكونغو والزمبيزي وغيرهما.

تبين من شكل الحدود بين البلدان الأفريقية أن أكثر من ثلثها عبارة عن خطوط مستقيمة تتماشى مع خطوط الطول أو دوائر العرض وهي من أسوأ أنواع الحدود وخاصة بالنسبة للقبائل التي تعيش على حرفة الرعي مما سبب في الكثير من النزاعات بين القبائل التي لا تعرف أي معنى للحدود.

جاء اتحاد بعض البلدان الأفريقية في دولة واحدة بعد الاستقلال كدليل على أن الحدود الاستعمارية لا تخدم مصالح الأفارقة وأنها اعتبارية وغير دقيقة مثل دولتي روديسيا الشمالية والجنوبية المنظمة في دولة واحدة وهي زيمبابوي وتزانيا التي تكونت باتحاد تنجانيقا وزنجبار وغيرهما الكثير.

التوصيات

بناءً على ما تم التوصل إليه من نتائج يمكن اقتراح التوصيات الآتية:

بالنظر إلى انتهاء الحقبة الاستعمارية منذ ما يقرب من قرن من الزمان لبعض البلدان فإن على البلدان الأفريقية تعديل حدودها السياسية وفق مصالحها وعلى أساس ما جد من تغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية بالقارة على أساس من الاحترام المتبادل ومبادئ الوحدة الأفريقية والقانون الدولي.

إعادة النظر في الحدود السياسية التي لا تتماشى والواقع الأنتوجرافي في القبائل الأفريقية التي تمزقت أراضيها بين عدة بلدان بشكل يرضي كل الأطراف قدر الإمكان، والمقصود هنا الحدود الهندسية.

إعادة تخطيط الحدود في إطار مصلحة كل الدول الأفريقية وللتقليل قدر الإمكان من الدول الحبيسة التي لا سواحل لها مع مراعاة الشكل المقبول للبلدان الأفريقية.

دمج بعض البلدان الأفريقية التي لا تتوفر لها المقومات الأساسية للدولة من حيث الرقعة الجغرافية وعدد السكان بشكل توافقي وبموافقة الأطراف المعنية بالأمر مراعاةً لمصلحة كل البلدان المشتركة في الحدود مع تلك الدول.

العمل على استغلال الأنتهار كعامل وصل بين البلدان الأفريقية وليس كعامل فصل تبادياً للمشاكل بين البلدان الأفريقية واستغلال الأنتهار كشرابين للنقل والتبادل التجاري.

المراجع

المراجع العربية:

- علي أحمد هارون، أسس الجغرافيا السياسية، دار الفكر العربي، ط2، القاهرة، 2003.
- فتحي محمد أبوعيانة، جغرافية أفريقيا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2013.
- فليب رفة وعزالدين فريد، جغرافية العالم السياسية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1982.
- فيليب رفة وعزالدين فريد، الجغرافيا السياسية لأفريقيا، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، 1965.
- يسري الجوهري، وناريمان درويش، الجغرافيا السياسية والمشكلات الدولية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1989.

المراجع الأجنبية:

S. B. Jones, Boundary Making, Washington. 1945.

الحياة السياسية لقبائل لواته في منطقة مسلاته وظهيرها خلال العصر الوندالي (455 م - 533 م)

د. عياد مصطفى محمد اعبيليكة¹

مقدمة

تعتبر قبيلة لواته من أقوى القبائل الليبية وأكثرها انتشاراً في ليبيا، حيث تمكنت هذه القبيلة منذ أواخر القرن الثالث الميلادي من السيطرة على المنطقة الوسطى بين المدن الثلاث والجنوب، واستطاعت التحكم في الطرق التجارية التي كانت تعتمد عليها هذه المدن في حياتها الاقتصادية، مما أدى إلى تهديد إمدادات روما من القمح، كما أنها تمكنت من السيطرة على الوديان والجبال والسهول القريبة من مدينة لبدّة الكبرى وأخذت تشن غاراتها على هذه المدينة واستطاعت هزيمة الوندال في العديد من المعارك التي خاضتها معهم، وكان لها الفضل في القضاء على الوجود الوندالي في إقليم المدن الثلاث، الأمر الذي جعل البيزنطيين يسيطرون عليها بكل سهولة.

وكانت رغبة الباحث في دراسة التاريخ القديم دافعاً له في اختيار هذا الموضوع المعنون بـ(الحياة السياسية لقبائل لواته في منطقة مسلاته وظهيرها خلال العصر الوندالي 455م-533م) وخاصةً أن هذه القبائل هي التي حررت هذه المنطقة من السيطرة الرومانية منذ أواخر القرن الثالث الميلادي، وأضعفت الوجود الوندالي في الإقليم خلال الربع الأول من القرن السادس الميلادي، بالإضافة إلى إظهار الحقائق التاريخية لمعرفة أماكن انتشارها، وأحداث المعارك التي دارت بينها وبين الوندال والنتائج التي ترتبت عليها، وقد اتبع الباحث في هذه الورقة البحثية المنهج السردى التاريخي التحليلي في صياغة المادة العلمية والتي شملت العناصر الآتية:

¹ - عضو هيئة تدريس بقسم التاريخ، كلية الآداب - الخمس، جامعة المرقب.

أولاً: مقدمة جغرافية وسياسية.

ثانياً: قبائل لواته ومناطق استقرارهم في إقليم المدن الثلاث.

ثالثاً: مقاومة قبائل لواته للوجود الوندالي.

أولاً: مقدمة جغرافية وسياسية:

تقع مدينة مسلاته في شمال غرب ليبيا عند نهاية الحافة الشمالية الشرقية للجبل الغربي، وتبعد عن سواحل البحر المتوسط بحوالي 15 كم، ويحدها شمالاً منطقة الخمس، ومن الجنوب الشرقي منطقة زليتن، وجنوباً منطقة ترهونة، وتمتد غرباً حتى منطقة القره بوللي، كما أنها تقع بين خطي طول 13 49 ° - 14 14 شرقاً، ودائرتي عرض 25 32 ° - 32 36 شمالاً، وتقدر مساحتها بحوالي 90 كم²، ويطلق على مركز مدينة مسلاته القصبات أحياناً⁽¹⁾.

وتنخفض المرتفعات الساحلية للجبل الغربي كلما اتجهنا إلى الجنوب الشرقي حتى تصل إلى 1000 قدم في منطقة مسلاته⁽²⁾، ثم يأخذ سطح الأرض في الارتفاع تدريجياً نحو الداخل، وتتكون منه منحدرات وعرة تقطعها أودية كثيرة تتحدر نحو الساحل، والتي من أهمها وادي كينيبس (كعام)، الذي يسير القسم الأعلى من مجراه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي تقريباً، ثم ينحرف نحو الشمال الشرقي حتى ينتهي في البحر بالقرب من زليتن، ويبلغ طوله حوالي 80 كم⁽³⁾.

ويعتبر المؤرخ الإغريقي هيرودوت أول من ذكر هذا الوادي في سياق حديثه عن قبيلة الماكاي (Makai) عندما يقول: ((يجري نهر كينيبس عبر أرض الماكاي وهو ينبع من التل المسمى خاريتون (تل الحسان) ويصب في البحر، ويكون تل خاريتون هذا

(1) المهدي صالح المهدي بن صالح، التحليل المكاني للإنتاج الزراعي والحيواني في منطقة مسلاته، رسالة ماجستير غير منشورة، 2005، ص 25.

(2) إبراهيم رزقانه، محاضرات في جغرافية ليبيا، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العالية، 1964، ص 7.

(3) عبد العزيز طريح شرف، جغرافية ليبيا، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 1996، ص 36.

مغطى بغابات كثيفة⁽¹⁾، ويرى بعض الباحثين: أن تسمية تل خاريتون (تل الحسان)، كانت تطلق قديماً على مسلاته⁽²⁾.

ومن الأودية المهمة الأخرى وادي لبدة الذي تأتي إليه المياه من المنحدرات الجنوبية لمنطقتي مسلاته وترهونة، ويجري حتى يصب في البحر عند ميناء لبدة الكبرى الأثري، وقد استفاد الرومان من مياهه في ري مزارعهم، وتزويد مدينة لبدة بها⁽³⁾، ولعل ما يؤكد ذلك السدود وخزانات المياه الفينيقية والرومانية، التي مازالت آثارها موجودة حتى الآن على جانبي مجرى الوادي⁽⁴⁾.

ويرى بعض الباحثين: أن فيضانات وادي لبدة هي السبب الرئيس في ردم ميناء لبدة القديم بالرمال، بعد إهمال الرومان للسدود التي كانت تنظم تلك الفيضانات⁽⁵⁾. كما أطلق قديماً اسم مسيفي (Mesphe) على مدينة دوغة التي تقع جنوب مدينة مسلاته، وكانت في العصر الروماني من أهم محطات الطرق التجارية التي تبعد حوالي 40 ميلاً رومانياً عن مدينة لبدة الكبرى⁽⁶⁾، ولعل السبب في ذلك وجود عدة ينابيع دائمة الجريان في عين دوغة⁽⁷⁾. التي تزود التجار وحيواناتهم بالمياه، كما أنها أصبحت

(1) هيرودوت، الكتاب الرابع من تاريخ هيرودوت، الكتاب السكيثي والكتاب الليبي، ت. محمد المبروك الذويب، منشورات جامعة قارونس، بنغازي، ط1، 2003، ص120.

(2) عبد السلام محمد شلوف، الأسماء القديمة للمدن والقرى الليبية، دار هانبيال للنشر والتوزيع، ط1، 2002م، ص59.

(3) عبد العزيز شرف، مرجع سابق، ص36.

(4) أحمد محمد انديشة، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته، ط1، 1993، ص141.

(5) عبد العزيز شرف، مرجع سابق، ص37.36.

(6) أحمد محمد انديشة، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث، ص224.

(7) جودتشايلد، دراسات ليبية، ت. عبد الحفيظ الميار، مطابع المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية، حلب، 1999، ص133.

المركز الإداري المحلي لهضبة ترهونة طيلة العصر الروماني⁽¹⁾.

ثانياً: قبائل لواته ومناطق استقرارهم خلال العصر الوندالي:

كانت قبائل لواته من أهم القبائل الليبية وأكثرها عدداً خلال العصر الوندالي، ولعل السبب في ذلك هو تعدد الزوجات عند رجال هذه القبائل، حيث أورد المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس الذي عاش خلال القرن السادس الميلادي تهديد القائد البيزنطي في مدينة لبدة الكبرى لرؤساء القبائل الليبية بقتل رهائنهم الذين بحوزته، فردوا على تهديده بقولهم: ينبغي عليك أنت أن تقلق بشأن أولادك، لأنك لا تستطيع الزواج من أكثر من واحدة، أما نحن ففي استطاعة الواحد منا أن يتزوج أكثر من خمسين زوجة إن رغب في ذلك، فنحن لا نخشى انقطاع ذريتنا، وبالرغم من المبالغة خاصة في عدد الزوجات، ولكنه يؤكد حقيقة تعدد الزوجات عند الليبيين⁽²⁾. والتي يرجح أن الغرض الأساسي منها هو إنجاب أعداد كثيرة من الأبناء الذين كانت تعتمد عليهم القبيلة في حروبها ضد أعدائها.

ويذكر بعض الباحثين: أن قبائل لواته هاجرت من مواطنها الأصلية في الشرق، واندفعت غرباً حتى استقرت في مناطق الوديان الخصبة بين مدينة لبدة الكبرى والجنوب في القرن الثالث الميلادي، مما أدى إلى قطع الطرق التجارية بين المدن الثلاث والجنوب، وبذلك هددت قبائل لواته إمدادات روما من القمح، وبعض السلع المهمة من أفريقيا، وقد أثر ذلك على الحياة الاجتماعية والاقتصادية لمدينة لبدة الكبرى، مما دفع الإمبراطور ماكسيميان (Maximian - 286م - 305م) إلى محاربتهم في موقعة غير حاسمة في عام 298م، وهذا ما أكده فلقبيوس كورييوس في ملحمة الحرب الليبية الرومانية، حيث ورد فيها تهديد لماكسيوس (Maccus)⁽³⁾ قال فيه: "ألم تسمع بذلك

(1) المرجع نفسه، ص 140.

(2) نقلاً عن: أحمد محمد انديشة، الحياة الاجتماعية في المرافئ الليبية وظهيرها في ظل السيطرة الرومانية، منشورات جامعة التحدي، سرت، ط 1، 2008، ص ص 146-147.

(3) ماكسيوس: هو أحد الرسل الذين يجيدون التحدث باللغة اللاتينية، ويعتبه القائد الليبي جونفاين أنتالاس (3) أنتالاس (Guenfeian Antalas) إلى القائد الروماني يوحنا تروجليتا (John Troglita) قائد

الدمار الذي لحق بقائدك في تلك الحروب؟ ... هل تتجاسر الآن على مهاجمة أمم لا تقهر؟ ألسنت تعرف بأس لواته في الحرب هؤلاء الذين يعرف القاسي والداني شهرتهم القديمة والأبدية، هؤلاء الذين كان الإمبراطور الروماني (ماكسيميان) يعرف أسلافهم حق المعرفة⁽¹⁾.

ولعل ما يؤكد ذلك ما حدث من تجديد لحصون المدن الساحلية خلال تلك الفترة⁽²⁾، بالإضافة إلى ظهور المزارع المحصنة التي جلبت بعض موادها من المباني القديمة منذ منتصف القرن الثالث الميلادي⁽³⁾، وكانت في السابق غير محصنة، وخاصة في المنطقة الممتدة بين مدينة لبدة الكبرى ومسيقي، التي تدل آثارها على السلام الذي يسود هذه المنطقة قبل قدوم هذه القبائل⁽⁴⁾.

ومن المرجح أن سبب اضمحلال لبدة الكبرى راجع إلى استمرار قبيلة لواته في الوسط، وسيطرتها على الطرق التجارية المتجهة نحو الجنوب، بعد أن نزعت منها أي أثر للسلطة الرومانية⁽⁵⁾، وأصبح اللواتيون يسكنون بجوار مدينة لبدة الكبرى وتحيط منازلهم بها وينتشرون في الأودية والمرتفعات القريبة منها⁽⁶⁾، ويقومون بمهاجمة المدن الساحلية، وخاصة مدينة لبدة الكبرى⁽⁷⁾، ونستدل من هذا الكلام على أن القبائل الليبية استطاعت السيطرة على المنطقة الوسطى بين مدينة لبدة الكبرى والجنوب، التي كان نتيجتها تقليص

القوات البيزنطية لشمال أفريقيا في زمن الإمبراطور جستنيان يحمل إليه تهديداً لسحب قواته. فلفيوس كوريبوس، مصدر سابق، ص 39.

(1) فلفيوس كوريبوس، المصدر السابق، ص 40.

(2) أحمد محمد انديشة، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث، ص 106.

(3) جودتشايلد، مرجع سابق، ص 88.

(4) أحمد محمد انديشة، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث، ص 207.

(5) محمد الطاهر الجارري، مرجع سابق، ص 19.

(6) محمد مصطفى بازامة، تاريخ ليبيا في عهد الخلفاء الراشدين، ج 8، القسم الأول، دار الكتب بيروت، 1972، ص 29.

(7) محمد الطاهر الحراري، مرجع سابق، ص 19.

النفوذ الروماني فيها حتى صار مقتصراً على الشريط الساحلي داخل مدنهم المحصنة⁽¹⁾، ومن أهم هذه المناطق التي سيطرت عليها قبائل لواته منطقة مسلاته، منذ النصف الأخير من القرن الثالث الميلادي، واستمرت سيطرتهم على هذه المنطقة خلال العصر الوندالي.

ولعل ما يؤكد ذلك ما ذكره جودتشايلد عندما يقول: أن معظم الأبنية المحصنة الموجودة في منطقة التخوم للمدن الثلاث، التي قدمت أمناً لسكانها قد توقفت خلال العصر الوندالي⁽²⁾، مما أدى إلى زيادة سيطرة ونفوذ قبائل لواته على هذه المنطقة خلال هذا العصر⁽³⁾، ويرى بعض الباحثين: أن الفوضى وانتشار أعمال العنف التي سادت إقليم المدن الثلاث خلال العصر الوندالي بعد انهيار النظام الروماني الذي كان سائداً في ذلك الوقت أدت إلى إحياء السكان الوطنيين للنظام القبلي والذي اعتادت عليه القبائل الليبية قبل السيطرة الرومانية على الإقليم⁽⁴⁾.

ويقول علي فهمي خشيم إن كلمة مسلاته تعني أولاد أو بني لواته لأنها تنقسم إلى قسمين وهما مس وتعني في اللغة الليبية القديمة ابن أو ولد، و لاته تعني قبائل لواته⁽⁵⁾، ولهذا أرجح أن اسم لواته الذي يطلق على إحدى مناطق مسلاته يرجع أصله إلى هذه القبائل التي انتشرت في هذه المنطقة خلال تلك الفترة، كما أرجح أيضاً رأي علي فهمي خشيم بأن اسم مسلاته اشتق لفظه من قبيلة لواته، نظراً لمدى تقارب اللفظين في النطق، ووجود جميع حروف كلمة لواته في كلمة مسلاته ما عدا حرف الواو.

(1) المرجع نفسه، ص 12.

(2) جودتشايلد، مرجع سابق، ص 88.

(3) محمد الطاهر الجاروي، مرجع سابق، ص 20.

(4) عبد اللطيف البرغوثي، مرجع سابق، ص 446.

(5) علي فهمي خشيم، رحلة الكلمات (الرحلة الأولى)، مركز الحضارة العربية، ط2، 2001، ص 74.

رابعاً: مقاومة قبائل لواته للوجود الوندالي:

جاء الوندال بجيش كبير إلى مدينة لبدّة الكبرى بعد سيطرتهم على مدينة قرطاجة، وتمكنوا من السيطرة عليها بكل سهولة في سنة 455م⁽¹⁾، وقاموا بهدم أسوارها للحيلولة دون استفادة القبائل الليبية منها في حالة قيامها بثورة ضد حكمهم، وقد اتبع الوندال في بداية سيطرتهم سياسة تختلف عن الرومان مع السكان المحليين في مصادقة القبائل الليبية، ومشاركتهم في الأسلاب التي حصلوا عليها من الممتلكات الرومانية⁽²⁾، كما قاموا بتخصيص بعض الأراضي التي سيطروا عليها من الرومان على زعماء القبائل الليبية⁽³⁾.

وقد ترتب على ذلك قيام علاقات سلمية بينهم مادامت القبائل الليبية مستفيدة منهم، ولكن هذه العلاقات لم تستمر طويلاً وخاصةً بعد موت الملك الوندالي جنسريك سنة 477م، وتولى الملك ترانساموند (Transamund) الحكم الذي اتبع سياسة معادية للقبائل الليبية فقامت هذه القبائل بمقاومة الوجود الوندالي وخاضت العديد من المعارك معهم، والتي كان من أهمها المعركة التي كان يقودها كاباون (Cabaon)⁽⁴⁾ الذي أمر جنوده بمراقبة الوندال الذين يلاحظون تحركهم في اتجاه المدن الثلاث واقتفوا أثرهم حتى اقترب الوندال من قبائل المور، فسبقوهم إلى كاباون وأخبروه بما فعله الوندال وأنهم ليسوا بعيدين عنهم، وعندما علم كاباون بذلك قام بوضع جماله منحرفة بجوانبها تشكل دائرة كبيرة وجعلها في اتجاه العدو، ثم وضع الأطفال والنسوة والعجزة مع ممتلكاتهم وسط الدائرة، وأمر رجاله المحاربين بأن يقفوا بين أقدام الجمال، وعندما وصل الوندال إلى دائرة الجمال حرنت خيولهم بعد أن أزعجها منظر الجمال وأبت أن تتقاد في اتجاههم، وفي هذه

(1) ماتينغلي، منطقة طرابلس في العهد الروماني، ت. محمد الطاهر الجراري، محمد عبد الهادي حيدر، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، 2009م، ص 221.

(2) عبد اللطيف البرغوثي، التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي، دار صادر، بيروت، ط 1، 1971م، ص 445 - 448.

(3) محمد مصطفى بازامة، مرجع سابق، ص 26.

(4) عبد اللطيف البرغوثي، مرجع سابق، ص 446 - 448.

الأثناء قام جنود كاباون برميهم بالسهم والنبال التي قتلت منهم أعداد كبيرة، ولاذ البقية بالفرار⁽¹⁾، ويرى بعض الباحثين أن قبائل الهيلاجواز هي التي تزعمت الثورة، ثم انضمت إليها أعداد كبيرة من قبيلة لواته التي كانت تنتشر في منطقة المدن الثلاث⁽²⁾، ومن المرجح أن هذه القبائل التي هزمت الوندال هي قبائل لواته استناداً إلى ما ذكره المؤرخ بروكوبيوس عندما يقول: تغلب المور الذين يدعون لواته على الوندال⁽³⁾، كما تمكنت هذه القبائل من هزيمة الوندال مرة ثانية في منطقة المدن الثلاث فيما بين سنة 527م وسنة 532م، والسيطرة فيها على مدينة لبدة الكبرى، وقامت بنهبها وهدم حصونها وإشعال النار فيها⁽⁴⁾.

واستمرت السيطرة الوندالية على إقليم المدن الثلاث حتى قامت ثورة ضدهم بقيادة أحد القادة الوطنيين يدعى بدنتيوس (Pudentus) وعندما وصلت أنباء هذه الثورة إلى القسطنطينية قام الإمبراطور جستنيان (Justinian - 527م - 565م) بإرسال قوة عسكرية صغيرة تحت قيادة تاتيموت (Latimutt) لمساندة بدنتيوس في الاستيلاء على الإقليم، وقد تمكنت هذه الثورة من السيطرة عليه بكل سهولة لأنه كان خالياً من القوات الوندالية، ومن المرجح أن هذه المدن لم تكن خالية من القوات الوندالية، ولكن لم توجد فيها القوة الكافية لمواجهة هذه الثورة المحلية، والتي استطاعت تحرير هذه المدن من السيطرة الوندالية⁽⁵⁾ ووقوعها تحت السيطرة البيزنطية سنة 533م⁽⁶⁾.

(1) عني فهمي خشيم، نصوص ليبية، دار مكتبة الفكر، طرابلس، ط2، 1975م، ص ص 188-190.

(2) عبد اللطيف البرغوثي، مرجع سابق، ص 449.

(3) نقلاً عن: علي فهمي خشيم، نصوص ليبية، ص 182.

(4) محمد مصطفى بازامة، مرجع سابق، ص ص 22 - 23.

(5) عبد اللطيف البرغوثي، مرجع سابق، ص ص 467-468.

(6) ماتينغلي، مرجع سابق، ص 421.

النتائج التي توصلت لها الدراسة للحياة السياسية لقبائل لواته في منطقة مسلاته وظهيرها خلال العصر الوندالي (455م - 533م)

استقرار قبائل لواته في مناطق الجبال والوديان والسهول الخصبة في المنطقة الممتدة بين مدينة لبدة الكبرى والجنوب منذ أواخر القرن الثالث الميلادي، بعد أن نزعت منها أي أثر للسلطة الرومانية، التي تقلص نفوذها حتى صار مقصوراً على الشريط الساحلي فقط.

تدهور أوضاع مدينة لبدة الاقتصادية بسبب سيطرة هذه القبائل على المنطقة الوسطى التي أدت إلى قطع الطرق التجارية بين مدينة لبدة الكبرى والجنوب، وبذلك هددت إمدادات روما من القمح، وبعض السلع المهمة التي كانت تأتيها من أفريقيا.

إن اسم مسلاته تعني أولاد أو بني لواته لأنها تنقسم إلى قسمين وهما: مس وتعني باللغة الليبية القديمة ابن أو ولد و لاته وتعني قبائل لواته.

قيام قبائل لواته بمهاجمة المدن الثلاث، وهزيمة الوندال في العديد من المعارك والاشتباكات، ومحاصرة مدينة لبدة الكبرى، وكانت الثورة التي قادها بدنتيوس لها الدور الأول في تحرير المدن الثلاث من السيطرة الوندالية وخاصةً مدينة لبدة الكبرى.

إحياء السكان الوطنيين للنظام القبلي بعد انهيار النظام الروماني، الذي كان سائداً في ذلك الوقت.

استخدام قبائل لواته الجمال في المعارك التي خاضتها ضد الوندال، لأن الخيول كانت تخشى الجمال ويدب الذعر في قلوبها مما يؤدي إلى سقوط الفرسان الوندال على الأرض فتكون سبباً في هزيمتهم.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً/ المصادر المعربة:

- فقيوس كريسكونيوس كوريبوس، ملحمة الحرب الليبية الرومانية، ت محمد الطاهر الجارري، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، 1988م.
- هيرودوت، الكتاب الرابع من تاريخ هيرودوت، الكتاب السكيثي والكتاب الليبي، ت محمد المبروك النويب، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط1، 2003م.

ثانياً/ المراجع العربية:

- إبراهيم رزقانة، محاضرات في جغرافية ليبيا، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العالية، 1964م.
- أحمد محمد انديشة، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته، ط1، 1993م.
- — ، الحياة الاجتماعية في المرافئ الليبية وظهرها في ظل السيطرة الرومانية، منشورات جامعة التحدي، سرت، ط1، 2008م.
- عبد العزيز طريح شرف، جغرافية ليبيا، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 1996م.
- عبد اللطيف محمود البرغوثي، التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي، دار صادر، بيروت، ط1، 1971م.
- علي فهمي خشيم، نصوص ليبية، دار مكتبة الفكر، طرابلس، ط2، 1975م.
- — ، رحلة الكلمات (الرحلة الأولى)، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط2، 2001م.
- محمد الطاهر الجارري (موقف القبائل الليبية من الحكم الروماني خلال القرن الثالث الميلادي)، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1998م.

- محمد مصطفى بازامة، تاريخ ليبيا في عهد الخلفاء الراشدين، ج8، القسم الأول، دار الكتب بيروت، 1972م.
- المهدي صالح المهدي بن صالح، التحليل المكاني للإنتاج الزراعي والحيواني في منطقة مسلاته، رسالة ماجستير غير منشورة، 2005م.

رابعاً/ المراجع الأجنبية المترجمة:

- جودتشايلد، دراسات ليبية، ت. عبد الحفيظ الميار، المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية، حلب، 1999م.
- ماتينغلي، منطقة طرابلس في العهد الروماني، ت. محمد الطاهر الجراري، محمد عبد الهادي حيدر، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، 2009م.

الحوار الوطني في تراث الثقافة السياسية الليبية تحت الاستعمار 1911 . 1922

دراسة في التقاطع والمسار التاريخي للتجربة الليبية في آليات الحوار وبناء السلم
وفض النزاعات

د. عز الدين عبد السلام العالم

مقدمة

تمتاز خبرة الحراك السياسي الليبي زمن الاستعمار بتجارب هامة للحوار الوطني منذ عام 1911 حتى الخمسينيات من القرن العشرين المنصرم ، وكانت الأزمات السياسية في ليبيا تدفع دائماً النخبة الاجتماعية والسياسية إلى طرح ما يتعرض له الوطن من أخطار على بساط البحث ليدور حوله حوار خصب ، تتوصل من خلاله أطراف الحوار إلى قرارات وطنية تعبر عن الإجماع الوطني غالباً ، وتمثل أحياناً الصيغة التوفيقية ، أو الحلول الوسطي التي يقبل بها أطراف الحوار ، وتخرج في أحيان أخرى في صورة برنامج عام محدد المعالم يتخذ دليلاً للعمل الوطني (1) .

ودارت أولى حلقات الحوار الوطني في التاريخ الليبي المعاصر في مطلع العقد الثاني من القرن العشرين للبحث عن مخرج لأزمة الاحتلال الإيطالي عام 1911 ، وأنتج ذلك الحوار مواقف متباينة من الازمة ، ثم كانت هناك جولة ثانية للحوار توصلت إلى إجماع وطني محدد ترجم إلى تبني إقرار نظام الجمهورية الطرابلسية عام 1918 ، وجاءت الجولة الثالثة للحوار الوطني عام 1920 ، للبحث عن مخرج لأزمة الخلافات بين قادة

¹ . لمراجعة شاملة لمفهوم الحوار والتجارب الإنسانية حوله ، أنظر : إبراهيم الشهاوي ، ثقافة التفاوض والحوار ، القاهرة : الشركة القومية للطبع والتوزيع ، 2009 ، ص ص 15 . 17 . 30 . 31 . 32 . 33 ، وللاطلاع على التجارب الليبية في الحوار الوطني ، أنظر الأعمال المنشورة حول مؤتمر سرت للسلام واللحمة الوطنية 1922 المنعقد في سرت بين 21 . 22 يناير 2013 تحت شعار عبق الماضي وآمال المستقبل ، برعاية جامعة سرت ، واتحاد مؤسسات المجتمع المدني ، سرت : جامعة سرت ، 2014 ، ص ص 35 . 122

الجهاد ، فكان مؤتمر غريان الذي اعتمد إطاراً للحوار الوطني ، وانتهي إلى تبني برنامج وطني ، وإقامة حكومة وطنية بعد عامين في سرت 1922 ومحاولة التوفيق بين قادة البلاد في طرابلس وبرقة لمواجهة مأزق البحث في مسار الاستقلال الوطني .

ومما لاشك فيه أن التراكم التاريخي لخبرة الحوار الوطني أمر لا غنى عنه للوقوف على تراث الثقافة السياسية الليبية في هذا المجال ، ويستلزم منا البحث والدراسة لاستخلاص ما يمكن الاستفادة منه من دروس تساعد على تأصيل العمل الوطني الراهن كما يمكن أن يسترشد بها في حل المشاكل والأزمات التي فرضتها مرحلة ما بعد سقوط نظام القذافي عام 2011 ، وتدليل الصعوبات أمام جولات الحوار الوطني الراهن (1) .

يطرح موضوع بحثنا خصوصية المنهج الحواري الذي توخته الحركة الوطنية الليبية في إستراتيجية مقاومتها للاستعمار الأوروبي ، وآلية إدراجها الاستحقاقات والمطالب الوطنية ، وعلى رأسها الاستقلال والدستور والمؤسسات والحريات ، وما اقتضاه ذلك من تعديل بفعل تحولات المتغيرات الداخلية والخارجية ، وتأثيراتها على موازين القوى المتصارعة من جهة ، وتمثلات هذه الاستحقاقات والمطالب لدى الفئات الاجتماعية الأهلية زمن الاستعمار من جهة أخرى .

و يتوجه البحث للإجابة على التساؤلات المركزية الآتية : هل يؤسس الحوار الوطني زمن الاستعمار ويرشد للحوار الوطني الراهن ؟ وما هي موضوعات الحوار الوطني زمن

¹ . قامت عدة دراسات بتناول هذا الموضوع ، ولمراجعة تفصيله حوله ، وحول المصالحة الوطنية والسلام الاجتماعي ، والانتقال الديمقراطي للمرحلة الراهنة ، انصح بمراجعة الأعمال التالية :

عبد السلام جمعة زاقود، مسار المصالحة والسلام الاجتماعي ، عمان : دار زهران للنشر 2013 ، وأيضاً علي الصلابي ، العدالة والمصالحة الوطنية : ضرورة دينية وإنسانية ، القاهرة : دار ابن الجوزي 2012 ، وأيضاً ، مصطفى التير ، أسئلة الحداثة والانتقال الديمقراطي في ليبيا : المهمة الصعبة ، بيروت : منتدى المعارف ، 2013 ، وأيضاً ، يوسف محمد الصواني ، ليبيا الثورة وتحديات بناء الدولة ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية 2013 ، وأيضاً محمود إبراهيم قرين ، المواقف العربية من الثورة الليبية 17 فبراير 2011 ، رسالة ماجستير ، جامعة الدول العربية قسم الدراسات السياسية 2012 .

الاستعمار ؟ وما هي الأطراف المحلية والإقليمية والدولية المشاركة ؟ وما هي مواقف الأطراف الداخلية والخارجية من الحوار الوطني ونتائجه ؟ والسؤال المحوري في هذا البحث هو هل هناك آليات لفض النزاعات المحلية في ليبيا أثناء الاستعمار حققت قدراً من النجاح في ضمان التعايش السلمي بين الجماعات ؟ وهل الحوار غاية في حد ذاته أم وسيلة إلى غاية وما هي الغاية ؟ وإذا كانت الغاية هي السلم ، فهل ينبغي لمسائل العدل والحريات والتعايش السلمي أن تكون المحصلات النهائية لبناء السلم ، وهل هناك أعراف محلية لبناء السلم يمكن الاستعانة بها لضمان ثبات السلم بعد النزاع ؟ وكيف نقيس مدى نجاح تجربة ونشاطات الحوار وبناء السلم وخطته في ليبيا زمن الاستعمار ؟ وهل هناك تماثل بين هذه الموضوعات والأطراف المشاركة في الحوار زمن الاستعمار والحوار الراهن ؟

ولهذا البحث هدفان أساسيان ، أولهما تقديم فهم نقدي للمفهوم الأساسي والآراء والتأويلات النظرية لدراسة الحوار الوطني في ليبيا زمن الاستعمار ، وثانيهما تقديم وطرح تفسير محدد منهجي للحوار وموضوعاته وإشكالاته ومواقف أطرافه في عرض موجز متطور ، مع تركيز خاص على المقاربات المحلية الليبية للحوار ، ولكن ما الجديد في هذا التركيز الخاص ؟ وما أهميته بالنسبة للباحثين وواضعي السياسات والجهات المدنية المعنية ؟ ليس هناك نص واحد يتناول الهوية الواضحة في أدبيات مبحث الحوار في ليبيا ، وليس معنى هذا عدم وجود أعمال أخرى ذات صلة بدراسات الحوار والسلم والنزاع ، وبمنظرة عابرة في القراءات الخاصة في البرامج الدراسية على المستويين الجامعي والعالي ، والمتعلقة بدراسات الحوار والسلم والنزاع في ليبيا والمقررة في جامعاتنا يتبين عدم وجود أي كتاب محدد مقرر عن دراسات الحوار والسلم والنزاع بعد في ليبيا ، غير أنه هناك بعض الأعمال المنشورة حديثاً حول الموضوع ، وتتركز على المسائل العامة ، ودراسات الحالة الراهنة ، ومن ثم فبحثنا هذا محاولة لسد الفجوة المعرفية في أدبيات مبحث الحوار والسلم والحرب في الوطن الليبي لكي يتسنى للإمام العلمي والفكري بالأنساق الوطنية للحوار وبناء السلم وفض النزاعات الكامنة في الموارد الثقافية والتراثية للمجتمع ، ويمثل

بحتنا هذا أسهاماً أصيلاً بطرحه النقدي للمسائل الفكرية والقضايا النظرية والمشكلات العملية لمبحث الحوار والسلم والحرب في ليبيا من منظور وطني متميز يدفع إلى تفكيك لغة الحوار والتفسيرات السائدة بشأنه ، وإلى إبراز المفهوم والمنهج والآلية ، وعموم التجربة الليبية الحوارية التي طال إهمالها على المستويين النظري والعملية .

وتركز الدراسة على اختبار الفرضيات المرتبطة بمفهوم الاختيار الرشيد على حالة الحوار والمصالحة الوطنية في ليبيا ، وتقوم الفكرة الرئيسية وراء صياغة فرضيات الدراسة على الربط بين قضايا الحوار وآلياته وأطرافه ومداه الزمني من ناحية ، وبين فرص الوصول إلى تسوية سلمية للصراع من خلال الحوار والتفاوض ، وهناك أربعة عوامل محورية عدد الناتج النهائي لعملية الحوار من منظور مفهوم الاختيار الرشيد ، وهي : التوقعات ، والتكاليف ، والعامل الزمني ، ودور الطرف الثالث ، وتأسيساً على ذلك فالدراسة تفترض أن هناك علاقة سلبية بين اعتقاد بعض أطراف الصراع بإمكانية تحقيق النصر ، وتحقيق أهدافه بالطرق المسلحة ، وبين الوصول إلى تسوية سلمية للصراع من خلال الحوار ، مثلما توجد علاقة ايجابية بين ارتفاع تكاليف الصراع مادياً وبشرياً ، وبين الحاجة للحوار والوصول إلى تسوية سلمية ، وكذلك تفترض الدراسة وجود علاقة ايجابية بين طول المدى الزمني للصراع وبين الوصول إلى تسوية سلمية عن طريق آلية الحوار ، بينما تفترض الدراسة أن هناك علاقة سلبية بين كثرة الأطراف الخارجية ، والطرق الثالث المشاركة في عملية الحوار وبين النجاح في الوصول إلى اتفاق ثابت .

وفي إطار محاولة اختيار الفروض المقترحة للدراسة ، فإن الباحث سوف يعتمد على نوعين من المصادر للحصول على البيانات والمعلومات ذات العلاقة بموضوعه ، وهي مصادر أولية تتمثل في الوثائق المحلية ذات الصلة ، بالإضافة إلى الوثائق الإقليمية والدولية ، ومصادر ثانوية ، وتتحدد في الكتب والبحوث والدراسات والتقارير والمقالات والصحف .

أولاً : . الحوار الوطني في مؤتمر العزيرية الثاني 25 . 28 أكتوبر 1912 : .

دارت أولى حلقات الحوار الوطني في تاريخ ليبيا المعاصر في عام 1911 ، للبحث عن مخرج لأزمة الاحتلال الإيطالي للبلاد ، وهو الحوار الذي انطلق في مؤتمر العزيرية الأول في يوم 6 أكتوبر 1911 ، وتتبع أهمية هذا المؤتمر من كونه الأول في سلسلة المبادرات والمؤتمرات التي سعت للحوار الليبي ، ثم انطلقت الجولة الأولى الموسعة للحوار الوطني إثر توقيع معاهدة أوشي لوزان بين الحكومتين العثمانية والإيطالية في 18 أكتوبر في مؤتمر العزيرية الثاني 25 / أكتوبر 1912 (1) ، وكان السبب المباشر لانعقاده يتصل بتعدد الزعامات المحلية والجهوية الناشطة جهادياً وسياسياً في إقليم طرابلس ، وكان موضوع الحوار المداولة والمناقشة بين هؤلاء الزعماء في مصير البلاد ترتيباً على معاهدة أوشي لوزان لذلك ، وجه القائد العثماني نشأت بك الدعوة لرؤساء المجاهدين وقياداتهم وزعماء البلاد وأعيانها لعقد اجتماع طارئ في العزيرية ، مقر القيادة العامة لبحث علاقة المواطنين الليبيين بالسلطات الإيطالية الجديدة ، والتحولت السياسية الماسة بالمصالح العامة ، وحضره أعيان المجاهدين ، والعقيد نشأت بك ، وتم فيه الاتفاق على المقاومة ، وتحديد خطوط الدفاع حول مدينة طرابلس الكبرى ودعوة

¹ . لمراجعة شاملة حول المعاهدة : أنظر ، محمد عبد الكريم الوافي ، الطريق إلى لوزان : الخفايا الدبلوماسية والعسكرية للغزو الإيطالي لليبيا : بنغازي : جامعة فار يونس 1988 ، ص ص 190 . 218 ، وأنظر أيضا : أكرم عثمان عبد الرزاق عمر ، صلح لوزان وأثره على حركة المقاومة الوطنية الليبية 1912 . 1914 ، رسالة دكتوراه ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، قسم التاريخ 2012 ، ص ص 25 . 120 ، وأنظر أيضا عبد الله علي إبراهيم : آثار صلح لوزان على حركة الجهاد : ضمن كتاب ، بحوث ودراسات في التاريخ الليبي 1911 . 1943 ، ج 2 ، تأليف مجموعة من الباحثين ، إشراف صلاح الدين حسن السوري ، وحبيب وداعة الحساوي ، طرابلس : مركز دراسة جهاد ضد الاحتلال الإيطالي ، 1984 ، ص ص 87 . 101

المواطنين للالتحاق بالجهاد بواسطة الأعيان والخطباء والمراسلات المباشرة ، وكانت الاستجابة قوية ، ومعبرة عن وحدة الموقف تجاه نازلة الاحتلال (1) .

وفي يوم 25 أكتوبر 1912 تمت الدعوة لعقد مؤتمر العزيرية الثاني وإطلاق جولة موسعة من الحوار الوطني ، فأول مرة تدفع الأحداث بالليبيين للتصدي لمناقشة أسئلة جديدة من نوع ما النظام السياسي الذي يمكن اختياره للحكم في المناطق غير الخاضعة للاحتلال ؟ وما هي مرجعيته الفكرية لاسيما في ظل تقهقر سلطة الخلافة ، وانهيار البنية الإدارية في الولاية ؟ وأثيرت هذه الأسئلة في ظل ظروف مجسدة لتدني التنشئة السياسية خاصة بين الأوساط القروية والبدوية في الدواخل (2) .

وفي هذا الاجتماع العام الذي حضره ممثلون معترفون من كافة الجهات من طرابلس ، من على شاکلة فرحات الزاوي ، وسليمان الباروني ، والهادي كعبار ، ومختار كعبار ، وأحمد المریض ، والصغير المریض ، وعلي بن تنتوش ، وعبد الله أبو خریص ، ومفتاح التركي ، وحامد القاضي ، ومحمود الترجمان ، وأحمد سنان ، ومحمد عزيز ، والطاهر البشتي ، ومحمد شلابي ، ومحمد عبد الله البوسيفي ، ومحمد سوف ، والساعدي بن سلطان ، ومحمد افكيني ، وأحمد السني ، وعبد الصمد النعاس ، وأحمد البدوي الأزهري ، وعمر المنصوري ، ونوري السعداوي وكان هذا الأخير مكلفا من قبل خليل بك قومندان الخمس بالحضور في مؤتمر العزيرية ، ولمقابلة رئيس أركان الحرب للجيش العثماني في العزيرية للتأكد من صحة خبر الصلح مع إيطاليا (3) .

1 . أكرم عثمان ، المرجع السابق ، ص 26

2 . المولدي الأحمر ، الجذور الاجتماعية للدولة الحديثة في ليبيا : الفرد والمجموعة والبناء الزعامي للظاهرة السياسية ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 2009 ، ص 308

3 . سالمة سالم ياسين سالم ، المؤتمرات الوطنية الليبية ودورها في الجهاد ضد الاحتلال الإيطالي 1912 . 1952 ،

رسالة ماجستير ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، ص 47

وتضم قائمة الحضور أيضا ، من الجانب العثماني ، نشأت بك قائد القوات العثمانية ، وأر كان حربه ، وكبار معاونيه من الضباط العثمانيين ، مثل : فتحي بك رئيس أركان الجيش العثماني في العزيزية ، وكان حضور الجانب العثماني للمؤتمر يتعلق بمهمة تسليم المهمات لقادة الجهاد الوطني وتنسيق عملية سحب الجنود ، والموظفين العثمانيين من البلاد ، وقد قدر المراسل الإخباري لصحيفة الزهراء التونسية عدد المشاركين في الحوار بنحو 500 عين ممثلين للنخبة الاجتماعية (1) .

وكان المشاركون في الجولة الأولى للحوار الوطني حريصين على الاستفادة من اللحظة التاريخية التي جعلت تركيا تمنحهم استقلالهم الذاتي ، ليحصلوا على حقوق سياسية توسع مشاركتهم في السلطة ، وعلى الصعيد الإجرائي ، ظهرت في مداولات المجتمعين آراء عديدة ، ووجهات نظر متباينة حول فهم وتفسير فرمان السلطاني بمنح الليبيين الاستقلال ، وإن كانت وجهات النظر جميعها قد اتفقت ابتداءً على المطالبة بالاستقلال والحصول على الاعتراف به من قبل الحكومة الإيطالية ، لكنها اختلفت في الوسيلة التي يتم بها تحقيق ذلك الاستقلال وصورتها سلماً أم حرباً ، وتمحورت وجهات النظر حول فكرة رفض الاستمرار في الحرب والرضا بالأمر الواقع ، ودعا أصحابها إلى التفاوض مع الإدارة الإيطالية بطرابلس بالطرق السلمية ، ومطالبتها بتطبيق الاستقلال الذاتي الممنوح للطرابلسيين تحت ضغط تدني القدرات والإمكانيات الداعمة لاستمرارية الحرب وعدم تكافؤ موازين القوى ، الأمر الذي جعل هذا الفريق النخبوي يتوخى مهادنة الاحتلال ، وكان على رأس هذا الفريق محمد فرحات الزاوي وعبد الله بوخريص ، والظاهر البشتي مفتي الزاوية الذي حرم الدفاع ، والهادي كعبار وعلي بن تنتوش ، وأحمد المريض ،

¹ . محمد صالح الجابري ، يوميات الجهاد الليبي في الصحافة التونسية ، ليبيا تونس : الدار العربية للكتاب ،

ومعهم حاضنتهم الاجتماعية ممثلة في قبائل الزاوية وغريان ، والنواحي الأربعة ، وترهونة ، والعززية ، والعجيلات (1) .

ويبدو أن زعماء هذا الفريق قد أدركوا بخبرتهم السياسية والقانونية أن فرمان السلطان العثماني بمنح الليبيين الاستقلال الذاتي لا يعدو كونه خدعة للرأي العام ، وأن ليبيا قد أصبحت بموجب المعاهدة مستعمرة إيطالية ، وبالتالي لم يكن أمام الليبيين إلا اللجوء الى السلم والحوار والتفاوض للتفاهم مع الإيطاليين (2) .

وتبنى فريق آخر وجهة نظر مخالفة دون أن يتحرى في حقيقة الوضع القائم في الإقليم ، ودعا إلى الاستمرار في المقاومة ومواصلة القتال حتى تعترف لهم إيطاليا بالاستقلال تحت تهديد القوة ، لكن دون أن تكون لهم خطة واضحة لمتابعة الاستعدادات العسكرية وإدارة الحرب ، وترغم هذا الفريق سليمان الباروني ، ومحمد عبدالله البوسيفي ، ومحمد سوف المحمودي ، وقد أيدهم في هذا الموقف المعارض للتفاوض وخيار السلم ، زعماء ومشائخ الجبل الغربي ، والقبلة وورقلة وفزان والخمس ومسلاتة ، ومصراتة (3) .

ولاشك أن هذا الموقف المقاوم والمناهض للاحتلال يعكس رهانات النخبة الوطنية على العامل الثقافي والاجتماعي دون غيره في تأمين ديمومة المقاومة ، وكانت تطورات الأحداث التالية للمؤتمر مخبراً تاريخياً لمواقف الزعماء والقادة المحليين على اختلاف توجهاتهم وتنوع بيئاتهم الجغرافية ، وتعدد انتماءاتهم الاجتماعية والفكرية ، وتباين المؤثرات التي تعرضوا لها ، إذ مضى زعماء الفريق الأول عاقدين العزم على مسابرة نهج

1 . حبيب وداعة الحسناوي : " مؤتمر العززية ونتائجه على حركة الجهاد في ليبيا 25 . 28 أكتوبر التمور 1912 " ، مجلة آفاق تاريخية ، طرابلس : الجمعية التاريخية الليبية ، السنة الأولى ، العدد الأول 1996 ، ص 41 . 63 ، وأنظر : أيضا ، مفتاح بلعيد غويطة : ، قراءة في مؤتمر العززية الثاني 25 أكتوبر 1912 ، مجلة الشهيد ، العددان الثلاثون والواحد الثلاثون ، 2009 ، 2010 ، طرابلس : المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية ، 2010 ، ص 56

2 . سالمه سالم ياسين : المرجع السابق ، ص 52

3 . مفتاح بلعيد غويطة ، المرجع السابق ، ص ص 58 . 59

تركيا الدبلوماسية والسياسي ، وواصلوا بعد المؤتمر اتصالاتهم بالإيطاليين دون أن يحققوا نتيجة في هذا المسار التفاوضي ، في الوقت الذي سار فيه زعماء الفريق الآخر في خيار المقاومة ، وتأسيس الحكومة الوطنية ، لكنه فشل هو الآخر سياسياً وعسكرياً في معركة جندوبة في 23 مارس 1913 (1)

حاول بعض المؤرخين تقديم الانقسام السياسي الذي فرق سكان البلاد أمام المحتل على أنه المحور الفاصل بين من تمسك بالاستقلال ، ومن قبل بالتفاوض مع المحتل والاستسلام لشروطه ، بينما رأي آخرون أن المسألة كانت أكثر تعقيداً من ذلك ، وتمثلت في شرعية الزعامة السياسية الموحدة ، والعلاقات بين المتنافسين ، والتحالف مع المحتل أو التفاوض معه ، لتحسين شروط الاستسلام (2) .

وهكذا ، مضت التجربة الأولى للحوار الوطني دون أن تحقق نتائج إيجابية كبرى ، فلم يحدث تآزر بين النخبة السياسية والاجتماعية المعبرة عن مختلف القوى الاجتماعية للتخلص من الحكم العثماني الراحل والاستعمار الإيطالي الحال ، ومحاولة إقامة حكم ذاتي ، ومهما قيل عن وجود بعض المتأثرين بالاتجاه العثماني ، أو الواقعيين تحت تأثير الدعاية الإيطالية بين المشاركين في الحوار الوطني ، وفي قراراته ، فإن سياق الأحداث ، يؤكد أن الحوار الذي دار بين ممثلي النخبة السياسية والاجتماعية ، والآراء التي تبادلوها وناقشوها في مداولاتهم كانت تجسيدا للواقع السياسي والعسكري والاجتماعي آنذاك وترجمة للمصالح الإقليمية والجهوية الضيقة لأطراف الحوار (3) .

¹ . المرجع نفسه ، ص ص 60 . 74

² . المولدي الاحمر ، المرجع السابق ، ص 316 ، وأنظر أيضا ، امحمد الطوير ، الشيخ فرحات الزاوي أحد قادة

الجهاد ضد الغزاة الإيطاليين ، طرابلس : الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، 1993 ، ص 79

³ . علي عبد اللطيف حميدة ، الأصوات المهمشة : الخضوع والعصيان في ليبيا أثناء الاستعمار وبعده ، بيروت :

مركز دراسات الوحدة العربية ، 2009 ، ص 68 . 69 ، وأنظر أيضا ، سالم ياسين : المرجع السابق ، ص

ويمكن اعتبار المؤتمر من جهة أخرى مخبراً تاريخياً اختبر فيه الليبيون مدى استعدادهم للتفاوض مع أنفسهم والتفاوض مع العدو واختبار نواياه ، وكان انقسام النخبة السياسية والاجتماعية وفشلها في الحوار قد أديا إلى إضعاف الموقف السياسي للمجاهدين في المرحلة اللاحقة ، وأتاح الفرصة لتعميق الخلافات بينهم ، واستغلت الإدارة الاستعمارية هذه الخلافات في تكريس السلطة الاستعمارية في البلاد ، ولكن مع كل ذلك لم يمض الحوار الوطني الأول دون تحقيق أية نتائج ايجابية ، إذ أثمر الحوار تكوين جبهة وطنية ، تصدر قيادتها العسكريون المحاربون والسياسيون الأحرار ، أرست قواعد المقاومة لفترة طويلة على الساحة الليبية (1) .

ثانيا . الحوار الوطني في مؤتمر مسلاتة الأول 16 نوفمبر 1918

جاءت الجولة الثانية من الحوار الوطني الليبي مع نهاية الحرب العالمية الأولى عام 1918 ، بعد توقيع معاهدة مودروس Moudros في 30 أكتوبر 1918 ، حيث كانت المخاوف من تصدع وحدة البناء الوطني نتيجة لهزيمة الدولة العثمانية وانسحابها من طرابلس وبرقة وراء الدعوة لهذه الجولة الحوارية التي استهدفت مواجهة مأزق البحث عن الطريق إلى الاستقلال الوطني ، واتخذت شكل مؤتمر وطني عام تشاوري بين النخبة الاجتماعية والسياسية الطرابلسية ، وكان موضوع الحوار ، البحث في آلية بناء إطار سياسي إقليمي يتولى قيادة الصراع مع الإيطاليين ، وإدارة الإقليم الطرابلسي ، فكان اجتماع جامع المجابرة في مسلاتة يوم السبت 16 نوفمبر 1918 ، بعد مضي ست سنوات على الجولة الحوارية الأولى من مفاوضات الحوار الوطني ، وتولي سليمان الباروني ، ورمضان السويحلي المبادرة للإعداد للمؤتمر الذي وُجّهت الدعوة لحضوره لمعظم الزعامات الطرابلسية باسم الأمير عثمان فؤاد ، واختيرت مدينة مسلاتة مكاناً

¹ . المرجع نفسه ، ص 69 ، وأنظر أيضا ، علي عبد اللطيف حميدة ، المجتمع والدولة والاستعمارية في ليبيا :

دراسة في الأصول الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لحركات وسياسات التواطؤ ومقاومة الاستعمار 1830 . 1932

، ط 2 ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 1998 ، ص 165

لانعقاده لحياديتها في الصراع الدائر بين الزعماء ، ولكونها أكثر أماناً لبعدها عن مركز الإدارة الإيطالية في طرابلس (1) .

وبذلك بدأت الجولة الثانية من الحوار الوطني في ظروف عصيبة ، إذ كانت هذه الجولة ذات طابع خاص ، فقد كانت الحكومات المتعددة في المنطقة بحاجة إلى مساعدة النخبة الاجتماعية في خططها الرامية إلى إنهاء الخلافات والانقسامات الداخلية من جانب ، ومقاومة الاحتلال إلى آخر مدى من جانب آخر ، على غير رغبة المتوطنين مع الاحتلال بالطبع ، وكان مما جعل جولة الحوار الوطني هذه تكتسب أهمية خاصة هو ارتباطها بالتحول الكبير في موقف الدولة العثمانية تجاه حركة المقاومة بعد اتفاقية مودروس (2) .

وكانت الاتفاقية المذكورة قد عقدت في وقت كانت فيه ليبيا تتطلع إلى تحديد وضعها الدولي بعد سقوط الدولة العثمانية ، فالوجود العثماني الثالث في ليبيا عند بداية الحرب ، اعتبره الليبيون تطوراً أملت ظروف الحرب لا بد أن ينتهي بنهايتها ، والتقت الآمال الوطنية لليبين عند تحقيق الاستقلال الوطني للمرة الثانية ، وكان قد أُنشئ تلك الأمانى ما تردد على الساحة الدولية من أفكار ومبادئ تساند حق الشعوب في تقرير مصيرها التي رُوِّج لها الرئيس الأمريكي ولسون Wilson ، التي وجدت لها أنصاراً في إيطاليا نفسها كما أصدر الحلفاء إعلاناً أثناء الحرب عبروا فيه عن رغبتهم في تحرير الشعوب الواقعة تحت نير الحكم التركي ، وإنشاء حكومات وطنية في سوريا والعراق وغيرها ، تستمد سلطتها

¹ . مصطفى علي هويدي ، الجمهورية الطرابلسية : جمهورية العرب الأولى . أول دراسة مرجعية في موضوعها ،

طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، 2000 ، ص 73 . 75

² . محمد السريتي شطيب ، التطور السياسي للحركة الوطنية الليبية 1911 . 1943 ، رسالة ماجستير ، جامعة

المرقب ، كلية الآداب والعلوم زليتن ، قسم التاريخ ، 2005 ، ص 42

من إرادة مواطنيها واختيارهم المطلق ، وكان لذلك آثاره بين الوطنيين الليبيين الذي كانوا يأملون أن تحظى ليبيا بمعاملة مماثلة (1) .

كان السؤال السياسي المطروح على الزعماء للمناقشة في المؤتمر ، هو: كيف يمكن التعامل مع الفراغ السياسي الذي تركه الانهيار المفاجئ للنواة القيادية الموحدة التي مثلها الأمير عثمان ؟ وشكلت الإجابة عن هذا السؤال كما لاحظ عبد الرحمن عزام المهندس السياسي لكيان الجمهورية أخطر المهمات بسبب التنافس السياسي الشديد الجاري بين الزعماء ، والتشبث بالنفوذ ، والاستقلال المحليين حتى ولو أدى ذلك إلى التحارب (2) .

لذلك شهدت ليبيا حواراً وطنياً متعدد الأطراف دار بين النخبة السياسية وأعيان البلاد من منطقة طرابلس ، وكان من أبرز الزعماء المشاركين في الحوار أحمد المريض ، وعبد النبي بلخير ، وسليمان الباروني ، ورمضان السويطي ، وإسحاق باشا ، وعبد القادر الغنאי ، ومختار كعبار ، بالإضافة إلى أعداد أخرى من الأعيان والوجهاء من مختلف المناطق (3) .

وكان من العوامل المشجعة لفكرة إدارة حوار وطني شامل حول الأزمة السياسية والاجتماعية بعض النجاحات التي حققتها المقاومة الشعبية للاحتلال ، وبعض الإشارات الصادرة عن الإدارة الإيطالية بخصوص منح الاستقلال الذاتي لليبيين ، وإصدار دستور خاص لهم ، وهو الذي صدر في السنة التالية 1919 ، وهي إشارات فسرها الوطنيون على أنها استعداد لفتح صفحة جديدة في مسار الطريق إلى تسوية القضية الليبية ، ولذلك جاءت هذه الجولة لتحقيق هذا الهدف ، لكن الزعامة السياسية والاجتماعية التي تبنت الحوار وأدارته لم تكن متوافقة ، فقد انقسمت الآراء بين أطراف الحوار إلى عدة شعب ،

¹ .مصطفى هويدي ، المرجع السابق ، ص 55 ، عمرو بغني : " الجمهورية الطرابلسية " مجلة الشهيد ، العدد

الثاني ، أكتوبر 1981 ، ص 36 . 70

² .المولدي الأحمر ، المرجع السابق ، ص 318

³ .مصطفى هويدي ، المرجع السابق ، ص 76

ومثلت المجموعة الأولى ، الاتجاه الوحدوي القومي ، وهدفت إلى وحدة الصف الليبي ، وكامل التراب الوطني في إطار موحد ووحدة كاملة ، وقد عرض أصحاب هذا الاتجاه فكرة الوحدة مع برقة ، بينما دعت مجموعة أخرى إلى قيام حكومة وطنية جمهورية لحكم إقليم طرابلس تحت مسمى الجمهورية الطرابلسية ، وكانت مجموعة ثالثة قد رأت ضرورة الاتفاق مع السلطات الإيطالية ، لأن إيطاليا لن تقبل بمؤسسة الجمهورية ، وقد تزعم هذا الاتجاه عبد القادر الغنای ، وعاضده أحمد المریض ، وسوف المحمودي ، وعلي بن تنتوش ، وعدد من الضباط الطرابلسيين ، ودعا فريق رابع إلى اتخاذ النظام الأميري نظاماً للحكم الوطني في إقليم طرابلس ، ورأى هذا الفريق أن الزعامات القبلية لا تلتقي على الاتفاق على زعيم قبلي واحد تسلمه السلطة والقيادة ، ولكنها قد تقبل نظام الإمارة ، وذهب فريق خامس إلى ضرورة إدخال أطراف دولية في الحوار مع الإيطاليين ، مثلما هو الشأن في خبرة المفاوضات التي قادها إدريس السنوسي في برقة بمساعدة وجهود البريطانيين ، وتزعم هذا الفريق رمضان السويحلي الذي كان يأمل في الحصول على الحماية البريطانية (1) ومع وجود بعض الخلافات التي برزت بين المشاركين في جولة الحوار الوطني في المؤتمر التاريخي المنعقد في مسلاتة ، فقد انتصرت بعض الزعامات المحلية المؤيدة لخيار الجمهورية الذي كان يمثل أنصاره ومؤيده أغلبية كاسحة واضطر المعارضون لهذا الاتجاه إلى المهادنة والقبول (2) .

ويبدو أن مناصرة أكبر الزعماء الطرابلسيين لفكرة الجمهورية كنظام سياسي للوطن الذي يؤسس له في هذا الاجتماع ، إنما تعود لملائمة هذا النظام في تصورهم إلى التركيبة الاجتماعية للبلاد ، وتوافقه مع طبيعة الأساس القبلي لمعظم الكيانات السياسية المسيطرة (3) .

1 . مصطفى هويدي ، المرجع السابق ، ص 77

2 . المرجع السابق ، ص 78

3 . المرجع السابق ، ص 79

ويبدو في تقديرنا أن هناك شبه إجماع بين أطراف الحوار على اختلاف خلفياتهم السياسية والاجتماعية والفكرية على ضرورة التخلص من الاستعمار ، وأن يكون للوطن كيان مستقل خاص ، ولكن الخلاف كان يدور على درجة الاستقلال وإطارة الجغرافي ، ففي حين كانت بعض الأطراف تقبل باستقلال ذاتي لطرابلس في إطار علاقة ما مع إيطاليا ، أو تنظيم العلاقة مع إيطاليا في صيغة تعاقدية كما كان يطرح رمضان السويطي ، كان سليمان الباروني وحاضنته السياسية والاجتماعية لا يرضون بغير الاستقلال التام بديلاً ، ويعكس بيان المؤتمر وبلاغاته حرص بعض أطراف الحوار على إضفاء الصفة القانونية للقضية الليبية ، وتمسكهم بمبدأ تدويل القضية الليبية ، وضرورة الرجوع إلى المجتمع الدولي ممثلاً في مؤتمر الصلح لتقرير وضع ليبيا السياسي ، وهذا ما حمله البلاغ الخامس لمجلس الجمهورية الموجه إلى رئيس مجلس الوزراء البريطاني ويلتمس فيه العطف على الشعب الليبي ، والاعتراف بجمهوريةه عند بحث مسألة استقلاله ، وكذلك البلاغ السادس الموجه إلى رئيس الحكومة الفرنسية ينشده النظر إلى المسألة الليبية بعين الاعتبار ، وأن يتدخل لدى إيطاليا للاعتراف بحقوق الشعب الليبي في الحرية والاستقلال ، بينما رأى البعض الآخر القليل في عدده والضعيف في تأثيره ضرورة القبول بمبدأ العلاقات الثنائية مع إيطاليا باعتباره أمراً واقعاً فرضه وجود الاحتلال الإيطالي ، وخروج إيطاليا منتصرة ، وهزيمة الدولة العثمانية في الحرب ، فهم يرون وجهة التمسك بالممكن ، وكان على رأس هؤلاء عبد القادر الغنای الذي استسلم للإيطاليين بعد شهر من قيام الجمهورية (1) .

ويلحظ أن القرارات الختامية لأعمال الجولة الثانية من الحوار الوطني قد جاءت محصلة لما طُرح على بساط التفاوض والحوار من أفكار خلال جلسات المؤتمر المتصلة ، مع استبعاد الأفكار المفرطة في اتجاهاتها ، والأخذ بالصيغة التوفيقية ، حيث نص بيان المؤتمر الختامي على إعلان حكومة الجمهورية الطرابلسية ، في عاصمتين العزيرية في

¹ . مصطفى هويدي ، المرجع السابق ، ص 78 ، 79 ، 91 ، 92 .

الساحل وغريان في الجبل ، ويعد هذا الإعلان سابقة في شمال أفريقيا وثاني جمهورية في منطقة الشرق الأوسط ، بعد جمهورية زحلة في لبنان ، وأجريت الانتخابات في نفس اليوم لاختيار أعضائها من بين زعماء الإقليم ، وأسفرت نتيجة الانتخابات عن اختيار رمضان السويحلي عن مصراته ، وسليمان الباروني عن الجبل ، وأحمد المريض عن ترهونة ، وعبد النبي بلخير عن ورفلة ، واغفل نص البيان تسمية رئيس الجمهورية ، لكونه كان مسألة مثيرة للجدل غير المحسوم بين الأعضاء (1) .

وكان اجتماع مؤتمر مسالمة عظيماً في نتائجه ، إذ عبر عن إرادة التحدي ، ووثق وحدة الصف الوطني ، وأظهر قدرة الوطنيين على التصدي للمحتلين الإيطاليين ، وانتهى إلى جملة من القرارات الهامة والايجابية ، حيث تم انتخاب المجلس الرئاسي للجمهورية ، وانتخاب مجلس البرلمان ، والمجلس الشرعي ، واختيار قائد للجيش ، ومستشار للجمهورية ، وتأليف قوة للجيش والشرطة (2) .

وكان المثير في هذه التجربة هو الحل السياسي الذي هُديت إليه أطراف الحوار لتجاوز الأزمة السياسية ، الذي انبثق لأول مرة خلال النقاش ، وهو إقرار النظام الجمهوري الديمقراطي ، الذي تضمن مبدأ المشاركة السياسية ، والفصل بين السلطات ، وتمكين ممثلي الشعب من السلطة التشريعية والتنفيذية (3)

وبذلك انتهت الجولة الثانية من الحوار الوطني على هذا النحو الذي استلهم فيه الشعب الليبي البنى الديمقراطية الغربية التي تمثل التعبير الرفيع للحضارة الغربية ، و إن كان لم يقدر لهذه التجربة ونتائجها المميّزة الاستمرار بسبب موقف الأطراف الدولية منها .

¹ عمرو سعيد بغني ، " حركة الجهاد الليبي خلال الفترة 1919 . 1921 ، ضمن كتاب بحوث ودراسات في التاريخ الليبي ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص 198 . 199 ، وعلي عبد اللطيف ، المجتمع والدولة ، مرجع سابق ، ص 172

² . مصطفى هويدي ، المرجع السابق ، ص 81

³ . المولدي الأحمر ، المرجع السابق ، ص 322

ثالثاً . الحوار الوطني في مؤتمر غريان 17 نوفمبر 1920 ، ومؤتمر سرت 21 يناير 1922م .

أتت الجولة الثالثة من الحوار الوطني في ظل أزمة سياسية خطيرة ألمت بالبلاد من أديانها إلى أقصاها ، وأضررت بالحركة الوطنية ، وهي الفتنة الطائفية التي حصلت في الجبل الغربي بين العرب والأمازيغ والتي أثارها إيطاليا ، والخلافات الأخرى التي ظهرت بين زعماء المنطقة الغربية كالخلاف بين رمضان السويحلي وعبد النبي بلخير ، والخلاف بين هذا الأخير وأحمد سيف النصر والنزاع بين خليفة بن عسكر ويوسف خريبيش ، إلى غير ذلك من الخلافات التي كان سببها أطماعاً مادية ، وأحقاداً قبلية ، تطورت في النهاية إلى صدمات مسلحة راح ضحيتها العديد من الليبيين ، وتصدع على أثرها الصف الوطني ، وباتت الوحدة الوطنية مهددة في الوقت الذي كان يجب فيه دعمها في مواجهة الاحتلال الإيطالي (1) .

لذلك ظهرت الحاجة لعقد مؤتمر غريان في 17 نوفمبر 1920 ، يبحث قضية الوحدة الوطنية ، ويعمل على جمع شمل الأمة تحت قيادة رجل واحد ، وفق برنامج وطني محدد ، وتعود فكرة المؤتمر إلى اقتراح تقدم به أحمد المريض إلى زعماء المنطقة الغربية لمعالجة الموقف المستجد على الساحة الوطنية ، وقد مُهد لهذا المؤتمر باجتماع تحضيرى عُقد في العزيزية العاصمة الساحلية للجمهورية الطرابلسية في أكتوبر 1920 ، لينسق لأعمال مؤتمر غريان العاصمة الجبلية ، ويمهد له بإشراف ورعاية أحمد المريض ، وتقرر فيه توجيه الدعوة إلى كل المناطق الغربية للحضور والمشاركة في الحوار وانتخاب وفد سمي " وفد الإصلاح " لمحاولة التوفيق بين المناطق المتنازعة في الجبل الغربي ، وحثهم على حضور المؤتمر، وبالتالي اتسعت دائرة المشاركة في المؤتمر ، بحيث شملت

¹ . سالمة سالم ياسين : المرجع السابق ، ص 116

جماعات واسعة من المجتمع الليبي ، سواء من القادة أو من عناصر المجتمع المدني الذين جرى انتخابهم (1) .

وقد تخلف عن حضور المؤتمر ثلاثة من الزعماء المبرزين ، الأول : عبد النبي بلخير ، وكان تخلفه عن حضور مؤتمر غريان بسبب عزلته وانشغاله بالآثار المترتبة عن الحرب بين بني وليد ومصراتة التي قُتل فيها رمضان السويحي يوم 25 أغسطس 1920 ، والثاني سليمان الباروني الذي كان منغمساً في الحرب الدائرة بين الأمازيغ والرجبان ، هذه الحرب التي أدت إلى تغيب أولاد أبي سيف والمشاشية ، والثالث محمد فكيني وكان منهمكاً في وضع خطة الانتقام لمقتل ابنه حسن على يد قوات خليفة بن عسكر الموالي لسليمان الباروني ، وكان أحمد المريض قد أرسل وقداً إلى سليمان الباروني يدعو لتولي رئاسة المؤتمر ، وتجنيب البلاد الفتنة والفوضى ، لكن الباروني امتنع عن حضور المؤتمر ، متعللاً بعضويته في مجلس المبعوثان العثماني ، مفضلاً الاحتفاظ بنفوذه الإقطاعي في منطقة الجبل ، وكان مستنداً إلى تأييد قبيلة الأصابعة (2) .

وعندئذ اختار المجتمعون أحمد المريض رئيساً للمؤتمر لتمتعته بشخصية متزنة ومحبوبة ، وقدرته على ملئ الفراغ في القيادة الوطنية الذي خلفه غياب رمضان السويحي بعد قتله كما سبقت الإشارة (3)

واستمرت جلسات الحوار في المؤتمر المذكور خمسة عشرة يوماً ، ناقش فيها المجتمعون الشأن الوطني العام ، والمصلحة الوطنية ، وأثمر النقاش والحوار الاتفاق على إقامة حكومة وطنية ، وتكوين هيئة الإصلاح المركزية من ثلاثة عشرة عضواً برئاسة أحمد

¹ . محمد علي أبو شارب " مؤتمر العزيزية التحضيري 18 محرم 1339هـ ، 2 أكتوبر 1920 ، مجلة الشهيد ،

العدد الخامس 1984 ، ص ص 55 . 67

² . الطاهر الزاوي ، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب ، ط 3 ، بيروت : دار الفتح ليبيا ، دار التراث العربي 1973

، ص 177 . 178

³ . أمين سعيد ، الدولة العربية المتحدة ، ج 3 ، القاهرة : مطبعة عيسى البابلي الحلبي ، 1938 ، ص 364

المريض ، وهي تنظيماً جديداً أوجديه المتغيرات الجهوية المترتبة عن عدم فاعلية القيادة السياسية للجمهورية الطرابلسية ، وتضمن برنامجها السعي لحل الخلافات والتوفيق بين القبائل المتصارعة في منطقة طرابلس ، كما دعا المؤتمر إلى توحيد الصف وانتخاب قائد مسلم ترضاه الأمة على أساس دستوري (1) .

ولم ينجح المؤتمر في الاتفاق على إيجاد حل لموضوع المصالحة بين أطراف الحرب الأهلية في الجبل لغياب الخصمين المتحاربين ، محمد فكيني ، وسليمان الباروني ، وكانت النقطة الأكثر إثارة في الحوار هي العودة إلى موضوع وحدة الزعامة ، من خلال البحث عن زعيم لا تكون أسس زعامته موضوعاً للمناقشة ويعزز فشل المصالحة الوطنية إلى غياب وعي ثقافة المصالحة الوطنية ، وغياب القوى الراعية للمصالحة الوطنية والسلم الاجتماعي ، وارتفاع سقف المطالب ، وعدم توالي تقديم المبادرات التصالحية ومتابعة نتائجها (2) .

ودعا المؤتمر أيضا إلى تكوين حكومة مركزية لأقاليم ليبيا الثلاثة ، طرابلس وبرقة وفزان ، يرأسها قائد مسلم منتخب على أساس دستوري ، وقرر المؤتمر أيضا بعث وفد إلى روما لمفاوضة الحكومة الإيطالية حول هذه القرارات ، لكن السلطات الاستعمارية بعثت بوفد آخر من المتواطئين كمثل بديل لليبيين ، ولم يستطع وفد المقاومة مقابلة الحكومة الإيطالية ومفاوضتها ، وقفل عائداً بعد انتظار طويل دام ستة أشهر (3) .

1 . الطاهر الزاوي ، عمر المختار ، ط 2 ، طرابلس : مؤسسة الفرجاني ، 1970 ، ص 58 ، وأيضا ، علي عبد اللطيف حميدة ، المجتمع والدولة ، مرجع سابق ، ص 180
2 . المولدي الأحمر ، المرجع السابق ، ص 326 ، 327
3 . علي عبد اللطيف حميدة ، المجتمع والدولة ، مرجع سابق ، ص 180 ، وأيضا ، عمر زبيدة ، رغبة السلام في تاريخ العلاقات الليبية الإيطالية ، مبروكة عمر الشيباني ، محاضرات الموسم الثقافي الحادي عشر لسنة 1989 .
1990 ، طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، 2000 ، ص 72 . 91 ، وعمر زبيدة : " إرادة السلام في العلاقات الليبية الإيطالية ، مجلة الشهيد ، العدد الثاني أكتوبر 1981 ، ص 36 . 70

كانت ليبيا تحتاج وقتئذ إلى برنامج للعمل الوطني يعالج أزمته السياسية والاجتماعية ، ويحقق المصالحة الوطنية ، لذلك جاءت الجولة الثالثة للحوار الوطني لتحقيق هذا الهدف ، لكن الزعامة المضطربة المتنازعة سواء تلك التي تبنت الحوار وأدارته ، أو التي فارقتهم وقاطعته ، عملت على الاستفادة من نتائجه استفادة تكتيكية لتحقيق مصلحة ذاتية أو جهوية مرة أخرى ، لا بل ظل سليمان الباروني ومحمد فكيني خارج اتفاقات المؤتمر وغير معنيين به ، كما رفض الباروني مبادرة المؤتمرين إلى توحيد الزعامة الوطنية في شخصية توافقية . مثلما عارض هذه الفكرة المقترحة ، فرحات الزاوي ، ومختار كعبار ، وخالد القرني لذلك تعطلت الفكرة التي نودي بها في بيان المؤتمر الختامي سنتين آخرين إلى حين انعقاد مؤتمر سرت 1922 ، بعد أن غادر سليمان الباروني البلاد بصفة نهائية (1) .

ولما كان مقترح الجبهة الوطنية التي أقرها مؤتمر غريان يتعارض مع المصالح العليا لإيطاليا ، وخطتها الرامية لإحكام السيطرة على شطري البلاد ، طرابلس وبرقة ، فقد واجهته إيطاليا وعملت على عرقلة تحقيق نتائجه لذلك بادرت هيئة الإصلاح المركزية بالاتصال المباشر بحكومة اجدابيا ، ودعتها للتفاوض والحوار، وإقرار توحيد الصف ، وكانت تلك المبادرة دليل على الشعور بخطورة المسؤولية في تلك المرحلة الدقيقة ووعي عميق بحقائق الأمور ، وإدراك قوي لشدة الأخطار التي كانت تهدد حركة المقاومة وهو ما دفع القيادتين لإقرار عقد اجتماع سرت (2) .

وبذلك بدأت المرحلة الثانية من الحوار الوطني في جولته الثالثة في سرت 21 يناير 1922 ، وقد يتسأل الكثيرون عن أسباب اختيار مدينة سرت مكاناً لانعقاد المؤتمر ، ولعل موقع المدينة الجغرافي الذي جعلها حلقة وصل بين أقاليم البلاد الثلاثة في السلم

¹ . طرابلس ، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية ، قسم الوثائق الأجنبية ، ميكروفلم رقم 263 ،

مراسلات إلى وزارة المستعمرات في روما عن سليمان الباروني (1915 . 1935) وثيقة رقم 25 ، برقية سرية من ميركاتلي MERCACELLI في طرابلس إلى وزارة المستعمرات ، بتاريخ 2 يناير 1921

² . عمرو سعيد بغني ، " حركة الجهاد الليبي خلال الفترة 1919 . 1921 ، مرجع سابق ، ص 218

والحرب هو أهم هذه الأسباب ، وهذا شأن معظم المدن الوسطى في الدول كافة التي تتوفر لها ميزة خاصة من حيث اعتبارها عقدة المواصلات في الدولة (1) .

ويضيف بعض الباحثين إلى ذلك ، أن هذه المدينة سبق وأن شهدت وحدة الصف الوطني في معركة القرضابية الشهيرة عام 1915 ، وكان استقرار هذه المدينة وأفقها الجغرافي الإقليمي طوال الفترة بين عامي 1915 . 1921 أثره في هذا الاختيار المكاني لإجراء الحوار الوطني (2) .

وكان من أسباب انعقاد مؤتمر سرت ، هو توتر الأوضاع الداخلية في إيطاليا ، بالإضافة إلى الحرب الأهلية التي جرت بين العرب والبربر عام 1921 ، والصراع على الزعامة في حركة الجهاد الليبي (3)

وفي هذا المؤتمر تصدر العسكريون لقيادة العمل الوطني ، حيث حضره سبعة من أعضاء القيادة من المنطقة الغربية برئاسة أحمد السويطي وهم : عبد الرحمن عزام ، وعمر بو دبوس ، ومحمد نوري السعداوي ، والشتيوي بن سالم ، والصويعي الخيتوني ، وصالح بن سلطان ، وأربعة أعضاء من المنطقة الشرقية برئاسة صالح الأطيوش ، وهم نصر الأعمى ، وخالد القيصة ، وصالح السنوسي ، وعبد الهادي البراني واجتمع الوفدان المنذوبان عن حكومة اجدابيا وهيئة الإصلاح المركزية في عدة جلسات للحوار والنقاش ، واستعرضوا فيها الوضع القائم في القطرين ، وبحثوا أسباب الخلافات والنزاعات ، واتخذوا

1. بشير عبد الله بشير : " أهمية الموقع الجغرافي لمدينة سرت في توطيد اللحمة الوطنية " في مؤتمر سرت للسلام واللحمة الوطنية ، أعمال المؤتمر التاريخي المنعقد تحت شعار " عبق الماضي وآمال المستقبل " سرت 21 . 22 يناير 2013 ، سرت : منشورات جامعة سرت ، 2014 ، ص 29 . 32

2. الزرقاء سالم محمد : مؤتمر سرت بين الأسباب والنتائج (21 يناير 1922) ، في مؤتمر سرت للسلام واللحمة الوطنية ، أعمال المؤتمر التاريخي المنعقد تحت شعار عبق الماضي وآمال المستقبل " سرت 21 . 22 يناير 2013

، سرت : منشورات جامعة سرت ، 2014 ، ص 84

3. المرجع السابق ، ص 87 .

حزمة من الإجراءات من أجل إنهاء الخلافات والوصول إلى التهدئة ، وإنهاء حالة الفوضى تحقيقاً للمصلحة العليا الوطنية (1) .

وجاءت مناقشات ممثلي الوفدين معبرة عما كان يعترهم من قلق وخوف على مصير البلاد ، وهو ما انعكس مطالبهم الاثنى عشر التي أطلقوا عليها " ميثاق سرت " التي تضمنت توحيد الكلمة ، وتوحيد الزعامة ، وانتخاب مجلي تأسيسي لوضع القانون الأساسي ، والمشاركة السياسية ، والمناصرة والتضافر على حرب العدو ، وتكوين هيئة منتخبة من أهالي طرابلس وبرقة تجتمع دورياً بواقع مرتين في السنة في شهري محرم ورجب للنظر في مصالح البلاد (2) .

وكان من نتائج مؤتمر سرت ، إنهاء حالة الانقسام والحرب الأهلية والفتن الداخلية ، وحالة عدم الإخلاص للوطن بين جميع الفرقاء السياسيين والقادة العسكريين الميدانيين في جميع المناطق الليبية ، وتوحيد الصف الليبي ، وتكثيف الجهود الوطنية للدفاع المشترك ضد العدو الإيطالي ، وظهور الثورة الشاملة لمواجهة القوات الإيطالية التي انتهجت سياسة إعادة الاحتلال للمدن والأقاليم الليبية كافة (3) .

وتعد هذه الجولة الحوارية فريدة من نوعها لكونها جمعت القيادتين من طرابلس وبرقة لأول مرة في لقاء تحاوري مباشر بينهما ، وهي بذلك تمثل بداية التلاقي بين زعماء الحركة الوطنية على الساحة الليبية ، وليست خاتمة التفاهم ، فمن ناحية لم ينس هؤلاء الزعماء كلية الخلافات القائمة بينهم ، ومن أخرى ، فإن الحكومة الإيطالية لم تسمح لإدريس السنوسي بأن يُمنح إمارة ليبيا موحدة وقوية (4) .

1 . محمد السريتي شطيب ، مرجع سابق ، ص 47 ، سالمه سالم ياسين : المرجع السابق ، ص 138

2 . عمرو سعيد بغني ، " حركة الجهاد الليبي خلال الفترة 1919 . 1921 ، مرجع سابق ، ص 219

3 . الزرقاء سالم محمد ، مرجع سابق ، ص 89 .

4 . محمد السريتي شطيب ، مرجع سابق ، ص 47 ، سالمه سالم ياسين : المرجع السابق ، ص 142

استخلاص

إن المقاربة البحثية التي حاولنا إنجازها في هذه الدراسة بالرجوع إلى أهم المصادر المتوفرة ، وأحدث المراجع والدراسات المنجزة حول الموضوع ، مكنتنا من إبراز الخصوصيات التي اتسم بها الحوار الوطني من قبيل استرجاع السيادة ، وصياغة الدستور ، وإطلاق المؤسسات وحل المنازعات ، وكشف البحث عن امتداد تجارب الحوار الوطني في خبرة الحراك السياسي الليبي تحت الاستعمار نحو عقدين من الزمان دارت خلالها ثلاث تجارب للحوار الوطني ، دعت إليها ظروف ومتغيرات ملحة ، اتخذت شكل أزمات سياسية ضاغطة ، واقتصر الحوار في بعضها على مشاركة طبقة اجتماعية معينة ، وهي طبقة الزعماء والأعيان التي كانت تعد نفسها هي صاحبة اليد الطولي في البلاد ، وإليها تعود مهمة رعاية المصالح العليا للبلاد والعباد ، ودار الحوار في الجولتين السادسة والسابعة بين ممثلين لبعض القوى الاجتماعية في عموم البلاد لاسيما القوي القبلية والجهوية التي نجحت في تمرير آرائها ومواقفها ، كما كان أداء الفئات المهمشة من الطلاب والعمال والفلاحين محدوداً وضعيفاً ، ويأتي أحياناً في شكل ردود أفعال تجاه القرارات المتخذة ، بسبب افتقارهم للخبرة السياسية وتجاوز إدارة الحوار لأدوارهم في العملية الحوارية ، أما مشاركة الطرف الثالث في الحوار الوطني ممثلاً في الأطراف الإقليمية والدولية ، فكانت ضعيفة وغير مؤثرة ولا مقبولة ، وتمثلت في بعض المشاورات والمشورات التي تقدم بها عبد الرحمن عزام .

وكان الحوار الوطني غالباً ينتهي إلى تبني قرارات وتوجهات ذات طبيعة توفيقية ، تحاول تقريب وجهات النظر بين الأطراف المتحاوره ، ولم تتم بلورة برنامج سياسي وطني محدد في تلك الجولات إلا في مؤتمر سرت 1922 .

أما الحالات الأخرى ، فانتتهت بمناقشة موقف سياسي محدد في مواجهة أزمة ناشئة أو ضرورة قائمة وكما وضحت الدراسة ، فإن خبرة الحوار الوطني تكشف عن أهمية التجربة السياسية الليبية رغم ما شابها من سلبيات ، وما أحاط بها من ملامسات في ترشيد الحوار

الوطني الراهن ، خاصة بعد ما وضحت الدراسة التشابه والمماثلة الحاصلة بين موضوعات الحوار تحت الاستعمار والحوار الراهن ، وكذلك من حيث الأطراف المشاركة المحلية المتمثلة في النخب الاجتماعية والإقليمية والدولية والمحددة في جامعة الدول العربية والأمم المتحدة وممثليهما في ليبيا التي أدت دوراً مؤثراً في صياغة التوجهات وإقرار البرامج والآليات وترسيخ المصالحة وبناء المؤسسات .

سورة التوبة معان وأحكام فقهية

د. امحمد عبد الحميد المدني⁽¹⁾

المقدمة

الحمد لله، وبه أستعين، ومنه وحده أستلهم العون والسادد والتأييد، وأصلي وأسلم على خاتم رسله وأنبيائه محمد الهادي إلى نهج الله القويم، وآله وصحبه الطاهرين.

وبعد... فإن القرآن الكريم هو الكتاب الشامل لأعظم تشريع رباني، فهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبين فيه شرعه المستقيم، الذي أراد لعباده أن يسيروا عليه، ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾⁽²⁾.

ونظرا لأهمية الأحكام الفقهية في شريعتنا الغراء التي تضمنها القرآن الكريم مبنوثة في سورة وآياته، وانطلاقا من قوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾⁽³⁾، اخترت لنفسي أن أخوض غمار البحث في سور القرآن الكريم لأستنبط أحكامه الفقهية فاخترت من القرآن الكريم سورة التوبة لتكون موضوع بحثي، وقد عنونته: بـ(سورة التوبة معاني وأحكام فقهية)، حيث قسمته إلى مقدمة، ومبحثين وخاتمة.

أما المقدمة: فخصصتها لأهمية الموضوع وسبب اختياره.

وأما المبحث الأول: فخصصته للحديث عن السورة من حيث اسمها وعلاقتها بما قبلها، ثم ختمته بالحديث عن المقاصد العامة التي تناولتها السورة.

وبيّنت في المبحث الثاني: بعض الأحكام الفقهية التي تعرضت لها هذه السورة.

(1) عضو هيئة تدريس بقسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب - الأصابعة، جامعة الجبل الغربي.

(2) طه: 123-124.

(3) الإسراء: 9.

وأخيرا دونت ما توصلت إليه من نتائج في الخاتمة.

المبحث الأول: مقدمة عامة عن السورة

أولا: أسماء السورة:

تعد سورة التوبة من أواخر ما نزل عن النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ كما يروي ذلك الصحابي الجليل البراء بن عازب حيث قال: "آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾⁽¹⁾ وآخر سورة نزلت براءة"⁽²⁾.

وقد نزلت هذه السورة بعد سورة المائدة في السنة التاسعة للهجرة، ويأتي ترتيبها في المصحف السورة التاسعة بعد سورة الأنفال وقبل سورة يونس، وهي مدنية النزول بالاتفاق؛ إلا أن بعضهم استثنى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾⁽³⁾، لما روي أنها نزلت في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لعمه أبي طالب: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»⁽⁴⁾، كما استثنى بعضهم الآيتين الأخيرتين وقالوا بأنهما نزلا في مكة⁽⁵⁾، وكذلك اختلف في عدد آياتها، فعدّها أهل المدينة ومكة والبصرة والشام مائة وثلاثون، بينما عدّها أهل الكوفة مائة وتسعا وعشرين آية⁽⁶⁾.

وقد وردت لهذه السورة عدة تسميات تميزت بها عن غيرها من السور، حيث ذكر لها المفسرون أكثر من عشرة أسماء وهي كالاتي:

(1) النساء: 176.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب لبراءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، حديث رقم (4377)، 1709/4.

(3) التوبة: 113.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: لما كان للنبي والذين آمنوا...، حديث رقم (4398)، 1717/4.

(5) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 59/4.

(6) ينظر: التحرير والتنوير: 98-97/10.

1- التوبة: لتكرار لفظ التوبة فيها، وكذلك ذُكر فيها التوبة على الثلاثة الذين تخلفوا عن تبوك.

2- براءة: لافتتاحها بهذه الكلمة.

3- الفاضحة: لما روي عن سعيد بن جبير أنه قال: "قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ سُورَةُ التَّوْبَةِ قَالَ: التَّوْبَةُ، قَالَ: بَلْ هِيَ الْفَاضِحَةُ مَا زَالَتْ تَنْزِلُ وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ حَتَّى ظَنُّوا أَنْ لَا يَبْقَى مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا ذَكَرَ فِيهَا"⁽¹⁾.

4- سورة العذاب: لأنها نزلت بعذاب الكفار، ولتكرار اللفظ فيها أكثر من مرة.

5- المقشقة: القشقة تعني التبرئة، وهي مبرئه من النفاق.

6- المثيرة: لأنها أثارت عورات المنافقين وأخرجتها.

وغيرها من الأسماء الأخرى كالحافرة والبحوث والمشردة⁽²⁾.

وأما فضلها فلم ترد فيها أحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكن يروى عن عمر ابن الخطاب أنه قال: "تعلموا سورة براءة، وعلموا نساءكم سورة النور"⁽³⁾.

البسمة في السورة:

تميزت هذه السورة عن غيرها من سور القرآن بعدم ذكر البسمة في أولها، ولقد اختلفت الأقوال وتعددت في سبب عدم افتتاحها بالبسمة، وأهم هذه الأقوال ما يلي:

(1) أخرجه مسلم في صحيحه: حديث رقم (7743)، 245/8.

(2) ينظر أسماء السورة في: محاسن التأويل: 3060/8، التحرير والتنوير: 95/10، تفسير النسفي: 114/2، التفسير الوسيط: لسيد طنطاوي: 177/6.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 477/2، تح: محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ، وينظر: التفسير بالمأثور عن عمر ابن الخطاب: لإبراهيم بن حسن، الدار العربية للكتاب، 1994م، ص 423.

الأول: لم يبسمل في أولها لأن الصحابة الذين قاموا بكتابة المصحف الإمام لم يكتبوا بالبسمة في أولها؛ لأنهم اقتدوا في ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه- الذي رأى عدم الفصل بين سورة الأنفال وسورة التوبة بالبسمة؛ لأنه خشي أن تكون سورة واحدة، حيث قال: "... وَكَانَتْ الْأَنْفَالُ مِنْ أَوَائِلِ مَا أَنْزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ وَكَانَتْ بَرَاءَةً مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ وَكَانَتْ فَصْتَهَا شَبِيهَةً بِفَصْتِهَا فَظَنَنْتُ أَنَّهَا مِنْهَا فَفِيضَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَرَنْتُ بَيْنَهُمَا وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَوَضَعْتُهَا فِي السَّبْعِ الطَّوْلِ" (1).

الثاني: قيل لم يبسمل في أولها لأن البسمة رحمة وأمان، وسورة التوبة نزلت بحدّ السيف، حيث سئل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- : لِمَ لَمْ تَكْتُبْ فِي بَرَاءَةِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ؟ فقال: "لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان" (2).

الثالث: أنه لم يبسمل في أولها تماشياً مع بلاغة العرب وفصاحتهم؛ ولأن القرآن نزل بلغتهم ولإعجازهم، فقد كان من عادات العرب في الجاهلية أنهم إذا كان بينهم وبين قوم عهد وميثاق وأرادوا نقضه، كتبوا إليهم كتاباً دون أن يفتتحوه بكلمة (باسمك اللهم)، فلما نزلت هذه السورة بنقض العهد بين النبي -صلى الله عليه وسلم- وبين المشركين بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- علياً بن أبي طالب -رضي الله عنه- ليقرأها على المشركين في موسم الحج، فقرأها ولم يبسمل في أولها جرياً على عادتهم في رسائل نقض العهود (3).

(1) أخرجه الترمذي في سننه: حديث رقم (3086)، 223/5، تح: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، وينظر: تفسير القرآن العظيم: 59/4، أضواء البيان في توضيح القرآن بالقرآن: 112/2.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک، حديث رقم (3273)، 360/2، تح: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ، وينظر: الجامع لأحكام القرآن: 62/8 .

(3) ينظر: التحرير والتنوير: 101/10.

الرابع: قيل لم يبسمل في أولها؛ لأن البسملة سقطت مع سقوط أول السورة، كما روي ذلك عن الامام مالك حيث قال: "بلغنا أنّ سورة براءة كانت نحو سورة البقرة ثم نسخ ورفع كثير منها وفيه البسملة فلم يروا بعد أن يضعوه في غير موضعه"⁽¹⁾.

والراجح من الأقوال المتقدمة هو القول الأول؛ لأن القرآن الكريم هو أمر توقيفي فلا يجوز الزيادة فيه، فلمّا لم يجد الصحابة البسملة مثبتة في أول السورة تركوها بدون بسملة، وقد رجح ابن العربي هذا القول⁽²⁾.

علاقة السورة بما قبلها:

إن العلاقة بين سورة التوبة وسورة الأنفال قبلها علاقة تكاملية؛ حيث جاءت سورة التوبة لتكمّل كثيرا من الأحكام التي جاءت في سورة الأنفال فمثلا:

أن سورة الأنفال قد ختمت بالكشف عن الحدود الفاصلة بين المؤمن وغير المؤمن، بحيث وضحت موقف كل منهما من الآخر، فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض، والكافرون بعضهم أولياء بعض، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾⁽³⁾، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾⁽⁴⁾، في حين جاءت هذه الأحكام مفصلة في سورة التوبة، حيث بدأت السورة بهذا الإعلان العام الذي كان تفصيلا لها: ﴿بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽⁵⁾ حيث جاءت البراءة من المشركين، ومن العهود المعقودة بينهم وبين المسلمين، وكذلك ذُكرت العهود في سورة الأنفال وجاءت تلك

(1) ينظر: المحرر الوجيز: لابن عطية، تح: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ، 3/3، التحرير والتنوير: 10/102، أضواء البيان: 2/112.

(2) ينظر: أحكام القرآن: 2/893، البيان والتحصيل: 17/36-37.

(3) الأنفال: 72.

(4) الأنفال: 73.

(5) التوبة: 1.

العهد مفصلة في سورة التوبة، كما فصلت سورة التوبة الحديث عن النفاق وأهله، بينما ذُكر مجملًا في سورة الأنفال.

لهذا وغيره من المناسبات الجامعة بين السورتين كان ترتيبهما في المصحف على هذا النسق⁽¹⁾.

المقاصد العامة للسورة⁽²⁾

نزلت هذه السورة لتحديد علاقة المسلمين بأعدائهم، وكيفية التعامل معهم في حالتي السلم والحرب، حيث افتتحت بتحديد مدّة العهود والمواثيق التي كانت بين النبي -صلى الله عليه وسلم- وبين المشركين، وإظهار البراءة منهم حيث قال تعالى: ﴿بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽³⁾، وأوجب الله سبحانه وتعالى مع هذه البراءة ضرورة الوفاء بالعهود مع المشركين الذين لم ينقضوا عهودهم مع المسلمين فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾⁽⁴⁾، أما الذين نقضوا العهود والمواثيق مع المسلمين ولم يوفوا بأيمانهم وجب عليكم قتالهم، ثم جعلت السورة للقتال قيده وهو انتهاء الأشهر الحرم يقول تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ...﴾⁽⁵⁾، ولكن يجب تمكين المشركين من تلقي الدعوة وسماع القرآن إن هم أرادوا ذلك، يقول الحق تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى

(1) ينظر: تفسير المراغي: لأحمد المراغي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1953م، 50/10،

تفسير القرآن للقرآن: لعبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت، 693/3.

(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 66/4 وما بعدها، التحرير والتنوير: 99/10 وما بعدها، زهرة التفاسير:

لأبي زهرة، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت، 325-321/41، النظم الفني في القرآن: ص130-

(3) التوبة: 1.

(4) التوبة: 4.

(5) التوبة: 5.

يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ ... ﴿⁽¹⁾﴾، ثم بينت السورة السبب أو الحكمة في البراءة من المشركين فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ...﴾ ﴿⁽²⁾﴾، أي كيف يعطى لهم الأمان وهم مشركون بالله غير مصدقين بنبيه.

ثم يبين الله تعالى في هذه السورة الكريمة شرط الإخاء بين المسلمين والمشركين وهو الإيمان بالله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ...﴾ ﴿⁽³⁾﴾، وبعد ذلك بينت السورة الكريمة شرط عمارة مساجد الله وهو الإيمان، فذكرت أنه لا يجوز للمشركين أن يعمرؤا مساجد الله لأنهم لا يؤمنون بالله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ ...﴾ ﴿⁽⁴⁾﴾، بل إن عمارة مساجد الله هي من حق من آمن بالله وحده وصدق برسوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ...﴾ ﴿⁽⁵⁾﴾.

وكذلك نزلت هذه السورة لإبطال بعض عادات الجاهلية التي كانوا يعتزُّون بأنهم أهل لها، وكانوا يتفاخرون بها أمام المسلمين: كسفاية الحجيج، وعمارة المسجد الحرام فقال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ...﴾ ﴿⁽⁶⁾﴾، ثم حذر الله المؤمنين من أن يتخذوا المشركين أعوانا لهم ولو كانوا من أقاربهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنَّ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ...﴾ ﴿⁽⁷⁾﴾، وبعد ذلك بيَّنت السورة أن النصر على الكفار

(1) التوبة: 6.

(2) التوبة: 7.

(3) التوبة: 11.

(4) التوبة: 12.

(5) التوبة: 18.

(6) التوبة: 19.

(7) التوبة: 23.

لا يكون بالكثرة وإنما هو من عند الله، ذلك لأنهم ظنوا يوم حنين⁽¹⁾ أنهم سيغلبون الكفار لكثرتهم ونسوا أن التوكل على الله هو سبيل النصر، فهُزِموا في أول المعركة حتى أيقنوا بتلك الحقيقة ورجعوا إلى الله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾⁽²⁾.

ثم بين الله تعالى أن الإسلام عزيز والمسلمين أعة، فأراد الله أن يُذِلَّ أعداء الإسلام، بأن خيرهم بين قتال المسلمين أو إعطاء الجزية وهم أذلاء صاغرون: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾⁽³⁾، وبعد ذلك بيّنت هذه السورة عدد الشهور في السنة، وهي اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم⁽⁴⁾ لا يحل فيها القتال؛ لأنها أيام حجّ وانتقال إلى بيت الله الحرام، حيث ينشغل فيها المرء بأداء المناسك وينقطع للعبادة دون سواها: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ...﴾⁽⁵⁾، وكذلك أبطل النسيء⁽⁶⁾ الذي كان من عادات الجاهلية: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيَحْرَمُونَهُ عَامًا ...﴾⁽⁷⁾.

(1) يوم حنين: حنين اسم وادي بين مكة والطائف حدثت فيه معركة بين المسلمين في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وبين هوازن وثقيف، ينظر: تفسير القرآن العظيم: 73/4.

(2) التوبة: 25.

(3) التوبة: 29.

(4) الأشهر الحرم هي: ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، رجب، ينظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب باب حجة الوداع، حديث رقم (4405).

(5) التوبة: 36.

(6) النسيء: عادة كانت في الجاهلية حيث كانوا يتلاعبون بالأشهر الحرم، فيقدمونها عاماً، ويؤخرونها العام المقبل، ينظر: تفسير القرآن العظيم: 150/4.

(7) التوبة: 37.

ثم حرّض الله المؤمنين على الجهاد في سبيله والإسراع في ذلك ف جاء التحريض بطريقة العتاب على تباطئهم بإجابة المنادي إلى الجهاد فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ ...﴾⁽¹⁾، ثم أورد ذم المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد بلا عذر يبيح لهم ذلك، وقد قسمهم إلى أقسام:

أولها: الذين إذا دعاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الجهاد تمنعوا على ذلك ولجؤوا إلى الحجج ليأذن لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في القعود والتخلف عن الجهاد، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ...﴾⁽²⁾، ثم بين الله تعالى بأن هؤلاء المنافقين يفرحون إذا أصابت الرسول -صلى الله عليه وسلم- مصيبة ويحزنون إذا أصابته حسنة: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ...﴾⁽³⁾.

ثانيها: الذين يطعنون في حكم النبي -صلى الله عليه وسلم- في توزيعه الصدقات المفروضة، ويزعمون أنه يخص بها أهله وخاصته، فإن أعطاهم منها رضوا وإن لم يعطهم منها سخطوا عليه، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾⁽⁴⁾، ولكن الله دافع عن نبيه وردّ طعنهم في قسمة النبي -صلى الله عليه وسلم- للصدقات فبين مصارفها حيث قال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ...﴾⁽⁵⁾.

(1) التوبة: 38.

(2) التوبة: 49.

(3) التوبة: 50.

(4) التوبة: 58.

(5) التوبة: 60.

ثالها: الذي يؤذون النبي -صلى الله عليه وسلم- بأقوالهم ويقولون هو أذن؛ لادعائهم بأنه يسمع ما يقال له: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلٌ أذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ ...﴾⁽¹⁾.

وبعد أن بيّنت الآية أقسام المنافقين ومدى بُغضهم للنبي -صلى الله عليه وسلم- والمسلمين؛ بيّنت الآية شدّة غضب الله تعالى عليهم، حتى إنه أمر نبيه بعدم الاستغفار لهم؛ لأنه لن يغفر لهم: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ...﴾⁽²⁾، وليشدّد عليه العذاب النفسي أمر نبيه كذلك بعدم الصلاة على من يموت منهم وعدم القيام على قبره فقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ...﴾⁽³⁾.

ولكي يطمئن الله تعالى المؤمنين بعد أن نهى نبيه من الاستغفار للمنافقين والصلاة عليهم ختم السورة بآيتين لتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم إذ بعث فيهم أفضل خلقه محمد -صلى الله عليه وسلم-، والتتويه بصفاته الجامعة للكمال، من حيث حرصه على هدايتهم، ورغبته في إيمانهم ليكون رؤوفاً رحيماً بهم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾⁽⁴⁾.

(1) التوبة: 61.

(2) التوبة: 80.

(3) التوبة: 84.

(4) التوبة: 128.

المبحث الثاني: بعض الأحكام الفقهية التي تعرضت لها هذه السورة

من خلال تتبع السورة يمكن تقسيم هذا المبحث إلى قسمين: قسم يتعلق بأحكام الجهاد، والثاني يتعلق بأحكام الزكاة.

أولاً: أحكام تتعلق بالجهاد⁽¹⁾

لقد احتوت هذه السورة على مجموعة من الأحكام التي تتعلق بالجهاد، ومن هذه الأحكام:

1- حكم الجهاد:

حيث بينت هذه السورة في مجموعة من الآيات حكم الجهاد، وأن الجهاد قد يكون فرض عين أو فرض كفاية.

فيكون فرض عين إذا دخل العدو بلاد المسلمين واحتل جزءاً منها، عند ذلك يتعين القتال على جميع أهل تلك البلاد، " خفافاً وثقالاً، وركباناً ورجالاً، عبيداً وأحراراً، من كان له أب من غير إذنه، ومن لا أب له، حتى يظهر دين الله ... ولا خلاف في هذا "⁽²⁾، فإن لم يستطيعوا رد العدو وتحرير بلادهم عندها يصبح الجهاد فرض عين على البلاد التي تليهم من البلاد الإسلامية، وهكذا يستمر حتى يتعين القتال على جميع بلاد المسلمين⁽³⁾، يقول تعالى: ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾⁽⁴⁾.

(1) الجهاد هو: قتال مسلم كافراً غير ذي عهد لإعلاء كلمة الله أو حضوره له أو دخول أرض له. ينظر: شرح حدود ابن عرفة: للرصاع، المكتبة العلمية، القاهرة، ط1، 1350هـ، ص139.

(2) أحكام القرآن: 515/2-516.

(3) ينظر: أحكام القرآن: 515/2-516، الفقه الإسلامي وأدلته: وهبة الزحيلي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1984م، 416/6.

(4) التوبة: 41.

ويكون فرض كفاية⁽¹⁾ إذا أمن المسلمون في ديارهم ولم يهجم عليهم العدو، وإنما كان الجهاد هنا لقتل عدو بعيد لا يؤمن شره، أو دعوة كافر للإسلام فإن أباي فالقتال أو دفع الجزية، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾⁽²⁾، فدللت هذه الآية على أن النفير للقتال لا يكون عاما لجميع المسلمين، بل يجوز أن يقعد منهم نفر لتعليم دين الله، يقول القرطبي: "إن الجهاد ليس على الأعيان وأنه فرض كفاية كما تقدم؛ إذ لو نفر الكل لضاع من وراءهم من العيال، فليخرج فريق منهم للجهاد وليقم فريق يتفقهون في الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع"⁽³⁾.

وهذا الحكم من نعم الله علينا، إذ لو كان الجهاد فرض عين في كل الأوقات لتعسر ذلك، ولوقع المسلمون في الحرج، ولما تمكن المسلمون من القيام بمصالح دنياهم، ولقوبل بالنقض والرفض، ولكن الله تعالى جعل الغاية من الجهاد أن يأمن المسلمون في ديارهم ويتمكنوا من القيام بمصالح دينهم ودنياهم⁽⁴⁾.

2- فضل الجهاد:

لا شك أن للجهاد فضلاً عظيماً يفوق كل تصور، إذ أن المسلم يبذل فيه أعلى شيء عنده وهي نفسه، فلا بد أن يكون ثمن هذه النفس شيئاً أعظم منها: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي النَّوْرَِةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي

(1) فرض الكفاية معناه أنه إذا قام بعض الناس سقط عن الباقيين. ينظر: البحر المحيط في أصول الفقه: للزركشي، تح: محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1421هـ، 194/1-195.

(2) التوبة: 122.

(3) الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، تح: هشام البخاري، دار عالم الكتاب، الرياض، 1423هـ، 293/8.

(4) ينظر: المبسوط: للسرخسي، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط3، 1978م، 3/9.

بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»⁽¹⁾، قال ابن العربي: " وهو عوض عظيم، لا يدانيه معوض ولا يقاس به؛ ولهذا يروى عن ابن عباس أنه لما قرأ هذه الآية قال: ثامنتهم والله وأعلى الثمن، يريد أنه أعطاهم أكثر مما يجب لهم في حكم المتاجرة، ولم يأت الربح على مقدار الشراء؛ بل زاد عليه وأرى"⁽²⁾.

وكذلك من الآيات التي تحدثت عن فضل الجهاد والمجاهدين في هذه السورة قوله تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾⁽³⁾، فقد بين الله تعالى في هذه الآية أن الجهاد أعظم من سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام، وبهذا يكون الجهاد أفضل الأعمال وأحسنها للمسلم عند الحاجة للجهاد، قال القرطبي: " واستدل بها النبي -صلى الله عليه وسلم- على أن الجهاد أفضل"⁽⁴⁾.

3- من يجوز له التخلف عن الجهاد:

لما جاء الأمر من الله تعالى بامتثال أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- عندما أمرهم بالخروج لقتال الروم فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾⁽⁵⁾، كثر استئذان الناس من النبي -صلى الله عليه وسلم- ليأذن لهم في التخلف عن الجهاد، وكانت أعارهم واهية فقال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا

(1) التوبة: 111.

(2) أحكام القرآن لابن العربي: 589/2.

(3) التوبة: 19-20.

(4) الجامع لأحكام القرآن: 92/8.

(5) التوبة: 38-39.

وَتَعَلَّمَ الْكَادِبِينَ ﴿١﴾ ، ثم أغلق الله الباب أمام المعتذرين، بل جعل من يعتذر عن الجهاد مع القدرة عليه منافق فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾⁽²⁾، وبعد أن كثرت الأعدار وازداد المعتذرون حدّد الله من يجوز له الاعتذار عن الخروج للقتال وذكر أصنافهم فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾⁽³⁾، فقطعت هذه الآية الطريق أمام المنافقين ومن اتبع طريقهم وكان غرضهم من الاعتذار هو الفرار من القتال.

يقول القرطبي في هذه الآية أنها " أصل في سقوط التكليف عن العاجز؛ فكل من عجز عن شيء سقط عنه"⁽⁴⁾، فحدّدت الآية أصحاب الأعدار الذين يسقط عنهم الجهاد وهم: الضعفاء، والضعيف هو: الهرم، ومن خلق في أصل البنية شديد النحافة والضؤولة، بحيث لا يمكنه الجهاد، والمريض: من عرض له مرض لا يستطيع معه التجهيز للجهاد، والذين لا يجدون ما ينفقون، وهم الفقراء⁽⁵⁾، "والجمهور من العلماء على أن من لا يجد ما ينفقه في غزوه أنه لا يجب عليه"⁽⁶⁾، وقد خالف المالكية في ذلك وقالوا: إن من كانت عادته الفقر وجب عليه الخروج للجهاد⁽⁷⁾، والراجح قول الجمهور لعموم الآية في كل من لا يجد ما ينفق سواء كانت عادتهم أم لم تكن، والله أعلم.

(١) التوبة: 43.

(٢) التوبة: 45.

(٣) التوبة: 90-91.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: 226/8.

(٥) ينظر: تفسير البحر المحيط: لأبي حيان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ، 87/5 .

(٦) الجامع لأحكام القرآن: 229/8.

(٧) ينظر: أحكام القرآن: 563/2، الجامع لأحكام القرآن: 229/8.

4- حفظ العهود والمواثيق:

من الأحكام المتعلقة بالجهاد وقتال العدو حفظ العهود والمواثيق بينهم، حيث إن الأصل في الشريعة الإسلامية حفظ العهود والمواثيق ويقائها إلى نهاية المدّة المنفق عليها بين الطرفين، فالمسلمين ملزمين على الوفاء بالعهود، لأنهم مأمورون بذلك فقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾⁽¹⁾، فلا يجوز لهم نقض العهود مع من وقى بعده معهم⁽²⁾.

ولكن يجوز للمسلمين نقض العهود مع معاهديهم في حالتين ذكرتهما سورة التوبة فقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَكَثُرَ آيْمَانُهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَنَّمَا الْكُفْرُ إِنَّهُمْ لَا آيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾⁽³⁾، حيث بيّنت الآية الحالتين اللتين يجب فيهما نقض العهود مع المشركين، وهما:

الحالة الأولى: إذا بدأ المشركون بنقض العهد مع المسلمين.

الحالة الثانية: إذا طعنوا في دين الله، أو سبوا الرسول؛ عندها وجب على المسلمين نقض ذلك العهد وقتالهم حتى يرجعوا عما قالوا، حفاظا على الدين⁽⁴⁾.

كما استدل العلماء بهذه الآية على وجوب قتل المسلم إذا طعن في الدين، كأن ينسب إليه ما لا يليق به، أو ينكر أصلا من أصوله؛ لما ثبت من الدليل القطعي على صحة أصوله واستقامة فروعه.

(1) التوبة: 4.

(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 64/4، أحكام القرآن: 454/2، الجامع لأحكام القرآن: 71/8.

(3) التوبة: 12.

(4) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 68-69/8، التحرير والتنوير: 131-129/10، زهرة التفاسير:

3228/41 وما بعدها.

أما الذمي إذا طعن في الدين فإنه يقتل، وهذا مذهب الجمهور، بينما خالفهم الحنفية في ذلك، وقالوا: بأنه لا يُقتل بل يُستتاب⁽¹⁾.

والراجح قول الجمهور؛ لما روي "أن امرأة يهودية كانت تشتم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتقع فيه، فخنقها رجل حتى ماتت، فأبطل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دَمَهَا"⁽²⁾.

5- إجارة المستجير:

ومن الأحكام -أيضا- المتعلقة بالجهاد التي أقرتها سورة التوبة إجارة المستجير، فقد أمر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- بأن يستأمن المشرك إذا طلب منه ذلك: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾⁽³⁾، لما فيه من المصلحة التي تعود على الإسلام بكثرة أتباعه، وكذلك استئمان المشرك يترتب عليه سماعه لكلام الله وتعلم شرعه الحكيم، مما يؤدي أحيانا لدخوله إلى الإسلام.

والآية موجّهة للنبي -صلى الله عليه وسلم- ومعناها: وإن أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم طلب منك الأمان فأعطه إياه، ومكّنه من سماع كلام الله وبيان حجته، وهذا يبين لنا سماحة هذا الدين وأنه لم ينتشر بحد السيف كما يزعم أعداء الإسلام، بل انتشر وشاع في ربوع الأرض بالحجة والإقناع واللين، ولم تكن مهمة المسلمين النيل من الكفار كما

(1) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 82/8، تفسير البحر المحيط: 13/5.

(2) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الأدب، باب الحكم فيمن سبّ النبي، 433/1، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر بيوت، د.ت، وقال الألباني: "وإسناده صحيح على شرط الشيخين".

ينظر: إرواء الغليل: للألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1405هـ، 91/5.

(3) التوبة: 6.

زعموا، بل كان هدفهم انتشار هذا الدين، فإن لم يؤمن ولم يقتنع بهذا الدين فأبلغه موضع أمنه مع مراعاة المحافظة عليه حتى يصل إلى ديار قومه، وبعد ذلك يجوز لك قتاله⁽¹⁾.

فالآية الكريمة تدل على وجوب تأمين المشرك الحربي إذا طلب هو ذلك وأراد سماع القرآن والنظر في حجة الإسلام، لما فيها من مصالح عامة تعود على الإسلام والمسلمين، وهذه الإجارة إما أن تكون من أمير أو مأمور، فأما الأمير فلا خلاف في إجارته؛ لأنه نائب عن الجميع ومقدم للنظر في مصالحهم، وأما الإجارة من قبل المأمور - الرعية - فقد اختلف فيها العلماء، حيث قالوا بإمضاء أمان الحرّ، وأما العبد فإن أمانه يمضي عند الجمهور، بنمها خالفهم الحنفية فقالوا: بأنه لا يجوز أمانه⁽²⁾.

والراجح - والله أعلم - قول الجمهور في أمان العبد؛ لعموم دخوله في قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَيُرَدُّ عَلَى أَقْصَاهُمْ »⁽³⁾.

6- الجزية:

الجزية: من الجزاء، ما تفرضه الدولة على رؤوس أهل الذمة، وهي تضرب على الأشخاص لا على الأرض⁽⁴⁾، قال تعالى: « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ »⁽⁵⁾، والمقصود باليد في الآية: السعة والقدرة،

(1) ينظر: تفسير البحر المحیط: 13/5، أوضح التفاسير: لمحمد الخطيب، المطبعة المصرية، ط6، 1994م، ص222.

(2) ينظر: أحكام القرآن: للخصاص، دار الكتاب العربي، بيروت، دت، 83/3-84، أحكام القرآن لآين العربي: 458/2-459، الجامع لأحكام القرآن: 76/8-77.

(3) أخرجه: ابن ماجة في سننه، كتاب الديات، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم، حديث رقم (2683)، 895/2، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، دت.

(4) ينظر: معجم لغة الفقهاء: ص164.

(5) التوبة: 29.

والصغار والصغر: ضد الكبر، وتشمل المعنى الحسي والمعنوي، والمراد بها في الآية الخضوع لأحكام الإسلام وسيادته، فتصغر أنفسهم بها، إذ أنهم فقدوا الملك وعجزوا عن مقاومة الحكم⁽¹⁾.

ممن تؤخذ الجزية:

اختلف الفقهاء فيمن تؤخذ منهم الجزية، أو على من تجب الجزية، فذهب الإمام الشافعي إلى أن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب خاصة عربا كانوا أم عجماء؛ لنص هذه الآية، ولأنهم هم الذين خُصوا بالذكر فتوجه الحكم إليهم دون سواهم، قال تعالى: «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ... مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ»، أما المشركين من غير أهل الكتاب فقد قال فيه الله تعالى: «فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ»⁽²⁾ فلم يذكر فيها الجزية، وإنما ذكر القتال فقط⁽³⁾، بينما ذهب الجمهور إلى أنها تؤخذ من كل عابد وثن أو نار أو جاحد أو مكذب إلا المرتد⁽⁴⁾، وأما المجوس فقد اتفق العلماء على أخذ الجزية منهم⁽⁵⁾، فقد نقل ابن المنذر الإجماع على ذلك⁽⁶⁾.

(1) ينظر: تفسير اللباب: لابن عادل، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، 66/10-67، تفسير المراغي: 16/10.

(2) التوبة: 5.

(3) ينظر: أحكام القرآن: للجصاص: 112/3-113، الحاوي: للماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1414هـ، 298-299.

(4) ينظر: ينظر: أحكام القرآن: لابن العربي: 288/2-289، الجامع لأحكام القرآن: 110/8، مواهب الجليل: 380/3-381.

(5) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 111/8.

(6) ينظر: الإجماع: لابن المنذر، تح: أبو حماد صغير، مكتبة الفرقان، عجمان، ط2، 1420هـ، ص81.

مقدار الجزية:

لم يتفق العلماء على مقدار الجزية التي تؤخذ من الكفار، لأنه لم يأت نص من القرآن يحدد ذلك، ولا نصاً من السنة صريح في تحديد ذلك، فقال عطاء (ت114هـ): لا توقيف فيها وإنما هو ما صولحو عليه، إلا أن الشافعي حدّد الجزية فجعلها ديناراً من ذهب على الغني والفقير من الأحرار البالغين لا ينقص عنه شيء، واحتج لذلك بما روي عن معاذ بن جبل أنه قال: «بَعَثَنِي النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- إِلَى الْيَمَنِ فَأَمَرَنِي أَنْ آخُذَ مِنْ كُلِّ ثَلَاثِينَ بَفَرَّةٍ تَبِيْعًا أَوْ تَبِيْعَةً وَمِنْ كُلِّ أَرْبَعِينَ مُسِنَّةً وَمِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا أَوْ عِدْلَهُ مَعَاوِرَ»⁽¹⁾، ثم قال الشافعي: إن صالحوا على أكثر من ذلك جاز⁽²⁾، بينما ذهب المالكية إلى أنها أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الورق الغني منهم والفقير على حدّ سواء⁽³⁾، أما الأحناف والحنابلة فلهم أقوال في مقدارها، فذهبوا إلى أنها اثنا عشر وأربعة عشر، وأربعون درهماً؛ لأنهم قد استندوا إلى أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- جاء عنه أقوال مختلفة في تقديرها، فللولي أن يأخذ بأيّها شاء⁽⁴⁾.

والراجع من الأقوال قول عطاء بأنها غير توقيفية، ولإمام أن يصلح على أي قيمة، مع مراعاة الكثرة والقلّة؛ لما روي عن ابن لجيم أنه قال: قُلْتُ لِمَجَاهِدٍ: «مَا بَالُ أَهْلِ الشَّامِ عَلَيْهِمْ أَرْبَعَةُ دَنَانِيرٍ، وَعَلَى أَهْلِ الْيَمَنِ دِينَارٌ؟ قَالَ: إِنَّمَا جُعِلَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْيَسَارِ»⁽⁵⁾.

(1) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزكاة، باب ما جاء في زكاة البقر، حديث رقم (623)، 20/3، وقال: حديث حسن، تح: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

(2) ينظر: المجموع شرح المذهب: 391/19.

(3) ينظر: أحكام القرآن: لابن العربي: 477/2، الجامع لأحكام القرآن: 112/8.

(4) ينظر: المبسوط: 132/10، المغني: لابن قدامة، دار الفكر، بيروت، 1405هـ، 566/10، الجامع لأحكام القرطبي: 112/8.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب، 1150/3، تح: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط3، 1407هـ.

ثانيا: أحكام تتعلق الزكاة:

الزكاة هي: إخراج جزء مخصوص، من مال مخصوص، بلغ نصابا وحال عليه الحول، ويعطى لمستحقه⁽¹⁾، والزكاة فرضت في السنة الثانية من الهجرة على أرجح الأقوال⁽²⁾.

ومن الأحكام التي احتوت عليها هذه السورة وتتعلق بالزكاة ما يلي:

1- فرضية الزكاة:

لقد وردت في هذه السورة آيات تدل على فرضية الزكاة، بل إن أول آية فرضت الزكاة على المسلمين ذكرت في هذه السورة قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾⁽³⁾، حيث قال ابن العربي: "اختلف الناس في هذه الصدقة المأمور بها؛ فقيل: هي الفرض، أمر الله بها هاهنا أمرا مجملا لم يبين فيها المقدار، ولا المحل، ولا النصاب، ولا الحول؛ وبين في سورة الأنعام المحل وحده، ووكل بيان سائر ذلك إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-"⁽⁴⁾، وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾⁽⁵⁾، وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾⁽⁶⁾، فكل هذه الآيات تدل على مكانة الزكاة في الإسلام. وأنها ركن رصين من أركان الدين.

(1) ينظر: معجم لغة الفقهاء: ص278.

(2) ينظر: نيل الأوطار: للشوكاني، تح: عصام الدين السباطي، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1993م، 183/4.

(3) التوبة: 103.

(4) أحكام القرآن: 578/2.

(5) التوبة: 11.

(6) التوبة: 34.

2- عقاب مانعي الزكاة:

تعتبر الزكاة ركنا من أركان الإسلام، وقد ذكرها الله في آيات كثيرة لبيان مدى أهميتها وفرضيتها، بل إن أغلب الآيات التي ذكرت الزكاة قرنتها بالصلاة للتأكيد على مرتبتها في الإسلام وأنها أخت الصلاة، فلا صلاة بدون زكاة؛ لأجل ذلك كان حكم منكر فرضيتها الكفر، ووجب قتله لأنه أنكر أصلا من أصول الإسلام، وأما من أنكر وجوب الزكاة جهلا بها، لم يُحكم بكفره، بل يُعزف بوجوبها، ولكن من امتنع عن أدائها مع اعترافه بفرضيتها فإنه لا يكفر، بل يعزّر في ذلك⁽¹⁾.

وأما عقابه في الآخرة فقد ذكر الله جزءا منه في هذه السورة حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ﴾⁽²⁾، فالآية ذكرت من يكنز الذهب والفضة دون أن يؤدي ما فرضه الله فيها من زكاة فإن له هذا النوع من العذاب، والمخاطب في هذه الآية ليس للمسلمين فقط، بل هي عامة للمسلمين وغيرهم، أي أن غير المسلم مخاطب بالشرائع ويعاقب على تركها⁽³⁾.

والمراد بالكنز في اللغة: هو المال المجموع، كان فوق الأرض أو تحتها⁽⁴⁾، أما في الشرع: فهو كل مال مجموع بلغ نصاب الزكاة ولم يؤد صاحبه زكاته، فإخراجها يخرج المال عن وصف الكنزية مهما كثر⁽⁵⁾، وقد روي عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أنه

(1) ينظر: المهذب: 1/141، المغني: 2/434-435، الذخيرة: 8/3.

(2) التوبة: 34-35.

(3) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي: 2/491-492، الجامع لأحكام القرآن: 8/123.

(4) ينظر: الصحاح: 925، (كنز).

(5) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي: 2/489.

كان يقول: " كل مال تؤدي زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونا وكل مال لا تؤدي زكاته فهو كنز وإن لم يكن مدفونا "(1).

وكذلك دلّت الآية على وجوب الزكاة في النقيدين الذهب والفضة وما يقوم مقامهما، وهذا سنتحدث عليه في الفقرة التالية.

3- زكاة الذهب والفضة:

استدل العلماء على وجوب زكاة الذهب والفضة وما في حكمهما بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (2)، قال القرطبي: " تضمنت هذه الآية زكاة العين "(3)،

وقد بينت السنة الكريمة الأموال التي تكون فيها الزكاة، وبينت نصاب كل نوع منها، ومتى يجب على المسلم الزكاة في تلك الأموال، وقد بين النبي -صلى الله عليه وسلم- نصاب الزكاة في النقيدين فقال: « لَيْسَ فِيهَا دُونَ خَمْسِ أَوْاقٍ صَدَقَةٌ » (4)، والأوقية أربعون درهما، ويقدر نصاب الذهب في عصرنا هذا بـ(85 جراما)، ونصاب الفضة بـ(595جراما) (5)، فمن بلغ النصاب، وحال عليه الحول وجب عليه إخراج ربع العشر من ذلك، ويدخل في حكم الذهب والفضة الأوراق النقدية الموجودة في عصرنا الحالي، ونصابها هو نصاب الذهب، فمن بلغت أوراقه النقدية قيمة (85جراما) من الذهب وجب عليه إخراج الزكاة فيها.

(1) أخرجه الشافعي في مسنده، رقم (390)، ص87، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت .

(2) التوبة: 34.

(3) الجامع لأحكام القرآن: 124/8 .

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ما أدى زكاته فليس بكنز، حديث رقم (1340)، 509/2 .

(5) ينظر: فقه العبادات: وهبة الزحيلي، كلية الدعوة الإسلامية، ط2، 1998م، ص203، مباحث إسلامية: ص190.

هذا وقد اختلف العلماء في زكاة الحلي المباح المتخذ للزينة، بعد أن اتفقوا على وجوب الزكاة في الحلي المحرم: كأواني الذهب والفضة، والمكحلة وما يتخذها الرجال من سوار أو خاتم من ذهب، وكذلك حلي النساء إذا كان متخذاً للادخار⁽¹⁾.

فأوجب الإمام أبو حنيفة والشافعي في قول -واختاره بعد أن استخار الله فيه- الزكاة في الحلي إذا بلغ النصاب، وحال عليه الحول، سواء كان للزينة أو لغيرها⁽²⁾.

بينما ذهب الإمام مالك والإمام أحمد إلى أنه لا زكاة في الحلي المباح للزينة⁽³⁾.

وهناك قول مروى عن أنس بن مالك⁽⁴⁾ يجمع بين تلك الأقوال؛ وهو وجوب الزكاة فيها مرة واحدة في العمر، وهذا ما تظمن إليه النفس، وقد سمعت أثيريا الشيخ محمد حسان يرجح هذا القول.

4- مصارف الزكاة:

بعد أن فرض الله تعالى الزكاة على عباده، وبيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنواعها، وشروطها، ونصاب كل نوع منها، وبعد أن بدأ النبي -صلى الله عليه وسلم- يوزع تلك الأموال على من يراهم محتاجين إليها، عارضه في ذلك المنافقون، واتهموه بانحيازه لأبناء عمومته، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَحْطُونَ ﴾⁽⁵⁾، فردّ عليهم القرآن الكريم هذا الادعاء، وبيّن لهم بأن الله هو الذي قسّم الصدقات، وبيّن، لنيبه لمن تُعطى فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ

(1) ينظر: المهذب: 1/185، بداية المجتهد: 1/234، الذخيرة: 3/48-49.

(2) ينظر: أحكام القرآن للجصاص: 3/107، المهذب: 1/158، بداية المجتهد: 1/230.

(3) ينظر: الذخيرة: 3/48، أحكام القرآن لابن العربي: 2/498، المغني: 2/603، الشرح الممتع على زاد المستقنع: 6/274.

(4) ينظر: الشرح الممتع: 6/275.

(5) التوبة: 48.

اللَّهُ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»⁽¹⁾، فبيّنت هذه الآية أن الله هو الذي قسم الصدقات، وبيّن مصارفها، ولم يُكل ذلك لأحد غيره، مما يدل على أهمية الزكاة عند الله وعِظَم شأنها⁽²⁾.

توضيح الأصناف الثمانية:

1- **الفقراء**: جمع فقير، والفقير: هو صفة مشبّهة، أي المتصف بالفقر، وهو عدم امتلاك ما يكفيه في معيشته ولوازمها، وهو ضد الغني⁽³⁾.

2- **المساكين**: جمع مسكين، وهو: ذو المسكنة، وهي المذلة التي تحصل بسبب الفقر⁽⁴⁾. ولقد اختلف العلماء في التفريق بين الفقير والمسكين إلى عدّة أقوال، أهمها:

الرأي الأول: أن الفقير أحسن حالا من المسكين، واستدل أصحاب هذا الرأي بقول الشاعر⁽⁵⁾:

أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حُلُوبُهُ ... وَفُقَّ الْعِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدٌ⁽⁶⁾

يقال: حلوبته وفق عياله؛ أي لها لبن قدر كفايتهم لا فضل فيه، فدلّ هذا البيت على أن الفقير يملك ما يكفيه دون زيادة، بينما المسكين الذي لا يملك شيئاً، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: «أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ»⁽⁷⁾، أي ألصق جلده بالتراب؛ ليواري به جسده،

(1) التوبة: 60.

(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 97/4.

(3) ينظر: التحرير والتنوير: 235/10.

(4) ينظر: م . ن : 235/10.

(5) البيت للشاعر عبيد بن حصين النمري، ينظر: طبقات فحول الشعراء: لمحمد بن سلام، تح: لمحمود محمد شاکر، دار المدني، جدة، 511/2.

(6) السبد: الوبر، أو الشعر، يقال: ما له سبد ولا لبد، أي: ليس له وبر ولا صوف متلبد، ينظر: لسان العرب: 148/5، (لبد) .

(7) البلد: 16.

وألصق بطنه به لفرط الجوع، فهذه صفات المسكين، وهي تدل على غاية فقره وحاجته، ولم يصف بها الفقير، فدلّ على أن الفقير أحسن حالا من المسكين⁽¹⁾.

الرأي الثاني: هناك من يرى أن الفقير أسوأ حالا من المسكين؛ وقالوا لأن المسكين قد ذُكر في القرآن ونسب الله لهم ملك السفينة في قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾⁽²⁾، أي أن المسكين قد يملك شيئاً، بينما لم يُذكر في كتاب الله ما يدل على أن الفقير يملك شيئاً، فدلّ هذا على أن الفقير أسوأ حالا من المسكين، وكذلك لأن الله بدأ بذكره لبيان حاجته⁽³⁾.

الرأي الثالث: أن الفقير والمسكين متساوون في الفقر وشدة الحاجة، أي أنهما بمعنى واحد، وهذا بَيّن في ضعفه؛ لأن بلاغة القرآن تقتضي أن يكون لكل واحد منهما معنى يختلف عن الآخر، فلو كانا بمعنى واحد لاكتفى القرآن بذكر لفظ واحد⁽⁴⁾.

والراجع من الأقوال السابقة -والله تعالى أعلم- هو القول بأن المسكين أشد حالا من الفقير، ويدل على هذا ما روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنَى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطِنُ بِهِ فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»⁽⁵⁾، وعلى هذا فإن المسكين يقم في إعطاء الزكاة، فإن زاد شيء يعطى الفقير، وهكذا إلى نهاية الأصناف الثمانية.

(1) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 168/8 - 170، تفسير آيات الأحكام: للسايس، مكتبة الصفا، ط1، 2001م، 3/ 33-34.

(2) يوسف: 89.

(3) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 168/8 - 170، تفسير آيات الأحكام للسايس: 144/3.

(4) ينظر: مباحث إسلامية: ص208.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى { لا يسألون الناس إحافا }، حديث رقم (1409)، 538/2.

فمن كان ظاهر حاله الفقر أو المسكنة تعطى له الزكاة، وكذلك من ادعى الفقر يُصدّق وتعطى له الزكاة، إلا إذا كان ظاهر حاله يدل على خلاف ذلك، لما روي عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه قال "وَأَيُّمًا تَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ"⁽¹⁾.

3- العاملون عليها: هم من يسعون لقبضها من أهلها، ووضعها في مستحقّيها⁽²⁾، وقد انقسم العلماء في قدر ما يعطى العامل من الزكاة إلى فريقين:

الفريق الأول: قالوا بأنه يعطى قدر عمله؛ لأنه عطّل نفسه لأجل هؤلاء الأصناف فكانت كفايتهم وكفاية أعوانه في مالهم"، وبهذا قال الحنفية والمالكية والحنابلة⁽³⁾.

الفريق الثاني: وهو قول الشافعية، حيث قالوا: بأن العامل يُعطى الثمن ومن الصدقة؛ لأنهم يرون أن الصدقات تقسّم على الأصناف الثمانية⁽⁴⁾.

وبعد عرض الأقوال فإنه يمكن القول بأن الراجح منها، هو القول بأن العامل يُعطى قدر عمله؛ لأن العامل يأخذ من الزكاة كأجرة على عمله عليها، لا بكونه فقيراً أو أحد الأصناف الباقية.

4- المؤلفة قلوبهم: وهم المشركون المتألفون على الإسلام⁽⁵⁾، وهم ثلاثة أنواع:

الأول: يعطون الزكاة تأليفاً لقلوبهم لكفّ أذاهم عن الإسلام، والاستعانة بهم على غيرهم من أعداء الإسلام.

والثاني: قوم يعطون الزكاة لاستمالة قلوبهم للإسلام، ولاستمالة قلوب غيرهم للدخول في الإسلام.

(1) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهداء العدل، حديث رقم (2498)، 2 / 934.

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن: للطبري، مكتبة مصطفى الباي الحبي، مصر، 2، 1954م، 61/10.

(3) ينظر: المبسوط: 15/3، الجامع لأحكام القرآن: 177/8، المغني: 515/2.

(4) ينظر: المجموع: 186/6.

(5) ينظر: المغني: 319/7.

الثالث: نوع تتألف قلوبهم لحدائث عهدهم بالإسلام، ولتثبيتهم على الإسلام⁽¹⁾.

وبعد أن انتشر الإسلام وقوية شوكته، اختلف العلماء في بقاء سهم المؤلف قلوبهم، أو انتهائه بانتشار الإسلام:

فذهب الأحناف والشافعية والحنابلة إلى القول: بأن سهمهم باقٍ ولم ينتهي بعزّة الإسلام وانتشاره⁽²⁾.

بينما قال المالكية إن سهمهم انتهى وانقطع؛ وذلك بعزّة الإسلام وظهوره، حيث أجمعت الصحابة على انقطاع سهم المؤلف في خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه-، وبه قال عمر والحسن والشعبي⁽³⁾.

ويمكن ترجيح الرأي الأول القائل بأن سهم المؤلف قلوبهم باقٍ؛ لأنه لم يرد في القرآن ولا في السنة نسخ هذا الحكم؛ ولأن هذه السورة كانت من آخر السور التي نزلت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أعطى المؤلف قلوبهم والدولة في ذلك الوقت في عزّ قوتها.

5- وفي الرقاب: اختلف العلماء في تحديد المقصود بها إلى رأيين:

الأول: يرى الحنفية والشافعية وجماعة من أهل العلم أن المراد بالرقاب: هم المكاتبون⁽⁴⁾، حيث تعطى لهم الزكاة إعانة لهم على دفع ما كتبوه على أنفسهم لأسيادهم⁽⁵⁾.

والثاني: ما ذهب إليه الإمام مالك والإمام أحمد، حيث قالوا: إن المراد بـ(الرقاب) هو أن تشتري رقاباً لتعتق⁽¹⁾.

(1) ينظر: أحكام القرآن للحصاص: 123/3، الشرح الممتع: 226/6.

(2) ينظر: المبسوط: 16/3، الحاوي: 498/8، المغني: 319/7.

(3) ينظر: بداية المجتهد: 250/1، الجامع لأحكام القرآن: 181/8.

(4) المكاتبون: مفرد مكاتب وهو: العبد الذي اتفق مع سيده على أن يدفع له ما لا نظير عتقه، ويتركه يسعى ليحصل على هذا المال، ينظر: لسان العرب: 24/9-25، (كتب).

(5) ينظر: المبسوط: 16/3، الحاوي الكبير: 1270/8.

والراجح من الأقوال - والله أعلم - ما ذهب إليه المالكية لأن اللفظ ذكر (الرقاب) خاصة، فلا يمكن أن نضمه معنى دفع دين المكاتب؛ لأن المكاتب داخل في عموم قوله (والغارمين) (2).

6- الغارمون: جمع مفردة غارم، وهو: الذي عليه دينٌ استدانه في غير معصية، وعجز عن أدائه (3).

فإنه يُعطى من الزكاة إذا كان لا يملك ما يُسدّد به دينه، ولم يكن دينه في معصية فلا خلاف في ذلك.

7- في سبيل الله: في سبيل نصرته دين الله وشريعته ونشرها إلى الناس، أي الانفاق في الجهاد (4).

والإنفاق في الجهاد يشمل المجاهدين وأسلحتهم، وكل ما يُعين على الجهاد في سبيل الله (5)، وقال محمد بن عبد الحكم: "يعطى من الصدقة في الكراع والسلاح، وما يحتاج إليه من آلات الحرب، وكف العدو عن الحوزة؛ لأنه كله من سبيل الغزو ومنفعته" (6).

8- ابن السبيل: هو المسافر الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره وماله (7)، نفذت نفقته، فليس معه ما يوصله إلى بلده.

فإنه يُعطى من الزكاة وإن كان غنيا في بلده - ما يمكنه من الرجوع إلى بلده (1).

(1) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 182/8، نيل الأوطار: 199/4.

(2) ينظر: أحكام القرآن: لابن العربي: 513/2.

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن: 164-165/10، تفسير اللباب: 2638/1، معاني القرآن: للفراء، تح: أحمد يوسف نجاتي وآخرون، الدار المصرية للتأليف، مصر، 443/1.

(4) ينظر: المصادر السابقة.

(5) ينظر: الشرح الممتع: 242/6.

(6) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي: 534/2.

(7) ينظر: تفسير ابن كثير: 99/4.

هذا وقد اختلف الفقهاء في جواز صرف الصدقات لصنف واحد من الأصناف الثمانية، أو عدم جواز ذلك:

فذهب الأحناف والمالكية والحنابلة إلى أنه يجوز للإمام أن يصرفها في صنف واحد، أو أكثر من صنف؛ إذا رأى ذلك أنفع وأفضل للمحتاجين للصدقات في بلده⁽²⁾.

واستدلوا بأدلة لعل أهمها قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾⁽³⁾ فقد اقتصر الآية على إعطاء الصدقات إلى صنف واحد وهم الفقراء، ولم تذكر الآية بقية الأصناف، وحديث ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعث معاذًا إلى اليمن، وقال له: «أَعْلِمُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤَخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ»⁽⁴⁾، حيث لم يذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا صنفًا واحدًا وأمره بردّ الصدقة عليه وهو الفقير.

بينما خالف الإمام الشافعي الجمهور، وذهب إلى عدم جواز ذلك، ورأى وجوب قسمت الصدقات على الأصناف الثمانية، ودليلهم في ذلك أن الآية فيها إضافة الصدقات للأصناف الثمانية بلام التملك {للفقراء}، ودُكِرُوا بالواو التي تدل على الاشتراك، أي أنهم شركاء كلهم في الصدقات، فلا تعطى لواحد دون البقية⁽⁵⁾.

والراجح من ذلك ما رجّحه الإمام الطبري حيث قال: "إن الله جلّ ثناؤه لم يقسم صدقة الأموال بين الأصناف الثمانية على ثمانية أسهم، وإنما عرّف خلقه أن الصدقات لن تتجاوز هؤلاء الأصناف الثمانية إلى غيرهم"⁽⁶⁾.

(1) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي: 534/2، الجامع لأحكام القرآن: 187/8.

(2) ينظر: بداية المجتهد: 250/1، الشرح الممتع: 246/6، تفسير آيات الأحكام: 33-32/3.

(3) البقرة: 271.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، حديث رقم (1331)، 502/2.

(5) ينظر: المجموع: 216/6.

(6) جامع البيان في تأويل آي القرآن: 258/10.

الخاتمة

الحمد لله حقَّ حمده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيِّه وعبده، وبعد..

ففي نهاية كل بحث لابد من تسجيل أهم النتائج المستخلصة من البحث وأهمها:

- 1- أن ترتيب سور القرآن أمر توقيفي من الله تعالى.
- 2- أن سورة التوبة من أهم السور التي فضحت المنافقين وبينت سوء نواياهم وحذرت النبي -صلى الله عليه وسلم- منهم.
- 3- أن الله أمر المسلمين بالوفاء بالعهود ولو كانت مع مشرك بشرط أن ألا ينقض المشرك العهد أو يطعن في دين الله أو في رسول الله.
- 4- أن الله قسم أموال الصدقات بين عباده وذكرها بالنص في كتابه حتى لا يتلاعب ضعاف النفوس من المسلمين في مصارفها ويعطونها لغير مستحقها.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

- الإجماع: لابن المنذر، تح: أبو حماد صغير، مكتبة الفرقان، عجمان، ط2، 1420هـ .
- أحكام القرآن: لابن العربي، تح: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ.
- أحكام القرآن: للجصاص، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- إرواء الغليل: للألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1405هـ.
- أضواء البيان في توضيح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت، 1415هـ.
- أوضح التفاسير: لمحمد الخطيب، المطبعة المصرية، ط6، 1994م .
- البحر المحيط في أصول الفقه: للزركشي، تح: محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1421هـ
- بداية المجتهد: لابن رشد، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1994م.

البيان والتحصيل: لابن رشد، تح: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت،

ط2، 1408هـ.

التحرير والتنوير: لابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ت.

تفسير البحر المحيط: لأبي حيان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ.

تفسير القرآن العظيم: لابن كثير، تح: ناصر الدين الألباني، مكتبة الصفا، القاهرة، ط1، 2002م.

تفسير القرآن للقرآن: لعبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت .

تفسير اللباب: لابن عادل، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت .

تفسير المراغي: لأحمد المراغي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط2، 1953م

تفسير النسفي: للنسفي، دار الكتاب العربية، بيروت، ط2، 1982م.

تفسير آيات الأحكام: للسايس، مكتبة الصفا، ط1، 2001م .

التفسير بالمأثور عن عمر ابن الخطاب: لإبراهيم بن حسن، الدار العربية للكتاب، 1994م .

جامع البيان في تأويل أي القرآن: للطبري، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1954م .

الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، تح: هشام البخاري، دار عالم الكتاب، الرياض، 1423هـ.

الحاوي في فقه الشافعي: للماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1414هـ.

الذخيرة: للقرافي، تح: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994هـ.

زهرة التفاسير: لمحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت.

سنن ابن ماجة ، تح: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، بيروت، د.ت .

سنن أبي داود، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر بيوت، د.ت.

سنن الترمذي تح: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت .

الشرح الممتع على زاد المستقنع: للعثيمين، دار ابن الجوزي، ط1، 1422هـ.

شرح حدود ابن عرفة: للرصاع، المكتبة العلمية، القاهرة، ط1، 1350هـ. .

- شعب الإيمان: للبيهقي، تح: محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ .
- صحيح البخاري، تح: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط3، 1407هـ .
- طبقات فحول الشعراء: لمحمد بن سلام، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة .
- الفقه الإسلامي وأدلته: وهبة الزحيلي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1984م .
- فقه العبادات: وهبة الزحيلي، كلية الدعوة الإسلامية، ط2، 1998م .
- لسان العرب: لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط1، د.ت .
- مباحث إسلامية: حسن مسعود الطوير، وسعيد فاندي، دار الحكمة، طرابلس ليبيا، ط1، 1997م .
- المبسوط: للسرخسي، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط3، 1978م، 3/9 .
- المجموع شرح المذهب: للنووي، دار الفكر، بيروت، د.ت .
- محاسن التأويل: للقاسمي، تح: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العلمية، ط1، 1958م .
- المحرر الوجيز: لابن عطية، تح: عبدالسلام عبدالشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ .
- المستدرك على الصحيحين للحاكم، تح: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ .
- مسند الإمام الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت .
- معاني القرآن: للفراء، تح: أحمد يوسف نجاتي وآخرون، الدار المصرية للتأليف، مصر، د.ت .
- معجم لغة الفقهاء: لمحمد قلعجي، دار النفائس، بيروت، ط1، 1405هـ .
- المغني: لابن قدامة، دار الفكر، بيروت، 1405هـ .
- مواهب الجليل: للحطاب، تح: زكريا عميرات، دار عالم الكتاب، بيروت، 1423هـ .
- النظم الفني في القرآن: لعبد المتعالي الصعيدي، مكتبة الأدب، القاهرة، د.ت .
- نيل الأوطار: للشوكاني، تح: عصام الدين السبابطي، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1993م .

نظرية الفيض بين الفلاسفة والمتكلمين (الفارابي والكرماني أنموذجاً)

د: آمنة عبدالسلام الزائدي*

تمهيد:

تعد نظرية الفيض من النظريات الفلسفية المهمة التي كان لها أثرها الواضح في الفكر الإسلامي بوجه عام، وعند الفلاسفة والمتكلمين بوجه خاص، وترجع هذه النظرية إلى الأفلاطونية المحدثة، فلقد لجأ إليها أفلوطين¹ ليحل بها مشكلة الكثرة والوحدة، فكما هو معروف عن أفلوطين؛ أن فلسفته هي فلسفة البحث عن الوحدة الموجودة وراء الكثرة، ودفاعاً من أفلوطين عن هذه الوحدة كان لابد له من القول بنظرية الفيض.

وبهذا فقد رفض أفلوطين القول بالخلق عن عدم، وقام بوضع وسيط بين الله والعالم، كي ينزه الله عن كل نقص؛ وقد أعجب بعض مفكري الإسلام بهذه النظرية، وأول من أدخلها إلى الفكر الإسلامي المعلم الثاني (الفارابي)² كذلك تأثر بها بعض المتكلمين، ومن بينهم الكرماني³، وهو واحد من طائفة الإسماعيلية⁴.

* عضو هيئة تدريس بقسم الفلسفة وعلم الاجتماع بكلية الآداب - جامعة المرقب.

¹ - يعتبر أفلوطين أحد أشهر مجددي الأفلاطونية، وأصبح منهجه الفلسفي طراز ذلك العصر والعرب لا يعرفون الكثير عنه، ولكنهم يعرفون منهجه، ويسمونه مذهب الاسكندرانيين نسبة إلى مدينة الاسكندرية وتعتبر فلسفته مزيجاً بين آراء أفلاطون والرواقيين وفيلون، ويمكن تقسيم فلسفته إلى ثلاثة أقسام: نظرية الفيض، النفس الإنسانية، العالم المحسوس. انظر: عبدالرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، بيروت، ص232.

² - هو أبونصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ (ت339هـ - 950م) من أصل فارسي، وقد جمع بين المنق والمبتايفيزيقا، من أهم مؤلفاته: آراء أهل المدينة الفاضلة، السياسات المدنية، الجمع بين رأي الحكيمين أفلاطون وأرسطو. انظر: دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة: محمد عبدالهادي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، 1957م، ص199. أيضاً: فيصل عباس، موسوعة الفلاسفة، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1996م، ص49.

³ - هو حميد الدين أحمد بن عبدالله الكرماني (352- بعد 411هـ)، من مدينة كرمان بفارس، تلقى علومه بالمدارس الإسماعيلية، وتلمذ على الفيلسوف الكبير أبو يعقوب إسحاق بن أحمد السجستاني، ومن أهم مؤلفاته: راحة العقل، الرياض في الحكم، المصابيح في إثبات الإمامة. انظر: محمد حسين كامل، طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، وحكم الإسلام فيها، مكتبة النهضة المصرية، 1959م، ص115.

⁴ - الإسماعيلية فرقة من فرق الشيعة الباطنية وترجع تسميتهم بالإسماعيلية بوجه عام إلى زعيمهم محمد بن إسماعيل إسماعيل بن جعفر الصادق، ولها العديد من الألقاب ومنها: الباطنية، الفاطمية، المحمرة الحشاشون، البابكية،

والفكر الإسماعيلي ليس بغريب على الفكر الفلسفي؛ بل يمكننا القول بأن الفلسفة تعد مصدراً من المصادر المهمة والأساسية التي أثرت في الفكر الإسماعيلي، ويتضح ذلك جلياً في مشكلة الصدور أو الفيض التي سوف نرى من خلال هذا البحث الأثر الفلسفي واضحاً فيها.

وتكمن مشكلة البحث بالدرجة الأولى في الإجابة عن جملة من التساؤلات من أهمها: ماالسبب الرئيس الذي دفع مفكري الإسلام للجوء لنظرية الفيض؟ هل قالوا بها لمحاولة حل مسألة صدور الكثرة عن الواحد، أم أن هناك أسباباً أخرى وراء تمسكهم بنظرية الفيض؟ وهل كان قولهم بهذه النظرية محاولة منهم للتوفيق بين الفلسفة والدين، وهل نجحوا في ذلك من خلالها؟ وهل هناك تشابه بين موقف الفلاسفة وعلى رأسهم الفارابي من نظرية الفيض، وبين الشيعة الباطنية وعلى رأسهم الكرمانى أم أن هناك اختلافاً في تناولهم لها؟.

ويكمن سبب اختياري لهذا الموضوع في محاولة عرض الأثر الكبير لنظرية الفيض الأفلاطونية على الفكر الإسلامي، وذلك من خلال عرض موقف الفارابي الذي يمثل الإتجاه الفلسفي وموقف الكرمانى الذي يمثل علم الكلام.

أما المنهج المتبع في هذه الدراسة فهو المنهج التحليلي، وذلك من خلال عرض نصوص المفكرين المتعلقة بموقفيهما من نظرية الفيض، ومحاولة استنباط ومحاكاة أفكارهما من خلالها، وكذلك المنهج المقارن، وذلك من خلال عرض أوجه التشابه والاختلاف في موقف المفكرين من هذه النظرية. وقد قسمت هذه الدراسة إلى مبحثين، بالإضافة إلى المقدمة، والخاتمة.

أولاً: المدلول اللغوي والفلسفي للفيض:

المدلول اللغوي:

الفيض في اللغة كلمة لها الكثير من المشتقات، وعلى سعة انتشارها لها مدلول واحد، وهو الكثرة حتى السيلان ومن مصادرها الفيض، والفيوض، والفيضوضة، والفيوضنة والفيضان، ويقال: فاض الماء؛ أي كثر حتى سال، وكذلك فاض النهر؛ أي امتلأ حتى طفح¹.

كما ورد لفظ الفيض في العديد من الآيات القرآنية، وكان مدلولها لا يختلف عن المدلول اللغوي، الذي ذكرناه؛ ففي قوله تعالى: ﴿ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾² وقد تم تفسيرها بفيض أعين الذين يطلبون الجهاد بالدموع حزناً لعدم إعطائهم مطايا توصلهم لميدان الجهاد³. وأيضاً: في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾⁴ وقد تم تفسيرها بمعنى صبوا علينا قليلاً من الماء، أو النعم التي غمركم الله فيها⁵.

المدلول الفلسفي:

لما كانت نظرية الفيض محل اهتمام وبحث الكثير من الفلاسفة والمفكرين المسلمين وغير المسلمين، فأصبحت لها الكثير من المدلولات التي تختلف حسب نظرة كل فيلسوف ومفكر لها، لكن محتوى نظرية الفيض يكمن في تفسير كيفية نشأة الموجودات المتنوعة من الواحد الثابت فالوجود يصدر عنه أي عن الواحد، كما يصدر النور عن الشمس

¹ - ابن منظور، لسان العرب، ج10، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ص366.

² - سورة التوبة، الآية92.

³ - محمد فريد وجدي، المصحف المفسر، القسم الأول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص153.

⁴ - سورة الأعراف، الآية50.

⁵ - محمد فريد وجدي، المصحف المفسر، القسم الأول، ص200.

تلقائياً، وهذا الفعل ضروري؛ لأنه ناجم عن طبيعة المبدأ الأول، وهكذا الفيض لا يكون عشوائياً؛ بل بطريقة منتظمة، فهي تنتقل من الواحد إلى الكثرة، ومن الأول إلى العقول.

وهكذا فنظرية الفيض في مفهومها الفلسفي نظرية فلسفية تاريخية وضعها أصحاب الأفلاطونية المحدثه؛ لتفسير كيفية خلق العالم، وكيف صدرت الكثرة عن الواحد، ثم انتقلت إلى العالم الإسلامي فصاغها فلاسفتها صياغة جديدة عقلانية دينية مع المحافظة على جوهرها¹.

المبحث الأول: الفيض عند الفارابي:

الحقيقة أن الفارابي شأنه شأن غيره من الفلاسفة المسلمين الذين تمسكوا بفلسفة أرسطو² وتربوا عليها، ولكنهم كذلك متمسكون بدينهم الإسلامي، من هنا حاولوا التوفيق بين الاتجاهين المختلفين (الفلسفي والديني)، فالاتجاه الفلسفي اليوناني بوجه عام والأرسطي بوجه خاص لايعترف بالخلق من عدم، وهذا على عكس الأديان السماوية التي تؤكد على الخلق من عدم، فكان الفيض ضرورياً للتوفيق بين مقتضيات العقل وبعض الضرورات الدينية.

ولكن كيف يتم الفيض عند الفارابي؟

وللإجابة عن هذا السؤال لا بد أن نتحدث عن جانب من جوانب نظرية الفيض، وهو صدور الموجودات أو كيفية الخلق، فالموجود الأول عند الفارابي هو السبب الأول لوجود سائر الموجودات، أو كما يقول: "إن الأول هو الذي عنه وجد، ومتى وجد للأول الوجود

¹ - محمد عبدالرحيم الزيني، مشكلة الفيض عند فلاسفة الإسلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م، ص14.

² - لد أرسطو في عام (384ق.م) في ستاجيرا وهي مستعمرة يونانية، وكان أبوه طبيب بلاط الملك امثيتاس المقدوني، وبعد موت والده أرسل إلى أثينا المركز الثقافي للعالم لا يستكمال دراسته، وقد سمي بالمعلم الأول؛ لأنه هذب وجمع ما تفرق من مباحث المنطق ومسائله وأقام بناء متماسكاً، ويمكن تقسيم مذهب أرسطو إلى خمسة أقسام هي: المنطق، الميتافيزياء، الفيزياء، الأخلاق، السياسة. انظر: دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص199. فيصل عباس، موسوعة الفلاسفة، ص33.

الذي هو على جهة فيض وجوده لوجود شيء آخر¹. وإذا كانت هذه الموجودات قد فاضت أو صدرت عن الأول، فلا بد أن تكون هذه الموجودات أقل كمالاً من موجدتها؛ بل إنها متفاوتة فيما بينها في درجة الكمال، فالذي يصدر عن الأول مباشرة يكون أقل كمالاً من الله وأكثر كمالاً من الموجودات الصادرة بعده، وذلك لقربه من الأول².

كما وترتبط نظرية الفيض عند الفارابي ارتباطاً وثيقاً بنظريته عن ممكن الوجود وواجب الوجود والتي حاول من خلالها أن يسرد سلسلة فيوضات متتالية توالياً منطقياً³، وهذا ليس غريباً عن فيلسوف صاحب نزعة منطقية، يربط فلسفته بعضها ببعض، ويكون نسقاً متكاملًا، وهذا يتضح من قوله: "إن أول المبدعات عنه يكون واحداً وهو العقل الأول، وإنه يجب أن يحصل في هذا المبدع كثرة عرضية... ثم يعلل الفارابي هذه الكثرة بأنه لا يكون مصدرها الموجود الأول؛ بل ترجع إلى العقل الأول؛ لأنه ممكن بذاته، فيحصل في هذا المبدع كثرة عرضية على سبيل أنه بذاته ممكن الوجود، وبالأول واجب الوجود، فإن إمكان وجوده هو أمر له بذاته، لا لسبب الأول؛ بل له من الأول وجوب الوجود، فواجب الوجود؛ لأنه واجب بذاته، فهو واحد من جميع الجهات، لا تشوبه الكثرة بأي حال من الأحوال، أما الكثرة فهي سمات الواجب بغيره.

هكذا يفيض من الأول وجود الثاني، وهذا الثاني هو أيضاً جوهر غير متجسم، ولا هو في مادة، فهو يعقل ذاته، ويعقل الأول، وليس ما يعقل من ذاته هو شيء غير ذاته، فيما يعقل من الأول؛ يلزم عنه وجود ثالث، وبما هو متجوهر بذاته التي تخصه يلزم عنه وجود ثالث، وبما هو متجوهر بذاته التي تخصه يلزم عنه وجود السماء الأولى، والثالث أيضاً جوهر لافي مادة، وهو بجوهره عقل، وهو يعقل ذاته ويعقل الأول فيما يتجوهر به من ذاته التي تخصه، فيلزم عنه وجود كرة الكواكب الثابتة، وبما يعقله من الأول يلزم عنه

¹ الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، قدم له وعلق عليه: ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، الطبعة السابعة، 1986م، ص 11.

² جميل صليبا، من أفلاطون إلى ابن سينا، مكتبة النشر العربي، بدمشق 1937م، ص 76-77.

³ انظر: حنا الفاخوري وخلييل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، ج 2، دار الجبل، بيروت، الطبعة الثالثة، 1993م، ص 115. عبده الشمالي، تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية، دار صادر، بيروت، 1979م، ص 277.

وجود رابع، وهذا أيضاً لا في مادة، فهو يعقل ذاته ويعقل الأول فيما تجوهر من ذاته التي تخصه يلزم عنه وجود كرة زحل، وبما يعقله من الأول يلزم عنه وجود خامس.

وهذا الخامس أيضاً وجوده، لا في مادة، فهو يعق ذاته، ويعقل الأول فيما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود كرة المشتري، وبما يعقل من الأول يلزم عنه وجود سادس، وهذا أيضاً وجوده لا في مادة، وهو يعقل ذاته ويعقل الأول فيما يتجوهر به من ذاته، يلزم عنه وجود كرة المريخ، وبما يعقله من الأول يلزم عنه وجود سابع، وتكرر نفس عملية التعقل وتنشأ عقول كذلك أفلاك وهي كالتالي، كرة الزهرة ثم عقل وكرة عطارد، ثم عقل وكرة القمر، ثم عقل هو الحادي عشر، ويقف عنده وجود الأجسام السماوية¹.

وهكذا يتضح من النص السابق أن الفارابي أطلق على الله أو واجب الوجود بذاته اسم الموجود الأول صدر عنه العقل الأول الذي أطلق عليه اسم الموجود الثاني، وهكذا إلى أن يصل إل الموجود الحادي عشر؛ أي العقل العاشر، وهذه لالعقول العشرة، أو الموجودات الإحد عشر كلها موجودات عارية عن الصورة والمادة، هكذا كان التعقل أو التأمل وسيلة الإيجاد؛ فمجرد تعقل عقل م الموجود الأول ينشأ عنه عقل آخر. فالتأمل والتعقل هنا مرادف للخلق أو الصدور.

كما يعرض الفارابي في كتابه السياسات المدنية صورة واضحة للفيض وترتيب الموجودات ترتيباً تنازلياً؛ ففي هذه الرسالة نجده يقسم الموجودات إلى قسمين تبعاً للقسم الأرسطية، عالم ما فوق فلك القمر، وعالم ماتحت فلك القمر، ولكل من العالمين موجوداته الخاصة به، والتي تختلف عن العالم الآخر.

ففي القسم الأول أو عالم ما فوق فلك القمر موجودات عارية عن المادة ويرتبتها الفارابي كما يلي السبب الأول في المرتبة الأولى، الأسباب الثواني أو ما يطلق عليها ملائكة السماء أو عقول الأفلاك، وهي تسعة عقول، وهي تحتل المرتبة الثانية، ثم يأتي

¹ - الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، ص 23-24.

العقل الفعال في المرتبة الثالثة، فهو يمثل همزة الوصل بين عالم العقول وعالم المادة، أما المرتبة الرابعة فتوجد فيها النفس، ثم الصورة في المرتبة الخامسة، يليها المادة في المرتبة السادسة.

يقسم الفارابي موجودات العالم العلوي قسماً، القسم الأول موجودات ليست بمادة، ولا في مادة وهي: السبب الأول، الثواني العقل الفعال، أما القسم الثاني فموجوداته هي في أجسام، وليست ذواتها أجسام، وهي: النفس، الصورة، المادة، وهنا نجد الفارابي في ترتيبه لهذه الموجودات قد أعلى من شأن النفس على الصورة؛ ذلك لأنه بالنفس، وليس بالصورة تتميز الموجودات الطبيعية الحية عن الموجودات غير الحية، كذلك فضل الصورة على المادة؛ لأن ما هو مادة لا بد وأن يفنقر إلى الصورة، أما المادة التي تكون بدون صورة فليس لها وجود بالفعل؛ بل هي مجرد فكرة ذهنية. أما موجودات العالم السفلي . عالم ماتحت فلك القمر . فيقسمها الفارابي إلى ستة أجناس، هي على الترتيب: الجسم السماوي، الحيوان الناطق، الحيوان غير ناطق، النبات، ثم الجسم المعدني، السماوية، ويطلق على الثواني الأستطقسات الأربع. والأول ينبغي أن يعتقد فيه أنه الإله تعالى، وهو السبب القريب لوجود سائر العقول، ابتداءً من العقل الأول المحرك للسماء الأولى، وحتى العقل الفعال المحرك لعالم ماتحت فلك القمر، أما العقول أو الثواني فهي سبب وجود الأجسام السماوية، ويطلق على الثواني أو العقول اسم الروحانيين والملائكة، أما العقل الفعال فتأثيره مقتصر على العالم السفلي، فهو حلقة الوصل بين العالم العلوي والعالم السفلي¹.

ولكي يكتمل الجانب الأنطولوجي من نظرية الفيض كان من الضروري أن نتحدث عن العالم حادث أم قديم، إذا كان الفيض عند الفارابي يرتبط بتقسيمه للممكن والواجب، فذلك تناوله لمشكلة العالم ترتبط بالممكن والواجب، فالواجب هو القديم بذاته، أما ما سواه، ويعني به العالم فهو ممكن، ولذلك فهو حادث في ذاته.

¹ - الفارابي، السياسات المدنية، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة الأولى، سنة 1346 هـ ص 2-3.

وإذا كانت لفظة الحدوث في نص الفارابي تثير شكاً بأنه قال بحدوث العالم، فنجده قد أزال هذا الشك، وأوضح ماذا يعني بالحدوث، فقال في رسالته الدعوى القلبية: إن العالم محدث لا على أنه كان قبل العالم زمان لم يخلق الله فيه العالم، ثم بعد ذلك الزمان خلق العالم، بل على أن العالم يعد وجوده محدث بالذات.

من هنا نستطيع القول إن العالم عند الفارابي قديم، بمعنى أنه لا يوجد زمان سابق على وجوده لكنه محدث، أي أنه ممكن بذاته، وواجب بغيره، فهو تابع لغيره؛ بمعنى أنه يحتاج في وجوده إلى علة تخرجه من الإمكان إلى الوجود.

وأضف إلى ذلك أن العالم معلول لله تعالى؛ فالله علته، ولا بد أن يتبع المعلول علته، ومادام الله قديم بالزمان فكذلك العالم، لكن الله قديم بالذات والزمان، أما العالم فهو قديم بالزمان حادث بالذات.

وهكذا يمكننا القول إن الفارابي قد بنى نظام الكون بأسره على نظرية الفيض، كما اتبع أرسطو في نظرية قدم العالم، ولكي لا يخرج عن العقيدة الإسلامية حاول التوفيق بين قدم العالم كما علمه أرسطو، وبين فكرة الخلق التي علمها الدين الإسلامي، فيجعل العقول من إبداع الله، وإن لم يكن ذلك الإبداع في زمان، وهو بهذا لم يصل في هذا الموضوع إلى حل مرض¹.

أما الجانب المعرفي لفلسفة الفارابي فنجده قائماً كذلك على فكرته عن الفيض، وعلى تقسيم العقول عنده إلى ما يأتي:

1- عقل بالقوة أو العقل الهيلواني:

¹ - عبده الشمالي، دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية، ص120.

يعرفه الفارابي بقوله: "نفس ما، أو جزء نفس، أو قوة من قوى النفس، أو شيء ما، ذاته معدة، أو مستعدة لأن تنتزع ماهيات الموجودات كلها، وصورها دون موادها"¹، وتلك الذات شبيهة بمادة تحصل فيها الصور، وما دامت ليس فيها شيء من صور الموجودات، فهي عقل بالقوة؛ أي قبل دخوله إلى النشاط العقلي لا يسمى عقلاً إلا من قبيل المجاز، لذلك أضيفت إليه صفة القوة، فيسميه العقل الهولاني، ويعرفه تعريفاً لا يخرج عن المعنى السابق بأنه "هيئة ما في مادة، معدة لأن تقبل رسوم المعقولات"².

2. العقل بالفعل أو بالملكة:

وهذا العقل بالفعل هو نفس العقل بالقوة، ولكن بعد أن دخل في نشاطه العقلي؛ أي أنه اتحد بالصور العقلية التي كانت موجودة بالقوة في الأشياء والموجودات الخارجية، ثم انتقلت إلى الفعل، أو كما يقول الفارابي: "فإذا حصلت فيه المعقولات التي انتزعتها من المواد، صارت تلك المعقولات معقولات بالفعل، وكانت قبل أن تنتزع من موادها معقولات بالقوة"³، بمعنى أن العقل بالفعل أو العقل بالملكة هو العقل الذي يتم فيه نقل المعقولات من القوة إلى الفعل، وبالتالي كان للمعقولات عند الفارابي وجودان: وجود بالقوة في الأشياء قبل أن تعقل، ووجود آخر لها في العقل بعد أن يتم تجردها بالكلية عن علائق المادة.

ومما هو جدير بالذكر هنا أن انتقال العقل بالقوة إلى العقل بالفعل يحتاج إلى شيء آخر ليس بالقوة، بل هو ذات ما، جوهر عقل ما بالفعل، ومفارق للمادة، وهو العقل الفعال، فهذا العقل _ كما أشرنا إليه في مواضع كثيرة من هذا البحث _ هو الذي يفيض على العقل الهولاني نوراً يرى به المعقولات، فيصير بعد ذلك عقلاً بالفعل، يقول الفارابي: "وكما أن الشمس هي التي تجعل العين بصيرة بالفعل، والمبصرات مبصرات بالفعل بما تعطيه من الضياء، كذلك العقل الفعال هو الذي جعل العقل الذي بالقوة عقلاً بالفعل"⁴.

¹ - الفارابي، مقالة في معاني العقل، ضمن "كتاب المجموع من مؤلفات الفارابي"، مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1907م، ص 49.

² - الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، ص 101.

³ - الفارابي، مقالة في معاني العقل، ص 50.

⁴ - المرجع السابق، ص 49.

3. العقل المستفاد:

وهو المرحلة الأخيرة من قوى الإدراك الإنسانية، وذلك أن العقل بالفعل بعد أن يعقل المعقولات التي هي صورة له، يصبح من حيث هي معقولة له بالفعل، عقلاً مستفاداً، فهذا العقل أصبح لشدة تجوهره وإدراكه للأشياء، ووضوح مدركاته، شبيهاً بالعقول السماوية، التي لا تتعب في استفادتها لغيرها من المعقولات.

فالعقل المستفاد الواقع في أعلى المراتب بين العقول الإنسانية، هو صورة لكل هذه العقول، وهو في الوقت نفسه، مادة للمعقولات التي تفيض من العقل بالفعل؛ والعقل الذي بالفعل، مادة للعقل المستفاد وصورة للعقل الهولاني، ومن الأخير نهبط إلى الصور الجسمانية المادية، ومن الأول نصعد إلى أول رتبة الموجودات النورانية المفارقة (أي العقل الفعال)، وبالتالي أصبح العقل المستفاد الذي هو قيمة إنسانية ليس إلا حداً وسطاً بملاحظة تلك القمة المفارقة؛ بمعنى أنه أنقص بالنسبة لما فوقه، وأكمل بالنسبة لما دونه¹.

4. العقل الفعال:

إن العقل الفعال عند الفارابي هو ذات مفارقة لم تكن في مادة، تحوي الصور، والمعقولات وتفيضها على الموجودات، ويصل عالم ما فوق فلك القمر بما تحته، وهو الذي جعل تلك الذات التي كانت عقلاً بالقوة عقلاً بالفعل، وكذلك جعل المعقولات التي كانت معقولات بالقوة معقولات بالفعل، فنسبة هذا العقل إلى العقل الذي بالقوة، "كنسبة الشمس إلى العين التي هي بصر بالقوة مادامت في الظلمة"².

والعقل الفعال قريب الشبه من العقل المستفاد؛ إذ في كليهما صور الموجودات، إلا أن وجودها في العقل أزلي، وعلى ترتيب آخر الأكمل فالأكمل، وهذا الشبه بين القوتين يفسر لنا معنى الاتصال . عند الفارابي . فالاتصال لا يتم إلا بعد أن تتم عملية الإدراك التي يقوم بها الحس والخيال؛ أي بعد الاحتكاك بالعالم الخارجي وتصوره حسياً.

¹ - أحمد عبدالمهيمن، نظرية المعرفة بين ابن رشد وابن عربي، ص 94-95.

² - المرجع نفسه، ص 54 .

هكذا يبني نظريته في المعرفة الصوفية على نظريته في العقل، ونظرته الميتافيزيقية الفلكية، فحين يرقى العقل البشري إلى درجة العقل المستفاد، يستشرف الإنسان إلى المأ الأعلى؛ فتصبح نفسه جديرة بتلقي الفيض الإلهي، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الفارابي يتخيل نظاماً فلكياً "أساسه أن في كل سماء قوة روحية أو عقلاً مفارقاً يشرف على حركتها ومختلف شؤونها، وآخر هذه القوى، وهو العقل العاشر، موكل بالسماء الدنيا والعالم الأرضي، فهو نقطة اتصال بين العالمين العلوي والسفلي... فإذا وصل الإنسان إلى درجة العقل المستفاد أصبح أهلاً لتقبل الأنوار الإلهية"¹. فهذه المعرفة الصوفية الميتافيزيقية التي ينعم بها الإنسان آنذاك هي أسمى غاية ينشدها العقل .

ومن تلك الاعتبارات . السابق ذكرها . قرر الفارابي بأنه لا سبيل إلى معرفة الله تعالى المعرفة الحقة إلا بتصفية النفس من شوائب المادة والمحسوسات والقرب في الوقت نفسه من عالم العقل والمعقولات: "إذ كلما قربت جواهرنا منه، كان تصورنا له أتم، وأيقن، وأصدق، وذلك أنا كلما كنا أقرب إلى مفارقة المادة كان تصورنا له أتم، وإنما تصير أقرب إليه... وإذا فارقنا المادة على التمام يصير المعقول منه في أذهاننا أكمل ما يكون"².

فالمعرفة الذوقية الإشراقية لا تأتي إلا لذوي النفوس الصافية التي تطهرت من الشهوات، وتترهت عن الانفعالات المتعلقة بالبدن، عندئذ يمكنها الوصول إلى الحقيقة العليا؛ فإيمان الفارابي بالمعرفة الذوقية باعتبارها أحد مصادر المعرفة الرئيسة، جعل هذا النوع من المعرفة يشكل أهم نقاط الالتقاء بين الفارابي والمتصوفة، إلا أن الفارابي لم يقل بالاتحاد، أو الحلول³، أو الفناء؛ لكنه دعانا في تصوفه إلى تطهير النفس من علائق الحس، وشوائب الجسد الفاني عن طريق التأمل، والنظر العقلي، لذلك كان تصوف الفارابي تصوفاً عقلياً فلسفياً، ويؤكد ذلك قوله: "ما يفيض من الله تبارك وتعالى إلى العقل

¹ - إبراهيم مذكور، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، ج1، ص 36 .

² - الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، ص 51 .

³ - الاتحاد والحلول: الحلول: معناه أن يحل أحد الشيين في الآخر، فيراد به في اصطلاح القائلين به من الصوفية وغيرهم، حلول الله تعالى في مخلوقاته أو بعض مخلوقاته. أما الاتحاد: فيعني امتزاج الشيين، واختلاطهما حتى يصيرا شيء واحد، ومعناه باصطلاح القائلين به اتحاد الله تعالى بمخلوقاته أو ببعض مخلوقاته. انظر: الجرجاني التعريفات، ص92-92.

الفعال، فيفضيه العقل الفعال إلى عقله المنفعل بتوسط العقل المستفاد، ثم إلى قوته المتخيلة، فيكون بما يفيض منه إلى عقله المنفعل حكيماً فيلسوفاً¹.

وبالتالي يمكننا القول إن نظرية الفيض كان لها أثر كبير على فكر الفارابي، فلم يكن فقط من ناحية الجانب الأنطولوجي والمعرفي؛ بل كان لها أثرها في فكرته عن المدينة الفاضلة التي كانت أساس الجانب الاجتماعي.

لذا نجد الفارابي، وهو يقوم بتطبيق نظريته في عالم العقول على الإنسان، يحاول إبراز التشابه بين تركيب عالم العقول المفارقة من جهة، وعالم الإنسان باعتبارها نفساً وبدناً من جهة ثانية، وعالم الاجتماع المدني من جهة ثالثة، فهو يرى أن الإنسان لديه أعضاء كثيرة، ولكن لا بد أن يكون له رئيس واحد، فكما أن العقل الأول هو أول العقول، وهو المسيطر عليها، كذلك العقل الفعال، وهو الذي يسوس عالم ماتحت فلك القمر، أيضاً البدن نجد فيه عضو رئيس، له صفات معينة عند الفارابي².

ويؤكد على ذلك بقوله: "كما أن العضو الرئيس في البدن هو بالطبع أكمل أعضائه وأتمها في نفسه وفيما يخصه، وله من كل ما يشارك فيه عضو آخر أفضلها، ودونه أيضاً أعضاء أخرى رئيسة لما دونها ورياستها دون رئاسة الأول، وهي تحت رئاسة الأول ترؤس وترأس³.

وهكذا يتضح من النص السابق كيف عرض الفارابي ترتيباً هرمياً في أعضاء البدن؛ فالسابق يرأس اللاحق، وكلما اقترب العضو الرئيس كلما كان أكثر شرفاً من الذي يليه، وهذا مانجده في نظويته عن العقول.

كما حاول الفارابي أن يطبق هذا النظام على المدينة، فيرتب أعضاء المدينة كما رتب العقول، فأكملها هو الذي يقترب من الرئيس، ثم يتدرج حتى نصل إلى أخسها، وهذا ما يؤكد الفارابي بقوله: "وفي كل واحد منها هيئة ومملكة يفعل بها فعلاً يقتضي به ما هو مقصود ذلك الرئيس، وهؤلاء هم أولوا المراتب الأول، ودون هؤلاء هم في المرتبة الثانية،

¹ - الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، ص 125 .

² - عبده الشمالي، دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية، ص 258.

³ - الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، ص 80.

ودون هؤلاء أيضاً من يفعل الأفعال على حسب أغراض هؤلاء، ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن ينتهي إلى آخر يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم، فيكون هؤلاء هم الذين يخدمون ولا يُخدمون، ويكون أدنى المراتب¹.

ومما سبق يمكننا القول إن لنظرية الفيض وترتيب العقول جوانب متعددة؛ منها الجانب الأنطولوجي، والجانب المعرفي، كذلك الجانب الاجتماعي المدني، فهذا الجانب ماهو إلا صورة لعالم العقول.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل كان أثر الفيض عند الكرمانى كما هو عند الفارابى فى جميع نواحي فلسفته، أم أن أثرها عنده مختلف؟

المبحث الثانى:

الفيض عند الكرمانى

عندما نتحدث عن نظرية الفيض عند الكرمانى لا يمكن فصلها عن نظريته فى الإمامة، فكل منهما مرتبط بالآخر أوثق الارتباط، فإذا كان هناك فيض أو كما يقول الكرمانى انبثاق أو انبعثاقى عالم المعقول، فإننا نجد استمراراً ومقابلة له فى عالم الطبيعة، كذلك فى عالم الدين.

وكما هو معروف فإن قضية الإمامة من أهم القضايا التى أثارت جدلاً طويلاً؛ بل من أولى القضايا التى انقسمت بشأنها الفرق الكلامية، وعلى هذا فهى لاتتمثل عند الشيعة بوجه عام قضية مصلحة، بل قضية عقديّة، ولذلك كان الإيمان بالإمام أصل من أصول العقيدة، عندهم فالإمام مؤيد بقوة إلهية فهناك فيض من العالم الروحاني على الإمام، ولذلك كان لابد من طاعة الإمام والإيمان به، كما نؤمن بالنبي محمد . صلى الله عليه وسلم . ونطيعه.

¹ - المصدر نفسه، ص79.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل الكرمانى قال بالفيض؟ وهل أثره ككيفية من كفيات الخلق؟

وجد الكرمانى خصص الكرمانى المشرع الثانى من السور الثالث من كتابه (راحة العقل) عن الفيض تحت عنوان: "كون وجوده عن المتعالى لا على طريق الفيض، كما يقول الفلاسفة"

ومن خلال عنوان هذا المشروع يتبين لنا أنه دحض القول بالفيض؛ بحجة أن القول به يجعل تشابهاً بين الذي يفيض والمفاض عنه، ويقدم الكرمانى حججه والتي تكاد تكون نفس الأدلة التي قال بها الفلاسفة لإثبات الوحدانية فيقول: "إن من شأن الفيض أن يكون من جنس ما منه يفيض ومشاركاً له ومناسياً، ويكون الفيض من جهة ما هو فيض معين ما يفيض منه الفيض بكونه كذات الفيض؛ إذ ما يفيض منه الفيض فيه من طبيعة الفيض مثل ما في الفاض من طبيعة، ولا فرق بينهما من هذه الجهة، كما أن الضوء الذي هو فيض من عين الشمس من جهة ما هو ضوء معين الشمس يوجد فيها من الضوء مثل ما فاض عنها ولا فرق بينها. من هنا يصير الذي منه يفيض الفيض متكرراً بما يشاركه فيه الفيض وما يختص به هو مما لا يشاركه فتكون ذاته من شيين، شيء تشاركاً فيه فلم يتبايناً فيه، وشيء وقع به التباين بينهما، وحصلت الغيرية التي لولاها لما أمكن أن يقال ذلك غير هذا، وهذا غير ذلك، والذي يكون متكرراً، متكررة لحاجة بعض تلك الأشياء التي بها كانت الكثرة في وجوده إلى البعض الآخر، فوجودهما باستناد الواحد منهما إلى الآخر، ويقضي ذلك أن يكون المتعالى . سبحانه . إن كان ما وجد عنه فيضاً متكرراً واقعاً تحت قدرة غيره في وجوده"¹.

كما يدل الكرمانى على أن الموجود الأول لم يأت عن طريق الفيض، وذلك من خلال القول بالبساطة وعدم التكثر؛ فالبسيط أشرف وأكمل من الذي يحوي كثرة، والفيض

¹ - الكرمانى، راحة العقل، تحقيق: محمد كامل حسين، مصطفى حلمي، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة 1952م، ص69.

أبسط من الذي يفرض منه، فنجد، يقول الكرمانى: "إن من الأوائل في العقل وأحكامه أن الذي يكون أبسط وأعلى من آيات الكثرة وأقوم بذاته، فهو أشرف من غيره، وعلى هذه فالفيض أبسط من الذي فرض منه بكونه شيئاً واحداً، وكون الذي فرض منه شيئاً، ويلزم عن ذلك أن يكون الفيض أولى بأن يكون متقدماً على الذي فرض منه لشرفه عليه، بقلة الكثرة فيه ووجود الكثرة في ذلك"¹.

كما يقدم الكرمانى دليلاً آخر على القول بأن الموجود الأول أو العقل الأول لم يخلق عن طريق الفيض، وذلك من خلال فكرة التمام، تلك الفكرة التي استخدمها الفارابي من قبل في التأكيد على أن الله ليس كمثل شيء، أما الكرمانى وبالرغم من أنه استخدم الفكرة نفسها، أي فكرة التمام؛ إلا أنه وظفها وظيفة أخرى تتفق ونفيه للصفات، يقول في ذلك: "الفيض لا يكون إلا عن تمامية ذات ما يفرض منه، والمتعالى سبحانه قد تسبح عن أن يكون تماماً أو تاماً، فيقع الاشتراك به بينه وبين غيره في معنى من المعاني، فيلزم من ذلك وجود ما عنه تكون هويته، إذ التمام مشترك للتمام، والتام مشترك للتمام ومناسباً، والمشاركة والمناسبة بين شيئين يقتضيان ما يتقدم عليهما. ولو كان للمتعالى سبحانه مشاركة مع غيره في شيء من الأشياء أو مناسبة لاقتضى ما يتقدم عليهما، ثم لو كان للمتقدم أيضاً مشاركة مع غيره في شيء من الأشياء لاقتضى ما يتقدم عليهما، ويستندان في الوجود إليه كلاهما، فتؤدي الحال في ذلك إي أمر في نهايته يوجب أن لا توجد للموجودات، فلما كان هذا باطلاً محالاً بطل أن يكون الموجود عن المتعالى سبحانه فيضاً"².

هكذا يتضح دحض الكرمانى القول بالفيض، لكن كيف يتم الخلق عنده؟ وإذا كان قد رفض الفيض فهل رفض المصطلح فقط أم المضمون برمته؟

¹ - الكرمانى، راحة العقل، ص 69.

² - المصدر نفسه، ص 69-70.

من خلال عرضنا لنصوص الكرمانى فى كتابه راحة العقل والرياض يتضح لنا أنه قد رفض المصطلح كلفظ فقط، فقد سار على نهج الأفلاطونية المحدثة فى تناول كيفية الخلق، فنجد ترتيب الموجودات نفسها، ولكن نجده يأتي بنص رفض فيه الفيض بقوله: "قلما بطل أن يكون ما وجد عن المتعالى أيضاً لم يبق إلا أن يكون إبداعاً"¹.

ماذا يعنى بالإبداع هنا؟ هل الإبداع هو الخلق من عدم؟

لكن هذا ليس ما قصده الكرمانى بالإبداع، ويؤكد ذلك بقوله: "قول مبدع الأشياء، لا من شيء فقط هو، ولا شيء معه، لم يزل ينطوي فيه ما لا يجوز اعتقاده"².

فالإبداع الذى يقره الكرمانى ما هو إلا إصطلاح أطلقه على العقل الأول؛ لكونه ذات الفعل الصادرة إلى الوجود عن المتعالى سبحانه، فالإبداع هو المبدع الأول³.

وبالتالى إذا كان الكرمانى قد فرق بين الإبداع والانبعثات، فلا يجب أن نعتقد أنه فرق بين خلق من عدم وفيض، بل هو فرق بين موجودين، الأول وهو الإبداع ويعنى به الموجود الأول أو العقل الأول، أما الانبعثات فهو الموجودات التى انبعثت عن الأول، وهذا معنى قول الكرمانى: "إن كيفية الإبداع لا ككيفية الانبعثات التى قد أحاطت العقول النيرة بها فأخرت عنها؛ إذ لو كانت مثلها لكان الإبداع انبعثاً والانبعثات إبداعاً، فبطل أن تكون كهي"⁴.

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: كيف أبدع الله العقل الأول؟ وكيف انبعث الثانى، وكيف انبعث العقل الذى هو قائم بالقوة من العقل الثانى؟ وكيف انبعثت العقول؟

بدأ الكرمانى فى الإجابة على ذلك التساؤل، بقوله: "إن الله أول ما أبدع كان العقل الأول الذى هو الموجود الأول التام بالفعل، ثم من خلال هذا الموجود الأول التام بالفعل،

¹ - الكرمانى، راحة العقل، ص93.

² - الكرمانى، الرياض فى الحكم، تحقيق: عارف تامر، دار الثقافة، بيروت، سنة 1960م، ص127.

³ - الكرمانى، راحة العقل، ص97.

⁴ - الكرمانى، الرياض، ص97.

ثم من خلال هذا الموجود الأول توالت سلسلة الفيوضات والانبعاثات، فنور الإبداع في الموجودات أجمع، وهذا العقل الأول له جانبان ومن خلالهما تصدر فيوضات؛ فمن جهة أنه يعد عقلاً يصدر عنه عقل قائم بالفعل، ومن جهة أنه معقول لذاته يصدر عنه موجودات أقل شرفاً من، العقل وهما المادة والصورة".¹

وهنا نجد تشابهاً شديداً بين ما ذهب إليه الكرمانى من جهة صدور موجودات عن العقل وقول الفارابي وغيره من فلاسفة الفيض² بأن العقل عندما يعقل خالقه يصدر عنه عقل، وعندما يعقل ذاته من حيث إنها ممكنة يصدر عنه موجو أقل شرفاً من الصادر الأول³.

وهكذا يؤكد الكرمانى هذه الفيوضات في أكثر من موضع في كتاباته، فيقول: "إن العقل الأول الذي هو المبدع الأول لما كان وجوده عن المتعالي سبحانه إبداعاً، وكان عقلاً بإبداع الله تعالى إياه كذلك، وكان كونه عقلاً نسبة، وبكونه معقولاً نسبة أخرى، وكان من جهة كونه عقلاً أشرف من جهة كونه معقولاً؛ بكونه من تلك الجهة فرداً منتسباً إلى المتعالي سبحانه، ومن جهة أنه معقول زوج منتسب إلى ذاته، وكان علة لوجود الموجودات. لزم عن ذلك وجود شيئين عنه، بحسب ما عليه ذاته من النسبتين إحداهما أشرف من الأخرى، كان الموجود من النسبة الأشرف قائماً بالفعل عقلاً فرداً، وهو مع كونه ثانياً في الوجود . عند الترتيب . أول بالانبعاث؛ كما أن المبدع الأول أول بالإبداع، وكان الموجود عن النسبة الأخرى دون ذلك منزلة عقلاً قائماً بالقوة يسمى الهبولى والصورة".⁴

1- الكرمانى، راحة العقل، ص101.

2- من أهمهم ابن سينا فقد سار على درب الفارابي في قوله بنظرية الفيض أو الصدور الأفلوطينية، كما سار على درب الفارابي كذلك مقررًا أنه لا يجوز أن يصدر عن الواحد كثرة، لأن ذلك يعنى تكثر ذاته وهذا محال، ولأجل ذلك يقرر أن ما يصدر عن الواحد واحد، وهو عقل مفارق، صورة بدون مادة. انظر: محمد لطفي جمعة، تاريخ فلاسفة الإسلام، دراسة شاملة عن حياتهم وأعمالهم، ونقد تحليلي عن آرائهم الفلسفية، عالم الكتب للنشر والتوزيع، 1999م، ص63.

3- حنا الفاخوري، خليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، ص208.

4- الكرمانى، راحة العقل، ص101.

ويحاول الكرمانى أن ينزل بميثافيزيقاه إلى الأرض حين قابل بين عالم العقول أو ما يطلق عليه دار الإبداع وبين عالم الدين، فالعقل الأول الذي يمثل علة للعقول في عالم الإبداع ووجوده أمر ضروري يقابله الناطق في عالم الدين، فالناطق علة عالم الدين بما أقامه من السنن والوضائع، وبسطه من الحكم والشرائع في عالم الدين؛ فالناطق النبي - صلى الله عليه وسلم - أقامه الله تعالى هادياً لعباده إلى ما فيه صلاحهم من العبادة والعلم والعمل، فيه يسد خلل عجزهم عن طلب مصالحهم ديناً ودنياً بأفضاله ويتحمل عنهم¹.

وبالتالي إذا كان الإبداع أو المبدع الأول ذا نسبتين إحداها أشرف من الأخرى، فكذلك الناطق له نسبتين؛ نسبة إلى عالم القدس، ونسبة إلى عالم الطبيعة، أحدهما أشرف من الأخرى؛ فنسبته إلى عالم القدس يفيض عنها الوحي، أما من جهة عالم الطبيعة فيفيض عنه الكتاب والشريعة، ويؤكد الكرمانى على هذه المماثلة بين المبدع الأول والناطق، فيقول في راحة العقل: "إن العقل الأول ذو نسبتين إحداها أشرف من الأخرى، وأن الموجود عنه اثنان بحسب النسبتين إحداها أشرف من الآخر فكان الموجود عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - على هذا النظام ناطقاً بأن حال ما تقدم وجوده مما غاب عن الحواس على مثل ذلك؛ بكونه - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - سالكاً في ترسيم سنته وقوانين شرعه طرق الدلالة على هذه الأمور الغامضة، ولذلك قال تعالى: ﴿سُنُّرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾² فوجود الوحي والكتاب المقترن بالشريعة عنه ينطق بأن الموجود عن العقل الأول اثنان، وأن أحدهما أشرف من الآخر، وأن الأشرف عقل قائم بالفعل، مثله مثل كون الوحي مثل الناطق وأن الآخر هو قائم بالقوة مزدوج ذاته، وهو الهيولى والصورة اللتان هما مزدوجتان مثل ماجاء به الناطق الذي هو مزدوج كتاباً وشرية³.

¹ - الكرمانى، راحة العقل، ص122.

² - سورة فصلت، الآية53.

³ - الكرمانى، راحة العقل، ص122-124.

وإذا كان الناطق يماثل المبدع الأول، فكذلك الوصي يماثل المنبعث الأول؛ فالوحي هو أول الأئمة في عالم الشرع والدين، كذلك المنبعث هو أول العقول المنبعثة في عالم القدس؛ فالمنبعث هو عقل قائم بالفعل مثل ما عنه وجد، كالشعاع الموجود من الشمس التي هي من جنس العلة الفاعلة¹.

لهذا نجد الإسماعيلية وعلى رأسهم الكرمانى في مسألة الإمام قد خلعوا صفات التقديس² على الإمام إلى الحد الذي ألهو فيه الحاكم، ونسبوا إليه معرفة الغيب؛ فالعقل الكلي الذي هو الخالق لكل شيء والذي يطلق عليه الكرمانى لقب الإبداع هو الذي يلقي المعرفة على الناطق أو النبي، ثم يليه الأساس أو الوصي الذي يستمد هذه المعرفة من هذا المكان المقدس، ثم يليه الإمام، ومن هنا نجد أن المعرفة تستمر من خلال الفيض، كذلك الوحي لا ينتهي بانتهاء النبوة؛ لأن هناك من يكمل رسالة النبي فمهمة النبي كشف أسرار الدين، فإذا كان دور النبوة قد انتهى، فإن دور الولاية هو دور الإمام³.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لكن هل المنبعث الأول عن الإبداع عن قصد أم ضرورة؟

فكما ذهب الفارابي إلى أن الفيض يتم لا عن قصد، بل هو ضروري عن الله تعالى، فكما أن الشمس لا تستطيع أن تحجب أشعتها عن الخروج منها، فكذلك الله لا يستطيع أن يمتنع عن فيضه، كذلك الانبثاق عند الكرمانى لا يتم عن قصد، بل هو نتيجة ضرورية وحتمية لاغتناب المبدع بذاته وتعلقه لذاته، ومعرفته لذاته، إذاً الانبثاق عند الكرمانى يصدر عن المبدع كوجود الشعاع عن إشراق الشمس في وجه المرآة الصافية ضروري لا بد منه⁴.

¹ - حنا الفاخوري، خليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، ص 214-215.

² - ويرجع وصفهم للإمام بصفة الإله إلى تأويلاتهم الباطنية، فلا بد عندهم من وجود إمام معصوم يخلف النبي وقد خلعوا عليه صفات التقديس. انظر: محمد حسين كامل، طائفة الإسماعيلية، ص 157.

³ - زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، 1971م، ص 113.

⁴ - الكرمانى، راحة العقل، ص 105-109.

وكذلك كما هو الحال عند الفارابي نجد أن القول بالفيض أو الانبثاق عند الكرمانى يستلزم بالضرورة القول بقدّم العالم، ويقدم الكرمانى العديد من الأدلة على القول بقدّم العالم، وتستند جميعاً إلى فكرته عن الإبداع وكيفية ارتباط الموجودات به، ويؤكد ذلك بقوله: "إن الموجودات عن الإبداع الذي هو المبدع الأول بالانبعاث، وجودها لا بزمان"¹. لذلك نجده يقسم الموجودات إلى ثلاثة أقسام:

الأول: وهو أعلى المراتب وأكملها، ويطلق عليها اسم الإبداع، وهي تكون بلا زمان.

الثاني: ويسمى الانبعاث، وهو أوسط الأقسام وتكون مع الزمان.

الثالث: يطلق عليه اسم الأحداث، وهو أدنى المراتب وأخسها وتكون بزمان².

وهنا يتضح التشابه الواضح بين الفارابي والكرمانى؛ حيث نجد أن نظرية الفيض عندهما قد تغلغت في شتى مجالاتهم الفكرية.

الخاتمة:

لقد توصلت هذه الدراسة إلى النتائج الآتية:

لنظرية الفيض أو الصدور التي ابتدعها أفلوطين أثر واضح وخطير على الكثير من مفكري الإسلام سواء كانوا متكلمين أو فلاسفة، ويظهر هذا واضحاً من الناحية الأنطولوجية أو الإبيستمولوجية لدى الفارابي والكرمانى.

هناك تشابه بين موقف الفارابي والكرمانى من ناحية الفيض وترتيب الموجودات، نجدهما واحدة عند كل منهما فالفيض أو الانبثاق عند الكرمانى كان مزيجاً من نظرية الفيض الأفلاطونية والفارابية، انتهت إلى أن الله تعالى ليس الخالق المباشر للموجودات.

¹- المصدر نفسه، ص140.

²- الكرمانى، راحة العقل، ص140-141.

حاول الكرمانى الإسماعيلى أن يضع نظاماً يعتمد اعتماداً رئيسياً على نظرية الفيض التى نجدها قد تغلغت فى شتى مجالاتهم الفكرية، التى كانت ستاراً لإخفاء نواياهم السياسية. يوجد تشابه بين موقف الكرمانى والفارابى، فقد ذهب الفارابى إلى أن الفيلسوف أعلى درجة من النبى، ويتفق معه الكرمانى فى ذلك، لكن يختلف معه فى أن المعرفة التى تأتى للفيلسوف عند الفارابى تكون بالمجاهدة؛ فالفيلسوف لا يوحى إليه، فهو يتصل بالعقل الفعال عن طريق العقل، وليس المخيلة، أما الإمام عند الكرمانى فالمعرفة تأتى إليه عن طريق ما تفيض عليه القوة القدسية، فهو يوحى إليه، فالوحي كما يرى الكرمانى لا ينقطع، بل متواصل مع الإمام.

وأخيراً يتضح من خلال هذه الدراسة تشابهاً واضحاً بين الفارابى والكرمانى فى كثير من الأفكار؛ لأن المصدر فى فكرهما واحد، وهو نظرية الفيض الأفلاطونية.

المصادر والمراجع:

- الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، لفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، قدم له وعلق عليه: ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، الطبعة السابعة، 1986م.
- الفارابي، السياسات المدنية، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد ، الطبعة الأولى، سنة 1346هـ.
- الفارابي، مقالة في معاني العقل، ضمن "كتاب المجموع من مؤلفات الفارابي"، مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1907م.
- الكرماني، راحة العقل، تحقيق: محمد كامل حسين، مصطفى حلمي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1952م.
- الكرماني، الرياض في الحكم، تحقيق: عارف تامر، دار الثقافة، بيروت، 1960م.
- إبراهيم مذكور، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق، ج1، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، 1967م.
- أحمد عبدالمهيمن، نظرية المعرفة بين ابن رشد وابن عربي، دار الوفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2001م.
- الجرجاني، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1405.
- ابن منظور، لسان العرب، ج10، إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة.
- جميل صليبا، من أفلاطون إلى ابن سينا، مكتبة النشر العربي، بدمشق 1937م.
- حنا الفاخوري، خليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، دار الجيل، بيروت، بدون طبعة وتاريخ.
- دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة: محمد عبدالهادي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1957م.
- زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، 1971م.
- فيصل عباس، موسوعة الفلاسفة، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1996م.

عبد الشالمى، دراسات فى تاريخ الفلسفة العربية والإسلامية، دار صادر، بيروت، الطبعة الخامسة، 1979م.

محمد حسين كامل، طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، وحكم الإسلام فيها، مكتبة النهضة المصرية، 1959م.

محمد عبدالرحيم الزينى، مشكلة الفيض عند فلاسفة الإسلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م.

محمد فريد وجدي، المصحف المفسر، القسم الأول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م.

محمد لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الإسلام : دراسة شاملة عن حياتهم و أعمالهم : ونقد تحليلي عن آرائهم الفلسفية : 1420هـ / 1999م ،عالم الكتب للنشر والتوزيع.

مصطفى غالب، في سبيل موسوعة فلسفية، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1998م.

قطع أشجار الغابات وآثاره على عملية التصحر

(في المنطقة الممتدة من تاجوراء إلى غرب مدينة الخمس)

د. الهادي عبد السلام عليوان

المقدمة:

يسعى الإنسان دائماً إلى غرس الأشجار في مناطق وجوده، أي على الأرض التي يعيش عليها، كما تسعى الدولة نفسها إلى العمل على غرس الأشجار بالمناطق العامة لأجل إنشاء وتكوين الغابات التي تساهم في توفير غطاء نباتي يساعد على تثبيت التربة وصدّ الرياح، وتشكيل المناظر الطبيعية، إلى جانب قيام هذه الغابات بتخفيف درجة الحرارة والمساهمة في تواجد السياحة للتنزه، ويعمل كل فرد على غرس الأشجار في منطقتة الخاصة لأجل الاستفادة من ظلها أو عملها كحدود فاصلة مع جيرانه.

غير أن الذي شاهدناه في سلوك العديد من الأفراد بعد ثورة 17 فبراير 2011م، وقيامهم بهذا العمل الخطير من حيث قطع وإزالة ومسح كامل للأشجار الواقعة بمحاذاة الطريق الساحلي، ونخص بدراسة المنطقة الممتدة من تاجوراء غرباً إلى مدينة الخمس شرقاً، أي بمسافة حوالي 90 كم، وجنوباً بمسافة حوالي 500 متر إلى 700 متر لأجل استغلال أماكنها في عدة عمليات منها البناء للمحال التجارية والصناعية والسكنية، وهذا العمل يشمل استغلال جزء من سهل الجفارة في قسمه الشمالي، وهذا ترتب عليه تحرك الكثبان الرملية وردم الطريق الساحلي بين الحين والآخر، بعد أن كانت الأراضي مثبتة من خلال وجود الغطاء النباتي والشجري، وبذلك ساهم هذا العمل البشري، إلى جانب العامل الطبيعي من حيث نقص كمية الأمطار، في تزايد مشكلة التصحر مكملاً ما هو مترکز في النطاق الصحراوي وزحفه نحو الشمال.

عليه نحاول في هذا البحث التطرق إلى هذه المشكلة من حيث أسبابها وآثارها والحلول التي تسهم في التقليل من خطورتها، ومحاولة العلاج ولو لجزء منها.

المشكلة:

تتمحور في ظاهرة قطع الأشجار بشكل كبير ما يلفت النظر حتى للشخص الغير متخصص، وهذا يؤدي إلى انتشار هذه الظاهرة الخطيرة المتمثلة في اتساع عملية التصحر وزحف الكثبان الرملية من ناحية الجنوب نحو الشريط الساحلي، ويمكن تحديد المشكلة من خلال التساؤلات الآتية:

س/ هل قطع الأشجار بهذه الطريقة يؤدي إلى سهولة تفكك التربة حتى يسهل للرياح والأمطار نقلها؟

س/ هل مسح هذه المنطقة من الشريط الساحلي التي كانت تزخر بالغابات لأجل استغلالها من قبل المواطنين في المشاريع التجارية والصناعية والسكنية ساهم بالتسريع في عملية التصحر؟

الأهداف:

يهدف البحث إلى:

التعرف على مدى خطورة قطع أشجار الغابات بهذه الطريقة بالمنطقة الساحلية وما يترتب عليها من أضرار.

معرفة مدى أثر العامل المادي في دفع الأفراد إلى المغامرة بعملية قطع الغابات ومسح المنطقة بهذه الصورة لكي يتسنى لهم القيام بمشروعاتهم دون النظر إلى خطورة هذه الأعمال.

التعرف من خلال هذه الدراسة على هذه الظاهرة وخطورتها على المنطقة والمحاولة للحد منها بقدر الإمكان.

الأهمية:

تتحدد أهمية البحث في:

التعرف على ما يقوم به الأفراد من عملية قطع للغابات ما يترتب عليه من آثار للبيئة

ومساهمتها في زيادة عملية التصحر وتوضيح هذه المشكلة لأفراد المجتمع. من خلال هذا البحث يمكن المساهمة في تحديد المشكلة والعمل على المساهمة في الحد من هذه الظاهرة التي تؤدي إلى زحف الكثبان الرملية على منطقة الشريط الساحلي. الإسهام في تفعيل القوانين واللوائح التي تمنع قطع أشجار الغابات بهذه الصورة وتوضيح مدى خطورة هذه الأفعال وتقسيها بين الأفراد لأجل المنفعة المادية.

فرضيات البحث:

قطع أشجار الغابات بهذه الصورة يؤدي إلى تفكك التربة، مما يساعد العوامل الطبيعية على جرفها وزحفها نحو البحر.

مسح منطقة الشريط الساحلي من أشجار الغابات وإزالتها بهذه الطريقة (القسم الشرقي من سهل الجفارة) يؤدي إلى القضاء نهائياً على الغطاء النباتي ومن ثم يسرع في عملية التصحر.

المنهجية المتبعة:

من المتبع عند دراسة أي ظاهرة جغرافية، اتباع منهجية محددة، حيث تعد من أساسيات البحث الجغرافي، وفي هذا البحث سيتم استخدام المنهجين الوصفي والتحليلي مع استخدام المنهج الكمي إذا تطلب الأمر ذلك، وقد أوضح (الفرأ)⁽¹⁾ في هذا السياق بأن عملية البحث الجغرافي تتطلب منهجية محددة لأجل الوصول عن طريقها إلى الدقة والحقيقة التي تكشف حيثيات الموضوع المبحوث وصفاً وتحليلاً.

(¹) محمد علي الفرأ، مناهج البحث الجغرافي بالوسائل الكمية، وكالة المطبوعات، الكويت، 1982م، ص 21.

العمليات التي استخدمت في هذا البحث:

المصادر والمراجع ذات العلاقة المباشرة التي من خلالها يمكن التوصل إلى معرفة العوامل والمسببات التي تؤدي إلى هذا السلوك (سلوك قطع الأشجار) لأجل المنفعة المادية التي يسعى لها الإنسان دون النظر إلى خطورة تلك الظاهرة، متمثلة في الكتب والرسائل العلمية (ماجستير ودكتوراه) والمجلات العلمية، والمنشورات من المؤسسات العلمية البحثية المعتمدة والندوات والمؤتمرات العلمية المتخصصة.

استخدام بعض الخرائط بقدر الإمكان وخاصة التي تحدد موقع منطقة الدراسة والبحث. المقابلات الشخصية مع الأفراد الذين استغلوا هذه المناطق في مشاريعهم بعد قطع أشجارها وإقامة المشاريع عليها.

الدراسات السابقة:

من خلال دراسة هذه الظاهرة اتضح بأن هناك من تطرقوا إلى هذا الموضوع في فترات سابقة، حيث وضح (روزمورفي R.MURphy)⁽¹⁾ في إحدى دراساته في شمال أفريقيا في العهد الروماني بأنه أسباب التصحر لم تعود لأسباب طبيعية فقط، وإنما ترجع إلى أسباب بشرية بالدرجة الأولى، وأكد ذلك بأدلته حيث لاحظ بأن هناك العديد من الأنهار لم يتغير مستواها في الجزائر والمغرب، وكذلك لم يلاحظ تغيرات مناخية كبيرة في تلك الفترة في ليبيا ومصر، وهذا يؤكد لنا في هذا البحث الذي يلاحظ فيه قيام العامل البشري بقطع الغابات، وأضاف (كريم)⁽²⁾ في دراسته لعملية التصحر بسهل الجفارة بأن

(¹) محمد عبد النبي بقي، التصحر في شمال أفريقيا، الأسباب والعلاج (ترجمة عبد القادر المحيشي)، المركز العربي لأبحاث الصحراء وتنمية المجتمعات الصحراوية في كتاب التصحر في سهل الجفارة، دراسة تطبيقية، 2010، ص 19.

(²) مسعود عياد كريم، التصحر في سهل الجفارة، جامعة طرابلس، كلية الآداب، قسم الجغرافيا، دار الكتاب الوطنية، بنغازي، ليبيا، 2010، ص 154.

حدوث عمليات التصحر بهذا السهل يرجع إلى سببين رئيسيين، (تآكل التربة، وضعف الحياة النباتية أما هذا البحث فيركز على العامل البشري الذي أثر في حدوث عمليات التصحر في المنطقة المحددة بالبحث، وهذا العامل ساعد على حدوث الظاهرة الطبيعية التي وضحها (كريم).

المصطلحات والمفاهيم:

التصحر: وهو يرتبط بالصحراء التي تعني المناطق الجافة التي تنذر فيها النباتات أو تكاد بسبب انعدام المطر وجفاف التربة.

سهل الجفارة: وهو يشمل المنطقة السهلية الممتدة من الحدود التونسية غرباً إلى رأس المسن شرقاً ويحده من الجنوب جبل نفوسة.

التصحر الخفيف⁽¹⁾: وهي الحالة التي يكون فيها تدهور في الأرض من حيث التربة والغطاء النباتي بصورة غير ملحوظة.

التصحر الشديد⁽²⁾: وتظهر فيه النباتات غير المرغوب فيها، وتتشكل بها العديد من أنواع التعرية ونقص في إنتاجية الأرض.

الموقع الجغرافي لمنطقة الدراسة⁽³⁾:

موقع منطقة الدراسة تتمثل في القسم الشمالي من سهل الجفارة وبالتحديد في المنطقة الممتدة من تاجوراء غرباً مع محاذاة الساحل إلى مدينة الخمس شرقاً حوالي 90 كم، ويعرض يتراوح من 500 إلى 700 متر حسب استغلال الأفراد لها، (يوضح ذلك من خلال خريطة الموقع).

أماكن تواجد الغابات:

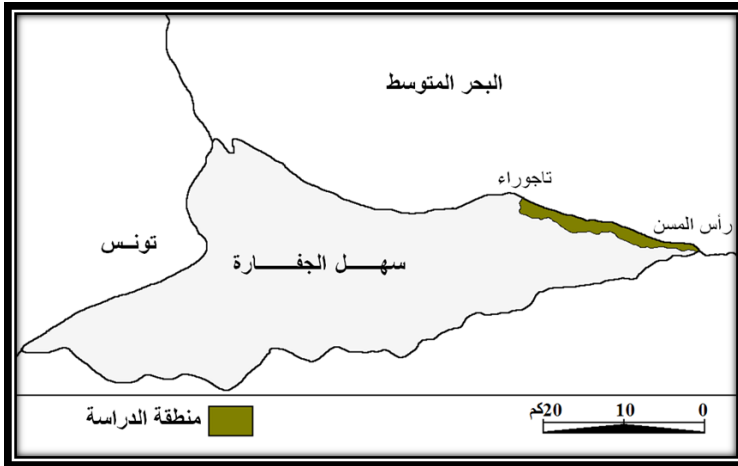
(¹) وزارة الزراعة، قسم الإرشاد الزراعي، زراعة الشعير، طرابلس، 1976م.

(²) وزارة الزراعة، نفس المصدر.

(³) الدراسة الميدانية، 2012م

من دراسة السهل الساحلي الممتد غرب مدينة الخمس إلى تاجوراء يلاحظ من خلال هذه المسافة تواجد أشجار الغابات، حيث تتركز في ثلاث مناطق رئيسية، الأولى عند منطقة المرقب، حيث يتواجد به أشجار الصنوبر، والمنطقة الثانية عند منطقة النفازة، حيث تتواجد هذه الأشجار وهي بها عدة أنواع، منها الصنوبر، والسرو وغيرها، والمنطقة الثالثة وهي تتركز في منطقة القره بوللي وهي تعد من أكبر المساحات التي تضررت من عملية الإزالة بسبب مساحاتها المستوية، حيث أقاموا عليها النشاطات المختلفة منها عمليات البناء للعمل التجاري، والصناعي، والحرفي، والسكني، وكذلك المنطقة الرابعة والتي تتركز حول منطقة غوط الرمان، حيث أزيلت وأقيم في مكانها الاستراحات والمزارع الخاصة، وهذه العمليات التي قام بها العديد من الأفراد أدت إلى عملية التسرع في ظهور هذه الظاهرة ألا وهي عملية التصحر التي أصبحت تنتشر في كثير من بلدان العام، والتي نحن بصدها ألا وهي ليبيا، ونخص بالذكر في منطقة سهل الجفارة الذي يعد من السهول ذات الأهمية في مختلف الأنشطة الاقتصادية، وهنا نوضح هذه الظاهرة من خلال المفاهيم الآتية:-

خريطة توضح المنطقة التي تم إزالة أشجارها (2014م)



المصدر: من عمل الباحث استناداً إلى: مسعود عياد كريم، التصحر في سهل الجفارة، دراسة تطبيقية، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة طرابلس، ص55.

التصحر:

وهو يعني أن العملية لها ارتباط بالصحراء التي تمتاز بالجفاف، والفقير في الغطاء النباتي وفقر التربة، وهناك العديد من العلماء الذين وضعوا لها عدة تعريفات ومن بينهم العالم "لوهويرو" (Lehouerou)⁽¹⁾ الذي وضع تعريفاً في مطلع الستينيات موضحاً فيه أن التصحر يتركز في الحافة الشمالية للصحراء الكبرى حيث يكون معدل المطر أقل من 300 ملم سنوياً، كما هو موضح في الصورة (1).

صورة رقم (1) إزالة أشجار الغابات الواقعة في القربولي على جانبي الطريق الساحلي



المصدر: عدسة الباحث.

(¹) Lehouerou. H.n. the nature and causes of desertification and environmental degradation in and around arid (ed) glauetz. M. boulder westviewpress. 1977. P.17.

التصحر إقليمياً وعالمياً:

على الرغم من المحاولات العديدة التي قام بها الباحثون من حيث التعريفات المختلفة للتصحر باعتبارها تكثيف أو تعميق للظروف الصحراوية من خلال انخفاض أو تدهور حمولة الطاقة البيولوجية للبيئة، والتي يعد حدوثها أحد أشكال التدهور الذي تنتج عنه هذه العملية، إلى جانب سوء استغلال المراعي والزراعة وعدم المحافظة على الغابات، حيث تشكل كلها مشاكل خطيرة إذا لم تتكاتف الجهود الدولية والإقليمية لمكافحتها، فإنها سوف تؤدي إلى كوارث بيئية وغذائية، ومن خلال تقارير هيئة الأمم المتحدة بشأن إحصائية الأراضي التي تعرضت إلى التصحر وجد أنها تقدر بحوالي 6 مليون هكتار سنوياً⁽¹⁾، كما قدر (جونسون) (Johnson) بأن 8% من سكان العالم مهددون بهذه العملية من حيث الخسارة في الإنتاج الزراعي والرعي اللذان يشكلان الغذاء الرئيس للسكان.

ونظراً لخطورة هذه الظاهرة التي أدت في الخمسين عاماً الأخيرة إلى زحف الرمال في العالم على مساحة تقدر بحوالي 26 ألف كم²، فلقد عقدت العديد من المؤتمرات التي تم من خلالها التوصية بتقديم العون لكل الأقطار المتأثرة بالتصحر وذلك بتقديم خطط قومية خاصة لهم لأجل المعالجة والتخفيف من هذه المشكلة وخاصة في المناطق دون المدارية (شبه الجافة) والمدارية.

ونعني هنا بأن هناك عوامل طبيعية مؤثرة في المساهمة في عملية التصحر التي تتزامن مع العوامل البشرية السالفة الذكر، وبذلك شملت تحديد العوامل في: القسم الشمالي لهذا السهل: ويقع على البحر الذي يكون له دور فعال في عملية انخفاض درجة الحرارة في الصيف والدفيء في الشتاء فيكون له تأثير على عملية الجفاف

(¹) براون، تقييم الانخفاض البيئي (ترجمة لطفي مسيس) مؤسسة الرسالة، بيروت، 1976م،

بالنسبة للتربة عند مقارنته بالمناطق الداخلية التي يرتفع فيها درجة الحرارة في فصل الصيف.

تواجد الكثبان الرملية نتيجة ارتفاع درجة الحرارة في الصيف، وهذا يؤثر في عملية امتصاص مياه الأمطار بعكس المناطق المنبسطة من السهل⁽¹⁾.

الغطاء النباتي الذي يساهم في عملية تثبيت التربة سواء من خلال عملها كحواجز لمقاومة الرياح، أو مساهمتها في تخفيض درجة الحرارة ومقاومة الجفاف، وهنا يلاحظ بأنه في حالة قطع هذه الأشجار فهذا يعني مساهمتنا مع العوامل الطبيعية في التسريع بهذه الظاهرة ألا وهي (عملية التصحر).

أنماط استخدام الأرض وأثرها في التصحر:

يلحظ بأن استخدام أرض سهل الحفارة في الإنتاج الزراعي والرعي والصناعي والتجاري، في الفترات السابقة، كان استخداماً زراعياً باعتبار هذا السهل من أهم السهول اللبية التي تساهم بشكل كبير في الإنتاج الزراعي نتيجة ما يمتاز به من اعتدال في المناخ ووفرة في الأمطار، وخصوبة في التربة وسهولة في المواصلات وكثافة في السكان، حيث ساهمت جميعها في تركيز السكان بها، غير أنه قد لوحظ في الفترة الأخيرة توجه بعض الأفراد إلى عمليات قطع للأشجار ومسح للغطاء النباتي، والعمل على استغلال أماكنها في النشاطات المختلفة وخاصة الأعمال الصناعية والتجارية من أجل الريح السريع والتكالب على جمع الأموال من خلال هذه النشاطات، وهذا ترتب عليه فقدان الحاجز الطبيعي الذي كان يخفف من أثر الرياح على عملية زحف الكثبان الرملية وإزالة التربة وغيره، وهذا يمكن ملاحظته لكل فرد عند مروره من الطريق الساحلي أي من غرب مدينة الخمس إلى مدينة طرابلس.

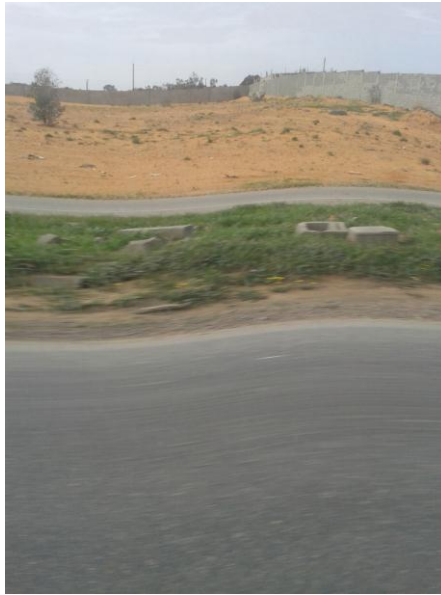
(1) محمد خميس الزوكة، جغرافية الوطن العربي، الطبعة الثانية، دار المعرفة الجامعية،

الإسكندرية، 1994م، ص83.

العوامل المسببة للتصحّر:

هناك العديد من العوامل التي تسهم في حدوث عمليات التصحر ويمكن حصر بعضها في هذا البحث؛ فمنها الطبيعي كالجفاف نتيجة قلة الأمطار وتأخر هطولها، وكأثر الرياح القوية التي تؤدي إلى تفتيت التربة وزحف الرمال. ومن العوامل الأخرى العامل البشري وهو المهم في هذا البحث، حيث يقوم الأفراد بعملية قطع وإزالة الغابات والشجيرات والنباتات سواء بقصد، أو بدونه فهذا يساهم بشكل أو بآخر في التسريع بعملية التصحر، نتيجة تحريك التربة وجعلها سهلة الانتقال جراء العوامل الطبيعية السالفة الذكر، إلى جانب قيام الأفراد بممارسة حرفة الرعي الجائر (عدم تطبيق الأسلوب العلمي في أماكن الرعي)، وكذلك الزراعة الجائرة كما هو موضح في الصورة (2).

صورة رقم (2) مسح أشجار الغابات وإزالتها وإقامة البناء بها

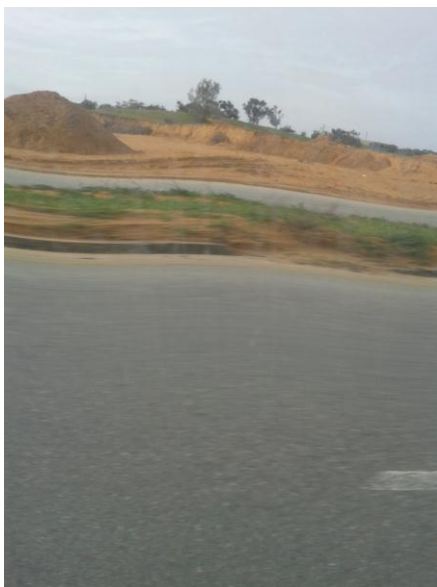


المصدر: عدسة الباحث.

آثار التصحر⁽¹⁾:

من خلال الدراسات العديدة للأماكن التي تعرضت للتصحر يتضح بأن هناك أثراً للتصحر بيئية اقتصادية اجتماعية، فمثلاً الانخفاض الواضح في عملية الإنتاج الزراعي والرعي، وهذا يلاحظ في فترات الجفاف في المناطق التي تتعرض لهذه العملية، حيث دلت الدراسات على أن إنتاج الهكتار من الحبوب في المناطق الجافة والهامشية من مناطق الوطن العربي قد انخفض، أما عن الأثر الاجتماعي الناجم عن التصحر فهو يعمل على تسارع الهجرة السكانية من الأرياف إلى المدن طلباً للرزق والرغبة في حياة أفضل، أما بالنسبة للأثار الاقتصادية للتصحر فهو يؤدي إلى انخفاض في حجم الموارد الزراعية وخسارة في الأراضي القابلة للزراعة وتقلص مساحتها، كما هو موضح بالصورة (3).

صورة رقم (3) إزالة أشجار الغابات عند منطقة غوط الرمان بالطريق الساحلي
لأجل إقامة المحال التجارية والورش



(1) مسعود عباد كريم، التصحر في سهل الجفارة، دراسة تطبيقية، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة طرابلس، 2010م، ص 129-131.

المصدر: عدسة الباحث.

اختبار العلاقات الإحصائية للفرضيات:

من خلال المقابلة الشخصية التي تمت مع أصحاب الأراضي المجاورة لأشجار الغابات والتي تم قطع أغلبها من قبل الأفراد الذين استغلوا أماكنها في مختلف الأنشطة التجارية وبناء المساكن والمحال والورش والحرف الصناعية وغيرها، حيث أجابوا على الأسئلة التي قدمت لهم والمتمثلة في:

س/ هل قطع أشجار الغابات الواقعة بجوار مزارعكم أدت إلى حركة التربة وتحرك الرمال في مناطقكم أكثر من السابق؟

س/ هل أشجار الغابات التي كانت تحيط بمنطقة الشريط الساحلي عند كل من القره بوللي وغطو الرمان كانت تساهم في منع زحف وتفكك التربة نحو المناطق المجاورة؟ وكانت الإجابات بنعم، وهكذا أكدت هذه الأسئلة والتي تتضمن الفرضيتان الأولى والثانية السالفة الذكر بنسبة 100%، أي كل المجموعة أكدت على هذه الأسئلة التي قدمت لهم.

نتائج الدراسة:

إن غياب قوة الدولة في هذه المرحلة جعل العديد من الأفراد يخرجون عن المسؤولية القانونية ويندفعون إلى قطع أشجار الغابات لأجل تحقيق مصالحهم الشخصية من استثمار أماكن هذه الغابات في النشاطات التجارية.

الحاجة إلى إقامة مشاريع خاصة بالأفراد سواء كانت تجارية أو صناعية أو سكنية دفعت الأهالي وخاصة المجاورين لهذه الأراضي إلى قطع ومسح هذه الأماكن لأجل استغلالها في مشاريعهم.

عدم تقدير خطورة هذه الظاهرة أو عدم وضوحها للأفراد وللمسؤولين جعل غيرهم يتجرؤون ويسلكون نفس المسلك في عملية قطع وإزالة الأشجار.

عدم وضوح الآثار السلبية لظاهرة قطع أشجار الغابات وما يترتب عليه من آثار سيئة أدى إلى التوسع في عمليات التصحر وامتدادها حتى شملت جزء من سهل الجفارة الذي يعتبر من أهم السهول في ليبيا.

التوصيات والمقترحات:

من خلال النتائج السابقة تم وضع مجموعة من التوصيات والمقترحات على النحو التالي: العمل بكل جدية لمنع أي عملية لقطع الأشجار مهما كانت الأسباب وخاصة التي تم تشجيرها من قبل الدولة.

تطبيق القوانين واللوائح الرادعة ضد هذه العمليات التي يقوم بها بعض الأفراد فيما يخص إزالة هذه الأشجار واستغلال مكانها في أي نشاط.

أن تولي الدولة والمجتمع المدني العمليات التطوعية التي تشمل حملات التشجير المستمرة سنوياً حتى تتمكن من تعويض المفقود منها.

الإرشاد والتوجيه من قبل مؤسسات الدولة المختلفة لأهمية هذه الغابات ومنع إزالتها مهما كانت الأسباب.

تفعيل دور الحماية الطبيعية من قبل أجهزة الدولة وتطبيق القوانين واللوائح بكل قوة معاقبة كل من يخالف ذلك.

المراجع

الفران محمد علي ، مناهج البحث الجغرافي بالوسائل الكمية، وكالة المطبوعات، الكويت، 1982م.

براون، تقييم الانخفاض البيئي (ترجمة لطفي مسيس) مؤسسة الرسالة، بيروت، 1976م.
الزوكة محمد خميس، جغرافية الوطن العربي، الطبعة الثانية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م.

كريم مسعود عياد، التصحر في سهل الجفارة، دراسة مضيقة، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة طرابلس، 2010م.

بقي محمد عبد النبي، التصحر في شمال أفريقيا، الأسباب والعلاج، ترجمة عبد القادر المحيشي، المركز العربي لأبحاث الصحراء وتنمية المجتمعات الصحراوية، في كتاب مسعود كريم، التصحر في سهل الجفارة، 2010م.

وزارة الزراعة، قسم الإرشاد الزراعي، زراعة الشعير، طرابلس، 1976م.

Lehouerou. H.n. the nature and causes of desertification and environmental degradation in and around arid (ed) glauetz. M. boulder westviewpress. 1977.

موقف الشريعة الإسلامية من استخدام مشتقات الخنزير

في المواد الاستهلاكية

د. عبد العزيز عبد المولى علي *

الحمد لله الذي أحلَّ الحلالَ وأمر به ، وحرمَّ الحرامَ ونهى عنه ، وجعل أموراً مشتبهاً لا يعلمه كثير من الناس ، أحمده على جميع آلائه وأشكره ، وأستغفره وأتوب إليه ، وأسأله المزيد من فضله ، وأصلي وأسلم على البشير النذير ، الذي بلغ الرسالة ، ونصح خير النصح للأمة ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فقد جاءت الشريعة الإسلامية كاملة تامة ، شملت حياة المسلم في عباداته وسلوكه ، وأكله وشربه ، وطقنه وإقامته ، وبيّن رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - حلالها وحرامها، وكل ما يحتاجه المؤمن في معاشه ومعاده .

وسار المسلمون زمنًا طويلاً على هذا المنهج القويم ، في ظل الشريعة الغراء يفقهون أمور دينهم من حلال وحرام .

ثم اختلط المسلمون في هذا الزمان بغيرهم من الأمم ، ونتج عن هذا الاختلاط أمور كثيرة منها : التشبُّه بهم في المأكل والملبس والعبادات ، ودخول كثير من واردات الأمم الأخرى إلى البلاد الإسلامية ، وتلك الواردات لا يعلم مصدرها ، ولا مكوناتها ، بل يتلقاها كل بيت مسلم - إلا من رحم الله - وكأنها خير كله .

ومن بين هذه الواردات غير المراقبة صحّة ولا شرعاً ما يصل إلى بلادنا من مشتقات الخنزير على هيئة أدوية وأغذية ، ولدخول هذه المشتقات أضرار بالغة على صحة الفرد والمجتمع ، ومن بينها أمراض التي يصعب علاجها ، وهي كثيرة - كما سيأتي - ومنها قلة

* - جامعة الزيتونة، كلية الآداب والعلوم ترهونة

الحياء والغيرة ، وفي هذا البحث عرض لأحكام دخول مثل هذه المشتقات في الأدوية والأغذية وغيرهما .

وقد يكون هذا الكلام لأول سماعه ضرباً من الخيال ، ولكن بعد البحث والتأمل والنظر في الأدلة وواقع حياة المسلمين اليوم ، فإن المرء يصل إلى فكرة مفادها أن هذا هو الواقع المرير ، وأنه الصدمة الكبرى لدى أمة تعتقد أنها تجتنب الخنزير بالكُلِّية ، بل وتتفوق عند سماع اسمه ، فضلاً عن عدم التفكير في أكله أصلاً وفيما يلي دراسة لأحكام دخول مثل هذه المشتقات في المواد الاستهلاكية .

الدراسات السابقة : من خلال البحث والدراسة والاطلاع لم أجد من درس هذا الموضوع بتوسع ، وإنما هي إشارة ، مثل : دراسة أمجد خان ، الباحث في معهد الأغذية بباريس .

خطة البحث :

مقدمة .

المبحث الأول : الخنزير ، والحكمة من تحريمه .

المبحث الثاني : أضرار الخنزير .

المبحث الثالث : مشتقات لحم الخنزير واستعمالاتها .

منهج البحث : ولقد اتبعتُ فيه المنهج الوصفي التحليلي .

وإني أسأل الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به .

المبحث الأول : الخنزير، والحكمة من تحريمه

الخنزير البري : بكسر الخاء المعجمة جمعه خنازير⁽¹⁾، وهو حيوان خبيث معروف بأكل العذرة، ولا يغار على أنثاه⁽²⁾، والخنزير نجس كله⁽³⁾.

أما حكم أكل لحمه ، فإن الخنزير محرم على الجملة ، وَلِذَلِكَ لَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى لَحْمَ الْخِنْزِيرِ ، كَانَ تَحْرِيمًا لِجُمْلَتِهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿ حَرَّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِعَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةَ وَالْمَوْفُوذَةَ وَالْمُتَرَدِّيَةَ وَالنَّطِيحَةَ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْنَقَسُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (4) ، ذَكَرَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ ؛ لِأَنَّهُ مُعْظَمُ مَقْصُودِهِ ، وَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَى تَحْرِيمِ شَحْمِهِ وَدَمِهِ وَسَائِرِ أَجْزَائِهِ ، وَإِذَا جَعَلْنَا التَّحْرِيمَ فِي لَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَهُوَ مَنَعٌ شَامِلٌ جَمِيعِ الْأَجْزَاءِ . فَان تَحْرِيمَ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ يَتَنَاوَلُ جَمْلَتَهُ كَذَلِكَ ، وَقَدْ نَصَّ اللَّهُ عَلَى تَحْرِيمِ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ ، فَدَخَلَ فِيهِ سَائِرُ أَجْزَائِهِ ، فإِطْلَاقُ لَفْظِ اللَّحْمِ يَتَنَاوَلُهُ بِدَلِيلِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا حَرَّمَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ تَنَاوَلُ جَمِيعَ أَجْزَائِهِ ، أَمَا لَحْمُ الْخِنْزِيرِ فَلَا رَيْبَ فِي تَحْرِيمِهِ ، وَكَذَلِكَ بَقِيَّةُ أَجْزَائِهِ ، وَهَذَا التَّحْرِيمُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى كَوْنِهِ حَيًّا ، بَلْ إِذَا مَاتَ الْخِنْزِيرُ فَإِنَّهُ حَرَامٌ لِأَنَّهُ مَا حَرَّمَ لَحْمَهُ لَمْ تَعْمَلِ الذَّكَاءُ فِيهِ فَكَانَ أَشَدَّ مِنَ الْمَيْتَةِ ، (5) وَيَدْخُلُ شَحْمُهُ فِي حُكْمِ لَحْمِهِ إِمَّا تَغْلِيْبًا ، أَوْ أَنَّ اللَّحْمَ يَشْمَلُ ذَلِكَ أَوْ بِطَرِيقِ الْقِيَاسِ ، وَقَدْ أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّ الْخِنْزِيرَ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ مُحْرَمٌ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَحْمَهُ ؛ لِأَنَّ مَعْظَمَ الْإِنْتِفَاعِ مُتَعَلِّقٌ بِهِ .

ومن حكم الله تعالى أنه ما حَرَّمَ شَيْئًا إِلَّا وَأَعْنَى عَنْهُ بِمُبَاحٍ مِنْ جِنْسِهِ ، فَإِنَّهُ حَرَّمَ الزَّنَى وَأَبَاحَ النَّكَاحَ ، وَحَرَّمَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَأَبَاحَ لَحْمَ الْإِبِلِ ، وَحَرَّمَ الْحَرِيرَ وَأَبَاحَ الْقُطْنَ وَالْكَثَانَ ، وَحَرَّمَ الْغَارَةَ وَأَبَاحَ الْغَنِيمَةَ ، وَحَرَّمَ التَّعَدِّيَّ وَالْعَلْبَةَ وَأَبَاحَ الْجِهَادَ (6) .

الحكمة من تحريمه :

الخنزير حُرِّمَ لِحْمِ عَدِيدَةٍ ، لَعَلَّ أَهْمَهَا مَا يَلِي :

أولاً : ما في طبع الخنزير من الانتهاب : المقصود من هذا أن الخنزير يؤثر بذاته فيمن يأكله ، وأكد على ذلك الدكتور " فيليب تومز " خبير أمراض الدم بلندن ، وهو غير مسلم أن الخنزير ينقل صفاته لكل من يتناول لحمه ، ويسبب مع الوقت أمراضاً عقلية وبدنية ،

وأخرى تناسلية مدمرة، ونحن نعرض شهادته لنؤكد أن القرآن الكريم بمنهجه الطبي الذي يمنع المرض، ويقطع الطريق عليه بمنع أسبابه هو خير ألف مرة من كل دعاوى الغرب وابتكاراتهم في عالم العلاج الذي دائماً ما يتطلب الكثير من المال دون ضمان كاف بإيجابية النتائج، ومهما حاول الغرب تجميل صورة الخنزير بإمداد المزارع التي يربى فيها بأحدث سبل العناية والنظافة باستخدام التقنيات الحديثة؛ فإن كل هذا لن يفي أبداً الحقائق الدامغة التي اكتشفها علماءهم أنفسهم عن الديدان والأمراض التي يحتويها جسم الخنزير دون غيره من الحيوان مهما ألبسوه تاج الرفعة والشرف.

ثانياً : ما في الخنزير من الضّرر، وَكُونُهُ مِمَّا يُسْتَقَدَّرُ أَيْضًا، وَإِنْ كَانَ اسْتِقْدَارُهُ لَيْسَ لِذَاتِهِ كَالْمَيْتَةِ وَالِدَمِّ، بَلْ هُوَ خَاصٌّ بِمَلَازِمَتِهِ لِلْقَادُورَاتِ وَرَغْبَتِهِ فِيهَا⁽⁷⁾، ولكن عند الضرورة جاز أكل لحم الخنزير بما يسد به الرق ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالِدَمَّ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ عَلَيْهِ غَيْرَ بَاطِلٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٣٢).

ثالثاً : ما في طبعه من عدم غيرته على أنثاه : إن من طبيعة الخنزير عدم الغيرة على أنثاه، ومن يكثر من أكله فإنه تنتقل إليه تلك الغريزة⁽⁹⁾.

حكم التداوي بالخنزير ، والسؤال البدهي هل يدخل الخنزير فعلاً في الأدوية ؟ والجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى مجموعة من المتخصصين في الطب، وغيره لبيان ذلك ، هنا عرض لبعض الأحكام الفقهية المتعلقة بذلك .

الأدوية التي اشتملت تركيباتها على شيء من شحم الخنزير، أو بعض أجزائه التي يحرم أكلها ، لا يجوز تناولها؛ لأن كل شيء ممنوع شرعاً فيه مضرة ، ومن ذلك التداوي بالأدوية الخبيثة ، كالخمر ، فإن هذا لا يجوز ؛ لأن الخمر أم الخبائث وقد نهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن التداوي بها ، وأخبر أنها داء وليست بدواء ، وكذلك التداوي بشحم الخنزير ، فإنه حرام لا يجوز ، وقد نص الأحناف على جواز التداوي بعظام الميتة مطلقاً إذا كانت يابسة، واستثنوا من ذلك عظم الخنزير لحرمة الانتفاع به ،

وعظم ما لا يُؤكل لحمه ، وهذا شامل للحم الخنزير أيضًا .

فالخنزير كله حرام لحمه وشحمه والتعامل به من بيع وشراء ، وكل شيء فيه محرم ونجس ، ولم يجعل الله تعالى شفاء الأمة فيما حرم عليها (10).

نظرية الاستحالة :

ذهب بعض أهل العلم إلى أن الاستحالة مُطَهَّرَةٌ، وهي أن تتحول صفات النجاسة إلى صفات أخرى ، وتتحول النجاسة إلى مادة أخرى، فإنه يحكم بطهارتها حينئذ .

ومن ذلك ما يعرف بالجلاتين المصنوع من شحوم الخنزير، ويدخل في صناعة بعض المنتجات الغذائية (11).

هذه المنتجات قد تصير حلالا في حال أن تستحيل الشحوم والأدهان إلى شيء آخر غيرهما ، فلا تأخذ هذه المادة اسم الشحوم والأدهان، ولا تكتسب صفتها فإن كان الأمر كذلك فإنها لا تأخذ حكمهما ، وهو ما يسميه العلماء " الاستحالة " ، وهو معتبر من الجهتين ، فما كان طيبا حلالا وصار نجسا خبيثا : فإنه يصير محرماً ، وما كان نجسا خبيثاً وصار حلالا طيبا فإنه يصير مباحا حلالا .

ومثال ذلك أيضًا الصابون الذي يُنتج من استحالة شحم الخنزير أو الميتة يصير طاهرًا بتلك الاستحالة ويجوز استعماله ، والجن المنعقد بفعل أنفحة ميتة الحيوان المذكى ذكاة شرعية طاهر، ويجوز تناوله ، والمرام والكريمات ومواد التجميل التي يدخل في تركيبها شحم الخنزير لا يجوز استعمالها إلا إذا تحققت فيها استحالة الشحم وانقلاب عينه ، أما إذا لم يتحقق ذلك ، فهي نجسة (12).

أقوال العلماء في حكم التداوي بمشتقات الخنزير :

السؤال الذي يطرح نفسه : هل يجوز للمسلمين أن يستخرجوا أدوية من أعضاء الحيوانات للمنتجات ؟ فالأنسولين - مثلا- الذي يعطى عن طريق الحقن ، يستخرج من أنسجة الخنازير ، هل يجوز للطبيب المسلم أن يستخدمه لعلاج المرضى من المسلمين

وغير المسلمين؟

والجواب : الدواء المستخرج من الحيوان له ثلاث أحوال : **الأولى :** أن يكون مما يؤكل لحمه ، وقد ذكي ، والتداوي به مباح ، **والثانية :** أن يكون مما يؤكل لحمه ولم يذك ، فلا يجوز التداوي به ؛ لأنه ميتة ، **والثالثة :** أن يكون مما لا يؤكل لحمه وهذا محرم ، لا يجوز التداوي به ؛ وهذا شامل للحم الخنزير (13).

سئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - وجدنا بعض المنشورات تقول : إن بعض الصابون يصنع من شحم الخنزير ، فما رأيكم ؟.

فأجاب: أرى أن الأصل الحل في كل ما خلق الله لنا في الأرض ؛ قَالَ تَعَالَى: **أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾** (14)، فإذا ادعى أحد أن هذا حرام لنجاسته ، أو غيرها : فعليه الدليل ، وأما أن نصدق بكل الأوهام ، وكل ما يقال : فهذا لا أصل له ، فإذا قال : إن هذه الصابونة من شحم خنزير : قلنا له : هات الإثبات ، فإذا ثبت أن معظمها شحم خنزير أو دهنه : وجب علينا تجنبه (15).

دخول مشتقات الخنزير في بعض الأدوية: أكد باحث سعودي وجود أدوية يدخل في تصنيعها مشتقات من الخنزير (16) .

واستشهد رئيس قسم أمراض سرطان الدم في مدينة الملك عبد العزيز الطبية للحرس الوطني بالرياض الدكتور أحمد العسكر بدواء "الهيبارين" ، وهو أحد الأدوية المصنعة من مشتقات الخنزير .

وقال بأنه وجد أن استخدام مشتقات الخنزير يقلل من الإصابة بالحساسية عند الإنسان أكثر من تلك المشتقات المستخرجة من الأبقار (17)

حكم تناول الأدوية والمواد الاستهلاكية المضاف إليها الخنزير ومشتقاته :

تختلف حاجة الناس إلى الدواء عنها إلى الغذاء وغيره ؛ لأنه قد تكون الضرورة هي من دعته لتناول الدواء ، ولكن الغذاء ليس كالدواء .

إن الإنسان قد يترك تناول بعض الأطعمة ، إما لغلاء ثمنها ، أو بعدها عنه أو حساسية جسمه منها ، ولكنه إذا علم أن دواءً بعينه سيكون سبباً في شفائه ، فإنه سيبذل الغالي والنفيس في سبيل الوصول إليه ، وهذا عكس الغذاء تماماً .

والمسلم منضبط بالشرع ، مأمور بأوامره منتهٍ عن نواهيه ، فما كان شرعاً حلالاً ، فهو الحلال الذي ارتضاه الله - جل وعلا - لنا ، وما كان حراماً ، فهو الحرام الذي نهانا الله عنه .

والواقع أن بعض مشتقات الخنزير قد تدخل في العديد من الصناعات الاستهلاكية ، كالمواد الغذائية ، ومعاجين الأسنان ، والحلويات ، والشيكولاتة ، وغيرها ، وسأعرض موقف الشريعة الإسلامية من ذلك كله.

وقد ورد في قرارات " المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية " ما نصه : "المواد الغذائية التي يدخل شحم الخنزير في تركيبها دون استحالة عينه ، مثل بعض الأجبان ، وبعض أنواع الزيوت والدهن ، والسمن ، والزبد ، وبعض أنواع البسكويت والشيكولاتة ، والآيس كريم هي محرمة ، ولا يحل أكلها مطلقاً ؛ لانتفاء الاضطرار إلى تناول هذه المواد"⁽¹⁸⁾.

المبحث الثاني : أضرار الخنزير

أضرار لحم الخنزير كثيرة - بل لا تخفى على أولئك الباحثين والدارسين لهذه الأضرار - منها:

أولاً : الدودة الشريطية : توجد في لحم البقر، وتوجد في لحم الخنزير، ولكن الدودة

الشريطية التي في لحم الخنزير أخطر من الدودة الشريطية التي في لحم البقر، فالدودة الشريطية التي مصدرها لحم البقر قد يبلغ طولها اثني عشر متراً في معدة الإنسان، وهي مكونة من فصوص، وكل فص قابل للنمو بذاته، مثل أعواد القصب، فإذا أخذت كل غصن وغرسته ، فسينبت بنفسه، وإذا شرب المريض دواء فإنه يقطعها، وتنزل أوصالاً، أما دودة الخنزير فينبت لها قرنان في الرأس، فإذا شرب دواء ليقطعها غرزت قرنيها في جدار المعدة، فتقطع أوصالها إلا الوصلة الأخيرة التي فيها القرنان ، فتنبت من جديد (19).

2 - احتواء الخنزير على دود العضل (20)، وهو أخطر من دود المعدة الذي يؤخذ له دواء فينزل، وقد ذكر علماء الطب القديم أن نوى المشمش إذا أحرق حتى يصير فحمًا، وأكل منه الإنسان كل خمس سنوات حبة، وكان عنده دودة البطن، فإنه ينزلها ويقضي عليها، فمهما كان دود البطن فإنه ينزل بالدواء، ولكن دود العضل ليس في بطن، ولا في جوف، بل في عضلة اليد، أو الفخذ، أو الظهر، أو الكتف، فينبت فيه دود بسبب تناول لحم الخنزير، ولا يخرج من الجسم إلا بمشقة.

3 - وَمِنْهَا أَنْ لَحْمَهُ أَعْسَرَ اللَّحُومِ هَضْمًا ؛ لِكثْرَةِ الشَّحْمِ فِي أَلْيَافِهِ الْعَضَلِيَّةِ، وَقَدْ تَحُولُ هذه الأنسجة الدهنية بينه وبين عصير المعدة، فيعسر هضم المواد الزلالية للعضلات، فتنعب معدة آكله، ويشعر بثقل في بطنه واضطراب في قلبه، فإن ذرعه القيء فقدف هذه المواد الحبيثة، وألا تهيجت الأمعاء وأصيب بالإسهال، ولولا العادة التي تسهل على كثير من الناس تناول السموم أكلاً وشرباً وتدخيناً، ولولا ما يعالجون به لحم الخنزير ؛ لتخفيف ضرره ، لما أمكن الناس أن يأكلوه، ولا سيما أهل البلاد الحارة (21).

4 - مرض "الشعرية أو الترخينية" : وتسببه ديدان تعيش في لحم الخنزير، وهذه الديدان تستقر في عضلات آكل لحم الخنزير، وعلى الأخص عضلات التنفس، كذلك في المخ أو العين أو القلب أو الرئة أو الكبد، وفي أي مكان تستقر فيه لها أثر مروع، فمثلا في المخ تصيب الإنسان بالجنون أو الشلل، وفي العين تفسد الرؤية تماما وتصيب بالعمى،

وإذا وصلت إلى جدار القلب فإنها تتسبب في ذبحة قلبية.

5 - الالتهاب السحائي المخي وتسمم الدم: وينتج عن الإصابة بالميكروب السبحي الخنزيري، وقد كان سبب هذا المرض مجهولاً تماماً حتى تم اكتشاف هذا الميكروب سنة 1968م، وعرفت البشرية السبب في الوفيات الغامضة التي راحت ضحايا الخنزير في هولندا والدانمارك، وقد تبين أن هذا الميكروب يحدث التهاباً في الأغشية الملاصقة للمخ، ويفرز سموماً بتركيز عال في دم المصاب تؤدي إلى موته، والذين يفلتون من الموت يصابون بعد علاج مضم بصمم دائم، وفقدان للتوازن نتيجة خلل في خلايا المخ أحدثه هذا الميكروب الخطير.

6 - الدوسنتاريا الخنزيرية : وهي أكبر الميكروبات ذات الخلية الواحدة التي تصيب الإنسان، وتوجد في براز الخنزير ، وينتقل إلى طعام الإنسان بطرق عديدة، وباستقراره في الأمعاء الغليظة يحدث إسهالاً ودوسنتاريا مصحوبة بالمخاط والدم، وقد يحدث التهاباً بالبرئة وبعضلة القلب، ولو أنه تقب القولون فإنه يؤدي للوفاة.

7 - أنفلونزا الخنزير: ينتشر هذا المرض على هيئة وباء يصيب الملايين من الناس كما حدث في السنين القليلة الماضية ، وتكون المضاعفات خطيرةً حينما يحدث التهاباً بالمخ ، وتضخماً في القلب ، وقد يليه هبوط مفاجئ في وظيفته، وكان أخطر وباء أصاب العالم من هذه الأنفلونزا الخطيرة عام 1918م، وقتل مئات الآلاف من البشر، وقد خافت أمريكا في عام 1977م من هذا الوباء ، فاجتمعت اللجان برئاسة الرئيس الأمريكي الذي أصدر أمراً بتطعيم كل أمريكي بالمصل الوقائي من هذا المرض الخنزيري القاتل، وتكلفت هذه الحملة خمسة وثلاثين ومئة مليون دولاراً أمريكياً .

8 - دودة المعدة القرحية : هي دودة تصيب الخنزير أولاً ، ثم تنتقل إلى الإنسان آكل الخنزير وتصيب الأطفال خصوصاً ، وتتسبب في حدوث إسهال والتهاب بالمصران الغليظ ، وتسبب آلاماً شديدة لا قبل للكبار بها فما بالكم بالأطفال، وثمة أخطار أخرى تترصد آكل لحم الخنزير: فقد ذكرت أبحاث علمية حديثة أن جسم الخنزير يحتوي على كميات كبيرة من حامض البولييك، ولا يتخلص إلا من القليل منه بنسبة لا تتعدى 3% ،

بينما الإنسان يتخلص من نسبة 90 % من نفس الحامض، ونظرًا لاحتواء لحم الخنزير على هذه النسبة المرتفعة من حامض البوليك ، فإن آكلي لحمه يشكون عادة من آلام روماتيزمية ، والتهابات المفاصل المختلفة، كما ثبت بالتحليل أن دهن الخنزير يحتوي على نسبة كبيرة من الأحماض الدهنية المعقدة ، وأن نسبة الكوليسترول في لحمه خمسة عشر ضعفًا عنها في البقر تقريبًا ، ومعلوم أن هذه المادة عندما تزيد عن معدلها الطبيعي فإنها تترسب في الشرايين لاسيما شرايين القلب ، وتسبب تَصَلُّبَهَا ، وارتفاعًا في ضغط الدم، وهو السبب الرئيسي لمعظم حالات الذبحة القلبية⁽²²⁾.

المبحث الثالث : دخول مشتقات الخنزير في المواد الاستهلاكية

كشفت دراسة استهلاكية تسعى للتشجيع على تربية الخنازير عن أن هناك ما لا يقل عن خمس وثمانين ومائة استخداماً لأجزاء من الخنزير في المواد التي نشتريها ابتداء من الخبز، وانتهاء بمعجون الأسنان، حتى الرصاصة التي تستخدم للقتل ، والدف الذي يقرع في دروس الموسيقى مصنوعة من مواد في جسم الخنزير.

تقوم هذه الدراسة على متابعة كل جزء يذهب من أجزاء الخنازير تم قتلها ، وتحمل رقماً خاصاً تكشف عن أن الخنزير علاوة عن استخدامه مصدرًا للحوم يستخدم في الصناعات الآتية :

- 1 - صناعة الأسلحة الكيماوية.
- 2 - من شعره تصنع فراشي الدهان ، والأسمدة ، ويستخدم مسحوق شعره لتليين العجين في صناعة الخبز، ويستخدم في صناعة الزبدة قليلة الدسم.
- 3 - ومن الأحماض الدهنية الموجودة في عظامه يصنع ملطّف غسيل الأقمشة.
- 4 - كما يستخدم الجلوتين المستخلص من عظامه في صناعة العصائر على اعتبار

أنه يعمل على تنقية اللون من الشوائب العالقة ، ليبدو العصير بمظهر ولون رائع.

5 - كما تستخدم الأحماض الدهنية للخنزير في صناعة الشامبو؛ لأنها تمنحه اللون اللؤلؤي.

6 - ويستخدم في صناعة الشمع ، حيث يمنح الشمع صلابة ، ويرفع درجة انصهاره.

7 - وفي صناعة العديد من الأدوية المخففة للألام ، ولمنح قرص الدواء صلابة ، وفي صناعة غشاء حافظات الكبسولات لكثير من الأدوية ، وفي مكونات أقراص الفيتامينات.

8 - يضاف إلى مسحوق الغسيل ؛ لزيادة صلابة البودرة، وللدهانات لمنح اللون بريقاً ولمعاناً، كما تستخدم مئاة الخنزير لصناعة الدفوف، ويستخدم مسحوق عظامه لصناعة الورق وذلك لتحسين صلابته وتقليل الرطوبة.

ومن المنتجات التي يوجد بها لحم الخنزير معجون الأسنان ، وكريم الحلاقة ، ومعجون الحلاقة ، والشيكولاتة ، والحلويات ، والبسكويت ، ورقائق الذرة، والأكل المعلب ، والفاكهة المعلبة (23).

أما(رينشارد لوتويتش) رئيس شركة تسويق اللحوم التقليدية في بريطانيا ، والذي عمل في مهنة تربية الخنازير منذ ستين عاماً بدراسة مشابهة ، فأثبت أن المزارعين يجب أن يبيعوا أكبر كمية ممكنة من مخلفات الخنزير ، وإلا عليهم أن يحرقوها؛ لذلك توسعت الأعمال التي تستفيد من أجزاء الخنزير في المئة عام الماضية بشكل كبير جداً، حتى الأفلام يستخدم في صناعتها الكولاجين المستخرج من الخنزير، كما يستخدم جلاتين عظم الخنزير في صناعة الرصاصات ، والمتفجرات ، وذلك من خلال نقل مسحوق البارود إلى داخل الرصاصات.

ومن الأمور المهمة التي يجب التنبيه لها أن تغليف المواد الاستهلاكية لا يتم بطريقة توضح للمستهلك ما يقوم باستهلاكه؟ وما نقرأه من طلاس كيميائية وأرقام وأحرف

معقدة لا ترشدنا بطريقة أخلاقية للمواد التي نستخدمها، فمن حق المستهلك بغض النظر عن حالته الصحية ، ومعتقداته الدينية أن يعرف مكونات المواد التي يدفع ثمنها أو يستهلكها.(كريستين مينديرتساما).

ومن البحوث العلمية التي اهتمت أيضاً بهذا الأمر دراسة للدكتور أمجد خان الذي كان يعمل في قسم إدارة ومراقبة الأغذية بفرنسا (24)، وعمله هو تسجيل كل أنواع الأطعمة والأدوية ، والموافقة على منتجات أي شركة تريد عرض منتجاتها في الأسواق ، وبهذا فهو على علم جيد بمكونات الأغذية ، ولكن بعض هذه المكونات لها أسماء علمية ، وبعضها الآخر هو مجرد رموز حسابية مثل: E-141،E-190.

بداية الأمر رأى أمجد خان تلك الرموز ، فتملكه حب الاستطلاع فسأل مدير القسم الذي يعمل به ، وهو فرنسي ، فأجاب : لا يجب أن تسأل ، وإنما يجب أن تؤدي عملك فقط . ولكن أثارت هذه الإجابة فضوله ، وبدأ يبحث عن هذه الرموز في الملفات، وما وجده يمكن أن يصيب أي مسلم في العالم بالصدمة.

إن لحم الخنزير هو الاختيار الأول من بين أصناف اللحوم في معظم أوروبا بما فيها البلاد الغربية ، وهناك الكثير والكثير من المزارع في تلك البلاد لتربية هذا الحيوان، ويبلغ عدد الخنازير في فرنسا وحدها ثلاثاً وأربعين ألفاً تقريباً.

كما أن جسم الخنزير يحتوي على أعلى نسبة دهون من أي حيوان آخر ، وبما أن الأوروبيين والأمريكان يحاولون الاستفادة من تلك الدهون ، فلا غرو أن يقيموا العديد من المصانع لاستثمارها ، وخلق العديد من الصناعات التي تعود عليهم بالريح عن طريق الشركات التي تهتم بمثل هذه الأمور .

ومنذ عقود عدة وضعت الدول الأوروبية أسماء مكونات المنتجات الغذائية والدوائية ، فمثلاً تم وضع كلمة : دهن الخنزير على المنتجات التي تحتويه ، وكل من عاش في أوروبا منذ 40 عاماً يعرف هذه الحقيقة ، ثم استبدلت بكلمة "دهن حيواني" ، وعندما سئل

المسئولون عن ماهية هذا الدهن الحيواني كانت الإجابة أنه دهن الأبقار والغنم، وثمة مشكلة أخرى أن هذه الحيوانات لم يتم ذبحها على الطريقة الإسلامية بالتسمية والتكبير قبل الذبح، ولذلك تم منعها أيضاً مما أدى إلى أن واجهت الشركات المنتجة متعددة الجنسية هبوطاً في مستوى المبيعات؛ خاصة وأن نسبة 75 % من مبيعاتها يتم تصديرها إلى البلاد المسلمة .

أدى هذا الأمر بالشركات المصنعة إلى استعمال شفرة لا يعلمها إلا العاملون في قسم إدارة الأغذية، فلا يفهمه رجل الشارع الذي يتعامل مع هذه المنتجات، وهذه الشفرة يرمز إليها بالحرف الإنجليزي (e) مرقماً ، ومما يدخل فيه هذا الحرف المرقم معجون الأسنان، كريم الحلاقة ، اللبان ، والشيكولاتة، الحلويات ، البسكويت ، ورقائق الذرة ، والتوفي ، والأطعمة والفواكه المعلبة ، إلى جانب بعض الفيتامينات.

المواد الغذائية التي يدخل الخنزير في صناعتها، ورموزها، وبعض آثارها :

يدخل الخنزير ومشتقاته في بعض المواد الغذائية بصورة لا تكشف عن ماهيته -كما سبق- وذلك باستعمال رموز لتشفير تلك المواد حتى لا تعرف مادة صناعتها ، وهذه أمثلة على تلك الرموز:

ليستين الصويا ، وزيت بذور اللفت ، والنخيل ، وبذر الكتان ، وحليب الأبقار ، ومكونات نباتية ومعظمها يدل على احتواء المنتج على دهون الخنزير ، وهذي الرموز:

e100، e110، e120، e140، e141، e153، e210، e213، e214، e216،
e234، e252، e270، e280، e325، e326، e327، e334، e335، e336،
e337، e422، e430، e431، e432، e433، e434، e435، e436،
e440، e470، e471، e472، e473، e474، e475، e476، e477، e478،
e481، e482، e483، e491، e492،
e493، e494، e542، e570، e572، e631، e635، e904، e101، e102، e103، e111،
e120، e123، e124، e126، e127، e128، e141، e152، e210، e213، e214،

e337,e336,e334,e327,e326,e325,e280,e270,e252,e234,e206
 e442,e436,e435,e434,e433,e432,e431,e430,e422,e420,e374
 e481,e780,e478,e477,e476,e475,e474,e473,e472,e471,e470
 e550,e542,e495,e494,e493,e492,e491,e489,e488,e483,e482
 .e904.e633,e632,e631,e591,e577,e570

مواد مشكوك فيها :

e477,e214,e240,e180,e173,e171,e153,e150,e141,e122,E104
 .e151

ومن هذه المواد المشفرة ما هو ضار بالإنسان ، ومن أمثلته ما يلي :

مواد تسبب آلام المعدة :

.e221,e211,e223,e224,E226

مواد تسبب ارتفاع ضغط الدم :

.e252,e251,e250,e321,E320

مواد خطرة و ممنوعة في أمريكا وبريطانيا:

.⁽²⁵⁾ e102,e110,e120,e123,e124,E127

مواد ممنوعة دولياً :

e130,e127,e126,e125,e121,e330,e239,e217,e111,e105,E103
 e131,e124,e123,E102,e215,e214,e213,e212,e211,e181,e152
 e251,e239,e220,e217,e215,e214,e213,e212,e211,e210,e142
 .e311,e330

مواد تسبب اضطراباً معويًا :

.e226,e224,e223,E221

مواد تسبب طفحاً جلديًا :

.e312,e311,e233,e232,e231,E230

مواد تزيد نسبة الكولسترول :

.e466,e464,e463,e312,E320

مواد تسبب اضطراباً في الهضم :

.e466,e465,e463,e462,e461,e450,e407,e341,e340,e339,E338

مادة تدمر فيتامين ب 12

.e220

تسبب مشكلات للبشرة :

e312,e311,e233,e232,e231,E250

أما غير الضارة ، فمن أمثلتها :

,e202,e201,e200,e175,e174,e170,e163,e161,e160,e140,e132

,e300,e282,e281,e263,e262,e261,e260,e238,e237,e236,e203

,e331,e322,e309,e308,e307,e306,e305,e304,e303,e302,e301

,e406,e405,e405,e404,e403,e402,e401,e400,e335,e333,e332

. e421,e414,e413,e411,e410,e408

الخاتمة

ومن خلال هذه الدراسة تبين لي ما يلي :

أولاً : الشريعة الإسلامية جاءت لمصالح العباد في الدنيا والآخرة .

ثانياً : كان لتحريم الخنزير مصالح دينية ودنيوية ، تدخل ضمن الكبريات الخمس التي

عني الإسلام بها ، والتي منها حفظ النفس ، وفي أكل الخنزير الذي عُلِمَتْ مَضَرَّتُهُ

إضرارٌ كبير بالنفس ، فضلاً عن المال ، وأما الدنيوية ، فإنها لا تنفك عن الدينية فإن

الإنسان طُبِعَ على حُبِّ جَلْبِ النفع له ودفعِ الضرِّ عنه ، ومن ذلك الابتعاد عن الخنزير

ومشتقاته .

ثالثاً : ما فتئ الغرب في إيذاء المسلمين يتبعون مختلف الوسائل للإضرار بهم ، ومن

تلك الوسائل نشرهم سموم الخنزير على هيئة مشتقات ومسميات خيالية .
رابعا : تسمية المسميات بغير اسمها إيهامًا باستخدامها ، وغشًا وتدليسًا للمسلمين من أساليب المكر والخداع التي لا تتطلي على أمتنا المسلمة .
سادسًا : قد تلجئ الضرورة المسلم للتداوي بالمحرم ، ولكن لا ضرورة فيما يتناوله من غذاء .

سابعًا : في البدائل عن هذه المواد الخير الكثير في ديننا ودنيانا .
 وأخيرًا إن هذا العمل لا يعدو أن يكون جهدًا بشريًا فيه من النقص، والسقطات والهفات ، وإني أتقبل كل وجهات النظر بكلِّ صدرٍ رحبٍ لإثراء هذا البحث ، وتكون لبنةً في بناء الأمة .

التوصيات :

بما أن هذه المشكلة تأتينا عن طريق الواردات ، فإنه يجب مراقبة كل ما يرد إلى بلادنا ، وذلك عن طريق الآتي :

- 1 - سنُّ القوانين الصارمة التي تمنع دخول مثل بعض هذه المواد الضارة أصلاً .
- 2 - مراقبة النَّسَبِ المقررة لدخول مثل هذه المواد إلى تركيبتها .
- 3 - الاستفادة من بعض الدول الشقيقة التي لها نشاط في هذا المجال .
- 4 - إعداد برامج توعية وإرشاد وتوجيه للمستهلكين والموردين عن كيفية التداول السليم للغذاء ومخاطر المواد المضافة التي لا تتوافق والمقاييس المعتمدة .
- 5 - دعم الصناعات الوطنية الغذائية للتسجيل المطابق للمواصفات الدولية (أيزو 9000)

وفي الختام فإنني أهيبُّ بكل مسلم مؤمن غير على دينه، وعقيدته، ووطنه وأهله أن يتحقَّقَ من كل ما يشتري من الأدوية والأغذية ؛ لأنه قد يتناول المحرم وهو لا يشعر ، وعلى المسؤولين تقع المسؤولية في حماية هذا الوطن من دخول تلك المواد الاستهلاكية الملوثة بالخنزير ومشتقاته ، كهيئة الرقابة على الأغذية وغيرها ، والله المسؤول أن يوفق الجميع لما فيه خير البلاد والعباد .

الهوامش

- 1 - حياة الحيوان الكبرى ، كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري : تحقيق : أحمد حسن ، 423/1.
- 2 - البحر الرائق ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت ، 113/1.
- 3 - أيسر التفاسير ، الجزائري ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، ط5 ، 1424 هـ ، 2003م ، 148/1.
- 4 - سورة المائدة من الآية 3 .
- 5 - المغني على الخرقى ، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي ، دار الفكر ، بيروت ، ط1 ، 1405 هـ ، 123/1 ، والشرح الممتع ، ابن عثيمين ت 1421 هـ ، <http://www.ibnothaimen.com> 300/1 ، والكافي في فقه الإمام أحمد ، ابن قدامة ، <http://www.al-islam.com> 86/1 ، والمبدع ، ابن مفلح ت884 هـ ، دار عالم الكتب ، الرياض ، 1423 هـ ، 2003م ، 170/1 ، شرح الزركشي على مختصر الخرقى ، شمس الدين محمد بن عبد الله الزركشي المصري الحنبلي ت 772 هـ ، تح : عبد المنعم خليل إبراهيم ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، بيروت ، 1423 هـ ، 2002م ، 664/6 ، وأسهل المدارك شرح إرشاد السالك في مذهب إمام الأئمة مالك ، أبو بكر الكشناوي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، د.ت ، التمهيد ، ابن عبد البر تح: مصطفى العلوي ، محمد البكري ، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب ، 1387 هـ ، 144/1 ، أسنى المطالب ، زكريا الأنصاري ، تح : محمد محمد تامر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1422 هـ ، 2000م ، ط1 ، 1 / 564 ، الشرح الكبير على المقنع ، ابن قدامة المقدسي ، أشرف على طباعته: محمد رشيد رضا صاحب المنار ، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 1 / 192 .
- 6 - الحاوي الكبير ، الماوردي ، دار الفكر ، بيروت ، د.ت ، 834/13.
- 7- المبسوط ، السرخسي ، دراسة وتحقيق : خليل الميس ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1421 هـ ، 2000م ، 24 / 88 موسوعة العلاج

- بالأعشاب ، الموسوعة الشاملة ص 284، تفسير المنار محمد رشيد رضا ت 1354هـ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1990 م ، 6/112 ، 113 .
- 8- البقرة:173، الاختيار لتعليل المختار ، عبد الله بن محمود بن مودود الموصلية الحنفي ت 683هـ ، تعليق محمد أبو دقيق ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، وصورتها دار الكتب العلمية ، بيروت، 1356 هـ ، 1937 م، 4 / 102 ، المهذب ، الشيرازي ، دار الفكر ، بيروت ، د. ت ، 455/1، القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة مصطفى الزحيلي ، دار الفكر ، دمشق ، ط: 1، 1427 هـ ، 2006 م ، 1 / 277 .
- 9 - المصدر السابق 3/6.
- 10 - البقرة: ١٧٣ .
- 11- المواد المحرمة والنجسة في الغذاء والدواء بين النظرية والتطبيق ، د. نزيه حماد ، دار القلم ، دمشق ، 1425 هـ ، 2004 م ، ص 68 .
- 12 - <http://www.islamset.com/arabic/abioethics/muharamat.html> - والمواد المحرمة والنجسة في الغذاء والدواء بين النظرية والتطبيق ص 76 - 78 .
- 13 - موقع الإسلام سؤال وجواب www.islamqa.com.
- 14 - سورة البقرة من الآية 28 .
- 15 - موقع الإسلام سؤال وجواب: www.islamqa.com.
- 16 - انعقدت في الفترة 24 من شهر ذي الحجة 1415 هـ ، الموافق 24 - 22 من شهر مايو: 1995 ،
- <http://mountada.darcoran.org/index.php?showtopic=23552>
- 17 - mountada.darcoran.org/index.php?showtopic -.
- 18 - المواد المضافة للأغذية ، فهد محمد الجساس ، صلاح الدين عبد الله الأمين ، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية ، الرياض ، 1429 هـ ، 2008 م ، ص 28 ، ينظر الجداول من ص 27 - 48 .
- 19 - عطية محمد سالم ، شرح بلوغ المرام ، 6/3 ، www.islamwab.net .

- 20- تفسير المنار ، 113/6 ، 302 ، 308 ، مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، د . هايز هينريش ركفيغ ، العدد السادس ، 1989 م ، ص 110 .
- 21- موسوعة العلاج بالأعشاب ، المكتبة الشاملة ص 285 .
- 22 - خطورة المواد المضافة للأغذية ، المكتبة الشاملة ص 1 ، 2 ، 4 .
- 23 - شرح بلوغ المرام ، عطية محمد سالم ، www.islamwab.net . 3/6 .
- 24 - جريدة الرياض ، محمد الحيدر ، الأحد غرة ربيع الأول 1429 هـ ، 9 مارس 2008م ، العدد 14503 ، www.alriyadh.com .
- 25- مكسبات الطعم والألوان الصناعية التي تضاف للأغذية ، د. نيفين عبد الغنى النسر ، د.ناهد محمد وهبة باحث أول بمعهد بحوث صحة الحيوان، أسيوط ، مجلة أسيوط للدراسات البيئية ، العدد السادس والثلاثون يناير ٢٠١٢م ، 92 - 96 .

المصادر والمراجع

- 1 - القرآن الكريم ، برواية حفص عن عاصم .
- 2 - الاختيار لتعليل المختار ، عبد الله بن محمود بن مودود الموصللي الحنفي ت 683هـ ، تعليق محمد أبو دقيق ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، 1356هـ ، 1937م .
- 3 - أسنى المطالب ، زكريا الأنصاري ، دار الكتاب الإسلامي ، بيروت ، د.ت .
- 4 - أسهل المدارك شرح إرشاد السالك في مذهب إمام الأئمة مالك ، أبو بكر الكشناوي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، د.ت .
- 5 - أيسر التفاسير ، الجزائري ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة النبوية ، ط5 ، 1424هـ ، 2003م .
- 6 - تفسير آيات الأحكام ، السائيس ، تح: ناجي سويدان ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، د.ت .
- 7 - تفسير الخازن ، لباب التأويل في معالم التنزيل ، الخازن ، تحقيق وتصحيح : محمد علي شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1415هـ .
- 8 - تفسير السمعاني ، السمعاني ، تح : ياسر بن إبراهيم ، غنيم بن عباس بن غنيم ، دار الوطن ، الرياض ، ط1 ، 1418هـ ، 1997م .
- 9 - تفسير ابن عثيمين ، ابن عثيمين ، دار ابن الجوزي ، الرياض ، ط1 ، 1423هـ .
- 10 - تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، تح : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، منشورات محمد علي بيضون ، بيروت ، ط1 ، 1419هـ .
- 11 - التمهيد ، ابن عبد البر ، تح: مصطفى العلوي ، محمد البكري ، وزارة الأوقاف ، المملكة المغربية ، 1387هـ .
- 12 - الحاوي الكبير ، الماوردي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، د.ت ، د.ط .
- 13 - حياة الحيوان الكبرى ، كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري : تحقيق

- . أحمد حسن بسج ، : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ط: 2 ، 1424هـ 2003 م .
- 14 - الدر المختار ، ابن عابدين ، دار الفكر ، بيروت ، ط2 ، 1412هـ ، 1992 م .
- 15 - شرح بلوغ المرام ، عطية محمد سالم ، www.islamwab.net .
- 16 - شرح الزركشي ، شمس الدين محمد بن عبد الله الزركشي المصري الحنبلي ت 772هـ ، دار العبيكان ، الرياض ، 1413هـ ، 1993م .
- 17- الشرح الكبير على المقنع ، ابن قدامة المقدسي ، دار الكتاب العربي ، بيروت د.ت ، د.ط .
- 18 - الشرح الممتع ، ابن عثيمين ت 1421هـ ، دار ابن الجوزي ، الرياض ، ط1 1422هـ ، 1428هـ .
- 19 - القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة ، مصطفى الزحيلي ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 ، 1427هـ ، 2006م .
- 20 - الكافي في فقه الإمام أحمد ، ابن قدامة ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، 1414هـ ، 1994م .
- 21- الاستشفاء بالعسل والحبة السوداء ، abomrikh@yahoo.com .
- 22 - المبدع ، ابن مفلح ت884هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، 1400هـ .
- 23 - المبسوط ، السرخسي ، دراسة وتحقيق خليل الميس ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1421هـ ، 2000م .
- 24 - المغني على الخرقى ، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي ، دار إحياء التراث العربي ، القاهرة ، ط1 ، 1405هـ 1985م .
- 25 - المهذب ، الشيرازي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، د.ت .
- 26 - المواد المحرمة والنجسة في الغذاء والدواء بين النظرية والتطبيق ، د. نزيه حماد ، دار القلم ، دمشق ، ط1 ، 1425هـ ، 2004م .
- 27 - المواد المضافة للأغذية ، فهد محمد الجساس ، صلاح الدين عبد الله الأمين

- مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية ، الرياض ، 1429 هـ ، 2008 م .
- 28 - جريدة الرياض ، محمد الحيدر، ربيع الأول ، 1429 هـ ، 9 مارس ، 2008م العدد (14503).
- 29 - مكسبات الطعم والألوان الصناعية التي تضاف للأغذية ، د. نيفين عبد الغنى النسر ، د.ناهد محمد وهبة ، باحث أول بمعهد بحوث صحة الحيوان، أسيوط مجلة أسيوط للدراسات البيئية ، العدد السادس والثلاثون) يناير ٢٠١٢،.
- 30 - مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، د . هايز هينريش ركفيغ ، العدد السادس ، 1989 م .
- 31 - www.islamwab.net ..
- 32 - www.islamset.com/arabic/abioethics/muharamat .
- 33 - www.islamqa.com . موقع الإسلام سؤال وجواب .
- 34 - [www. Mountada.darcoran.org](http://www.Mountada.darcoran.org)

المسامت الفنية للمحذوف (سورة البقرة أنموذجاً)

د. علي عبد السلام بالنور¹

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد، فإنّ الله -ﷻ- ختم الرسالات السماوية برسالة النبي الأعظم محمد -ﷺ- ألا وهي القرآن الكريم، المنزل بلغة العرب كما قال في كتابه العزيز إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ يوسف: 2. ولما كان العرب قد بزوا غيرهم بالفصاحة والبيان كان القرآن الكريم معجزاً لهم في بلاغة نظمه، فتحداهم بما هم متميزون به، فعجزوا عن مجاراته، وسلموا له في نهاية المطاف، ويخبر الله -ﷻ- عن هذا العجز بقوله: قُلْ لِيَن آجَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا الإسراء: 88.

ولما كان من اللغة أن تسقط من الألفاظ ما يدل غيره عليه، صار أسلوب الحذف لا يغمض به المعنى، ؛ لإرجاعه حسن العبارة إلى ما يعمد إليه المتكلم من حذف لا يلتوي من ورائه القصد؛ وإنما هو تصرف تصفى به العبارة، ويشد أسرها، ويقوى حبكها، ويتكاثر إيحاؤها، ويتقوى مبناها، فتدل على قوة البيان، وصحة الذكاء، وصدق الفطرة.

والحذف في الأسلوب القرآني ظاهرة من ظواهر بلاغته وبيانه بعامته، غير أنّ هذه الظاهرة تكاد تكون خاصة في سورة البقرة- موضوع البحث- إذ لا تظهر آية من آياتها ليس بها حذف إلا قليلاً بل قد تكون في الآية الواحدة أكثر من حذف واحد أحياناً.

وأما ما يرشد إليه السياق في الكلام، أو دلالة الحال عليه فهو أصل بلاغتها الذي يعتمد على ذكاء القارئ، والمتذوق للأسلوب الذي لا يجد المتعة في السياق الواضح

¹ - عضو هيئة تدريس بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب - الخمس، جامعة المرقب.

والمكتشف بل حيث يتحرك حسّه وينشط؛ ليستوضح، ويتبين، ويكشف الأسرار، واللمسات الفنية، واللطائف، والمعاني البلاغية من وراء الإيحاءات والرموز، فحين يقع في طلبته يكون ذلك أمكن في نفسه، واملك لها من المعاني التي يجدها مبذولة في حق اللفظ⁽¹⁾.

وتتطلب بلاغة الحذف مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته وبيانه، ومقتضى الحال مختلف؛ لأنّ مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التذكير بيان التعريف، ومقام الإطلاق بيان التقييد، ومقام التقديم بيان التأخير، ومقام الحذف بيان الذكر، وخطاب الذكي بيان خطاب الغبي، وارتفاع شأن الكلام في الحُسن والقبول يتوقف على مطابقتها للاعتبار المناسب من حيث الارتفاع وعدمه بعد المطابقة، لذلك اهتم أهل اللغة، والبلاغيين بالحذف في القرآن الكريم؛ لأنّه من البيان الذي يفهم بدلائل قرائن الأقوال و الأحوال وأكثر جَمالاً من الذكر؛ لأنّ جَماله يكمن في إطلاق الحرية للنفس أن تتصور آفاق الدلالة التي يحتملها اللفظ المحذوف، و لو قيد اللفظ المحذوف بالذكر لذهب جَماله، ولم يؤدِ الغرض تمام الأداء.

ولما كان أسلوب الحذف في القرآن الكريم نمطاً من أنماط التركيب، وشكلاً من أشكال التصرف في بناء العبارة القرآنية، جعلته سبيلاً لفهم أسرار ولطائف الحذف.

ولما رأيت أن ظاهرة الحذف جديرة بالبحث والتتبع، عمدت إلى تتبع المحذوف؛ لسبر اللمسة الفنيّة والسرّ المتصل بالبلاغة من وراء حذفه في آيات هذه السورة - فكان في الإيحاء، والإحكام في دقة المعنى، والإيجاز، ومراعاة مقتضى الحال، والتصوير، والإثارة والتشويق، والتناسب الصوتي والتقابل الموسيقي، - بأبلغ عبارة، وفي أوسع معنى، وأكثر تأثير، معتمداً في ذلك على العَرَض، والتتبع، والتدقيق لهذا النص.

وكان منهجي في البحث قائماً على عرض الآيات، والوقوف على المحذوف فيها، معتمداً على مصادر ومراجع متنوعة منها كتب تراثية قديمة مثل: كتب التفسير، ومنها مراجع الحديثة.

وقد راعيت اختصار التوثيق في هوامش البحث ناقلاً التفاصيل إلى فهرس المصادر والمراجع.

(1) ينظر: كتاب دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: التنجي 1: 121.

ولما كان عنوان البحث اللمسات الفنية للمحذوف (سورة البقرة أنموذجاً). فقد جاء في مقدمة، وموضوع، وخاتمة.

ففي المقدمة تعرضت لأهمية الحذف، وبلاغته، ودلالته في القرآن الكريم وبخاصة في سورة البقرة، ومنهج دراستي لهذه الظاهرة في هذه السورة.

أما الموضوع فقد تناول: تعريف الحذف لغة وعند البلاغيين، وعرض اللمسات الفنيّة للمحذوف من خلال آيات سورة البقرة، مثل: الإيحاء، والإحكام في تأدية المعنى، والإيجاز، والتصوير، والإثارة والتشويق، والتقابل الصوتي والتبادل الموسيقي.

أما الخاتمة فقد حوت أهم نتائج البحث.

الموضوع:

الحذف لغة: جاء في أساس البلاغة «حذف ذنب فرسه إذا قطع طرفه، وفرس محذوف الذنب، وزق محذوق: مقطوع القوائم، وحذف رأسه بالسيف: ضربه فقطع منه قطعة»⁽¹⁾.

وفي تهذيب اللغة «الحذف: شاء صغار ليست لها أذنان ولا آذان، يجاء بها من جرس»⁽²⁾

فمن النصين السابقين نرى أنّ مادة (ح.ذ.ف) تدور حول الإسقاط والقطع، أو التخفيف الذي يدعو إلى الإسقاط.

الحذف عند البلاغيين:

هو إسقاط جملة أو جزء منها من الكلام⁽³⁾، وبعض البلاغيين يفرقون بين الحذف والإضمار من خلال ما يظهر من أثر المحذوف، والمقصود بالأثر: هو ما يتركه

(1) لجار الله أبي القاسم الزمخشري (ح.ذ.ف).

(2) لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ح.ذ.ف)

(3) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني 1: 290-291.

المحذوف من أثر إعرابي. يقول البابرتي⁽¹⁾: «والفرق بين الحذف والإضمار أن الحذف هو الذي لا يظهر أثره، مثال قوله تعالى: وَسَعَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ يوسف: 82، أي: واسأل أهل القرية، لأننا لو لم نقدر (أهل) لكانت القرية أهلاً للسؤال، وهذا محال.

والإضمار هو الذي يظهر أثره، مثال: قول الشاعر:

وبلدةٍ ليس بها أنيس

والتقدير: رُبَّ بلدة. فإنَّ أثر [رُبِّ] ظاهر؛ لأنَّه يجربها بعده»⁽²⁾

فالظاهر من لفظ الأثر، الأثر الإعرابي للعوامل، فظهر واضحاً جلياً في [رُبِّ] بعد حذفها في بلدة... بينما لم يظهر أثر المضاف بعد حذفه في سؤال القرية. والتقدير: وأسأل أهل القرية.

وبعضهم لم يفرق بين الحذف والإضمار مثل: القزويني في الإيضاح⁽³⁾، والجرجاني في دلائل الإعجاز⁽⁴⁾.

وللمحذوف في سورة البقرة لمسة فنيّة، ولطيفة بيانية، منها:

1_ الإيحاء:

وهو «شعور يبعثه الأثر الفني فيمن يطلع عليه، ويختلف هذا الشعور قوة ونوعاً حسب ثقافة المتلقي، ورهافة حسه»⁽⁵⁾.

والإيحاء أساس من الأسس التي يقوم بها العمل الأدبي، لأنّه باعث للحركة، وتظليل الصور بظلال الحياة، فيضفي على العبارة ازدحام المدلول، وامتلاء المعنى، وصولاً إلى

(1) هو محمد بن محمد بن محمود أكمل الدين البابرتي، علامة بفقته الحنفية، عارف بالأدب، نسبته إلى بابرتي (قرية من أعمال دجيل ببغداد)... توفي بمصر من كتبه (شرح تلخيص الجامع الكبير للخلاطي). الأعلام للزركلي 7: 42.

(2) شرح التلخيص أكمل الدين محمد البابرتي: تح: محمد صوفيه: 430.

(3) ينظر: الإيضاح 1: 296 - 297.

(4) ينظر: كتاب دلائل الإعجاز: 179.

(5) المعجم الأدبي، جبور عبد النور: 43.

التأثير في النفس؛ لإقناعها وحصول الاستجابة منها وبخاصة في القرآن؛ لأنَّ « القرآن كتاب شريعة وعقيدة، والعقيدة لا تعتمد على الإقناع العقلي فقط...ومن هنا جاءت صعوبة الدعوة إلى العقيدة، وجاء أيضاً تركيز القرآن الكريم على هذه المهمة، واحتفاؤه بها كل هذا الاحتفاء المتمثل في إثارتها بالجانب الأعظم منه واستخدامه لمختلف الأساليب واستعانته بشتى وسائل التأثير والإقناع»⁽¹⁾.

وبالحذف صار النص القرآني أرقى النصوص؛ لتضمن الجملة القرآنية بعد الحذف إحياءات تثير في ذهن القاريء والمتفكر صوراً وأخيلة يتأثر بها السامع والقاريء ويستتبط من خلالها المعاني المثارة في الذهن، ومن ذلك قوله تعالى: **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** البقرة: 9. حيث يوحى خداعهم مع الله - ﷻ - ليس على ظاهره؛ لأنَّ الله - ﷻ - لا تخفى عليه خافية، فكيف يخدعه غيره، فيتعين هنا لَحْظُ (محذوف) تقديره (يخدعون رسول الله)⁽²⁾، وحذفه يوحى بأنَّ مخادعة الرسول - ﷺ - هي مخادعة الله - ﷻ -.

وفي قوله تعالى: **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** البقرة: 11 حيث حذف فاعل (قيل) منه؛ لأنَّ هذه الآية وإن كانت تحكي واقعاً هو حال المنافقين وحقيقتهم مع الدعاة والمصلحين على عهد رسول الله - ﷺ - إلاَّ أنَّها توحى أنَّ النصيحة واجبة في حقِّ كلِّ مؤمن؛ ويفهم هذا من حذف الفاعل الذي يفيد العموم، أي: أنَّ الدعوة غير مختصة بنفر معينين، وإنَّما هي صادرة عن كلِّ مؤمن في مجتمع المدينة وقتئذٍ الذي كوَّنه الرسول - ﷺ - ذلك المجتمع الأنموذج الذي يجب أن يقتدي به جميع المسلمين في كلِّ زمان ومكان، علاوة على ذلك أن حذف الفاعل يوحى بشدة عنادهم، إذ أنَّهم لا يستجيبون لأي شيء ناصح.

(1) أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجاً، عبد الغني محمد سعد بركة: 355 - 356 .

(2) تفسير النسفي، 1: 18.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: وَبَيَّرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ البقرة: 25، فحذف منه فاعل (أتوا)، وحذفه يوحى بالنعيم الموفور الذي هم فيه، فخدمتهم لا تنحصر في صنف معين من الخدم، بل كلهم طوع أمرهم، موقوفون عليهم.

وقوله تعالى: وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا لَهُمْ يُنصَرُونَ البقرة: 48، دلالة الآية - والله أعلم - أن لا تقضي يوم القيامة نفس عن نفس شيئاً، مما وجب عليها، ولا تتوب عنها، ولا تحتل مما أصابها، ولا تقضي عنها شيئاً من الجزاء، وأن العدل مطلق من الله في هذا اليوم، وهذا كله من أوصاف يوم القيامة، إلا أن في الآية حذف (الجار والمجرور)، وتقديره (فيه)، والأصل واتقوا يوماً أي: واتقوا يوماً لا تجزي فيه، ولا يقبل فيه، ولا ينفعها فيه، ولا هم ينصرون فيه⁽¹⁾.

وقوله تعالى: وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا أَبْابَ سُجْدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ البقرة: 58، فحذف فاعل يغفر يوحى أن الغفران يكون مباشرة متسبباً عن القول، وكأنه لا يحتاج إلى فاعل، وإنما هو متعلق بإرادتهم وفعلمهم، تنبيهاً إلى أن المسببات مرهونة بأسبابها.

وقوله تعالى: وَإِذْ أَسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ البقرة: 60. حذف منه جملة (فضربه)، والتقدير: فضربه فانفجرت⁽²⁾، وهذا يوحى بالاستجابة السريعة من الحجر، مع ما فيه من الصلابة، وفي سرعة انفجاره

(1) تفسير النسفي 1: 84.

(2) الكشاف 1: 284.

بيان لإنعام الله - ﷻ - على بني إسرائيل حتى أن الحجر كان أسرع ما يكون في الاستجابة والانفجار، وفي هذا تعديد نعم الله على بني إسرائيل.

وقوله تعالى: **وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَصْرِيَ عَلَى طَعَامٍ وَجِدِ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ^ط قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ^ط وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَنةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ^ط ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ^ط ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ البقرة: 61** ، حذف منه المفعول به لـ(يخرج)، والتقدير: يخرج لنا طعاماً مما تنبت الأرض، وحذفه يوحي بشدة تعلقهم بتلك النوعية من الطعام وريغبتهم الجامحة فيه، إذ لم تكن رغبتهم في الطعام ذاته، حيث الطعام لم يكن وحده طلبهم لتوافره عندهم، وإنما رغبتهم فيه بتلك الصفة المخصوصة التي ذكرتها الآية بعد ذلك (من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها).

وقوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقِينَ وَالصَّابِرِينَ مِنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ البقرة: 62**، فحذف الموصوف وتقديره: (وعمل عملاً صالحاً)، وأبقى الصفة، وهذا يوحي أن المراد ليس العمل في حد ذاته، وإنما كونه موصوفاً بالصلاح، ولذا فإن عمل الكافر لا ينفعه؛ لعدم صلاحه.

وقوله تعالى: **وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ^ط بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ البقرة: 88**، (فقليلاً) : صفة لمصدر محذوف تقديره: فإيماناً قليلاً⁽¹⁾، والحذف يوحي أن إيمانهم هذا لا يستحق أن يسمى إيماناً؛ لضآلته وضعفه، وعدم اكتماله.

(1) ينظر: التحرير والتنوير 1: 600.

وقوله تعالى: **قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** البقرة: 136، فحذف فاعل (أنزل)، و(أوتي) في الآية إشارة إلى أن قضية الإيمان تتعلق بالمنزل؛ لأهميته سواء نزل به جبريل - عليه السلام - أو غيره، فالحقيقة تكمن في الإيمان بما جاء به؛ لأنه من عند الله - ﷻ -، والخطاب في الآية موجه لليهود الذين قالوا: **إِنَّ مَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ كَانَ يَنْزِلُ بِهِ جِبْرِيلُ - عليه السلام -** ونحن أعداء له، فجاء التعبير القرآني شاملاً لجوانب القضية بكل جوانبها مؤكداً على أهمية المنزل.

وقوله تعالى **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** البقرة: 186، فحذف منه لفظ (قل) والتقدير: (فقل إنني قريب). وحذفه يوحي بمباشرة التواصل بين العبد وربّه، كما يفيد القرب الشديد بين العبد وربّه، وبخاصة وقت الدعاء⁽¹⁾.

وقوله تعالى: **وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ** البقرة: 201، فحذف منها حرف النداء [الياء] إشارة إلى قرب المنادى، وأنه لا يحتاج إلى أداة نداء لندائه والاستعانة به، والوصول إليه. والياء في أصل وصفها اللغوي أداة لنداء البعيد، والبعد هنا - في هذا المقام - بعد المنزلة فهي لتعظيم المنادى.

وقوله تعالى: **زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْحَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** البقرة: 212، ففي حذف الفاعل إحياء بخفاء المزين، ويكون بذلك أدق في الدلالة عليه من ذكره؛ لأنّ المزين أمور كثيرة، يقول ابن عاشور في هذا الصدد «منها خلق بعض الأشياء حسنة بديعة... ومنها إلقاء حسن بعض

(1) ينظر: المصدر نفسه 2: 179.

الأشياء في نفوسهم وهي غير حسنة كقتل النفس، ومنها إعراضهم عمن يدعوهم إلى الإقبال على الأمور النافعة»⁽¹⁾، و الحذف يوحي بدخول هذه الأشياء.

وقوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ البقرة: 216، فحذف فاعل [كُتِبَ] فيه ما فيه من الدقة في أن القتال يفرض نفسه على الأمة المؤمنة دائماً فلا بديل عنه إن أرادت الأمة أن تحيا حياة حرة كريمة، إذ طبيعة عدو الإيمان لا تستكين إلا بالاعتداء، ولا ترضخ إلا بالقهر، ولا تتصت للحق إلا بالقوة.

وقوله تعالى وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ البقرة: 234. فالمحذوف [المضاف إلى الذين]، والتقدير: وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن⁽²⁾، وحذفه يوحي أن للرجال مسؤولية كبرى في تنفيذ أحكام الله حتى الخاصة بالنساء؛ تحقيقاً للقوامة، ولهذا كان الخطاب في الغالب موجها إليهم.

وقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ⁽³⁾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ البقرة: 243، فحذف جملة (فماتوا)، والتقدير: (فقال لهم الله موتوا فماتوا ثم أحياهم)، وحذفها «للتببيه على أن كل شيء لا يتخلف عن إرادته بالأمر بحيث لا يشغله من الزمن أكثر من مقدار هذه الكلمة»⁽³⁾.

كل هذه المشاعر لتظهر عند قراءة التعبير القرآني وما يكتنف الآية من إيحاء نتيجة للحذف، فالإيحاء في الأسلوب القرآني يجعل «التعبير الفني في القرآن يقوم على أساس

(1) التحرير والتنوير 2: 294-295.

(2) الكشاف 1: 372.

(3) تفسير أبي السعود 1: 238.

التجاوب النفسي، وفتح آفاق الفكر، وبواطن الوجدان لتعيش النفس في رحاب الآية، وفي سعة مغزاها، وحقيقة هدفها»⁽¹⁾.

2_ الإحكام في تأدية المعنى:

من دلالة الحذف الدقة في التعبير؛ وهو مطابقة العبارة للمعنى المقصود، ويتأتى من خلال الإيجاء والدلالة المناسبة للمعنى المقصود من العبارة.

وقوله تعالى: **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** البقرة: 4، حيث حذف منه الموصوف، والتقدير: وبالدار الآخرة⁽²⁾، وحذفه أضيف على العبارة القرآنية إحكاماً ودقة في وصف إيمان هذه الفئة المؤمنة، حتى أنهم لشدة إيمانهم، وقوة عقيدتهم وتصديقهم لم يقتصر إيمانهم على الاعتراف والإقرار باليوم الآخر فقط، بل بكل ما في هذا اليوم من أحداث أخبر بها الرسول - ﷺ - والمؤكد لهذه الدلالة من حذف الموصوف، لأنه مذكور في الحديث عن إيمان المنافقين، قال تعالى: **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ** البقرة: 8، فقد ذكر الموصوف هنا؛ لأن ذكره أدق في التعبير؛ لأن إيمانهم ظاهري لا حقيقة فيه.

وهكذا يتضح أن القرآن يحذف الموصوف ويذكره حسب دواعي الدقة في التعبير، ومقتضيات الأحوال المستلزمة لذلك.

وفي دلالة حذف المبتدأ⁽³⁾ إحكام ودقة، قال تعالى: **بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** البقرة: 117، فحذف المبتدأ [هو]، أو [الله]؛ لأنه مذكور في الآية السابقة، قال تعالى: **وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِيرٌ** البقرة: 116 .

(1) الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي: 157.

(2) ينظر: تفسير النسفي 1: 14.

(3) ينظر: التحرير والتنوير 1: 686.

أما عند التوهم والإنكار فيذكر المبتدأ، قال تعالى: **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** البقرة: 29. فمن الدقة والإحكام التأكيد؛ لأن كثيراً من الناس يدعون أن كثيراً مما في الأرض من علمهم، وصنعهم، وتديبيرهم و خاصة فيما يتعلق بالمطعم والرزق.

وفي حذف الفاعل دقة وإحكام قال تعالى: **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْأَمَلَاءِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لِهْمُ أبعث لنا ملكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** البقرة: 246.

ففي حذف فاعل (كُتِبَ) الأولى إحكام ودقة للمعنى ومناسبة في نقل ما يدور في خلد النبي الكريم، وأشد مطابقة لحقيقة استفساره؛ لأنه يسعى لاستبانة صدق عزيمتهم، وصفاء نيتهم، وتصميمهم على النهوض بأعباء القتال الثقيلة، فهو شاك في استجابتهم للقتال، وقدرتهم عليه لا في رفضهم له بسبب من فرضه عليهم حتى ذكره لهم. وكذلك في جملة (أخرجنا) ظهرت الدقة في حذف الفاعل في التعبير عن سبب طلبهم للقتال؛ باعتبار الإخراج هو السبب، وليس من فئة معينة من الناس.

وينقل القرآن المحاورة بين طرفين فتظهر الدقة والإحكام من خلال دلالة الحذف أثناء النقل بكل ملابساته، قال تعالى: **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** البقرة: 91. فحذف فاعل (أنزل)؛ لأنه أدق في نقل الرد بكل ملابساته النفسية من ذكره؛ لأن سبب الإيمان عندهم ليس إنزال الكتاب من الله - ﷻ - بل إنزاله عليهم وهو المهم عندهم، أما من أنزله فلا يهم؛ لا نشغال بالهم بالرياسة والتميز، وهذا يتحقق لإنزاله عليهم لا لنزوله من الله.

ولهذا جاء ردهم نابغاً من فكرتهم التي يحملونها، فجاء النص بحذف الفاعل في نقل هذا الرد؛ ليكون محكماً ودقيقاً في نقل أقوالهم.

ومن الدقة والإحكام حذف الفاعل، قال تعالى: **زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَعْرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** البقرة: 212. فهو علاوة عن إخفائه المزين (الفاعل)، كان دقيقاً في الدلالة عليه من ذكره؛ لأن المزين أمور كثيرة، قال ابن عاشور في هذا الصدد «منها خلق بعض الأشياء حسنة بديعة... ومنها إلقاء حسن بعض الأشياء في نفوسهم وهي غير حسنة؛ كقتل النفس، ومنها إعراضهم عن دعوهم إلى الإقبال على الأعمال النافعة»⁽¹⁾.

3- الإيجاز:

الإيجاز لغة: الوجيز: الشيء الموجز، وأوجز الكلام: قلّ، وأوجز كلامه: قلله⁽²⁾. وفي الاصطلاح: هو نوع من بناء الكلام يعتمد على قلة اللفظ، وكثرة المعنى⁽³⁾. وأسلوب الإيجاز من خصائص العربية، فقد أولع به العرب في كلامهم، وعدوا بلاغته أنجع من البيان بالإطناب، لذلك حضّ عليه رسول الله - ﷺ - جرير ابن عبد الله البجلي قائلاً: يا جرير، إذا قلت فأوجز، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف⁽⁴⁾. ويعرفه الرّماني قائلاً: «الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة، يمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز»⁽⁵⁾.

ولإيجاز أهمية كبيرة في الدرس البلاغي، قال بعضهم عندما سئل عن البلاغة هي الإيجاز⁽¹⁾.

(1) التحرير والتنوير 2: 294، 295.

(2) لسان العرب (ج ز).

(3) المصطلح النقدي في نقد الشعر، إدريس الناظوري: 503.

(4) ينظر: غريب الأثر لابن الجوزي 2: 455، والنهاية لابن الأثير 5: 155.

(5) النكت: 237.

ولإيجاز أهميتان: استيعاب المعنى باللمحة، والمتعة العقلية باكتشاف ما أضمر بين ثنايا الكلام⁽²⁾، ولعل هذا ما أشار إليه الزركشي عند حديثه عن قوة الحذف قائلًا: «ومنها [أي: فوائد الحذف] زيادة لذة بسبب استنباط الذهن للمحذوف»⁽³⁾.

وعند إمعان الباحث في العبارة التي حذف أحد أطرافها، ودلالة هذا الحذف يظهر أنها تعطيه معاني أكثر بألفاظ أقل. وهذا هو الإيجاز الذي يبرز قدرة المتكلم على قوة الملح في الكلام، ويفتح آفاق الفكر أمام القارئ؛ ليستمتع باكتشاف المحذوفات.

وفي سورة البقرة كثير من هذا، منها: قوله تعالى: **يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** البقرة: 20، حيث حذف منه مفعول (شاء)⁽⁴⁾، والتقدير: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم لذهب به، والجملة المحذوفة المقدره: أن يذهب في تأويل مصدر منصوب مفعول المشيئة. أي: لو شاء الله الذهاب بسمعهم لذهب به.

وقوله تعالى: **مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** البقرة: 105 حذف منه مفعول (يشاء)، والتقدير: والله يختص برحمته من يشاء اختصاصه بها⁽⁵⁾.

وقوله تعالى: **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** البقرة: ١٤٢. حيث حذف منه مفعول (يشاء)، والتقدير: يهدي من يشاء هدايته. وفي قوله - ﷻ -: **زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**

(1) ينظر: كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري: 193.

(2) في إعجاز القرآن، أحمد مختار البرة: 477.

(3) البرهان في علوم القرآن 3: 105.

(4) ينظر: تفسير أبي السعود: 56.

(5) التحرير والتنوير 1: 653.

وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ البقرة: 212، حيث حذف منه مفعول (يشاء). والتقدير: والله يرزق من يشاء رزقه بغير حساب.

وقوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ البقرة: 116، حذف منه المضاف إلى (كل)، والتقدير: كل ما في السموات والأرض له قانتون⁽¹⁾، والتتوين في (كل) عوض عن المضاف إليه المحذوف.

وقوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَسَ الْأَمْهَادُ البقرة: 206. حيث حذف منه المخصوص بالذم⁽²⁾ وهو مبتدأ، والتقدير: وبئس المهاد هي.

وقوله تعالى: وَقَتْلُهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِئْتَةٌ وَيَكُونَ لِلَّهِ فَإِنِ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ البقرة: 193، حيث حذف منه متعلق (انتهاوا). والتقدير: فإن انتهوا عن ذلك، وحذف أيضاً جواب الشرط (إن)؛ لأنَّ (فلا عدوان إلا على الظالمين) علة الجواب المحذوف، والتقدير: فإن انتهوا فلا يبدعوهم بالقتال؛ لأنَّهم غير ظالمين بعد ذلك، ولا عدوان إلا على الظالمين⁽³⁾.

4- مراعاة مقتضى الحال:

تقوم البلاغة على أساس أن يكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال مع فصاحته⁽⁴⁾، وعلم المعاني أحد فنون البلاغة، وهو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي يطابق بها

(1) ينظر: التحرير والتنوير 1: 685.

(2) ينظر: تفسير أبي السعود 1: 211.

(3) التحرير والتنوير 2: 209.

(4) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني 1: 80.

مقتضى الحال⁽¹⁾ والحذف من مباحثه. وفي السورة ما يدل على دلالة الحذف لمقتضى الحال في دقة تعين على جلاء المعنى ووضوحه.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ لِيَتَّبِعَهُ وَفِي هُدًى يَتْلُونَ الْقُرْآنَ﴾ البقرة: 1-2. ففي حذف المبتدأ⁽²⁾ في قوله (هدى للمتقين). وهدى: خبر، والتقدير: هو هدى. ويجوز أن يكون (هدى) منصوباً على الحال⁽³⁾. وأفاد جعل الخبر (هدى) وهو مصدر للمبتدأ المحذوف أن الكتاب لشدة اتصافه بالهداية جعل عين الهداية ذاتها.

أما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ البقرة: 8. فحذف متعلق (بمؤمنين) مراعاة لمقتضى الحال، والتقدير: وما هم مؤمنين بالله ولا باليوم الآخر، فأفاد أنهم ليسوا من الإيمان في شيء.

أما قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ البقرة: 9، فحذف المضاف إلى (الله) في قوله (يخدعون) مراعاة مقتضى الحال في كون الخداع لله غير كائن البتة؛ لأن الله - ﷻ - يعلم السر وأخفى، وفيها تشنيع بعملهم هذا. ومقام الآيات الثلاث يراعي حال ثلاث فئات من الناس:

الفئة الأولى: الفئة التي اهتدت بالقرآن الكريم، فجاءت صفاتها الإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، وبذل المال في سبيل الله، والإيمان بما أنزل على الرسول - ﷺ - وباليوم الآخر. الفئة الثانية: وهي التي جحدت القرآن ولم تؤمن به، وكذبت الرسول فيما يبلغ عن ربّه.

الفئة الثالثة: وهم المنافقون الذين يظهر من أقوالهم وفي بعض أفعالهم أنهم مؤمنون، ولكن الحقيقة خلاف ذلك، وهؤلاء أشر من الكافرين.

(1) المصدر نفسه 1: 84.

(2) الكشاف 1: 120.

(3) ينظر: المحيد في إعراب القرآن المحيد، إبراهيم الصفاقسي: 79-80.

حذف المبتدأ أصدق في وصف الكتاب بمدى هدايته للمؤمنين. وَحَدَفُ مَفْعُولٍ (وما هم بمؤمنين) أنسب في وصف إيمان هذه الفئة (المنافقين) لطبيعتهم المشبوهة التي أصبحو بها أشبه بالجماد الفاقد الشعور.

وقوله تعالى: وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الَّتِي وَوُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ البقرة: 23-24.

حيث حذف فاعل (أعدت)، ولم يقل: أعدها الله، أو أعده ريكم، لما في حذف الفاعل من مراعاة مقتضى الحال، في إفادة الاحتقار، وعدم المبالاة، والإهمال للكافرين المعاندين، وهذا يرسخ الخوف، والروع، في قلوب الكافرين؛ لأنَّ في ذكر الفاعل (الله) الرحمة والسكينة، وهم لا يستحقونها.

أما حذف مفعول (تفعلوا) الأولى في الآية، ففيه ما يفيد إيقاع الفعل نفسه لا معلقاً بالمفعول⁽¹⁾، وفي تكرار الفعل المنفي كشف لعجزهم، وإثارة لحميتهم.

وفي الآية تبيكيت يظهر من إثارة معارضة المنكرين الكافرين؛ وذلك بحثهم على الإقرار أن القرآن المنزل على محمد - ﷺ - هو من عند الله - ﷻ - وأنهم عاجزون عن معارضته، فلا سبيل لهم سوى الإيمان به.

وحذف لفظ (قل) في قوله تعالى: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ البقرة: 186، يقتضيه مراعاة حال قرب العبد من ربه أثناء الدعاء، وأن الله لا يطلب واسطة بينه وبين عبده. يروي الطبري في هذا الصدد أن أعرابياً جاء إلى النبي - ﷺ - فقال: أ قريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت عنه، فأنزل الله الآية⁽²⁾. وفي مراعاة مقتضى الحال حذف المتعلق في قوله تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ

(1) ينظر: تفسير أبي السعود 1: 66.

(2) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن 3: 380.

وَكُفْرًا بِهِ، وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ البقرة: 217. والتقدير: (يردونكم عن دينكم إلى الكفر)؛ لأنَّ الردَّ يتعدى إلى المفعول بنفسه، وإلى ما زاد إلى المفعول بـ(إلى) و(عن) (1) .

والمعنى في الآية يقتضيه الحذف وهو أنَّ الكفار مهتمون بردِّ المسلمين عن دينهم، وصرْفهم عنه، وعند يأسهم من الصرف ركنوا إلى إشغال المسلمين بقضايا تلهيهم عن ما يقتضيه دينهم من قيم، فالحذف قد أسهم في مراعاة مقتضى حال الكفار، وإبراز حقيقة أمرهم؛ ليتضح للمسلمين أمرهم.

أما قوله: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ ائْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ البقرة: 253 . فقد حذف مفعول (كَلَّمَ) وفي حذفه مراعاة لمقتضى الحال في أنَّ موسى - عليه السلام - قد خصَّه الله بالكلام، وهذه الميزة يتطلبها المقام وهو ذكر درجات الأنبياء وخصائصهم، فلموسى ميزتان: الأولى ذكرت في الآية وهي تكليم الله له. والثانية تضمنها الحذف وهي أنَّ الله لم يكلم غيره.

5- التصوير:

للتصوير أثر بالغ في كشف جوانب المعنى المراد، فأثر الكلام القائم على التصوير يفوق أثر الكلام المباشر عند المتلقي، ومن هنا تكمن أهمية التصوير الفني في توضيح بعض الجوانب الجمالية في النص القرآني.

(1) التحرير والتنوير 2: 131.

ومن مفاهيم التصوير الفني أنه عنصر تحليلي متمثلاً في إيجاد علاقة بين شيئين⁽¹⁾، وهو « الذي يُبرز في الكلام صورة الواقع المتحدث عنه حتى كأنه مُشاهدٌ ملموس بحركته، وحياته، ورونقه، وجماله »⁽²⁾؛ لأنَّ المعاني المجردة أضعف وسائل التعبير؛ لأنَّها تؤدي معنى عابر لا يعلق بالذات كثيراً، أما الوسائل التي تستخدم الصورة فهي التي تثير في الخيال الحركة والانفعال⁽³⁾.

وفي هذا الصدد قال الراجزي: « فأنت تعرف أن أفصح الكلام وأبلغه.. هو ذلك الذي تريده كلاماً فتراه نفساً حيّة كأنها تلقي عليك ما تقرؤه ممزوجاً ببنيرات مختلفة »⁽⁴⁾.

ومن نص الراجزي يظهر أن أساليب البيان تعتمد التصوير وسيلة من وسائل التعبير والصيغة، ولئن كان هذا فإنَّ أسلوب الحذف يعمل عمل هذه الأساليب في التجسيم، والتشخيص. قال تعالى: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ البقرة: 127. فحذف جملة الحال، والتقدير: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، يقولان: ربنا ثقيل منا⁽⁵⁾.

وحذف جواب الشرط في قوله تعالى: وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ البقرة: 165، والتقدير: لرأوا أمراً فظيماً⁽⁶⁾. فقد صور الحذف

(1) ينظر: القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني: 171.

(2) البلاغة العربية، عبد الرحمن الميداني: 1: 54.

(3) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، عبد الحليم حنفي: 102.

(4) الإعجاز والبلاغة النبوية، الراجزي: 142.

(5) ينظر التبيان في إعراب القرآن: 1: 115.

(6) ينظر: تفسير أبي السعود: 1: 186.

ما ينتظر الذين ظلموا من عذاب غليظ يوم القيامة، فهو تصوير أبلغ من وصف ، و الترهيب مناسب لسباق الآية؛ حتى ترتدع النفوس عن الضلال.

وفي قوله تعالى: **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ البقرة: 124.** ففي القصة القرآنية يتدخل التصوير، فهو حوار بين إبراهيم - عليه السلام - وربه، حوار فيه حماس، وسرعة، واستحياء، يظهر فيه إبراهيم بطبيعته البشرية، وفطرته التي فطر الله الناس عليها، وهي التلهف، والرغبة في الامتداد البشري عن طريق الأبناء، والأحفاد، وتظهر في الصورة خطوط الاستحياء في كون الطلب موجهاً إلى الخالق الرازق، غير أن الحذف صوّر كلّ هذا من خلال ردّ إبراهيم (ومن دريتي). والتقدير: واجعل من ذريتي كذلك⁽¹⁾، فهذا التصوير يصوّر إبراهيم - عليه السلام - في حماسته واندفاعه، مما جعله لا يستحمل الإطالة. أمّا استحياءه فيتصور من عدم إكمال الجملة كعادة المستحي الذي لا يطلب الإبانة تأدياً.

ويفسح التصوير المجال - من خلال الحذف - للنفس أن تذهب في التصور والتخيل، أي: تذهب لترسم الصورة بكل أبعادها، كما في حذف جواب (لو)، قال تعالى: **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ البقرة: 165.**

فللنفس أن تتصور تلك الرهبة في ذلك المشهد عند الوقوف بين يدي الله - **عَلَىٰ** - وما يكابده المجرمون من عذاب الله، والتقدير: (ولو يرى الذين ظلموا) عذاب الله. فهذا الحذف يتصور ما لا يتصور لو كان المحذوف ملفوظاً.

أمّا في قوله تعالى: **سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّل نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ البقرة: 211.** فقد حذف جواب الشرط. والتقدير:

(1) ينظر: التبيان في إعراب القرآن 1: 112.

(ومن يبذل نعمة الله، فبدلوها)، والحذف جعل الخيال يتصور صيغة العذاب، وطريقته، وصفته.

وإن كان للنفس مع ذكر العذاب تصور، فإن لها مع ذكر النعمة تصوراً أيضاً؛ لطبع النفس على قوة الأمل، قال تعالى: **إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرَّةَ مِنَ شَعَابِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ أَلْبَيْتَ أَوْ أَعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** البقرة: 158، ففي الآية (خيراً) نصب على أنه صفة لمصدر محذوف، أي: تطوعاً خيراً، أو على حذف الجار، وإيصال الفعل، أو على تضمين معنى الفعل (1).

ومن أثر التصوير أنه أتاح للنفس أن تسبح بخيالها في التصور. قال تعالى: **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** البقرة: 110. فحذف المضاف في الآية، وتقديره (تجدوا ثوابه عند الله) (2).

قال تعالى: **فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ نُؤَلُّوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** البقرة: 137. فإيقاع حرف السين في كلمة چگ چ في الآية يصور « أن ذلك كائن لا محالة، وإن تأخر إلى حين، وذلك أن معنى التوكيد لوقوعها في مقابلة لن » (3).

6 - الإثارة والتشويق:

للإثارة والتشويق أهمية كبرى في الأسلوب القرآني، وذلك بما يضيفانه من قوة تأثير تحمل على الإقناع والاستمالة، فإن كان للتشويق هذا الدور فإن للمحذوف في الجملة القرآنية دوراً؛ لأنه يحرك الترقب في التفكير ويثيره، وفي السورة ما يؤكد هذا.

(1) ينظر: تفسير أبي السعود 1: 181.

(2) -الكشاف 1: 304.

(3) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، حسن بن محمد النيسابوري 1: 222.

قال تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا
يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ البقرة: 93.

فحذف المفعول الثاني للفعل (اتخذ)؛ ليجعل النفس تتشوق، وتتشغل، وتبحث عن
الدافع والهيئة التي يطلبها بنو إسرائيل في عبادتهم. وفي الآية الثانية ينكر الحذف فيزداد
التشوق، وترقب النفس، فتكتمل الصورة بالحذف في الآية الثالثة أيضًا.

فالتقدير: في الأولى (ثم اتخذتم العجل إلهًا... الآية)⁽¹⁾، وفي الثانية: (باتخاذكم العجل
إلهًا)، وفي الثالثة: (وأشربوا في قلوبهم حب العجل)⁽²⁾.

وفي قوله تعالى: وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ
البقرة: 51. حيث حذف الموعود به. والتقدير: (وإذ واعدنا موسى مناجاة أربعين ليلة)⁽³⁾.

أما قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَلْقَوْنِي لِقَوْمٍ إِتَّخَذْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا
إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
البقرة: 54. فحذف منه المعطوف عليه. والتقدير: (ففعلتهم فتاب عليكم)⁽⁴⁾. وقوله تعالى:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ
بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ البقرة: 55-56. حيث حذف المعطوف عليه.
والتقدير: (فمنتم ثم بعثناكم)⁽⁵⁾.

(1) ينظر: التبيان في إعراب القرآن 1: 63.

(2) ينظر: الدر المنثور، السيوطي 1: 219.

(3) ينظر: التحرير والتنوير 1: 497.

(4) ينظر: الكشاف 1: 281.

(5) ينظر: التحرير والتنوير 1: 508.

أما قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَنَحَدُّنَا هُنَا بِقَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ البقرة: 57 . فحذف منه مقول القول. والتقدير: (قائلين كلوا من طيبات ما رزقناكم). أما قوله تعالى: ج □ مؤ ج البقرة: 57 . فهو جملة معطوفة على جملة محذوفة. والتقدير: (فظلموا أنفسهم وما ظلمونا)⁽¹⁾. وقوله تعالى: فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ البقرة: 59 . حيث حذف منه الجار والمجرور المتعلق بالفعل(فبدل). والتقدير: فبدل الذين ظلموا الذي قيل لهم بقول غير الذي قيل لهم⁽²⁾ .

وقوله تعالى: وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ البقرة: 60 . حيث حذف منه جملة(فضربه). والتقدير: (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فضربه فانفجرت)⁽³⁾. وقوله تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ البقرة: 83. فالمحذوف متعلق(توليتهم). والتقدير:

(توليتهم عن جميع ما أخذ عليكم الميثاق به)⁽⁴⁾. وقوله تعالى: قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا لَنْ نَجِدَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا

(1) ينظر: الكشاف: 1: 283.

(2) ينظر: تفسير النسفي 1: 50.

(3) ينظر: الكشاف: 1: 284.

(4) ينظر: التحرير والتنوير 1: 584.

كَادُوا يَفْعَلُونَ البقرة: 71 حيث حذف منه المعطوف عليه، وهو جملة (وجدوها).
والتقدير: (فوجدوها فذبحوها)⁽¹⁾.

أما قوله تعالى: فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ
البقرة: 73 . فالمحذوف عدة جمل، والتقدير: (فقلنا اضربه ببعضها فضربه، فحيي،
فأخبر عن قتله)⁽²⁾.

وقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ
مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ
البقرة: 243. حيث حذف منه المعطوف عليه، وهو جملة(فماتوا). والتقدير: (فماتوا ثم

أحياهم)⁽³⁾. أما قوله تعالى: فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ
فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَتَهُ
كَثِيرَةً يُادِنِ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ البقرة: 249 . فبين هذه العبارة القرآنية وَقَالَ لَهُمْ
نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ
أَعْيُنٌ بِالْمَلِكِ مِنْهُ وَلَمْ يُوتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً
فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ البقرة: ٢٤٧
كلام كثير محذوف. والتقدير: (هو الرضا بالملك، ومجيء التابوت، وتجنيد الجنود)⁽⁴⁾.

(1) ينظر: المصدر نفسه 1: 556.

(2) ينظر: تفسير أبي السعود: 114.

(3) ينظر: تفسير النسفي 1: 123.

(4) ينظر: التحرير والتنوير 2: 295.

وفي موضع آخر لم تحذف كما في قوله تعالى: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ^٤ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، إِلَّا لِمَنْ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَإِلَيْنِ نَعْتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ البقرة: 150 وهذا يوفر للقرآن جرسه وموسيقاه الذاتية من ذلك الانسجام الصوتي، والتناسق الموسيقي، والتلاؤم بين ألفاظه ومعانيه.

ومن الحذف للفاصلة القرآنية قوله تعالى: قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ^٥ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ^٦ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ البقرة: 68. فحذف المفعول الثاني لـ (تأمرون)، أو الجار والمجرور المتعلق به، والتقدير: (ماتؤمرونه، أوتؤمرون به (1).

فحذف الفاصلة سواءً أكان مفعولاً به، أو جاراً أو مجروراً هو توطئة الفاصلة لتتوافق صوتياً، وتتناسب لفظياً مع ما سبقها وما لحقها .

وللحذف في مواضع أخرى تناسبٌ صوتي ففي قوله تعالى: يَبَيِّنْ إِسْرَائِيلَ أذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ البقرة: 40. وقوله تعالى: وَعَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِينَ^٧ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَابَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَنْتَقُونَ البقرة: 41. فالحذف فيهما قد هيا اتفاق أو أواخر الكلمات إلى التناسب الصوتي والتقابل الموسيقي. والتقدير: (وإياي فارهبوني) و (وإياي فانتقوني) . وكذلك في قوله تعالى: وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا الْكَاذِبُ إِلَّا نَاكِمًا مَّعْدُودَةً^٨ قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ^٩ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ البقرة: 80. حيث وطأ حذف (الهاء) من تناسبٍ صوتي، وتقابلٍ موسيقي مع ما سبقها من فواصل، وما لحقها في حرف النون. والتقدير: (أم تقولون على الله ما لا تعلمونه) .

¹ ينظر: تفسير أبي السعود 1: 111.

أما قوله تعالى: **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** البقرة: 74. فحذف منه مفعول (تعلمون) . والتقدير: (وما الله بغافل عما تعملونه)⁽¹⁾. وقوله تعالى: **إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ** البقرة: 169. حيث حذف مفعول (تعلمون) . والتقدير: (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمونه) .

أما قوله تعالى: **وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُومًا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** البقرة: 60. ففي حذف جملة (فضره) تناسب صوتي؛ لأنها لو ذكرت لما اتفقت مع الجمل السابقة واللاحقة في زمن النطق، ولهذا كان حذفها أبلغ ولاسيما أن السياق يدل عليها. أما قوله تعالى: **وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ** البقرة: 48. فالمحذوف الفاعل وحذفه جعل الجملة متساوية مع التي بعدها زمن النطق **وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ** البقرة: 48. ولو ذكر الفاعل لكانت العبارة (لا يقبل الله منها شفاعة، ولا يأخذ منها عدلاً) وهذا ظاهر للعيان عن مدى التباعد بين الجملتين في زمن النطق.

وكذلك الحذف في جملتي: (فضره فحيي) المقدرتين في قوله تعالى: **فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** البقرة: 73. والتقدير: (فضره فحيي)⁽²⁾ . فحذف الجملتين أوقع التناسق والتناسب في زمن النطق مما ترتب

¹ ينظر: الجدول في إعراب القرآن 1: 156

² التحرير والتنوير 1: 561

عليه من تناسقٍ صوتي وتناسبٍ لفظي بين الجمل وهذا يخل من غير الحذف، إذ التقدير: (فلنأضربوه ببعضها فضرِبوه فحيي كذلك يحيي الله الموتى).

ومن دواعي الحذف خفة العبارة، وعذوبة جرسها على الأسماع، كما في قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ^٤ قُلْ بِسْمَايَأْمُرُكُمْ بِهِءَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ البقرة: 93. ف (ما): اسم موصول صلته (آتيناكم)، والعائد الهاء المحذوفة. والتقدير: (آتيناكموه) ^(١)، والهاء مفعول ثانٍ للفعل (آتى). وكذلك في قوله تعالى: وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ^٥ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا نُضَارُّ بِالْوَالِدَاتِ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ، بَوْلِدِهِ ^٦ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ^٧ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مَبْهُمَا وَشَاوِرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ^٨ وَأَنْقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ البقرة: 233. حيث حذف منه مفعول (آتى) ^(٢). والتقدير: (ما آتيتموهن إياه).

وكما تكون الخفة بحذف المفعولين تكون كذلك بحذف المفعول الواحد قال تعالى: وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ^٩ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ^{١٠} وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ^{١١} وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ البقرة: 235. فمفعول أكنتم محذوف. والتقدير: (أكنتموه).

^١ ينظر: التبيان في إعراب القرآن 1: 71

^٢ ينظر: المصدر نفسه 1: 186.

ومن الخصائص الفنية للتناسب الصوتي، والإيقاع الموسيقي حذف أداة النداء، وحذف المنادى، قال تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ البقرة: 286. فحذف أداة النداء (الياء). والتقدير: (يا ربنا لا تؤاخذنا ... الآية)، وحذف الأداة والمنادى. والتقدير: (يا ربنا أعف عنا، يا وربنا اغفر لنا، يا ربنا أرحمنا، يا ربنا انصرنا على القوم الكافرين).

فجعل الحذف الإيقاع هادئاً تاماً؛ لأنه مناجاة للخالق بالدعاء، فكان نشيداً يتصعد إلى السماء، تلو أنغامه المنقاة في نفس المتضرع المبتهل إلى الخالق - ﷻ - فكان مسحة من رهبة، وشعاع من تور، متأجج العاطفة، متهدج الصوت، طويل النفس، أصداء كلماته تتجاوب، تحرك القلوب؛ لأنه من الرسول الأعظم والمؤمنين.

الخاتمة: وتتضمن أهم نتائج البحث، وهي كالآتي:

- 1- أن المحذوف ليس محصوراً في المسند، أو المسند إليه، أو كما جاء في بعض كتب البلاغة، بل يشمل غير ذلك نحو: الفاعل، والجار والمجرور، والموصوف، والمخصوص بالذم وجواب الشرط والجملة الواحدة أو الجمل المتعددة.
- 2 - أن للمحذوف في العبارة القرآنية إيحاءً، وإحكاماً في دقة المعنى، وإيجازاً، ومراعاة لمقتضى الحال، وتصويراً، وإثارةً وتشويقاً، وتناسباً صوتياً وتقابلاً موسيقياً يظهر في تجاوب نفسي، ويفتح آفاق الفكر؛ لتعيش النفس في رحاب الآية، وجو النص.
- 3 - أن للمحذوف توجيهاً لإفادة المعنى؛ كالاختصار، والاحتراز، والتحقيق، والتعظيم، والتعيين، والتعميم.
- 4- أن للفظ المحذوف إيحاء فاعلاً في تأدية المعنى؛ لذلك امتزج النص بين التعبير الفني، والسر البلاغي.
- 5- أن الكلمة القرآنية المحذوفة دقيقة الوضع حتى كانت شاهداً في أكثر من موضع.

6- أن الدقة في التعبير، ومراعاة مقتضيات الأحوال المستلزمة للحذف هي المعيار في النص القرآني للحذف والذكر.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم(برواية حفص عن عاصم).

- 1- أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجاً، عبد الغني محمد سعد بركة، مكتبة وهبة، دار غريب للطباعة 1983م.
- 2- أسلوب السخرية في القرآن الكريم، عبد الحليم حنفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987م.
- 3- الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، تونس، مؤسسات عبد الكريم عبد الله ، طبع مصنع الكتب، الشركة التونسية 1980م.
- 4- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط/1/2000م.
- 5- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب 1989م.
- 6- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت دار الفكر(د.ت).
- 7- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، تأليف عبد الرحمن حسن الميداني، دار القلم، دمشق ط/1/1996م.
- 8- التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، تحقيق: علي ممد البجاوي، بيروت، دار الشام للتراث (د.ت).
- 9- التحرير والتنوير(تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد) محمد الطاهر ابن عاشور، تونس، الدار التونسية للنشر 1984م.
- 10- تفسير أبي السعود، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، القاهرة، دار المصحف

(د.ت).

- 11- تفسير النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، بيروت، دار الكتاب العربي 1982م.
- 12- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، بهامش جامع البيان للطبري، بيروت، دار المعرفة 1972م.
- 13- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: عبد السلام هارون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، طبع دار القومية العربية للطباعة.
- 14- جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، بيروت، دار المعرفة 1972م.
- 15- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، محمود صافي، دمشق، بيروت، دار الرشيد 1990م.
- 16- جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي عند العرب، ماهر مهدي هلال، دار الرشيد، بغداد، 1980م.
- 17- شرح التلخيص، أكمل الدين بن محمد البابرتي، تحقيق: محمد مصطفى صوفية، طرابلس، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان 1983م.
- 18- في إعجاز القرآن، دراسة تحليلية لسورة الأنفال المحتوى والبناء، أحمد مختار البرزة، بيروت، دار المأمون للتراث 1988م.
- 19- القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، محمد البستاني، مجمع البحوث الإسلامية 1414ع.
- 20- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: مفيد قميحة، بيروت، دار الباز للطباعة والنشر 1981م.
- 21- كتاب دلائل الإعجاز، لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود شاكر، الناشر مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني بجدة مكتبة الخانجي،

ط/3/1992م.

- 22- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التأويل، محمود عمر الزمخشري(ت 528هـ) رتبه وصححه مصطفى حسين أحمد. الناشر: دار الكتاب العربي.
- 23- لسان العرب، ابن منظور، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة، يوسف خياط، بيروت، دار الجيل 1988م.
- 24- المجيد في إعراب القرآن المجيد، إبراهيم الصفاقسي، تحقيق: موسى محمد زين، طرابلس- كلية الدعوة الإسلامية، ولجنة الحفاظ على التراث 1992م.
- 25- المصطلح النقدي في نقد الشعر، إدريس الناقوري، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط/2/1984م.
- 26- المعجم الأدبي، جبور عبد النور، بيروت، دار العلم للملايين 1979م.
- 27- النكت ، للرمّاني(ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، للرمّاني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر 1968م.

أوضاع مدينة لبدة الكبرى خلال حكم الأسرة السيفيرية

(192 - 235 م)

د. عبد السلام عبد الحميد أبو القاسم¹

المقدمة

الحمد لله رب العالمين , والصلاة والسلام على أشرف المرسلين , سيدنا محمد , وعلى آله وصحبه أجمعين .

لقد ورد ذكر لبدة الكبرى قديما في المصادر الكلاسيكية والأثرية باسم لبنتس ماجنا (*Leptis magna*) ويشير بعض الباحثين إلى أن هذه التسمية مأخوذة من الاسم الذي أطلقته الفينيقيون على المدينة ، وقد وجد ذلك الاسم على العملة الفينيقية والتي تعود للقرن الأول قبل الميلاد ، علاوة على ذلك فقد أطلق عليها الإغريق اسم (نيابوليس) (*Napolic*) كما اطلق عليها الكبرى (ماجنا) *Magna* تمييزا لما بعد لبدة الصغرى في تونس قرب قرطاجة (لبكسمينور) (*Lipcis minor*)

و بشكل عام فإن لبدة الكبرى أسسها الفينيقيون في مطلع القرن السادس قبل الميلاد ثم ازدهرت خلال العصر الروماني منذ القرن الثاني الميلادي ووصلت أوجه عظمتها أثناء حكم الأسرة السيفيرية في مطلع القرن الثالث الميلادي وهي من المدن المشهورة في العالم القديم ويتضح ذلك من خلال أثارها وثرء تاريخها ودورها الحضاري .

¹ - أستاذ التاريخ القديم بكلية الآداب والعلوم مسلاته

وتعتبر السيطرة الرومانية على منطقة شمال إفريقيا بشكل عام بعد القضاء على قرطاجة هي البداية الفعلية للنفوذ الروماني بالمنطقة ، حيث تم تحويل قرطاجة وأقليمها إلى ولاية رومانية ، ونتيجة لأهمية هذه المنطقة اقتصاديا واستراتيجيا أزداد النفوذ الروماني فيها ، وقد وصل هذا التوسع ذروته بالمنطقة خلال حكم الأباطرة تيريوس وتراجان وسبتيميوس سيفيروس ، وبعد أن استطاع سبتيميوس سيفيروس ومن بعده خلفائه السيطرة على الحكم في الإمبراطورية الرومانية ، اهتم هذا الإمبراطور بمدينة لبدة الكبرى حيث وجه إليها عنايته ، ووصلت إلى أعظم ازدهار لها في تاريخها ، إذ أنها شهدت اتساعا لم تشهده في معظم عهودها ، وأكمل خلفائه من بعده ذلك الاهتمام بالمدينة .

ولعل الأهمية التجارية لمدينة لبدة الكبرى ترجع للموقع الجغرافي المهم إذ أنها تقع بين مناطق السلع والبضائع من جهة ومناطق الاستهلاك من جهة أخرى ، وقد نتج عن ذلك ازدهار الحركة التجارية في مدينة لبدة الكبرى خلال تلك الفترة .

كما لعبت القبائل الليبية دورا واضحا ومتميزا في تجارة القوافل خلال العصر الروماني ، ونقل البضائع إلى مدينة لبدة الكبرى ، علاوة على وجود الميناء والسوق المفتوحة (الفورم) بها ، بالإضافة إلى الطرق التجارية الموجودة بين لبدة وبقية مدن الإقليم والتي ساهمت في ازدهار الحركة التجارية بالمنطقة حتى أن المدينة لعبت دور الوسيط الحضاري بين مناطق العالم القديم ، ولعل مدينة لبدة الكبرى بقين مزدهرة كغيرها من مدن الإقليم حتى النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد خلال حكم الأسرة السيفيرية .

ويعطي هذا البحث مجالا جغرافيا وتاريخيا ، حيث يتناول أحداث

تاريخية خلال زمن الأسرة السيفيرية في مدينة لبدة الكبرى ، أما الحدود الزمنية لهذا البحث فتمتد من فترة اعتلاء الإمبراطور سبتيموس عرش الإمبراطورية الرومانية سنة 192م حتى نهاية آخر حكام هذه الأسرة 235م .

أوضاع مدينة لبدة خلال حكم الأسرة السيفيرية :

أولا :الأوضاع السياسية :

لقد نالت لبدة الكبرى اهتماما عظيما في جميع النواحي العسكرية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية حيث اهتم سبتيموس سيفيروس بتنظيم تلك الأمور في إقليم المدن الثلاث وخاصة في مدينة لبدة الكبرى ، كما أعقبت الحملات العسكرية التي قادها الرومان نحو جنوب ليبيا فترة من الهدوء والرخاء استمرت إلى أواخر القرن الثاني للميلاد (1) .

ثم واجه الرومان عدة مشاكل دفعت الإمبراطور سبتيموس سيفيروس إلى البحث عن وسائله لتوفير الحماية للمدن الثلاث وذلك بالوقوف في وجه غارات القبيلتين الليبيتين وهما الجرمانت والنسامونيس ، ولعل ما يؤكد ذلك هو أن الإمبراطور سبتيموس بدأ في بناء الحصون والقلاع على الطرق الرئيسية المتجهة جنوبا بالإضافة إلى أنه وجه حملة عسكرية ضد تلك القبائل أثناء قيامه بزيارة مدينة لبدة الكبرى ، ثم أصبحت لبدة بعد هذه الزيارة معفاة من الضرائب وتستخدم أراضيها ومقراتها البحرية بذاتها (2) .

وقد شيد أهل لبدة قوس النصر على شرف الإمبراطور سبتيموس سيفيروس حيث صور على ذلك القوس مراسم الاستقبال التي أقيمت له أثناء تلك الزيارة ، وأقيم ذلك القوس على الطريق الذي يربط بين المدينة

والميناء وهو يتكون من أربعة واجهات صورت عليها معارك بالإضافة إلى مجموعة من الفرسان وموكب الاستقبال فضلا عن تصوير للحياة الزراعية والفنية وتقديم القرابين (3) .

وقد نتج عن النظام الدفاعي السيفيري بإقليم المدن الثلاث إضعاف السلطة الرومانية بالمنطقة ، وشجع أصحاب المزارع المحصنة في الخط الدفاعي الثاني لمحاولة الاستقلال عن السلطة الرومانية والاتجاه للتحالف مع أبناء عمومته من القبائل الليبية (4) .

واشتملت النظم الدفاعية لتخوم إقليم المدن الثلاث على طرق رئيسية ترتبط ببعضها البعض عن طريق الأبراج والحصون والمحطات داخل المزارع ومناطق التخوم (5) .

ولعل الطريق الممتد بين تاكابي بتونس حتى لبدة الكبرى من أهم الطرق والذي كان مهمته توفير الحماية للمناطق الزراعية خلف المدن الساحلية بإقليم المدن الثلاث وغيرها ، وبشكل عام فإن مناطق إقليم المدن الثلاث لا تخلو من المواقع المحصنة والطرق العسكرية والتجارية، ولإخبار المراكز الحدودية بأي أمر طارئ يظهر بالمنطقة (6).

كما منح الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس مدينة لبدة الكبرى الحقوق الرومانية وتم إعفاء السكان من الضرائب ، حتى أن أهلها أطلقوا عليها اسم سبتيميا، وهو دليل على حصولهم على الامتيازات تلك أثناء حكم سبتيميوس سيفيروس وليس في عهد ابنه كركلا كما أشار البعض (7).

لقد بدأت الأوضاع تسوء في أنحاء الإمبراطورية الرومانية وولاياتها بشكل عام ، ففي إقليم المدن الثلاث قامت بعض القبائل الليبية بهجوم على مدن الإقليم بما فيها مدينة لبدة الكبرى خلال عهد الإمبراطور

سبتيميوس سيفيروس ، واستطاع هذا الإمبراطور الوقوف في وجه ذلك الهجوم حيث قاد حملة عسكرية بنفسه على تلك القبائل ، إذ انه اغتتم الفرصة عند زيارته لمدينة لبدة الكبرى (203 - 204 م) وقام بإرجاع تلك القبائل تحت سلطة الدولة (8) .

ثم اتجه إلى إيجاد وسائل دفاعية تتكون من ثلاثة خطوط دفاعية رئيسية تمتد من حصن تأميني على حافة بحيرة ترينتوس (شط الجريد حالياً) إلى لبدة الكبرى ، ثم تتجه حتى حصن جوليا ومنه إلى منطقة قصر التراب بالقرب من قوريني ، وتمتد الخطوط الدفاعية أكثر من 1000 كم (9) .

لقد استبدل الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس نظم حماية المدن الثلاث والذي كان قائماً على إرسال الحملات العسكرية لصد هجوم القبائل الداخلية عند هجومهم على مدينة لبدة الكبرى وبقية مدن الإقليم بأسلوب ونظام دفاعي جديد وهو نظام التخوم لحماية إقليم المدن الثلاث (10) .

وبذلك فإن الحدود الرومانية جنوب الإقليم بما فيها لبدة الكبرى تتكون من ثلاثة أحزمة تختلف عن بعضها البعض (11) .

وتعتبر مدينة لبدة الكبرى إحدى المناطق التي يشملها الخط الدفاعي الثاني من المزارع الحدودية التي أقامتها الأسرة السيفيرية بليبيا، وهو يمتد من شط الجريد بتونس إلى سبخة تاورغاء بمنطقة سرت الكبيرة ، وهو خط دفاعي خلفي لمدينة صبراته وأويا ولبدة الكبرى (12) .

وكان الهدف منه الوقوف في وجه القبائل الليبية والنوميديين ، فضلا عن توفير الحماية لأهم منطقة زراعية يكثر بها الزيتون وهي منطقة

لبدة الكبرى وضواحيها (13) .

ويشير أحد الباحثين إلى أن هذا الخط الدفاعي تم تأسيسه في عهد الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس ، وأن السبب في تأسيسه هو أن تهديد القبائل الليبية في الداخل بدأ يظهر واضحا ، وبذلك وضعت الأسرة السيفيرية هذا الخط لحماية المدن الثلاث من تلك الهجمات التي يقوم بها قبائل خارجة عن السيطرة الرومانية ، إلا أن الأحوال كانت هادئة عند بداية العمل على تكوين هذا الخط الدفاعي ، والدليل على ذلك وجود المزارع الغير محصنة في المنطقة ما بين لبدة الكبرى ومسفي ، يوجد بتلك المزارع فناء واسع مفتوح (14).

ويضاف إلى ذلك يوجد الخط الدفاعي الثالث الذي يشمل المنطقة التي تربط بين لبدة الكبرى وخليج قابس وتتفرع منه الطرق التي تربط بين معظم مناطق الإقليم ، وبوجه عام فإن الرومان اهتموا بإنشاء وصيانة الطرق إذ أن هذه الطريقة هي الوسيلة الجيدة للتحكم في المناطق الساحلية واستخدموا في البداية طرق القوافل للأهداف العسكرية، وللخدمات البريدية، ونقل التقارير والأوامر الصادرة من الأباطرة الرومان إلى حكام المناطق الأخرى التابعة للإمبراطورية (15) .

كما يوجد طريق ساحلي بين الإسكندرية وقرطاجة يمر بالمدن الثلاث ، والذي وجدت به علامات دالة على هذا الطريق بمنطقة بسيديا (أبوكماش) ومن المرجح أنها أنشئت في زمن الإمبراطور كركلا سنة (216م) (16) .

وهناك طريق ثان مهم يربط بين مدينة تاكباي (قابس) ومدينة لبدة الكبرى ، وهو يعزز نظام الدفاع السويري بإقليم المدن الثلاث (17) .

ثانيا : -الأوضاع الإدارية

على الرغم من وجود سبتيميوس على رأس الإمبراطورية الرومانية إلا أن القبائل الليبية احتفظت باستقلالها في المناطق الجنوبية ، وبذلك احتفظت بحياتها وحريتها بعيدا عن الرومان وتمتعت بحرية الحركة . وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن السكان في إقليم المدن الثلاث لم يتجهوا للراحة ولكن اتجهوا إلى الحرية، وليس إلى الاستقرار الاقتصادي بل إلى الحياة الشريفة والحق وحافظوا على كرامتهم (18) .

ولعل من بين الإصلاحات التي قام بها الإمبراطور سبتيميوس أنه أعلن المساواة بين جميع سكان الولايات ، بالإضافة إلى أنه سمح لمواطني تلك الولايات بعضوية مجلس السناتو ، فأصبح حوالي ثلث مقاعد المجلس يشغلها مشايخ من خارج روما (19) .

ولقد تم توسيع ميناء لبدة الكبرى زمن الأسرة السيفيرية حتى أصبح يضاها ميناء تراجان في مدينة روما في تصدير واستيراد السلع المختلفة كما تعطي الإصلاحات السفيرية لميناء لبدة الكبرى دورا بارزا في الأعمال اليومية ، فضلا عن أنه كان يستوعب عددا كبيرا من العمالة بالمدينة يضاف إلى ذلك فإن مدينة لبدة الكبرى شهدت نشاط عمراني خاص خلال عمل الأسرة السيفيرية نظرا لتوسع النشاط الاقتصادي فيها وقد نتج عن ذلك إنشاء سوق جديد ببلدة لبدة الكبرى تم تخطيطه على الطراز الروماني ومن هنا فإن بعض المؤرخين يعتقدون بأن الإمبراطور سبتيميوس أنشأ سوقا جديدا ببلدة الكبرى وتم توسيع الساحات والشوارع وربطهما بالميناء، وقد حوت على محلات تجارية عديدة ودلت النقوش الموجودة ببلدة الكبرى على أسماء المحاسبين والمكاييل للحبوب والزيت وغيرها ، يضاف إلى الأسواق فقد

اهتمت الأسرة السيفيرية بالحمامات والبازيكا والتي يستخدمها عمال السوق القاريين أو القادمين من البحر أو البر خارج لبدّة الكبرى (20) .

ثالثاً : الضرائب خلال حكم الأسرة السيفيرية:-

لقد مرت مدينة لبدّة الكبرى كغيرها من مدن الإقليم بفترات كبيرة كان الرومان يقومون فيها بجباية الضرائب وبصورة تعسفية ومستمرة من السكان ، وهي ضرائب فادحة تقدر بثلاثة ملايين رطل من الزيت سنوياً في بعض الأحيان ، واستمرت على هذا الحال تم إعفائها من قبل الإمبراطور لمراعاة أوغسطس ، ويعزي البعض هذا الإعفاء إلى القانون الذي أصدره ذلك الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس قدم سكان مدينة لبدّة الكبرى هدية له من الزيت والتي أصبحت فيما بعد ضريبة رسمية ومستمرة على المدينة حتى خلال فترة حكم خلفائه من الأسرة السيفيرية ، إلى أن قام الإمبراطور قسطنطين بإلغائها بعد توليه الحكم (21) .

كما كانت الأراضي القبلية خاضعة لدفع الضرائب ، علاوة على أن هناك ضرائب أخرى على الحيوانات (22) .

وكانت الضرائب يتولى نقلها إلى روما تجار يملكون شركات ونقابات تملك سفناً وسجلت المحطات التجارية في (أوستيا) كثيراً من الأسماء الإفريقية ، وخلال عهد سبتيميوس سيفيروس كان أصحاب السفن قد أجبرهم الرومان على العمل بصفة رسمية وخضعوا لمراقبة الدولة ، وقد تم إعفائهم من الرسوم تشجيعاً لهم ، كما تم إعفائهم من الواجبات البلدية (23) .

وفي سنة 46 قبل الميلاد فرض يوليس قيصر ضريبة باهضة على مدينة لبدّة كغيرها من مدن الإقليم بسبب وقوفها مع بومبي ضد قيصر

وكانت تؤخذ من زيت الزيتون وقد بقيت تلك الضريبة مستمرة حتى أصدر الإمبراطور كركلا قراره بإلغاء الضريبة لفائدة إفريقيا في إقليم المدن الثلاث سنة (216م) وذلك لتورطه في حملة عسكرية ولأنه محتاج للمؤن والرجال من الإقليم ، إلا أن ذلك الإعفاء كان مؤقتاً وذلك حسب الظروف السياسية ، حيث تابع الرومان بعد ذلك تحصيل وجمع تلك الضرائب من السكان (24) .

رابعا :الأوضاع الاقتصادية:-

التجارة :-

شكّلت تجارة القوافل عبر الصحراء مورداً رئيساً للحياة الاقتصادية لمدينة لبدة الكبرى وأويا و صبراته خلال زمن الأسرة السيفيرية ، حيث بقيت تلك التجارة تشجياً كبيراً وذلك لاستتباب الأمن وانتشار شبكة الطرق الرومانية ، بالإضافة لسهولة التسويق في الإمبراطورية الرومانية مترامية الأطراف ، وقد نشطت القوافل التجارية التي تمر بالصحراء ناقلة معها الفيلة والعاج والذهب والرقيق ، متجهة بهم نحو لبدة الكبرى و أويا و صبراته ، وكانت السلع والبضائع لا بد لها أن تمر بأحد مواني المدن الثلاث ، إذ أنها تعد بوابة تدخل عن طريقها تلك السلع والبضائع التي تصدر إلى روما (25).

ولعل الأهمية التجارية لمدينة لبدة الكبرى ترجع للموقع الجغرافي حيث تقع بين مناطق السلع والبضائع من جهة ومناطق الاستهلاك من جهة أخرى ، وقد نتج عن ذلك ازدهار الحركة التجارية بمدينة لبدة الكبرى ، وقد لعبت القبائل الليبية دوراً مهماً في تجارة القوافل خلال العصر الروماني ، وكذلك نقل البضائع إلى مدينة لبدة الكبرى ، كما أن الطرق التجارية الموجودة بين المدينة وبقية مدن الإقليم ساهمت في ازدهار

التجارة بمدينة لبدة الكبرى وبقيت مدينة لبدة الكبرى مزدهرة كغيرها من مدن الإقليم حتى النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي وخلال عهد الإسكندر سيفروس في الفترة ما بين (208-235م) (26). قام بعدة أعمال ساهمت في خدمة الاقتصاد الروماني ، حيث اعترف بهيئة العمال والتجار وخفف عليهم الضرائب (27) .

الزراعة :-

كان نطاق غرس أشجار الزيتون بإقليم المدن الثلاث خلال العصر الروماني قد بلغ ذروته ، ولعل ذلك يرجع إلى وجود رؤوس أموال ضخمة بالإقليم أدت إلى تشجيع زراعة الزيتون وتوسع رقعة الأرض المزروعة بها ، كما توجد مزارع واسعة للزيتون تكسو الجانب الشرقي لمنطقة سهل الجفارة ، بالإضافة إلى انتشار المزارع التي كانت متنوعة الإنتاج والتي هدف الرومان من خلالها إلى الاكتفاء الذاتي وتزويد الأسواق بمختلف المنتجات، ومثلت الزراعة مورداً رئيسياً في إقليم المدن الثلاث خلال العصر الروماني ولعل تحديد الرومان لنوع الضريبة التي كانت تدفعها المدن الثلاث من زيت الزيتون يدل على كثرة أشجار الزيتون في مدينة لبدة الكبرى وضواحيها واهتمام السكان بها فضلاً عن وجود عدد كبير من معاصر الزيتون وهي تدل أيضاً على كثرة الزيتون بالمنطقة (28).

لقد أقام الإسكندر سيفيروس قدامى المحاربين في المناطق الزراعية وذلك للعمل على الإشراف عليها وتسييرها من جهة ومن أجل حماية المدن الساحلية الرومانية من هجمات القبائل الليبية من جهة أخرى (29) .

ولعل من بين المحاصيل الزراعية خلال ذلك العصر القمح في المزارع

غير المحصنة والتي وضحت بعضها المناظر التي ترجع إلى القرن الثالث الميلادي ، ويبدو أن تلك المزارع انتشرت على نطاق واسع على حواف الأودية أو في وسطها ، واعتمد الانتشار الزراعي على تجميع أكبر قدر من المياه خلف السدود التي بناها عبر أودية المنطقة ، بالإضافة إلى الشعير وقد أظهرت الرسوم عملية حصاده مع القمح باستخدام المناجل ، علاوة على ذلك فهناك أنواع أخرى من المحاصيل مثل النخيل والعنب والتين والرمان ، وكل ذلك يوضح مدى الازدهار في المنطقة (30) .

3- الصناعة :-

أما في مجال الصناعة فهناك بعض الأواني الفخارية والمصابيح الرومانية التي تعود للفترة ما بين القرن الميلادي الأول والقرن الميلادي الرابع ، ولعل الصناعة المحلية الوحيدة التي عرفت في ذلك الوقت بين سكان الإقليم هي صناعة الجاروم وهي نوع من الأطعمة التي كانت تستحضر من السمك المملح ، واشتهرت مدينة لبدة الكبرى بهذا النوع من الصناعات أكثر من غيرها من مناطق إقليم المدن الثلاث(31).

كما تم اكتشاف الطين الإفريقي المختوم بأنواع مختلفة من مدينة لبدة الكبرى وبالخصوص خلال زمن الأسرة السيفيرية ، ويشير إلى استمرار إنتاج ذلك الطين حتى عصر الإسكندر سيفيروس(32). علاوة على ذلك وجود الفخار الرمادي المزخرف والرقيق الأملس العادي ، فضلاً عن اكتشاف العديد من المصابيح ، وقد تم إنتاج مصابيح ذات مقبض مقبول خلال القرن الثالث الميلادي في إقليم المدن الثلاث بما في ذلك لبدة الكبرى (33).

ولعل من بين الصناعات التي انتشرت خلال العصر الروماني كذلك عصر الزيوت إذ تؤكد الأدلة الأثرية على انتشار تلك الصناعة ، حيث عُثر على بقايا سبعة عشر معصرة زيتون في مدينة لبدة الكبرى من جهتها الغربية ، وساهم الزيت الذي أنتجته تلك المعاصر في دعم الاقتصاد بإقليم المدن الثلاث لأنه يستخدم في عدة مجالات منها الطعام والاستحمام والإضاءة والتجميل بالإضافة إلى صناعة تلميح السمك (34).

خامساً: الأوضاع الاجتماعية :-

سلك إقليم المدن الثلاث الطريق نفسه الذي سلكته المدن في الولايات الرومانية الأخرى ، حيث قلدت روما في نظمها وشرائعها وجل نواحي حياتها ، والمعتاد أن الفورم (Form) هو مركز الحياة في المدينة وهو عبارة ساحة مرصوفة تحيط بها المعابد الرئيسية والأبنية العامة والحوانيت والمكاتب ، والفورم يقوم بمهمة المركز الاجتماعي ومركز المعلومات وساحة الاجتماعات ، كما كان الناخبون يجتمعون للتصويت و الاستماع للقضاة ، بالإضافة إلى إقامة منابر الخطابة أمام المعابد مثل معبد أغسطس بمدينة لبدة الكبرى (35) . علاوة على وجود القاعات التي يجتمع فيها المجلس البلدي والتي أطلق عليها اسم الكوريا 'CURIA' وكذلك البازيلكا وهي ساحة مسقوفة بها المحاكم وتقام فيها المساومات بين التجار والمحاضرات العامة بين المثقفين ، بالإضافة إلى الحمامات التي تحقق لهم أغراضاً صحية واجتماعية (36) .

كما وجدت لديهم المسارح بمدرجاتها وأقواس النصر و النافورات وذلك باستخدام الرخام الناصع والأعمدة الرخامية ، وهو ما يدل عليه أثار

لبدة الكبرى الرومانية (37) .

ولعل معظم المخلفات الأثرية المكتشفة بمدينة لبدة الكبرى ترجع إلى بداية القرن الأول للميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي، ومن أهمها ذلك التي تم تشييدها خلال زمن الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس بمدينة لبدة الكبرى وهي مسقط رأسه ، وما زالت واضحة المعالم حتى الآن ، مثل البازيلكا والحمامات المطلية على البحر وهي التي عرفت بحمامات الصيد وتقع في نهاية الجزء الشمالي الغربي للبدّة الكبرى وقد تم تأسيسها خلال القرن الثالث للميلاد، بالإضافة إلى وجود المعلب الذي يقع جنوب حلبة السباق ، والذي تقام فيه الألعاب، وتسفك فيه الدماء للرجال الذين يتم إطلاق الأسود والنمور عليهم وهم المحكوم عليهم بالإعدام (38) .

علاوة على ذلك فإن الحمامات الشرقية بلبدة الكبرى لها خصائص العمارة السيفيرية وقد تم إحاقها بالميناء ومرافقه خلال الحكم السيفيري (39).

أما عن الناحية الاجتماعية فإن السكان حافظوا على نمط البداوة ، ولم ينجح الرومان في تغييرهم باستثناء سكان المدن الساحلية ومع ذلك فقد ظل ، معظم السكان محافظين على عاداتهم وتقاليدهم الأصلية ، ومنذ السيطرة الرومانية حدث استخدام اللغتين اللاتينية والفينيقية في وقت واحد ، حيث يتضح ذلك في الكتابات التي ظهرت على المسرح والפורم والمعبد بمدينة لبدة الكبرى ، ويرجع البعض السبب في ذلك إلى الانتشار الواسع للغة الفينيقية بمدن الإقليم وإلى عظمة لبدة الكبرى وأهميتها التجارية والبحرية ، مع ملاحظة أن البعض يشير إلى أن استخدام تلك اللغة كان آخر عهده في زمن الإمبراطور دومتيان ؛ إلا

أنها استمرت في الحياة العامة والمعاملات التجارية ، حتى أن الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس كان يجيد النطق بالفينيقية، وأن أخته لا تجيد سواها (40).

وهذا يوضح لنا الدور الكبير الذي لعبته اللغة والثقافة في التعايش والتمازج الحضاري بين الفينيقين والرومان والليبيين في المنطقة.

سادساً: الأوضاع الدينية :-

لقد اعتقد سكان إقليم المدن الثلاث كغيرهم بوجود قوى عليا لها سلطان وقوة عليهم ، فاتجهوا لنيل رضاها والتقرب منها إما رغبة في الحصول على مساعدتها ونيل الخير منها، أو خوفاً أو رهبة من عقابها وسطوتها، وأمنوا بوجودها مع أنهم لم يروها، وقد استعانوا بها لحمايتهم ودفع الأخطار عنهم فمارسوا عبادة أرواح أسلافهم المؤلهين (41) . كما عبد سكان الإقليم كغيرهم مظاهر الطبيعة ، فقدموا القرابين لها ولعل من بين الآلهة التي عبدها السكان أنداك الآلهة الرومانية الوافدة مثل الإله جويتر ومارس ، ومارسوا عادة تقديم الأضاحي البشرية حتى القرن السادس للميلاد ، فكانوا يضحون بالأطفال على شرف الإله بعل حمون إله طرق القوافل ، وقد ورد اسم هذا الإله في نقش قلعة أبو نجيم التي شيّدت في زمن الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس ، مع ملاحظة بقاء الآلهة الفينيقية بالإقليم مثل بعل و تانيت حتى وقت متأخر من العصر الروماني (42) .

لقد حدث توفيق بين المعتقدات الدينية المختلفة ، فاحتفظت الآلهة الفينيقية الحارسة لمدينة إقليم المدن الثلاث بمكانتها وأهميتها ، وذلك بمساواتها بالآلهة الرومانية المماثلة لها وعبادتها تحت أسماء مشتركة ،

وخير مثال على ذلك استمرارية عبادة الإلهين الحارسين لمدينة لبدّة الكبرى وهما الإلهة عشتارت والإله هرقل (43).

كما تشير الأدلة الأثرية على عبادة الإله القرطاجي بعل حمون في إقليم المدن الثلاث خلال العصر الروماني ، بالإضافة إلى استمرار المعتقدات المصرية في الإقليم خلال حكم الأسرة السيفيرية (44).

الخاتمة

من خلال تتبعنا لموضوع لبدّة الكبرى زمن الأسرة السيفيرية فيما بين 129-235م وفي ضوء ما هو متوفر لدينا حول هذا الموضوع يمكن لنا أن نستنتج الآتي :-

أولاً: لقد عملت الأسرة السيفيرية منذ حكم الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس على الاهتمام بإقليم المدن الثلاث بشكل عام ومدينة لبدّة الكبرى بوجه خاص ، حيث نالت المدينة اهتماماً كبيراً ، ووصلت إلى أعظم درجة من التقدم إذ خصها بالعناية ، وأنشأ فيها المباني الكبيرة ، باعتبارها مسقط رأسه .

ثانياً : اهتم أباطرة الأسرة السيفيرية بالجيش ، باعتباره الركيزة الرئيسة التي قامت عليها دعائم الإمبراطورية ، وخاصة الفرق التي كانت تحمي الحدود الدفاعية لإقليم المدن الثلاث .

ثالثاً : منح المواطنين في لبدّة الكبرى حقوق المواطنة الرومانية أسوة بالمواطنين الرومان ، وإعفاء السكان بالمدينة من دفع الضرائب كغيرهم من المناطق الأخرى في روما .

رابعاً : قامت الأسرة السيفيرية بإنشاء الطرق و الحصون والقلاع على

طول حدود الولاية الرومانية ، وتحصين المدن الساحلية من هجمات القبائل الليبية ، حيث تم توزيع المزارع المحصنة على الجنود المحليين ليشكلوا خطاً دفاعياً يحمي المدن الساحلية الرومانية ، ويقف في وجه القبائل المحلية التي تقطن بالقرب من منطقة المزارع الحدودية .

خامساً : عملت الأسرة السيفيرية على توسيع رقعة الأراضي الزراعية ، ومحاولة رفع الإنتاج الزراعي ، وتحقيق الأمن والاستقرار في منطقة المزارع الحدودية المحصنة وذلك لتأمين طرق القوافل التجارية ، وتبسيط عمليات جمع الضرائب على الموظفين المختصين بجمعها .

سادساً : حاولت الأسرة السيفيرية منع تقدم القبائل الليبية نحو المدن الساحلية وقمعها ، وحماية المزارع المحصنة لتضييق الخناق على القبائل الليبية بالداخل ومنعها من الوصول إلى المناطق الساحلية .

سابعاً : لقد حدث امتزاج ثقافي ولغوي خلال حكم الأسرة السيفيرية بالإقليم وهو يعتبر حلقة الامتزاج الحضاري طيلة فترة السيطرة الرومانية على منطقة ليبيا .

ثامناً : نتج عن عملية التسامح الديني عند الرومان أن حدث امتزاج ديني بين الرومان والليبيين ، وظهرت عبادة مشتركة بين الطرفين كما حدث تعايش سلمي ديني بين الرومان والليبيين خلال حكم الأسرة السيفيرية وغيرها من الرومان ، حيث أعطى الرومان حرية العبادة لسكان المدن الثلاث كغيرهم من الولايات الرومانية في منطقة شمال إفريقيا .

المصادر والمراجع

- أحمد محمد انديشة ، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث ، ط 1 ، دار ليبيا للنشر والتوزيع والاعلان ، مصراته ، 1993م ، ص 85 .
- ، المرجع نفسه ، ص ص 97 - 98 .
- ، المرجع نفسه ، ص 97 .
- عبد اللطيف محمود البرغوثي ، التاريخ الليبي من أقدم العصور حتى الفتح الاسلامي ، منشورات الجامعة الليبية ، دار صادر للنشر ، بيروت 1971م ، ص 362 .
- أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص . ص 220 - 225
- المرجع نفسه ، ص 227 .
- المرجع نفسه ، ص 97 .
- عبد اللطيف محمود البرغوثي مرجع سابق ص 358
- أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ص 197 .
- عبد العزيز جبريل ، لبدة الكبرى ، الإدارة العامة للأثار ، طرابلس ، ليبيا ، 1964م ، ص 29 .
- عبد اللطيف محمود البرغوثي ، مرجع سابق ص 361
- المرجع نفسه ، ص 621 .
- المرجع نفسه ، ص 362 .
- أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص 207
- رشيد الناضوري ، المغرب الكبير . ج1 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981م ص 296
- موسى معمر الريحاني ، النظم الدفاعية في ولايات شمال إفريقيا الرومانية 192 - 430م (رسالة ماجستير غير منشورة) ، جامعة المرقب ، 2005م ، ص 146 .
17. موسى الريحاني ، مرجع سابق ، ص 158 .

- محمد عبد الرزاق المناع ، سبتييموس ، سيفيروس ، ط2 ، مكتبة الفكر ، طرابلس ، 1973م ص 13 .
- عبد الطيف محمود البرغوثي ، مرجع سابق ، ص . ص 426 - 427 .
- موسى معمر الريحاني ، مرجع سابق ، ص 64 .
- المرجع نفسه ، ص 65 .
- احمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص 98.
- احمد محمد انديشة ، الحياة الاجتماعية في المرفئ اللببية وظهرها في ظل السيطرة الرومانية ص 291 .
- طه باقرة ، لبدى الكبرى ، الإدارة العامة للأثار طرابلس ، ص 64 .
- أحمد محمد انديشة ، الحياة الاجتماعية في المرفئ اللببية وظهرها في ظل السيطرة الرومانية ، مرجع سابق ص 293 .
- أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص 182 .
- المرجع نفسه ، ص 183 .
- أحمد محمد انديشة ، المرجع نفسه ، ص 183 .
- عبد اللطيف محمود البرغوثي ، مرجع سابق ، ص 438 .
- أحمد محمد انديشة ، التاريخ السياسي والإقتصادي للمدن الثلاث ، مرجع سابق ، ص 184 .
- ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، ج3 ، مج 3 ، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، ص 333.
- عبد اللطيف محمود البرغوثي ، مرجع سابق ، ص 438 .
- أحمد محمد انديشة ، الحياة الإجتماعية في المرفئ اللببية وظهرها في ظل السيطرة الرومانية ، مرجع سابق ، ص 101 .
- أحمد محمد انديشة ، التاريخ السياسي والإقتصادي للمدن الثلاث، مرجع السابق ، ص 209 - 210 .

- عبد اللطيف محمود البرغوثي ، مرجع سابق ، ص 439 .
- أحمد محمد انديشة ، الحياة الإجتماعية في المرافئ الليبية وظهرها في ظل السيطرة الرومانية، مرجع سابق ، ص 187
- أحمد محمد انديشة ، المرهج نفسه ، ص 188 .
- عبد اللطيف محمود البرغوثي ، مرجع سابق ، ص ص 430 - 431 .
- حسن سليمان محمود ، ليبيا بين الماضي والحاضر ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة 1971م ، ص 81 .
- رمضان أحمد قديدة، (ليبيا في عهد الأسرة السويرية)، مجلد ليبيا في التاريخ ، الجامعة الليبية ، بيروت ، 1968، ص 145 .
- عبد الحفيظ الميار ، (استمرارية اللغة والثقافة الفينيقية في إقليم طرابلس خلال العصر الروماني) مجلة آفاق التاريخية ، 1996م ، ص ص 93 - 94 .
- عبد الحفيظ الميار ، الحضارة الفينيقية في ليبيا ، مركز الجهاد الليبي للدراسات التاريخية ، طرابلس ، 2002م ، ص ص 63-64 .
- عبد الحفيظ الميار ، استمرارية اللغة والثقافة الفينيقية في اقليم طرابلس خلال العصر الروماني ، مرجع سابق ، ص 102 .
- عبد الحفيظ الميار ، الحضارة الفينيقية في ليبيا ، مرجع سابق، ص 343 .

العلاقات الثقافية بين مدينة فاس وبعض أقاليم العالم الإسلامي

448-541هـ/1056-1146م

إعداد: د. فتحية محمد الوداني¹

المقدمة

ملأت مدينة فاس بعد تأسيسها فراغًا حضاريًا في العالم الإسلامي، فكما كان تأسيس القيروان هو الخطوة الأولى في قيام حضارة إفريقية إسلامية، كذلك كان تأسيس مدينة فاس الخطوة الحاسمة في قيام حضارة المغرب الأقصى، حيث أصبحت فاس مركزًا رئيسيًا للثقافة العربية الإسلامية، وعملت على تثبيت مكانتها العلمية الثقافية إلى جانب مراكز العلوم الإسلامية الأخرى⁽²⁾، فتناوبت مع عواصم الشرق الإسلامي حمل راية الحضارة الإسلامية، وكانت فاس مركزًا للإشعاع الفكري الروحي⁽³⁾، فقصدها "الناس من معظم أقطار العالم الإسلامي"⁽⁴⁾، فساعدتها ذلك على الازدهار الثقافي، حتى وصفت من قبل البعض بما نصه: "فليس بالمغرب مدينة أخرى عرفت من توالي الهجرات ما عرفتة مدينة فاس، هجرات داخلية من المدن والقبائل ومن الصحراء وما وراءها، وهجرات خارجية من الأندلس ومن المغربين الأدنى والأوسط ومن المشرق العربي والعجمي"⁽⁵⁾.

ويؤكد الجحوي أن "عوام مدينة فاس أحسن فكرًا وأجود تصورًا من بعض علماء بقية المغرب، بوجود نبراس عظيم يستضيئون به، وهو معهد القرويين الذي طما بحر معارفه فتدفق على منتدياتها ودورها، فقلما تجد مجمعًا لا يوجد فيه عالم يجتمعون عليه ويقتبسون من معلوماته"⁽⁶⁾. يكشف قول الجحوي السابق . مع ما فيه من مبالغة . عن أمور، أهمها

¹ قسم التاريخ كلية الآداب جامعة مصراتة.

⁽²⁾ حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، (دار النهضة العربية، القاهرة، 1989م)، ص 117.

⁽³⁾ محمد بن تاويت ومحمد الصادق: الأدب المغربي، (دار الثقافة، المغرب، ط2، 1978)، ص 57.

⁽⁴⁾ الجزائني: جنى زهر الآس، ط/3، تحقيق: عبد الوهاب بنمنصور، (المطبعة الملكية، الرباط، 1429هـ/2008م)، ص 94.

⁽⁵⁾ محمد حجي: جولات تاريخية، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995م)، ج/2، ص 743.

⁽⁶⁾ التاريخ الفكري والثقافي للقرويين، (مجلة دعوة الحق، مجلة تصدرها وزارة الأوقاف الإسلامية بالمملكة المغربية، الرباط، العدد الخاص عن جامع القرويين، تحت رقم 364، السنة 2002م)، ص 35.

حرص أهالي فاس على العلم، وكثرة علمائهم الذين يؤخذ عنهم، ونشاط الحركة الفكرية في المدينة، وهو ما أهلها لإقامة علاقات ثقافية مع غيرها من مدن العالم الإسلامي، الذي نسعى من خلال هذا الموضوع لتسليط الضوء على تلك العلاقات التي كان لها دور مهم في إثراء الحياة الثقافية في مدينة فاس بشكل خاص، والحضارة الإسلامية بشكل عام.

أولاً/ العوامل المؤثرة في العلاقات الثقافية:

1- موقف الحكام والأمراء من العلماء:

اتبع حكام المرابطين وولاتهم بعد تأسيس الدولة سياسة تشجيع العلم والعلماء⁽¹⁾، فأمر المسلمون يوسف بن تاشفين كان "يقدر الفقهاء والعلماء ويجلهم ويعظم مكانتهم، ويصرف الأمور إليهم، ويأخذ فيها برأيهم، ويقضي على نفسه بفتياهم"⁽²⁾، كما كان مكرماً لهم⁽³⁾. ولم يكن هذا التكرام مقتصرًا على علماء المغرب الأقصى وفقهائهم، بل رحب بكل العلماء وخاصة علماء الأندلس⁽⁴⁾، حيث رحل إلى حضرته عدد كبير منهم ليكونوا في ظله وتحت رعايته⁽⁵⁾، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس⁽¹⁾، وفي عهده ازداد نفوذ

(1) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ط/2، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، (المطبعة الملكية، الرباط، 1420هـ/ 1999م)، ص173؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ط/2، تحقيق: عبد الله القاضي، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ/1995م)، ج/8، ص236-237؛ ابن الخطيب: الاحاطة في أخبار غرناطة، ط/4، تحقيق: محمد عبد الله عنان، (مكتبة الخانجي، القاهرة، 1421هـ/2001م)، مج/4، ص349. السلاوي: الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، ط/2، تحقيق: محمد عثمان، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1432هـ/2007م)، ج/1، ص215.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب في ذكر أخبار الأندلس والمغرب، ط/3، تحقيق: ج.س. كولان وإليفي بروفنسال، (الدار العربية للكتاب، حقوق الطبع والنشر لدار الثقافة، بيروت، 1983م)، ج/4، ص46.

(3) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص173.

(4) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، (مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980م)، ص444-446.

(5) المرجع نفسه.

الفقهاء وسمت مكانتهم، فإليهم يعود الفضل في جوازه إلى الأندلس⁽²⁾، بل لا نبالغ إذا قلنا إنهم يعدون أحد الركائز الأساسية في توطيد حكمه في الأندلس. كتب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى قاضي الجماعة أبي عبد الله بن حمدان (ت508هـ/1114م)، قائلاً له: "قد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تمضيه ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه، ونحن أولاً وكلهم آخره مذ صرت قاضياً، سامعون منك غير معترضين في حق عليك"⁽³⁾، وهذا يؤكد المكانة التي حظي بها الفقهاء في زمن ابن تاشفين.

أما علي بن يوسف بن تاشفين (500-537هـ/1106-1142م) الذي عاش فترة كبيرة من حياته بالأندلس، والياً عليها من قبل أبيه⁽⁴⁾، فقد استهوته الثقافة الأندلسية، فنهل منها⁽⁵⁾، حيث: "كان يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين"⁽⁶⁾، وكان كأبيه محباً للعلماء والفقهاء مقرّباً لهم⁽⁷⁾، فتعاظم نفوذهم في عهده

(1) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، (د.ن، القاهرة، 1963م)، ص144.

(2) نجوى أبو بكر محمد حسن: فقهاء المالكية في الأندلس في عصر المرابطين وأثرهم في الحياة السياسية (رسالة ماجستير، جامعة جنوب الوادي، الجزائر، كلية الآداب 1424هـ/2003م) ص63.

(3) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: سالم مصطفى البديري، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ/1998م)، مج/2، ص160-161، والنص المقتبس من الرسالة ص161. قاضي الجماعة هو: محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدان التغلبي كان حافظاً وأديباً شاعراً لغوياً أصولياً تولى قضاء قرطبة سنة (490هـ/1096م)، وكان من أهل الجزالة والصرامة، وهو من بيت علم ونباهة وفضل وجمالة. انظر: ابن بشكوال: كتاب الصلة ومعه صلة الصلة، تحقيق: شريف أبو العلا العدوي، (مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008م)، مج/2، ص208.

(4) مجهول: الحلل الموشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، (دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979م)، ص84.

(5) حسن علي حسن: المرجع السابق، ص497.

(6) المراكشي: المصدر السابق، ص150.

(7) الأنوري: نهاية الأرب، تحقيق: حسين نصار، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983م)، ج/24، ص273؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ط/1، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، مؤسسة

حتى بلغوا مبلغًا عظيمًا لم يبلغوا مثله من قبل⁽¹⁾. وبلغ تكريمه لهم، أنه كان يخرج بنفسه لزيارتهم، كخروجه لزيارة ابن يلازج (ت540هـ/1145م) أحد فقهاء المالكية⁽²⁾، ولم يزل علي بن يوسف من أول إمرته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك، وقد استعملهم كوزراء وكتاب في عهده⁽³⁾.

وحين ورث تاشفين بن علي (537-539هـ/1142-1144م) الحكم عن أبيه، سار على سياسة سلفه تجاه الفقهاء والعلماء⁽⁴⁾، وسلك طريق ناموس الشريعة ومال إلى طريقة المستقيمين وقراءة كتب المريرين⁽⁵⁾.

لم تقتصر عناية المرابطين بالثقافة والعلماء على أمراء المسلمين منهم، بل امتدت لتشمل أغلب الأمراء من البيت المرابطي، فقد أقبل الأمراء والنبلاء على الثقافة والعلم يقلد كل منهم أمير المسلمين في تشجيعه للعلم والعلماء، واتخذوا الشعراء والأدباء جلساء وقربوا إليهم الفقهاء والعلماء والفلاسفة⁽⁶⁾، إلى جانب تحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم مما يدل على رسوخ إيمانهم وصحة معتقداتهم، ومتين ديانتهم التي كانت ملاكًا لعزهم ومقاما لسلطانهم وملكهم⁽⁷⁾.

الرسالة، (بيروت، 1417هـ/1996م)، ج/20ص124؛ عبد الحي الحنبلي: شذرات الذهب، ط/1، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، (دار ابن كثير، دمشق، 1406هـ/1986م)، مج/2، ج/4، ص115.

(1) المراكشي: المصدر السابق، ص150.

(2) التادلي: التشوف، ط/3، تحقيق: أحمد توفيق، (مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2010م)، ص152.

(3) المراكشي: المصدر السابق، ص151.

(4) نجوى أبو بكر محمد حسن: المرجع السابق، ص71.

(5) ابن عذاري: المصدر السابق، ج/4، ص79.

(6) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، (دار الفكر العربي، القاهرة، 1956م)، ص439.

(7) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخير، ط/5، (دار القلم، بيروت، 1985م)، ج/6، ص105.

ومما يدل على اهتمام ولاية المرابطين بالعلم والثقافة، أنهم كانوا يرسلون في طلب العلماء إلى قصورهم، فيروى أن الفقيه علي بن حرزهم (ت559هـ/1163م) جاء من مدينة فاس إلى مراکش فاستدعاه بعض أمراء صنهاجة للقراءة عليه والأخذ عنه، فدخل عليه أبو الحسن وهو على سريره فجلس أبو الحسن تحته فقال له: أهكذا كنت تفعل مع من كنت تتعلم منه؟ قال له: نعم. فقال له أبو الحسن: انزل إلى مكاني وأكون أنا في مكانك فأجابه الأمير إلى ذلك، فنزل عن سريره وجلس عليه أبو الحسن، فلامه⁽¹⁾.

ينفى ما تقدم عن دور المرابطين في نهضة الحياة الثقافية في فاس ما تردد من ادعاءات ساقها مؤرخو الدولة الموحدية⁽²⁾، وتبعهم في ذلك بعض المستشرقين⁽³⁾، من أن الدولة المرابطية لم تكن سوى دولة عسكرية غلبت عليها روح التزمت التي دفعتها إلى تجاهل القيم الفكرية والأدبية⁽⁴⁾، ربما كان وراء هذه الادعاءات التعصب الديني والمذهبي والسياسي من الموحدين ضد المرابطين، ولعله يرجع أيضاً إلى غياب الكتابة التاريخية الرسمية في الدولة المرابطية⁽⁵⁾.

من المؤكد أن دولة المرابطين لم تكن بطبيعتها البدوية الصحراوية تميل إلى الأخذ بأساليب التمدن، لذلك غلب عليها نهج الفقهاء أكثر من الأدباء والفلاسفة. ومع ذلك فقد

(1)التادلي: المصدر السابق، ص169 .

(2)انظر على سبيل المثال: البيدق، حيث نجد باباً خاصاً في ذكر مثالب المرابطين. كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين (دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971م)، ص86، 90. وكذلك عبد الواحد المراكشي: في كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص154، والشقندي في رسالته التي كتبها في فضل الأندلس، وهاجم فيها يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين، متهماً إياه بالجهل. قائلاً: الذي لولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس في مدحه ما أجزوا له ذكراً، ولا رفعوا لملكه قدراً. انظر: المقري: نفح الطيب، ط/1، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، (دار الفكر، بيروت، 1419هـ/1998م)، ج4، ص27-55.

(3)انظر: مؤلفات دوزي وخاصة كتابه الخاص بتاريخ المسلمين في اسبانيا، Dozy (R): Histoire des des Musulmans d'Esagne, Three vols, leyde, 1932m.

(4)حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص441 .

(5) محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (مكتبة الخانجي: القاهرة، 1996م)، ص438-439.

بدأت الحركة العلمية والأدبية تزدهر منذ عهد الأمير علي بن يوسف بعد أن أخذ المرابطون بنصيب من الحضارة لا بأس به⁽¹⁾، حتى إذا تمكن المغرب من نفسه وامتلاّت مدارسه بالحياة، ووثق في مقدراته وعطائه، بدأ يخرج ألوانًا أندلسية مغربية تفوق ما عرف من الألوان المشرقية في مختلف أنواع المعارف، من علوم القرآن والحديث، والشعر والنثر والفلسفة والطب وغيرها.

2- هجرة العلماء إلى فاس:

نجح المرابطون في الوقوف أمام عرب بني هلال ليحموا المغرب الأوسط والأقصى من شرهم ومنعهم من أن يعيشوا فسادًا كما فعلوا بإفريقية (المغرب الأدنى) من قبل، مما جعل علماء إفريقية يسعون إلى الهجرة إلى بلاد المرابطين الآمنة وضمنها فاس⁽²⁾، وبذلك صان المرابطون تراث الحضارة العربية الإسلامية ويسطوا ظل حمايتهم على العلماء، لتزداد مدارس المغرب الأقصى في كنفهم تفوقًا وتألقًا، حتى قيل أن فاس ومساجدها ورثت تقاليد القيروان وخلفتها في مضمار الثقافة الإسلامية: "فكأن نكبة القيروان قد عملت على تفوق مدارس المغرب الأقصى وبروزها في ميدان الحضارة وتألق نجمها في عالم الثقافة"⁽³⁾.

دخل فاس من علماء القيروان بعد تدمير عرب بني هلال لها الكثير، منهم أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف النحوي (ت513هـ/1119م) التوزري الأصل، المنسوب إلى القيروان، وكان له معرفة بعلم الكلام على منهج الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين، وقد حاول أن يعلمه داخل مساجد فاس، غير أن قاضي فاس منعه من ذلك⁽⁴⁾.

(1) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، (دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1430هـ/2009م)، ج1، ص226.

(2) الحسن السائح: الحضارة المغربية "البداية والاستمرار"، ط2، (منشورات عكاظ، الرباط، 2004م)، ج2، ص63.

(3) المرجع نفسه.

(4) التادلي: المصدر السابق، ص95-101؛ ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، (دار الفكر، لبنان، 1415هـ/1995م)، ج4، ص226؛ ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان (المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م) ص229-304؛ ابن القاضي: جنوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، (دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م)،

ومن علماء القيروان الوافدين على فاس إثر هجمة بني هلال عليها نذكر، الأديب الشاعر أبا الطيب عبد المنعم بن من الله بن أبي بحر الهواري القيرواني (ت493هـ/1099م)⁽¹⁾، ومحمد بن إبراهيم المهدي (ت595هـ/1198م)، صاحب كتاب الهداية⁽²⁾.

يرتبط بالعامل السابق عامل آخر يتمثل في هجرة علماء الأندلس بعد فتنة عصر الطوائف وما شهدته الأندلس من فوضى واضطرابات وعدم استقرار، حيث عجت فاس بكثير من علماء الأندلس الذين استقروا فيها أثناء هذه الفتنة وبعدها⁽³⁾.

ومن علماء الأندلس الذين رحلوا عنها ودخلوا فاس بعد ما شهدته الأندلس من اضطرابات، عالم الحديث يوسف بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عديس الأنصاري الشاطبي، وقد توفى بفاس سنة 505هـ/1111م⁽⁴⁾، واللغوي إبراهيم ابن صواف الحجري الشاطبي (ت506هـ/1112م)⁽⁵⁾، وإمام اللغة العربية محمد بن أحمد بن باق السرقسطي (ت533هـ/1138م)⁽⁶⁾، والفقهاء المحدث محمد بن أحمد ابن إبراهيم بن عيسى بن هشام (ت546هـ/1151م)⁽⁷⁾، والفقهاء المحدث محمد بن أحمد البغدادي الخزرجي (ت546هـ/1151م) من أهل جيان، وقد خرج منها قبل وفاته بسبعة أعوام أي في سنة

ج/2، ص552-553؛ التبتكي: نيل الابتهاج في تطريز الديباج، تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، (منشورات دار الكتاب، طرابلس، 1421هـ/2000م)، ص349-351.

(1) ابن بشكوال: المصدر السابق، مج/1، ص34؛ ابن الأبار: المصدر السابق، ج/2، ص157.

(2) التادلي: المصدر السابق، ص332-334؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص273.

(3) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، (دار النهضة العربية، بيروت، د.ت)، ص259.

(4) الضبي: بغية الملتمس، ط/2، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008م)، ص491.

(5) ابن الأبار: المصدر السابق، ج/1، ص122؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص88.

(6) السيوطي: بغية الوعاه في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل، (مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1964م)، ج/1، ص66.

(7) المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: إحسان عباس، (دار الثقافة، بيروت، 1965م)، السفر الخامس، القسم الأول، ص582-584.

539هـ/1145م، واستقر في فاس⁽¹⁾، وهؤلاء وغيرهم كان لهم دور بارز في إثراء الحياة الثقافية بفاس على نحو ما سنرى.

يتصل بالعاملين السابقين من العوامل التي ساعدت على ازدهار الحياة الثقافية في فاس زمن المرابطين، تدفق المرابطين أنفسهم إلى الأندلس حين هبوا لنجدتها من ملوك النصارى، إذ نتج عن ذلك اختلاط حضارة أقل رقيًا بحضارة مزدهرة، فبدأ المرابطون أصحاب الحضارة الأقل رقيًا في نقل مظاهر حضارة الأندلس المزدهرة، مما كان له بالغ الأثر في تاريخ الحضارة المغربية بشكل عام، والحياة الثقافية في فاس بشكل خاص⁽²⁾.

ثانيًا/ العلاقات الثقافية بين فاس والأندلس: تضافرت عدة عوامل ساعدت على ربط الحياة الثقافية بين الأندلس والمغرب بما في ذلك مدينة فاس في العصر المرابطي أولها: الهجرات العربية التي لعبت دورًا كبيرًا في نقل الثقافة الإسلامية، ثانيها: الرحلات العلمية، وقد تحدث ابن خلدون عن الرحلة حديثًا بليغًا وبين فوائدها، ويرى أن في الرحلة لطلب العلم ولقاء المشيخة "مزيد كمال في التعليم ... والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علمًا وتعليمًا وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقيًا بالمباشرة، وحصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكامًا وأقوى رسوخًا، وعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"⁽³⁾، ثالثها: موقع مدينة مدينة فاس المتوسط بين مدن المغرب الأقصى، فلم يكن أمام أهل العدوتين أية حواجز

(1) ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص263.

(2) ابن عذاري: المصدر السابق، ج/4، ص46-47؛ مجهول: الحلل الموشية، ص63-66؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص343؛ عبد العزيز بن عبد الله: مظاهر الحضارة المغربية (الدار البيضاء، د.ن، 1958م)، ق/1، ص2؛ خليل إبراهيم السامرائي: علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالذول الإسلامية (منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1985م)، ص351؛ حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص428؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ...، ج/1، ص245.

(3) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط/5، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، (نهضة مصر، القاهرة، 2010م)، ج/3، ص1120.

تمنع تدفقهم فرادى أو جماعات من المغرب إلى الأندلس أو العكس، وقد ساعد ضيق الشقة بين العدوتين على عبور كثير من البربر إلى الأندلس⁽¹⁾، بل إنه من العسير أن نجد فترة تاريخية لا تتصل فيها أي من العدوتين بالأخرى⁽²⁾. وهذا ساعد على توافد المغاربة على الأندلس دارسين ومعلمين وأدباء وتجاراً وموظفين وغير ذلك، ولا ريب أن هذه الصلات بدأت من وقت مبكر⁽³⁾.

إن ضم المغرب والأندلس في عهد المرابطين في وحدة سياسية فتح أبواب الهجرات الفردية والجماعية على مصراعيها أمام الجميع، خاصة أن ولاية الأمر من المرابطين كانوا يرحبون بعلماء الأندلس وأدبائها ويغدقون عليهم الهيئات ويتخذون منهم الوزراء والكتاب والقضاة وغير ذلك من مناصب الدولة الأخرى⁽⁴⁾، وكذلك استقبل المرابطون المزارعين والتجار الأندلسيين الذين ما لبثوا أن نشروا أفكاراً اقتصادية جديدة، تمخضت عنها تدريجياً حركة تطويرية طبعت مختلف مظاهر الحياة المغربية في فاس بطابع حضاري جديد لم يكن لأهلها عهد به في مجتمعاتهم واقتصادياتهم⁽⁵⁾، يضاف إلى ذلك هجرة الكثير من الأندلسيين إلى المدن المغربية فراراً من المعارك التي شهدتها الساحة الأندلسية ضد النصارى، لينعموا بالاستقرار والطمأنينة⁽⁶⁾.

(1) الإدريسي نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (مطبعة بريل، ليدن، 1866م)، ص241 وما بعدها. وراجع:

Edmond (B): Berberes et Arabes (Paris , 1942m) p222.

(2) Edmond (B) , Nevill : A Survey , P20 .

(3) إبراهيم حركات : مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م، (دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء، 2000م) ص95 .

(4) محمد عادل عبد العزيز إبراهيم: أثر الأندلس الحضاري على المغرب، (أطروحة دكتوراه، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، 1986م)، ص12.

(5) عبد العزيز بنعبد الله: المرجع السابق، ق/2، ص22 .

(6) حسن علي حسن: المرجع السابق، ص445-446 .

ظهر التأثير الأندلسي على فاس مبكراً في كثير من أنواع الفنون والصناعات التي عرفتها المدينة⁽¹⁾، فقد شاهد أمراء المرابطين المهارة الفائقة التي تميز بها عمال البناء بالأندلس، في مختلف المنشآت من قصور ومساجد وحمامات وغيرها، مما أدى بهم للاستعانة بخبراء البناء بالأندلس ليسهموا في حركة التعمير⁽²⁾، فاستقدموا من قرطبة جملة من صناع وبنائين لإنجاز العديد من المشروعات العمرانية⁽³⁾، من مساجد وفنادق وحمامات وسقايات، كما شيد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في فاس قناطر للمجاز بين العدوتين، استعان فيها ببنائين ومهندسين أندلسيين، وهي قناطر أبي طوبة، وأبي برقوقة على وادي الرصيف، وباب السلسلة والصباعين، وكهف الواقادين والسادسة قنطرة الرميثة⁽⁴⁾، ثم أدار على العدوتين سوراً واحداً، كما استعان الأمير علي بن تاشفين بمهندسين من الأندلس في بناء سور القوارجة التي بين باب الجيسة وباب يصلتين⁽⁵⁾، وكل ذلك جعل بعض المؤرخين يحكمون

(1) عبد العلي الوزاني: الدور الحضاري لمدينة فاس، (مجلة دعوة الحق، تصدرها وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، الرباط، العدد الثاني، السنة السادسة عشر، 1393هـ / 1973م)، ص166.

(2) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ...، ج/1، ص221؛ حسن علي حسن: المرجع السابق، ص377.

(3) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير، (دار النهضة العربية، بيروت، 1981م)، ج/2، ص758-759؛ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ...، ج/1، ص221.

(4) مجهول: رسالة في ذكر من أسس فاس (مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب تحت رقم 9732 ميكروفيلم 10988). قام بنسخ هذا المخطوط عبد السلام الغرابلي الجبلاني، ورقة 54-55؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص49-50. كان من أشهر تلك الزيادات التي تمت في جامع القرويين، والتي تحاكي في محاربيها ما وجد في مسجد قرطبة وغيره من مساجد الأندلس. انظر: مانويل جوميت مورينو: الفن الإسلامي في إسبانيا (ترجمة: لطفي عبد البديع ومحمود عبد العزيز، دم، دت)، ص337.

(5) الجزنائي: المصدر السابق، ص42؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص50.

بأن أروع عهود فاس تلك التي شهدت قيام العلاقات بينها وبين الأندلس على قدم وساق⁽¹⁾. والواقع أن التأثير الأندلسي على فاس يرجع إلى زمن مبكر حين وفدت الكثير من العناصر الأندلسية - كما سبق وذكرنا- إليها حتى سميت إحدى عدوتها باسم الأندلسيين، ومن الصعوبة بمكان أن تتخذ تلك العدة ذلك الاسم لمجرد سكنى الأندلسيين بها، فمن الطبيعي أن يكون الأندلسيون حملوا معهم خبراتهم الحضارية المختلفة زراعية وحرفية وعمرانية وفنية. وقد أكد المؤرخ الفرنسي طيراس، لدى حديثه عن الفن المرابطي، أن معظم الزيادات التي تمت في العصر المرابطي من أروقة في جامع القرويين تمثل روائع الفن الأندلسي المقتبس طبق الأصل من الفن الأندلسي بما كان ينطوي عليه في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي من رقة ورشاقة وروعة زخرفة⁽²⁾.

اتسع نطاق التأثير الأندلسي في فاس مع مطلع القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، حيث بدأ توافد المغاربة عمومًا إلى قرطبة التي شهدت عناية كبيرة من قبل عبد الرحمن الناصر، ثم من نجله الحكم وأخيرًا من العامريين وأعدقت الجريبات والامتيازات على الدارسين والمدرسين مما شجع طلاب العلم والأساتذة المغاربة للرحلة إليها⁽³⁾، لاسيما أن المغاربة، وضمنهم أهل فاس، آمنوا بضرورة الأخذ عن الشيخ مباشرة والجلوس إليه، فلا بد أن يقرأها عليه أو يسمعها منه حتى يعتبر الطالب ثقة في مادته العلمية وحجة في علمه⁽⁴⁾.

تسهب المصادر في الحديث عن أهل فاس الذين وفدوا على الأندلس لينهلوا من دور العلم فيها خلال العصر المرابطي⁽⁵⁾، لاسيما أهل المغرب الأقصى بحكم الجوار أولاً والتبعية

⁽¹⁾ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ ...، ج1 ص221؛ حسن علي حسن: المرجع السابق، ص337؛ عبد العلي الوزاني: المرجع السابق، 166.

⁽²⁾ Terrasse, La reviviscence de L'Acanthe dans l'art hispano-mauresque, sous les Almoravides, al-Andalus vol.XXVI, fasc 2, 1961m, p430.

⁽³⁾ إبراهيم حركات: مدخل إلى تاريخ المغرب ...، ص95.

⁽⁴⁾ محمد عبد الرحيم غنيمة: تاريخ الجامعات الإسلامية، (تطوان، دار الطباعة المغربية، 1953م)، ص212.

⁽⁵⁾ محمد عادل عبد العزيز إبراهيم: المرجع السابق، ص13-14.

السياسية للسلطة المغربية ثانيًا، ناهيك عن حاجة الدولة المرابطية إلى الثقافة التي وجدتتها في الأندلس ولم تجد في غيرها من الجهات الأخرى التي تشملها بنفوذها⁽¹⁾، حتى أن الكثير من قضاة المغرب وعلماءه كانوا ممن تلقوا علومهم في مراكز العلم بالأندلس، ومن بينهم فقيه المرابطين ومنشئ حركتهم عبد الله بن ياسين، الذي وصل إلى الأندلس في عهد دويلات الطوائف ومكث هناك قرابة سبع سنوات، ثم عاد بعدها إلى المغرب⁽²⁾.

تكشف لنا كتب الطبقات عن عدد كبير من أسماء علماء فاس الذين وفدوا على الأندلس ليجلسوا إلى فقهاء وعلمائه وأدبائه وشعرائه ليعودوا إلى بلادهم بذخيرة علمية يستفيدون ويفيدون بها⁽³⁾، ومنهم أبو إسحق إبراهيم بن خلف بن الحسن بن الوليد السلمي (ت537هـ/1142م) الذي دخل الأندلس وسمع من عدد من المشايخ منهم أبو محمد بن عتاب (ت462هـ/1069م)⁽⁴⁾، وأبو علي الصديقي (ت514هـ/1120م)⁽¹⁾ بمرسية سمع منه كتاب "الموطأ" وأجاز له⁽²⁾.

(1) إبراهيم حركات : مدخل إلى تاريخ ...، ص95 .

(2) مجهول : الحل الموسوية، ص20 .

(3) ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخرون، (دار العلم للجميع، بيروت، 1374هـ/1955م)، ص41؛ ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصديقي، ط2/، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008م)، ص62 ؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس "المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا"، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، (منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1403هـ/1983م)، ص102؛ بيوتات فاس الكبرى، (دار المنصور للطباعة والرواقفة، الرباط، 1972م)، ص10 ؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج1، ص84، ج2، ص501، 537 ؛ حسن محمود : المرجع السابق، ص429-430 .

(4) أبو عبد الله محمد بن عتاب (ت462هـ/1069م) قرطبي شيخ المفتين بها، كان من جلة الفقهاء وأحد العلماء الأثبات وممن عُني بسماع الحديث، وتقدم في معرفة الأحكام، حصيف العقل على منهاج السلف المتقدم. انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ط2/، تحقيق: محمد الأحمد أبو النور، (مكتبة دار التراث، القاهرة، 1426هـ/2005م)، ج2، ص189-190.

وممن جاز إلى الأندلس من الفاسيين عيسى بن يوسف بن الملجوم الزهراني (ت543هـ/1148م) وقد دخل الأندلس فلقى بقربة أبا عبد الله بن الطلاع⁽³⁾، وأبا بكر حازم بن محمد وأبا محمد بن عتاب، وغيرهم، ثم دخل الأندلس للمرة الثانية فلقى بإشبيلية أبا عبد الله بن شرين وكتب إليه أبو عبد الله الخولاني وأبو علي ابن سكرة وغيرهما⁽⁴⁾.

ودخل يحيى بن محمد بن يوسف الأزدي (ت544هـ/1149م) الأندلس طالباً للعلم فلقى بالمرية محمد بن موسى بن وضاح⁽⁵⁾، وروى عنه كتاب "تنبيه الغافلين" في الرقائق لابن السمرقندي، ولقى عبد الغفور بن أبي محمد النفزي وروى عنه تأليفه المسمى بـ"الشاهد" في الرقائق، وكان عاكفاً على الطريق الوعظية⁽⁶⁾، أما منصور بن مسلم بن عبدون الزرهوني (ت554هـ/1156م) حيث دخل الأندلس وسمع من أبي علي الصدفي في سنة 511هـ/1117م، "صحيح مسلم" وقرأ عليه "جامع الترمذي"⁽⁷⁾.

وفتحت فاس أبوابها لعلماء الأندلس الذين فروا من المعارك التي شهدتها الأندلس لينعموا بالاستقرار والطمأنينة بعد إزدياد الزحف النصراني⁽⁸⁾، ومن هؤلاء العلماء، محمد بن أحمد

(1) هو: أبو علي حسين بن محمد بن فيرة بن حيون بن سكرة الصدفي، قاضي محدث كثير الرواية. انظر: الزركلي: خير الدين الزركلي: الأعلام، ط5، (دار العلم للملايين، بيروت، 1980م)، ج2، ص255.

(2) ابن الأبار: المعجم، ص62؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج1، ص84.

(3) محمد بن الفرج القرطبي المالكي المعروف بابن الطلاع (ت497هـ/1104م) مفتي الأندلس ومحدثها في عصره. انظر: الزركلي: المرجع السابق، ج6، ص328.

(4) ابن الأحمر: المصدر السابق، ص10؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج2، ص501.

(5) محمد بن موسى بن وضاح بن يزيع (ت286هـ/899م)، نزيل المرية، فقيه محدث توفي سنة 537هـ/1142م). انظر: الضبي: المصدر السابق، ج1، ص77-78.

(6) ابن القاضي: المصدر السابق، ج2، ص537.

(7) ابن الأبار: المعجم...، ص203.

(8) ابن الأبار: التكملة...، ج2، ص20-21؛ المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، والسفر الخامس، القسم الأول، تحقيق: إحسان عباس، (دار الثقافة، بيروت، 1965م)، ص582؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج1، ص263.

بن إبراهيم بن عيسى بن هشام (ت546هـ/1151م) وكان فقيهاً حافظاً عارفاً بأصول الفقه، صنف في مسائل الخلاف "تعليقه" المشهور في سبعة أسفار، وقد نزل بفاس وقعد بغرب جامع القرويين يدرس الفقه، ثم رحل إلى بلده جيان، فجلس بمسجده المنسوب إليه للوعظ والقصاص مدة، ثم عاد إلى مدينة فاس عام 544هـ/1149م، وأقام بها يدرس الفقه وأصوله ومسائل الخلاف إلى أن توفى بها⁽¹⁾.

ومن علماء الأندلس الذين دخلوا فاس أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الله ابن معاذ اللخمي⁽²⁾ المعروف بـ(الفلنقي)⁽³⁾، كان مقرئاً وأديباً وشاعراً، رحل إلى قلعة حماد فقراً بها، ثم استوطن فاس⁽⁴⁾، وصار إماماً في القراءات مشاركاً في علم العربية والأدب مع براعة الخط وجودة الضبط⁽⁵⁾، وقد تصدر للإقراء في مسجد الحوراء إلى أن توفى سنة (553هـ/1138م)⁽⁶⁾، ونزل القاضي السرقسطي محمد ابن حكم بن باق الجذامي (ت533هـ/1138م) مدينة فاس وولى أحكامها وأفتى بها ودرس العربية⁽⁷⁾، وسكن أحمد بن عبد الصمد بن عبيدة القرطبي المولود سنة (519هـ/1125م) غرناطة مدة وبجاية أخرى ثم استوطن مدينة فاس والتزم إسماع الحديث على معانيه، حتى صار من أعلام الدراسة بالقرويين⁽⁸⁾، وقيل إنه قدم فاس والتزم إسماع الحديث والتكلم على معانيه إلى أن

(1) ومن مصنفاته كتاب "أسرار الإيمان". انظر: المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس القسم الأول، ص582، 584.

(2) ابن الأبار: التكملة ...، ج/2، ص20-21.

(3) ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص263.

(4) المصدر نفسه.

(5) ابن الأبار: التكملة ...، ج/2، ص20-21.

(6) ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص263؛ ابن الأبار: التكملة ...، ج/2، ص20-21.

(7) ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص255-256.

(8) له تصانيف ككتابه "أفاق الشمس" و"نفس الصباح في غريب القرآن وناسخه ومنسوخه" و"حسن المرتفق في بيان ماعليه المتفق فيما بعد الفجر وقبل الشفق" وغيرها. انظر: ابن القاضي: المصدر

السابق، ج/1، ص141

توفى سنة 582هـ/1186م⁽¹⁾، ولما دخل أبو بكر ابن العربي الإشبيلي 468-543هـ/1075-1148م مدينة فاس أخذ عنه بها جماعة، وهو الذي له تأليف لا تجهل فضلاً⁽²⁾.

حمل الوافدون الأندلسيون معهم علمهم وأدبهم وفنونهم وصناعاتهم وحرفهم⁽³⁾، حيث كانوا من أنشط عناصر السكان بعد استقرارهم فأسهموا مساهمة فعالة في نهضة حضارة فاس وتعزيز جانبها ورفدها بكثير من ألوان الحضارة المادية والمعنوية⁽⁴⁾.

ثالثاً/ العلاقات بين فاس وبلاد المشرق:

حرص علماء فاس على توثيق علاقاتهم الثقافية مع إخوانهم بالمشرق فكان موسم الحج فرصة للالتقاء وطلب العلم وليس بعده هدف آخر يقصد لذاته⁽⁵⁾. كما أن الغرب الإسلامي كان مضطرباً قبيل قيام الدولة المرابطية اضطراباً شديداً مما أثر سلباً على الحياة العلمية، نتيجة للضغط النصراني الأسباني المنظم على المراكز الإسلامية في الأندلس، وحالة الانقسامات والاضطرابات التي ارتبطت بقيام ملوك الطوائف⁽⁶⁾، وكذلك تعرض القيروان لهجمات العرب الهلالية التي أوقف مدها المرابطون عند المغرب الأوسط⁽⁷⁾، ويؤكد ذلك ابن خلدون بقوله "أن سन्द تعليم العلم قد كان ينقطع عن أهل

(1) روى عن أبي بكر ابن العربي وأبي جعفر بن عبد الرحمن البطروجي، وأبي عبد الله جعفر، وأبي مسعود بن أبي الخصال، وغيرهم. انظر: ابن فرحون: المصدر السابق، ج/1، ص197-198.

(2) ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص260-261؛ ابن مخلوف (محمد بن محمد): شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دم، 1350هـ/1931م)، ص136 وما بعدها.

(3) عبد العلي الوازني: المرجع السابق، ص166.

(4) المرجع نفسه.

(5) بنعيسى بويوران: فضل الحج على العلم في المغرب الإسلامي (بحث ضمن ندوة مكة المكرمة تحت عنوان: فضل الحج على العلم، سنة 1426هـ/2005م)، ص242.

(6) إبراهيم بن محمد الحمد المزيني: رحلات المغاربة إلى المشرق الإسلامي (ضمن ندوة اتحاد المؤرخين العرب بعنوان: بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق، 1418هـ/1997م)، ص338-339.

(7) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص424.

المغرب باختلال عمرانته وتناقص الدول فيه وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها... وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس، واستبحر عمرانها، وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة، ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورها وما كان فيهما من الحضارة، فلما خربنا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً⁽¹⁾. وهذا ما جعل طلاب العلم في المغرب الأقصى بما فيهم طلبة العلم في مدينة فاس يعتمدون الرحلة للمشرق لطلب العلم.

بدأت الرحلات العلمية إلى المشرق في العصر المرابطي مبكرًا، فقد خرج الإمام يحيى بن إبراهيم الجدالي زعيم الدولة المرابطية، للحج وتردد على مجالس العلم، ثم عاد لنشر العلم سعيًا منه للقضاء على الجهل⁽²⁾.

أدرك الفاسيون أنه لا سبيل إلى بلوغ مآربهم من العلم إلا بتوثيق الروابط العلمية مع المشرق منبع رسالة الإسلام⁽³⁾، لأن أهل "المشرق على الجملة". كما يقول ابن خلدون: "أرسخ في صناعة تعليم العلم وفي سائر الصنائع حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب، وأنهم أشد نباهة وأعظم كياسًا بفطرتهم الأولى... لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع"⁽⁴⁾. لذلك لا غرابة أن وجدنا كثيرًا من الفاسيين يسافرون إلى بلاد الحجاز لأداء لأداء فريضة الحج ومن ثم لزيارة الشيوخ والعلماء للاستزادة من العلم أو لدوافع اجتماعية أخرى. بهدف الاغتراب والهروب عن السلطة والعز - حيث كان بعض الفقهاء والعلماء الذين انتهجوا الزهد طريقًا لحياتهم، يسعون للابتعاد عن السلطة والحكم، حين يكلفون بالقضاء أو الكتابة... الخ.

(1) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ج/3، ص926.

(2) بنعيسى بويوران: المرجع السابق، ص243.

(3) إبراهيم حركات: مدخل إلى تاريخ العلوم...، ج/1، ص121.

(4) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ج/3، ص928.

عدّ أهل فاس (خاصة علماءها) طريق الحج فرصة لدراسة الكتب والمؤلفات وعقد الحلقات ومجالس الدرس، ولكن للأسف لم تحظ رحلات علماء فاس بعناية المؤرخين واكتفى أغلبهم بذكر بعض من رحلوا إلى المشرق، ومن أبرز هذه المؤلفات "فتح الطبيب" الذي حفل بالعديد من التراجم بلغت ما يقارب ثلاثمائة ترجمة⁽¹⁾.

رحل إلى بلاد الحجاز من علماء فاس الشيخ الفتح الذي "خرج من فاس إلى مكة وجاور بها أكثر من ثلاثين عامًا ثم رجع إلى فاس وتوفى بها"⁽²⁾، وأبو عبد الله محمد الجزولي من أهل فاس "خرج للحج وأقام بالمشرق مدة أربعين عامًا ينتقل بين مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم رجع إلى فاس وتوفى بها"⁽³⁾، وممن فضل العودة إلى فاس الفقيه عباد بن سرحان (ت 543هـ/1148م) رحل إلى المشرق وحج ولقى بمكة عدد من علمائها سمع وأخذ عنهم، كما دخل إلى بغداد ثم رجع إلى فاس ليتوفى بها⁽⁴⁾، وكذلك الشيخ أبي الحسن علي اللواتي 479-573هـ/1086-1177م، من أهل فاس، كان فقيهاً حافظاً مشاوراً مفنيًا، دخل الأندلس سنة 511هـ/1117م درس اللغة العربية، والحديث وموطأ مالك، لكنه لم يشبع حاجته من طلب العلم مما جعله يتوجه إلى المشرق للحج والاستزادة من العلم ف"ساح في تلك البلاد، وأقام بالطور"⁽⁵⁾، ثم رجع إلى بلاد مصر، وركب القافلة

(1) المقري : ج/2، ص183 وما بعدها .

(2) التميمي: المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق: محمد الشريف، (منشورات كلية الآداب بتطوان، 2002م)، ج/2، ص133. لم تذكر سنة وفاته وإنما ذكر أنه من معاصري الشيخ أبو الحسن علي بن حرزهم (ت 559هـ/1163م).

(3) الذين ترجموا له لم يذكروا سنة وفاته. أنظر: التميمي: المصدر السابق، ج/2، ص202؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص216-217.

(4) ابن القاضي: المصدر السابق، ج/2، ص386.

(5) لا ندري أي الطور يقصد: فالطور في كلام العرب: الجبل ويقال لجميع بلاد الشام الطور، وذكر بعض العلماء أن الطور هو الجبل المشرف على نابلس؛ ولليهود فيه اعتقاد عظيم ويزعمون أن إبراهيم أمر بذبح إسماعيل فيه. وهناك كذلك جبل مطل على طبرية الأردن يسمى الطور، ولكن المرجح في النص حسب ما يرى التميمي، هو جبل الطور الواقع بالقرب من مصر عند موضع يسمى مدين الذي يقول عن ياقوت

ليعود إلى فاس بزا⁽¹⁾، وهناك من الفاسيين الذين فضلوا البقاء والاستقرار في بلاد الحجاز، كأبي الحسن علي بن حمود المكناسي 490-573هـ/1096-1177م، أصله من مدينة فاس وبها ولد، رحل إلى المشرق سنة 512هـ/1118م فحج وروى عن مجموعة من علماءها كل من سنن أبي داود وصحيح البخاري وصحيح مسلم وجامع الترمذي، ثم عاد إلى فاس سنة 518هـ/1124م، ثم دخل الأندلس بنية الجهاد والرباط، وأخيراً عاد إلى المشرق ثانية، وعين إمام المالكية بالحرم الشريف، وهذا دلالة لما وجدوا فيه من علم ودين وخلق، وتوفى بمكة ودفن بالصفاء⁽²⁾.

ومن علماء فاس الذين كان لهم دور في بلاد الشام و القدس، نذكر أبا محمد صالح بن محمد بن عبد الله بن حرزهم (ت أواسط القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي) وقد انقطع مدة ببلاد الشام، لقي فيها الإمام أبا حامد الغزالي ثم عاد إلى فاس، ومات بها. وخلال هذه الرحلة زار بيت المقدس وانقطع بقريّة قريبة منه، فقدمه أهل تلك القرية للصلاة يؤم بهم في مسجد القرية، وهذه دلالة على غزارة علمه وشدة ورعه، ومما يؤكد ذلك أنه عندما كان مقيم في بيت المقدس أقبل عليه الإمام أبو حامد الغزالي في جماعة من تلامذته، فنزلوا في ذلك المسجد، وكان فيه عريش عنب قد ظهر فيه الحصرم، فقال تلامذته: اشتهينا حصرمة، فقال لهم: سلوا إمام المسجد على حبس عنب هذه الشجرة حتى يعلمكم، فسألوه فقال لهم: لا أدري، فأخبروا أبا حامد بذلك، فقال لهم: هذا مغربي له أعوام في هذا المسجد لم يتعرض لهذا العريش ولا عرف خبره، وأنتم من ساعة واحدة لم تملكو أنفسكم⁽³⁾. ونستشف من هذه الرواية أن أبا محمد كان على اتصال مع الإمام

الحموي إنه "لايخلو من الصالحين". أنظر: معجم البلدان، ط/1، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ/1990م)، ج/4، ص46-47؛ التميمي: المصدر السابق، ج/2، ص78.
⁽¹⁾ التميمي: المصدر السابق، ج/2، ص77-78؛ ابن الأبار: التكملة ...، ج/3، ص244.
⁽²⁾ التميمي: المصدر السابق، ج/2، ص103؛ ابن الأبار: التكملة ...، ج/3، ص244-245.
⁽³⁾ التادلي: المصدر السابق، ص94-95؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص358-359؛ الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثه الأكياس فيمن أقيبر من العلماء والصحاء بفاس: تحقيق: عبد الله الكامل الكتاني وآخرون، (دار الثقافة للنشر، الدار البيضاء، 2004م)، ج/3، ص87-89.

الغزالي، وأن قدومه إليه مع طلبته لم يكن بمحض الصدفة، وما سؤاله عن العنب إلا ليبين لطلبته قيمة هذا الفقيه وخلقه.

كما كان لعلماء فاس دور مهم في بلاد الشام، غير طلب العلم تمثل في الدفاع عنها ضد الصليبيين⁽¹⁾، فوافد المغاربة على المشرق استجابة لإرادة شعبية ملحة في المشاركة في الجهاد وتحرير المدن الإسلامية التي يسيطر عليه الصليبيون عمومًا وبيت المقدس على الخصوص⁽²⁾، كالفقيه عبد الله بن أحمد وشون الهذلي (ت529هـ/1134م) كان خطيبًا في جامع الأندلس بفاس، "خرج إلى الحج وجاهد في سبيل الله"⁽³⁾، وذاك ما نتلمسه في ترجمة الشهيد أبي الفضل العباس بن أحمد الذي "رحل إلى مكة واستوطنها ثم خرج إلى الجهاد في بلاد الشام، وتوفى في الغزو سنة 595هـ/1198م"⁽⁴⁾، وهذا دلالة على استمرار دعم الفاسيين لإخوانهم المسلمين في بلاد الشام لرفع راية الإسلام والمسلمين.

ترجع أهمية مصر كمحطة أساسية في تنقل المغاربة ذهابًا وإيابًا إلى موقعها المتوسط بين بلاد المغرب والأقاليم المقدسة الإسلامية في الحجاز، فقد كانت مصر معبرًا ومستقرًا للعديد من أهل فاس، ومن أهم الجهات التي استأثرت بالدارسين والراغبين من أهل فاس في طلب العلم، إذ كان الراحلون ينزلون مدينة الإسكندرية كنقطة وصول القادمين من المغرب، ونقطة استقرار كثير منهم⁽⁵⁾، حيث يلتقون بالعلماء القاطنين فيها، ثم يواصلون رحلتهم بعد ذلك إلى مكة والمدينة، ومنهم من يدرس على علماء البلدين ثم يعود إلى بلاده، ومنهم من طاب له المقام في مصر مدة ثم عاد، فميمون بن ياسين اللمتوني، له

(1) علي أحمد: بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الهجري (مجلة التاريخ العربي، الرباط، العدد 15، سنة 2000م)، ص48-49.

(2) علي أحمد: القدس في نظر المغاربة والأندلسيين خلال العصور الوسطى (مجلة التاريخ العربي، الرباط، العدد 9، سنة 1999م)، ص54-65.

(3) التميمي: المصدر السابق، ج/2، ص207؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج/2، ص419.

(4) التميمي: المصدر السابق، ج/2، ص87؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج/2، ص386-387.

(5) إبراهيم حركات: مدخل إلى تاريخ العلوم...، ج/1، ص125.

رحلة حج درس خلالها الحديث بمكة سنة 498هـ/1103م⁽¹⁾، وأبو جبل يعلى توجه إلى مكة فحج وجاور تسعة أعوام، ثم نهض إلى مصر، فكان يحضر مجلس أبي الفضل الجوهري (ت480هـ/1087م)⁽²⁾، في لفيف الناس لا يعرفه أحد، ثم انصرف إلى فاس، ويذكر التادلي أن أبا جبل تعرض في طريق عودته لحادث سمع به الناس وتحدثوا به . فهرب من الشهرة . وعاد إلى المشرق، فلما وصل مصر دخل جامع عمرو بن العاص وأبو الفضل يتكلم في جمع من الناس فلما رآه ناداه تعال يا أبا جبل: فلما دنا منه اعتنقه وأجلسه بإزائه، فرأى رجلاً قد سد باب المسجد بطوله وعرضه ودنا من أبي الفضل، فساره في أذنه وانصرف، فقال له أبو الفضل: رأيته؟ فقال له أبو جبل: نعم، ولم يره من الحاضرين في المسجد غيرهما، فقال له: ذلك الخضر وقد قال لي: اقرئه مني السلام وبشره بأنه قد لحق بالأبدال، وقال أبو جبل: فلما بشرني بذلك اشتقت إلى أهلي وبلدي فاس فاستأذنته في الرجوع إلى الوطن⁽³⁾، والشيخ أبو يدو يعلى الذي خرج من فاس إلى المشرق لأداء فريضة الحج، فأداها ثم استوطن الإسكندرية حتى توفي بها سنة 577هـ/1181م⁽⁴⁾،

أما محمد بن قاسم التميمي فرحل من فاس إلى المشرق، وأقام هناك خمسة عشر عامًا التقى خلالها بمائة شيخ، وقام بتدريس الموطأ في الإسكندرية⁽⁵⁾، وكذلك هاجر أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هاشم بن الحطيئة اللخمي الفاسي المولود بمدينة فاس سنة 478هـ/1085م بعد أن تلقى العلم بفاس إلى مصر، كان رأسًا في القراءات السبع، خرج

(1) ابن الأبار: التكملة ...، ج/2، ص196-197.

(2) ذكره في الغنية ووسمه بالواعظ، في ترجمة أبي بكر بن عطية الذي صحبه. انظر: القاضي عياض: الغنية "فهرست شيوخ القاضي عياض"، تحقيق: ماهر زهير جرار، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1، 1402هـ/1982م)، ص190-191.

(3) التادلي: المصدر السابق، ص103.

(4) التميمي: المصدر السابق، ج/2، ص46-47؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج/2، ص562.

(5) ابن الأبار: التكملة ...، ج/2، ص161.

إلى الحج وبلاد الشام ثم استوطن مصر في جامع راشدة، واشتغل بنسخ الكتب إلى أن توفي سنة (560هـ/1164م)⁽¹⁾.

رابعاً/ العلاقات الثقافية بين فاس والمغرب الأدنى:

كانت مدينة القيروان دار علم بالمغرب، وإليها ينسب أكابر العلماء، وإليهم يشد الرحال لطلب العلم، ومن المعروف إن ارتباط المغرب وخاصة فاس بالقيروان يبدأ أواخر المائة الهجرية الثانية زمن الإمام إدريس الثاني عندما هاجر إلى مدينة فاس ثلاثمائة بيت من أهل القيروان فأسكنهم الضفة الغربية من المدينة واعتمروها إثر تأسيسها فصارت تنسب إليهم وعرفت باسمهم "عدوة القرويين"⁽²⁾، كما ذكرنا سالفاً. بل إن الجانب العمراني في مدينة فاس خضع ولو جزئياً لذلك الحضور على أساس إسهام البعض منهم في بناء بعض المؤسسات الدينية، ونقصد بذلك أم البنين فاطمة الفهرية التي بنت جامع القرويين، وأختها مريم التي بنت جامع الأندلس، فكان المسجدين من بركة القروانيين في فاس، ويشرح بعض المؤرخون المغاربة أبعاد حضارة هذه الجالية، بأنهم كانوا أهل رفاهية ونجدة في مبانيهم وملابسهم وفرشهم فضلاً عن مطعمهم ومشربهم، وكان أكثرهم صناع وتجار بالإضافة إلى ماكانت تتميز به عدوة القرويين عن عدوة الأندلس من الناحية الاقتصادية⁽³⁾.

وهكذا نتبين أن هؤلاء الوافدين وضعوا اللبنة الأولى لبناء صرح العلاقات الثقافية بين فاس وإفريقية، بينما تجلت هذه العلاقات في الناحية العلمية بالخصوص منذ المائة الهجرية الرابعة، عندما بدأت الرحلة العلمية إلى القيروان للأخذ عن علمائها، غير أن

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، (دار صادر، بيروت، ط1، 1971م)، ج/1، ص152-153؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص116.

(2) المراكشي: المعجب...، ص237؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص57. كما ورد لدى ابن أبي زرع في صفحة أخرى من نفس الكتاب ذكر قدوم خمسمائة فارس من القيسية والأزد ومذحج ويني يحصب والصدف وغيرهم سنة 189هـ. أنظر: ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص35.

(3) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص52-53.

التبادل الثقافي في هذه الفترة بالذات غلبت عليه المواد الإسلامية والفقهاء المالكي بالدرجة الأولى⁽¹⁾.

ومن أبرز علماء الفاسيين الذين قصدوا القيروان طلباً للعلم على سبيل المثال لا الحصر، الفقيه عيسى بن سعادة الفاسي (ت355هـ/965م)، الذي تنازعت الفقهاء والمحدثون عليه بعد وفاته وكلهم يدعيه "ويقول: أنا أحق به"⁽²⁾، وما كان يتكلم في مسألة قط حتى يتقنها⁽³⁾، والفقيه دراس بن إسماعيل، من أهل فاس يكنى أبا ميمونة (ت357هـ/967م)، الذي أخذ عن كثير من علماء المالكية في المشرق⁽⁴⁾، وقرأ كتاب الموطأ بإفريقية على أبي بكر بن اللباد (ت333هـ/944م)، وكان يواظب على حضور مجلسه⁽⁵⁾، وفي طريقه للحج مر بمدينة الإسكندرية وأخذ عن مجموعة من الأئمة بها، منهم علي بن أبي مطر (ت330هـ/941م)، كما رحل إلى الأندلس وأخذ العلم عن فقهاء المالكية فيها⁽⁶⁾، حيث قام دراس برحلة إلى الحج وأخذ فيها عن علماء المالكية⁽⁷⁾، ثم دخل إلى إفريقية ومكث بها مدة ليست بالقصيرة ليواظب فيها الحضور في مجلس أبي بكر بن اللباد (ت333هـ/944م)⁽⁸⁾، وأخذ عنه ولاسيما كتاب الموطأ الذي كان يقرأه عليه. يقول عنه المالكي: "كان ابن ميمونة من الحفاظ المعدودين، والأئمة المبرزين من أهل الفضل

(1) محمد المنوني: ملامح العلاقات الثقافية بين المغرب وتونس (ضمن كتاب مجالس الأئمة في الصلوات العلمية بين المغرب وتونس، جمع وإعداد: محمد بن عزوز، شركة التراث الثقافي المغربي، (الدار البيضاء، دار ابن حزم، بيروت، 1432هـ/2011م)، ص109-110.

(2) القاضي عياض: ترتيب المدارك، تحقيق: علي عمر، (دار الامان، الرباط، 1430هـ/2008م)، ج3، ص298؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج2، ص499.

(3) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج3، ص298؛ ابن بشكوال: المصدر السابق، مج2، ص80.

(4) الجزنائي: المصدر السابق، ص20-21.

(5) القاضي عياض: ترتيب المدارك...، ج3، ص126.

(6) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008م)، ص146.

(7) الجزنائي: المصدر السابق، ص20-21.

(8) القاضي عياض: ترتيب المدارك...، ج3، ص8.

والدين، ولما طرأ إلى القيروان اطلع الناس من حفظه على أمر عظيم، حتى كان يقال: ليس في وقته أحفظ منه، وكان نزوله عند ابن أبي زيد، وبضيف القاضي عياض "أنه حدث بكتاب ابن المواز بالقيروان وسمعه منه ابن أبي زيد"⁽¹⁾.

أما ابن محسود الهواري عبد الله بن محمد الفاسي(401هـ/1010م)⁽²⁾، قاضي مدينة فاس، وأبو مروان عبد الملك الكوري(ت407هـ/1016م)⁽³⁾، فقد كانا من ضمن طلبة أبي أبي زيد القيرواني(ت386هـ/996م) في إفريقية، وقد تميزت علاقته بالطلبة المغاربة من حيث كثرة عددهم، مع استمرارية اتصاله بهم بالمراسلة، مع كثرة الإقبال على دراسة مؤلفاته الفقهية، ذكر ابن الدباغ إنه "تفقه عليه جلة من القرويين والأندلسيين وأهل المغرب..."⁽⁴⁾، إن هذا الارتباط جعل فقهاء المغرب الأقصى بما فيهم فقهاء مدينة فاس فاس يضعون كتابيه "النوادر" و "مختصر المدونة" موضع الاهتمام، حيث استمر تدريسهما إلى أيام الموحدين، وهذا ما أكده القاضي عياض في فقرة قصيرة يقول فيها بعد ذكر التأليفين "وعلى كتابيه هذين المعول بالمغرب في التفقه"⁽⁵⁾، كما أن كتاب "الرسالة" لأبي زيد القيرواني استمرت له الصدارة في المغرب حتى السبعينات الهجرية .

وكان الفقيه موسى بن عيسى بن أبي الحاج العفجومي المعروف بأبي عمران الفاسي(ت430هـ/1038م) ممن رحل من فاس إلى القيروان واستوطنها وصار في عداد مشايخها الكبار، ولد أبو عمران ونشأ في مدينة فاس من بيت "كانوا بين حسب وثروة وفقه وعلم وعدالة"⁽⁶⁾، وكذلك قول عبد الرحمن الفاسي عنهم "تولى القضاء بعضهم بفاس

(1) المصدر نفسه، ج/3، ص125.

(2) ابن القاضي: المصدر السابق، ج/2، ص420.

(3) القاضي عياض: ترتيب المدارك...، ج/3، ص410.

(4) معالم الإيمان تحقيق: عبد المحيد خيالي، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1426هـ/2005م)، ج/3، ص136.

(5) ترتيب المدارك...، ج/3، ص249.

(6) ابن الأحمر: المصدر السابق، ص44-45.

في أيام لمتونة وفي غير فاس من المغرب⁽¹⁾، ولاشك أن أبا عمران أكتسب فن الرواية بالقيروان بالملازمة الطويلة لشيخ القيروان أبي الحسن القابسي⁽²⁾، وغيره، ثم ازدادت قدمه رسوخاً بسماعه من علماء الأندلس، ثم عاد أبو عمران إلى بلده فاس محملاً برصيد علمي عظيم، وكانت قبلته كرسي التدريس بالقرويين تصدر للإقراء بالقرويين، وأقبل على دروسه جمهور الطلاب لما أظهر من تبحر في العلوم، وتوفيق في الإلقاء والتفهيم، كما النف حوله أهل فاس من الخاصة والعامة، وصار مرجعهم في كافة شؤونهم، وموئلهم في المدلهمات، وكان له صبر كبير على الإقراء، وقوة العمل⁽³⁾، ولما شاهد علماء وقته هذا النجاح الذي حصل عليه أبو عمران، وهذه المحبة التي تمتع بها من قبل أهل فاس، غاروا منه وحسدوه، وأخذوا يناوئونه، ويسعون في إداثه سرّاً، فقرر أن يهاجر من بلده ويقصد مدينة القيروان التي سبق أن دخلها ودرس بها وشاهد لطف أهلها⁽⁴⁾، ويذكر ابن الأحمر السبب المباشر لخروج ابو عمران الفاسي من فاس إذ قال: "كان يأمر بالمعروف ويهي عن المنكر، وبسبب ذلك أخرجه من فاس الطغاة من أهلها العاملون عليها لغرابة"⁽⁵⁾، وهناك رواية أخرى تذكر أن أبا عمران أفتى بتبديع جماعة كانوا يجتمعون في مسجد بني بجبل فاس، كان يجتمع فيه أهل الزهد والعبادة فيقرأون القرآن، ويحكون

(1) ذكر بعض مشاهير أهل فاس في القديم، تحقيق: خالد بن أحمد الصقلي ، (د.ن، المغرب ، فاس ، 1428هـ/2007م)، ص26 ترجمة رقم 24.

(2) الذهبي: المصدر السابق، ج/17، ص158-159.

(3) محمد البركة: فقه النوازل على المذهب المالكي "فتاوي أبي عمران الفاسي" (مطبعة أفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، 2010م)، ص19-23.

(4) محمد الفاسي: أبو عمران الفاسي والعلاقات العلمية بين المغرب وتونس (مجلة المناهل ، العدد 17 ، السنة 1980م)، ص152-153.

(5) بيبوتات فاس ، ص44.

حكايات الصالحين، وينشدون الأشعار، فقال أبو عمران: هذه بدعة لم تكن في الزمن الأول، ونهى عن حضوره⁽¹⁾.

وفي القيروان صار أبو عمران زعيم المالكية وشيخ الفتوى بها بعد أبي الحسن القابسي، حتى أصبحت تفد عليه وفود الطلبة من كل صوب، وما يهمننا هنا أن نعلم أن وكاك بن زلو اللمطي كان من ضمن الطلبة الذين وفدوا على الشيخ أبو عمران وأخذوا عنه بالقيروان وأستفادوا من علمه⁽²⁾.

بعد أربعة قرون من سيادة المغرب الأدنى (القيروان) للعلم والعلماء تعرض للهجمة الهلالية في أوائل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي فاندثر حضارته، فهاجر كثير من علماء مدنه إلى المغرب الأقصى الذي كان مستقرًا تحت الحكم المرابطي، لاسيما علماء القيروان الذين كان لدخولهم المغرب الأقصى ومدنه ومنها فاس أثر شديد الوضوح في تنشيط الحياة الثقافية.

من علماء القيروان الذين استقروا في فاس بعد تركهم لمدينتهم، محمد بن داوود (ت525هـ/1130م) وقد تولى قضاء فاس، وكان من أهل العلم والمعرفة والفهم، وله مسائل منثورة وقد حدث⁽³⁾، وهذا دلالة على أن ولاية الأمر من المرابطين كانوا يولون الأصلح فقهاءً وخلقًا وأوفر علمًا دون النظر إلى العصبية التي كانوا يعتمدون عليها في منصب ولاية الأقاليم. وأبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف النحوي (ت513هـ/1119م) التورزي الأصل، المنسوب إلى القيروان، وكان له معرفة بعلم الكلام

⁽¹⁾ذكرها ابن فرحون في الديباج في ترجمة الحارث بن مسكين، ص177. قال: "وهدم مسجدًا كان قد بناه خراساني بين القبور بناحية المقطم في الصحراء وكان يجتمع فيه للقراءة والقصص والتعبير. قال: ويمثل هذا أفتى يحيى بن عمر في كل مسجد بنى نائبًا عن القرية حيث لا يصلى فيه أهل القرية وإنما يصلى فيه من ينتابه، وبذلك أفتى في مسجد السبت في القيروان، ويمثله أفتى أبو عمران في المسجد الذي بني في جبل فاس". أنظر: البرزيلي: فتاوي البرزيلي، تحقيق: محمد الهيلة، (دار الغرب الإسلامي 2004م)، ج2/ص38. عبد الله كنون: ذكر مشاهير رجال المغرب (دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت)، ص9-10.

⁽²⁾التادلي: المصدر السابق، ص66.

⁽³⁾القاضي عياض: الغنية، ص15؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج1، ص255.

على منهج الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين، وقد حاول أن يعلمه داخل مساجد فاس، غير أن قاضي فاس منعه من ذلك⁽¹⁾.

ومن القيروانيين الوافدين على فاس إثر هجمة بني هلال عليها، الأديب الشاعر أبو الطيب عبد المنعم بن منّ الله بن أبي بحر الهواري القيرواني (ت493هـ/1099م)⁽²⁾، ومحمد بن إبراهيم المهدي (ت595هـ/1198م)، صاحب كتاب الهداية⁽³⁾.

خامساً/ العلاقات الثقافية بي فاس ومدن المغرب الأوسط:

كذلك كان لعلماء فاس علاقات وطيدة بعلماء سجلماسة، وكانت الحدود بين البلدين مفتوحة، حتى أن أمير المسلمين المرابطي تاشفين بن علي أمر بإحضار أبي عبد الله الأصم (ت542هـ/1147م) إلى مدينة فاس مع زميله أبي عبد الله الدقاق (ت أواخر القرن السادس وبداية القرن السابع الهجري)، ليعاقبهما على تهمة اتهما بها، ثم لما ظهرت برآتهما خلى سبيلهما وسرحهما، ويبدو أن الأصم طابت له الحياة في فاس، فأقام مدة أخذ فيها عنه جماعة⁽⁴⁾، أما صاحبه أبو عبد الله الدقاق فإنه ظل يتردد على مدينة فاس حتى وفاته⁽⁵⁾. كما دخل أبو اسحق إبراهيم بن خلف بن الحسن بن الوليد السلمي (ت537هـ/1142م) سجلماسة ولقى بها بكار بن زهون ابن الغرديس سنة 493هـ/1099م فسمّع عليه صحيح البخاري عن أبي ذر الهروي⁽⁶⁾.

(1)التادلي: المصدر السابق، ص95-101 ؛ ابن الأبار: التكملة ...، ج/4، ص225 ؛ ابن مريم: المصدر السابق، ص229-304 ؛ التنتبكي: المصدر السابق، ص349-351 ؛ ابن القاضي : المصدر السابق، ج/2، ص552-553.

(2)ابن بشكوال: المصدر السابق، ج/2، ص34 ؛ ابن الأبار: التكملة ...، ج/2، ص157.

(3)التادلي: المصدر السابق، ص332-334 ؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص273.

(4)التادلي: المصدر السابق، ص155 ؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص259 ؛ الكتاني: المصدر السابق، ج/3، ص127.

(5)هكذا وردت في التشوف. انظر: التادلي، ص156 ؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص260.

(6) ابن القاضي: المصدر السابق، ج/1، ص84.

وكان لعلماء مدينة تلمسان حضور في تاريخ مدينة فاس، ومنهم حسن بن إبراهيم بن عبد الله التلمساني المعروف بابن زكون (553هـ/1158م)، كتب بفاس عن عيسى بن يوسف بن الملجوم، وكان له تأليف في الرأي⁽¹⁾.

سادساً/ العلاقات الثقافية بين فاس والسودان الغربي:

تعتبر الرحلة العلمية من السودان الغربي إلى المغرب في العصر الوسيط مظهراً من مظاهر الحضارة الإسلامية⁽²⁾، وثمره لظروف مشجعة في كلا البلدين.. فكانت سبل التواصل ممهدة بينهما، بفعل تواتر التبادل التجاري، الذي كانت مسالكه لا تقتصر على البضائع فحسب، وإنما تنقلت عبرها أيضاً الأخبار والأفكار والرجال، فلم يكن ما يحول دون تردد طلاب العلم من السودان على المغرب، لينهلوا من حياض المعرفة فيه، بل إنه كان أكثر بلدان شمال الصحراء جذباً لهم، بالنظر إلى ارتباطات وطنهم التجارية والروحية والفكرية به.

والجدير بالذكر أن الإسلام عبر الصحراء إلى السودان الغربي عن طريق المغرب وبفضل المغاربة، الذين حملوا إليه المذهب المالكي كذلك⁽³⁾. فكان التأثير المغربي في السودان الغربي أكثر وضوحاً في تقاليده وثقافته، فكانوا يرتدون "عمائم بحنك مثل المغرب... ولبسهم شبيه بلبس المغاربة... وفي الركوب كأنهم من العرب"⁽⁴⁾، وكانت مدارسهم تكاد تكون مغربية قلباً وقالباً حتى في طريقة الكتابة، فالقلم المستخدم هو القلم المغربي، بل المناهج التي تدرس هي نفسها المناهج المغربية، تحتوي الكتب المالكية،

(1) ابن الأبار: التكملة ...، ج/1، ص217.

(2) انظر عن الرحلة العلمية في الإسلام: محمد غنيمه، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، ص 208 - 217.

(3) عبد العزيز العلوي: "تأثيرات بلاد المغرب على حضارة السودان الغربي في العصر الوسيط": "الدين والفكر"، (أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، تخصص تاريخ، كلية الأدب سايس - فاس، 1999م)، الفصلان الثالث والرابع.

(4) انقلقتندي: صبح الأعشى، ط1، (تحقيق: نبيل خالد الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ/1987م)، ج/5، ص287.

مثل كتب القاضي عياض⁽¹⁾، وموطأ الإمام مالك والمدونة الكبرى للفقهاء سحنون⁽²⁾، وغيرها من كتب المالكية⁽³⁾.

فقد ظهرت تعاليم ابن ياسين المالكية في السودان، فعلى الرغم من أن الرحالة ابن بطوطة قد زار هذه المنطقة بعد عصر المرابطين بحوالي قرنين، ومع ذلك تحدث عن مدى مواظبتهم على الصلوات والتزامهم في الجماعات إلى غير ذلك من تعاليم عبد الله بن ياسين⁽⁴⁾.

اعتمد المرابطون على دعائهم في نشر الدين الإسلامي الحنيف، فكان عبد الله بن ياسين يرسل الدعاة بعد تدريبهم في رباطه إلى القبائل المثلثة والزنجية لترغيبهم في الإسلام⁽⁵⁾، وازدادت أهمية هؤلاء الدعاة بعد الفتوحات التي قامت بها الجيوش المرابطية، حيث كان الدعاة يأتون إثر الجيوش لتعليم الناس قواعد دينهم الجديد⁽⁶⁾، وبلغ إجلال الناس لهؤلاء الدعاة أنه لم يكن يعترض طريقهم أحد، رغم العداء القائم بين قبائلهم وإماراتهم، مما نتج من امتزاج بين التقاليد الإسلامية التي نقلها المرابطون والتقاليد الزنجية المحلية أدى بدوره

(1) من كتب القاضي عياض: كتاب "الشفاف"، وكتاب "إكمال المعلم في شرح المسلم"، وكتاب "التبهيات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة"، وكتاب "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك". انظر: أبو عبد الله محمد بن القاضي عياض: التعريف بالقاضي عياض، تحقيق: محمد بنشره، (دن، دت)، ص 116 .

(2) هو أبو سعيد عبد السلام سحنون بن سعيد بن حسيب التتوخي، الملقب بسراج القيروان (ت240هـ/854م). انظر: الدباغ: المصدر السابق، ج/2، ص49، 67؛ ابن فرحون: المصدر السابق، ج/1، ص249، 290.

(3) اللواتي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق: إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ/1981م) .

(4) ابن بطوطة: تحفة النظار "رحلة ابن بطوطة" (دار بيروت ودار النفائس، بيروت 1418هـ/1997م)، ص690-691 .

(5) عصمت عبد اللطيف دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ/1988م)، ص149 .

(6) توماس آنولد: الدعوة الإسلامية، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1390هـ/1970م)، ص391 .

إلى ظهور تقاليد إسلامية زنجية كان لها دور مهم في بناء الحضارة الإسلامية العربية وازدهارها .

انبثقت رابطة دينية وعلمية بين الطرفين، تمثلت على الخصوص في تردد العلماء المغاربة على "بلاد السودان"، ورواج كتبهم ولغتهم بها⁽¹⁾. فلم يكن غريبا - والحالة هذه - أن يرحل طلبة السودان إلى المغرب قصد الدراسة فيه، ومعلوم أن الحركة العلمية عرفت في هذا العصر تطورا ملحوظا، بفعل الاحتكاك مع الأندلس والمشرق، فتعددت مراكزها، وكثر أعلامها، وتبوعت اهتماماتها، الشيء الذي كان عامل استقطاب لطلاب السودان الغربي، الذين كانت بلادهم لا تزال في مرحلة التلقي الفكري، وبالتالي بحاجة إلى نموذج معرفي للنهل منه والافتداء به⁽²⁾.

غير أننا مع الأسف نجهل كل شيء تقريبا عن بداية البعثات الطلابية السودانية إلى المغرب، ودرجة تواترها إليه، وظروف إقامتها به، وانعكاساتها على النشاط الفكري بالسودان الغربي، فلم تحفل الرحلات والكتب الجغرافية بهذا الجانب إطلاقا، مثلما لم تعره الحوليات المغربية أي اهتمام يذكر، وربما يرجع ذلك من أن المغاربة كانوا قادمين من أقاصي بلاد الإسلام، ومازالوا يتلمسون خطواتهم الأولى في الميدان العلمي، وقد انصب اهتمامهم الفكري بما هو مشرقى وأندلسي، وهذا ما نجد أثره واضحا في كتاباتهم، أما كتب التاريخ السودانية، فقد ألقت في وقت متأخر، وانصب اهتماما على التاريخ المحلي⁽³⁾.

وعلى الرغم من ذلك فإننا مدينون إلى المصادر السودانية - وبالتحديد كتاب "تاريخ السودان" - بإفادتين عن رحلات طلاب السودان الغربي إلى معاهد العلم المغربية في العصر الوسيط، غير أن عبد الرحمان السعدي أوردهما بطريقة عرضية في سياق إسهابه في مواضيع أخرى، لهذا لم يحمل نفسه عناء إغنائهما بتفاصيل نحن في أمس الحاجة

(1) توماس أرنولد : المرجع السابق، ص 391-392.

(2) عبد العزيز العلوي: الرحلة العلمية من إمبراطورية مالي إلى فاس في العصر المريني (مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف الإسلامية بالمملكة المغربية، الرباط، العدد 350، السنة 1420هـ/2000م)، ص 90-94.

(3) المرجع نفسه.

إليها. وتعود الإفادتان المذكورتان إلى منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي وبالضبط إلى عهد السلطان المالكي كانكان موسى (707 - 733 هـ/ 1307 - 1332م)، الشيء الذي يتساءل معه الباحث عن واقع الرحلة العلمية السودانية إلى المغرب والعكس قبل هذا التاريخ وبعده. فمن غير المستحيل أن يكون هذا الأخير قد استقبل طلاب السودان قبل هذه الفترة، بالنظر إلى أن الإسلام انتشر في بلادهم منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ومن ثم قد تكون الرغبة في التحصيل العلمي اختمرت فيها قبل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وربما كان العصر المرابطي إيذاناً ببداية التدفق الطلابي السوداني على المغرب، بتزامن مع توسع رقعة الإسلام بجنوب الصحراء⁽¹⁾.

يعود تميز الثقافة المغربية عن غيرها من الثقافات الإسلامية في هذا العصر، إلى تلقحها بالثقافة الأندلسية، فظهرت خلاله مراكز فكرية بعدد من المدن الغربية مثل فاس وسبتة وسجلماسة ومراكش، وكانت هذه المدن في مستوى الاستجابة لرغبات السودان في التعلم والتحصيل، ومثل هذه القرائن هي التي دفعت بعض الباحثين إلى الاعتقاد بوجود حالات سابقة لتلك الوفود الطلابية التي ذكرها عبد الرحمان السعدي.

فقد ذهب إبراهيم حركات إلى "أن القرويين استقبلت منذ القرن الثالث عشر (الميلادي) أعدادا كبيرة من طلاب "بورنو وكانم". كما ذهب زملاء لهم إلى كل من القاهرة وتونس"⁽²⁾. ويقدر "J. Cuq" من جهته، أن مثل هذه الأسفار العلمية لا تثير الاستغراب، لأن عرب وبربر "ولاتة" و"تنبكت" كانوا يتوجهون إلى مدينة فاس للدراسة في القرويين قبل عهد

⁽¹⁾ محمود كعت: "تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس"، ترجمة وتحقيق هوداي ودولافوس، (باريس، ميزوناف، 1981)؛ السعدي (عبد الرحمان)، تاريخ السودان، ترجمة وتحقيق هوداس وبنوة، (باريس، ميزوناف، 1981م)؛ مجهول، تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، نشرة هوداس، (باريس، 1901م). هي مصادر كتبت على التوالي خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر الميلادي، وتجمع بين التاريخ الحديث وتراجم العلماء والحكام.

⁽²⁾ طبعة العلاقات المغربية مع إفريقيا الغربية في العصر الوسيط (مجلة دعوة الحق، العدد 269، أبريل - ماي 1988م)، ص 189.

"كانكان موسى". ويضيف بأن، الصلات الفكرية والدينية بين صفتي الصحراء تزامنت مع العلاقات التجارية وتبادل السفارات ويختم بالقول: "إذا كانت طريق التعبد توصل (السودان) إلى مكة، فإن طريق العلم والفكر تقود إلى المغرب، حيث كان السودان يشعرون بأنهم غير أجانب، مقارنة مع المشرق"⁽¹⁾.

نستخلص مما سبق: كان الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي واهتمام المرابطين وولاتهم بالعلم والثقافة وهجرة العلماء إلى فاس، لتسهم في نهضة الثقافة في فاس في عصر المرابطين، إذ وفرت لها مقومات جعلتها حاضرة من حواضر العالم الإسلامي فكثرت فيها مراكز العلم والتعليم، تلك التي كان لها معلموها وطلابها ومناهجها.

أن فاس خلال العصر المرابطي لم تعش بمعزل عن العالم الخارجي، بل كانت لها علاقات ثقافية وطيدة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وكل ذلك كان يحدث من خلال رحلات العلماء منها وإليها وسواء كان أصحاب هذه الرحلات فاسيين أو أندلسيين أو قيروانيين أو تلمسانيين أو غير ذلك.

كشفت الدراسة أن فاس لعبت دوراً مهماً في نشر الثقافة الإسلامية في المغرب، حيث كان لها أثرها الثقافي في المنطقة المحيطة بها، وكذلك المناطق الإفريقية والأندلسية والمشرقية التي تتصل بها بعلاقة ما من العلاقات عبر تاريخها، وباتت مركزاً رئيسياً للثقافة العربية الإسلامية لها مكانتها إلى جانب مراكز العلوم الإسلامية الأخرى، وأن العصر المرابطي كان بالنسبة لمدينة فاس الانطلاقة لحياة ثقافية شع نورها فيما بعد وكان له أثر مهم في حياة الأمة الإسلامية.

⁽¹⁾Cuoq (J.), histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest des origines à la fin de 16ème siècle. Paris. Geuthner, 1984. pp. 108 – 109. Voir aussi : Konale (D). Les relations culturelles entre Fès et le Mali du 14ème au 16ème siècle. In Fès et l'Afrique : Relations économiques culturelles et spirituelles. Casablanca. Institut des études africaines de Rabat et la faculté des lettres et des sciences humaines. Saïx-Fès.1995, p49.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر المخطوطة:

مجهول: رسالة في ذكر من أسس فاس (مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب تحت رقم 9732 ميكروفيلم 10988). قام بنسخ هذا المخطوط عبد السلام الغرابلي الجبلاني.

ثانياً: المصادر المطبوعة:

ابن الأبار: (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي ت 658هـ/1260م): التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، (دار الفكر، لبنان، 1415هـ/1995م).

_____ : المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 2008م).

أبو عبد الله محمد بن القاضي عياض: التعريف بالقاضي عياض، ط/2، تحقيق: محمد بنشريفه، (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة المحمدية، المملكة المغربية، 1982م).

ابن أبي زرع: (أبو الحسن علي الفاسي ت 741هـ/1340م): روض القرطاس، ط/2، تحقيق: عبد الوهاب بنمنصور، (المطبعة الملكية، الرباط، 1420هـ/1999م).

ابن الأثير: (أبو الحسن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ت 630هـ/1232م): الكامل في التاريخ، ط/2، تحقيق: عبد الله القاضي، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ/1995م).

10- ابن الأحمر: (إسماعيل ابن الأحمر ت 807هـ/1404م): بيوتات فاس الكبرى، (دار المنصور للطباعة والرواق، الرباط، 1972م).

11- الإدريسي: (الشريف محمد بن عبد العزيز ت 560هـ/1164م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (مطبعة بريل، ليدن، 1866م).

12- البرزيلي: فتاوي البرزيلي، تحقيق: محمد الهيلة، (دار الغرب الإسلامي 2004م).

13- ابن بسام: (أبو الحسن علي ت 542هـ/1147م): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: سالم مصطفى البدري، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ/1998م).

- 14- ابن بشكوال: (أبو القاسم خلف بن عبد الملك ت578هـ/1182م): كتاب الصلة ومعه صلة الصلة، تحقيق: شريف أبو العلا العدوي، (مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008م).
- 15- ابن بطوطة: (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي 779هـ/1377م): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار "رحلة ابن بطوطة"، (دار بيروت ودار النفائس، بيروت 1418هـ/1997م).
- 16- البيدق: (أبو بكر بن علي الصنهاجي متوفى في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي): أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، (دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971م).
- 17- التادلي: (أبو يعقوب بن يوسف بن يحيى ابن الزيات ت617هـ/1220م): التشوف إلى رجال التصوف، ط/3، تحقيق: أحمد توفيق، (مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2010م).
- 18- التليدي عبد الله: المطرب في مشاهير أولياء المغرب (د.ن، طنجة ، 1987م).
- 19- التميمي: (أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفاسي ت603-604هـ/1206-1207م): المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق: محمد الشريف، (منشورات كلية الآداب بتطوان، 2002م).
- 20- التتبكتي: (أحمد بابا ت1036هـ/1626م): نيل الابتهاج في تطريز الديباج، تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، (منشورات دار الكتاب، طرابلس، 1421هـ/2000م).
- 21- الجزنائي: (علي الجزنائي، من أهل القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي): جنى زهر الآس، ط/3، تحقيق: عبد الوهاب بنمنصور، (المطبعة الملكية، الرباط، 1429هـ/2008م).
- 22- الحنبلي: (عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري ت1089هـ/1678م): شذرات الذهب ط/1، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط ومحمود الأرنؤوط، (دار ابن كثير، دمشق، 1406هـ/1986م).

- 23- ابن الخطيب: الاحاطة في أخبار غرناطة، ط/4، تحقيق: محمد عبد الله عنان، (مكتبة الخانجي، القاهرة، 1421هـ/2001م).
- 24- ابن خلدون: (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ت808هـ/1405م): مقدمة ابن خلدون، ط/5، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، (نهضة مصر، القاهرة، 2010م).
- 25- _____: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط/5، (دار القلم، بيروت، 1985م).
- 26- ابن خلكان: (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد ت681هـ/1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ط/1، تحقيق: إحسان عباس، (دار صادر، بيروت، 1971م).
- 27- خير الدين الزركلي: الأعلام، ط/5، (دار العلم للملايين، بيروت، 1980م).
- الدباغ، معالم الإيمان، تحقيق: عبد المجيد خيالي، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1426هـ/2005م).
- ابن دحية: (أبو الخطاب عمر بن حسن ت633هـ/1235م): المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: أ.إبراهيم الأبياري وآخرون، (دار العلم للجميع، بيروت، 1374هـ/1955م).
- الذهبي: (محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ت748هـ/1347م): سير أعلام النبلاء، ط/1، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، (مؤسسة الرساله، بيروت، 1417هـ/1996م).
- 31- السعدي (عبد الرحمان)، تاريخ السودان، ترجمة وتحقيق هوداس وبنوة، (باريس، ميزوناف، 1981م).
- السلوي: (أحمد بن خالد الناصري ت1315هـ/1897م): الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، ط/2، تحقيق: محمد عثمان، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1432هـ/2007م).
- 33- السيوطي: بغية الوعاه في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل، (مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1964م).
- 34- الضبي: بغية الملتمس، ط/2، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2008م).

- 35- عبد الرحمن الفاسي: ذكر بعض مشاهير أهل فاس في القديم، تحقيق: خالد بن أحمد الصقلي ، (المغرب ، فاس ، 1428هـ/2007م).
- 36- ابن عذاري: (المراكشي ت695هـ/1295م): البيان المغرب في ذكر أخبار الأندلس والمغرب، ط/3، تحقيق: ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، (الدار العربية للكتاب حقوق الطبع والنشر لدار الثقافة، بيروت، 1983م).
- 37- _____: البيان المغرب "قسم الموحدين" ط/1، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، (دار الثقافة، الدار البيضاء، 1406هـ/1985م).
- 38- ابن فرحون: (إبراهيم بن علي اليعمري ت799هـ/1396م): الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ط/2، تحقيق: محمد الأحمد أبو النور، (مكتبة دار التراث، القاهرة، 1426هـ/2005م).
- 39- ابن الفرضي: (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي الحافظ ت403هـ/1012م) تاريخ علماء الأندلس، ط/2، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008م).
- 40- القاضي عياض: (عياض بن موسى اليحصبي السبتي 544هـ/1149م): الغنية "فهرست شيوخ القاضي عياض"، ط/1، تحقيق: ماهر زهير جرار، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1402هـ/1982م).
- 41- _____: ترتيب المدارك، تحقيق: علي عمر، (دار الامان، الرباط ، 1430هـ/2009م).
- 42- ابن القاضي: (أبو العباس أحمد بن محمد ت1025هـ/1616م): جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، (دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م).
- 43- القلقشندي: (أحمد بن علي ت820هـ/1417م): صبح الأعشى، ط/1، تحقيق: نبيل خالد الخطيب، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ/1987م).
- 44- الكتاني: (محمد بن جعفر ت1345هـ/1927م): سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس

- فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس: تحقيق: عبد الله الكامل الكتاني وآخرون، دار الثقافة للنشر، الدار البيضاء، 2004م.
- 45-مارمول: (كرفخال متوفى في أواخر القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي): إفريقيا، ترجمة: محمد حجي وآخرون، (مكتبة المعارف، الرباط، 1408-1409هـ/1988-1989م).
- 46-مجهول: (المؤلف مجهول من كتاب القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي): الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، (دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979م).
- مجهول، تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، (نشرة هوداس، باريس، 1901م).
- 48-محمود كعت: "تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس"، ترجمة وتحقيق هوداي ودولافوس، (باريس، ميزوناف، 1981م).
- 49-ابن مخلوف (محمد بن محمد): شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دم، 1350هـ/1931م)
- 50- المراكشي: (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري ت703هـ/1303م): الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: محمد بن شريفة، (دار الثقافة، بيروت، د.ت، السفر الأول، والسفر الثامن. والسفر الرابع، والسفر الخامس، والسفر السادس، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1965م).
- 51-المراكشي: (عبد الواحد ت 647هـ/1249م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، (دن، القاهرة، 1963م).
- 52-ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان (المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م).
- 53-المقري: (شهاب الدين أحمد المقري التلمساني ت1041هـ/1631م): فح الطيب، ط/1، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، (دار الفكر، بيروت، 1419هـ/1998م).
- 54-النباهي: (أبو الحسن بن عبد الله النباهي المالقي الأندلسي، كان حياً سنة

793هـ/1390م): تاريخ قضاة الأندلس "المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا"، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، (منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1403هـ/1983م).

55-النويري: (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت732هـ/1332م): نهاية الأرب في فنون الأدب تحقيق: حسين نصار، (الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1983م).

56-الولاتي: (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق أبي عبد الله محمد ت1219هـ/1804م): فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور (تحقيق: إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ/1981م).

57-ياقوت الحموي: (شهاب الدين أبو عبد الله ت626هـ/1229م): معجم البلدان، ط/1، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ/1990م).

ثالثاً/ المراجع العربية والمعربة:

1-آرنولد، توماس: الدعوة الإسلامية، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1390هـ/1970م) .

2-البركة، محمد: فقه النوازل على المذهب المالكي "قتاوي أبي عمران الفاسي" (مطبوعة أفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، 2010م).

3-بنعبد الله، عبد العزيز: مظاهر الحضارة المغربية (الدار البيضاء، دن، 1958م).

4-ابن تاويت، محمد بن و الصادق، محمد: الأدب المغربي ط/2، (دار الثقافة، المغرب، 1978م).

5-حجي، محمد: جولات تاريخية (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995م).

6-حركات: المغرب عبر التاريخ، (دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1430هـ/2009م).

7-____، إبراهيم: مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م (دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000م).

- 8- حسن، علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، (مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980م).
- 9- دندش، عصمت عبد اللطيف: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ/1988م).
- 10- السائح، الحسن: الحضارة المغربية "البداية والاستمرار"، ط/2، (منشوات عكاظ، الرباط، 2004م).
- 11- سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب الكبير، (دار النهضة العربية، بيروت، 1981م).
- 12- السامرائي، خليل إبراهيم: علاقات المرابطين بالممالك الإسبانية بالأندلس وبالذول الإسلامية (منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1985م).
- 13- العبادي، أحمد مختار: في تاريخ المغرب والأندلس، (دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.).
- عنان، محمد عبد الله: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (مكتبة الخانجي: القاهرة، 1996م).
- 15- غنيمة، محمد عبد الرحيم: تاريخ الجامعات الإسلامية، تطوان، (دار الطباعة المغربية، 1953م).
- 16- كنون، عبد الله: ذكر مشاهير رجال المغرب (دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت.).
- 17- محمود، حسن أحمد: قيام دولة المرابطين، (دار الفكر العربي، القاهرة، 1956م).
- 18- المنوني، محمد: ملامح العلاقات الثقافية بين المغرب وتونس (ضمن كتاب مجالس الأئس في الصلات العلمية بين المغرب وتونس، جمع وإعداد: د.محمد بن عزوز، شركة التراث الثقافي المغربي، (الدار البيضاء، دار بن حزم، بيروت، 1432هـ/2011م).
- 19- مورينو، مانويل جوميت: الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة: لطفي عبد البديع ومحمود عبد العزيز، (دم، د.ت.).
- 20- مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس (دار النهضة العربية، القاهرة، 1989م).

رابعاً/ الأبحاث والمقالات:

1- أحمد، علي: القدس في نظر المغاربة والأندلسيين خلال العصور الوسطى (مجلة التاريخ العربي، الرباط، العدد 9، سنة 1999م).

_____ : بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الهجري (مجلة التاريخ العربي، الرباط، العدد 15، سنة 2000م).

بويوران، بنعيسى: فضل الحج على العلم في المغرب الإسلامي (بحث ضمن ندوة في مكة المكرمة تحت عنوان: فضل الحج على العلم، سنة (1426هـ/2005م).

الجوي، محمد: التاريخ الفكري والثقافي للقرويين (مجلة دعوة الحق، مجلة تصدرها وزارة الأوقاف الإسلامية بالمملكة المغربية، الرباط، العدد الخاص عن جامع القرويين، تحت رقم 364، السنة 2002م.

حركات، إبراهيم: طبيعة العلاقات المغربية مع إفريقيا الغربية في العصر الوسيط (مجلة دعوة الحق، العدد 269، أبريل - ماي 1988م).

العلوي، عبد العزيز: الرحلة العلمية من إمبراطورية مالي إلى فاس في العصر المريني (مجلة دعوة الحق، تصدرها وزارة الأوقاف الإسلامية بالمملكة المغربية، الرباط، العدد 350، السنة 1420هـ/2000م).

الفاصي، محمد : أبو عمران الفاسي والعلاقات العلمية بين المغرب وتونس (مجلة المناهل ، العدد 17 ، السنة 1980 م).

المزني، إبراهيم بن محمد الحمد: رحلات المغاربة إلى المشرق الإسلامي (ضمن ندوة اتحاد المؤرخين العرب بعنوان: بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق، 1418هـ/1997م).

الوزاني، عبد العلي: الدور الحضاري لمدينة فاس، (مجلة دعوة الحق، تصدرها وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، الرباط، العدد الثاني، السنة السادسة عشر، 1393هـ/1973م).

خامساً/ الرسائل العلمية غير المنشورة:

1- إبراهيم، محمد عادل عبد العزيز: أثر الأندلس الحضاري على المغرب (رسالة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، 1406هـ/1986م).

2- حسن، نجوى أبو بكر محمد: فقهاء المالكية في الأندلس في عصر المرابطين وأثرهم في الحياة السياسية (رسالة ماجستير، جامعة جنوب الوادي، كلية الآداب

1424هـ/2003م).

3-العلوي، عبد العزيز: "تأثيرات بلاد المغرب على حضارة السودان الغربي في العصر الوسيط": "الدين والفكر"، (أطروحة دكتوراه، تخصص تاريخ، كلية الأدب سايس - فاس، 1999م).

سادسًا: المراجع الأجنبية:

- 1-Cuoq (J): Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest des origines à la fin de 16ème siècle. Paris. Geuthner, 1984m.
- 2-Dozy (R): Histoire des Musulmans d'Esagne, Three vols, leyde, 1932m.
- 3-Edmond (B): Berberes et Arabes, Paris , 1942m.
- 4-Konale (D): Les relations culturelles entre Fès et le Mali du 14ème au 16 ème siècle, Casablanca. Institut des études africaines de Rabat et la faculté des lettres et des sciences humaines. Saix - Fès. 1995m.
- 5-Terrasse (H): La reviviscence de L'Acanthe dans l'art hispano-mauresque, sous les ALmoravides, al-Andalus vol.XXVI, fasc 2, 1961m.

العلاقات المكانية الصناعية لمنطقة مصراته

د. ابتسام عبدالسلام كشيبي

مقدمة:

مواقع النشاط الصناعي عنصر مهم في النظام الصناعي، فموقع النشاط الصناعي يؤثر في قدرته على المنافسة وفي ازدهاره في المستقبل، ولذلك فمن المهم أن يختار مالك المصنع المكان بعناية فائقة⁽¹⁾.

ومن الأسس المهمة للصناعات التحويلية تلك الصناعات التي تغير أو تحول شكل أحد المواد الخام أو بعضها من صورتها الخام الطبيعية إلى صور أخرى أكثر تطوراً تتفق واحتياجات الإنسان المختلفة، والمواد الخام قد تكون زراعية كقصب السكر والمطاط والألياف النباتية وخاصة القطن، أو حيوانية كالجلود والصوف، أو مائية كالأسمك، أو نباتية كالأخشاب، أو معدنية كمعظم الموارد المعدنية، أو سلع نصف مصنعة كالحديد الزهر وغزل القطن، والسكر الخام، أو سلع تامة الصنع كالأحماض والكيماويات⁽²⁾.

مشكلة البحث:

تعد الصناعة مهمة على مستوى الصعيدين المحلي والدولي، ومن هنا تظهر بعض الإشكالات كالاتي:

- 1) ما مدى التباين الإقليمي الصناعي في منطقة الدراسة من حيث النوع والكم؟
- 2) ما مدى مساهمة الصناعة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية داخل مصراته.

(1) راجيش شاندر، تعريب محمد محمود عمار، التصنيع والتنمية في العالم الثالث، مكتبة النهضة المصرية، 1994، ص 79.

(2) محمد خميس الزوكة، جغرافية المعادن والصناعة، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، 1988، ص 655.

فرضية البحث:

وجود تباين مكاني في توزيع الصناعة كماً ونوعاً في منطقة الدراسة وذلك في ضوء تأثيرها بالعوامل الجغرافية الطبيعية والبشرية.

أهداف البحث:

- 1) إبراز دور الصناعة في مصراته كأحد الأنشطة الاقتصادية وتوضيح مساهمتها في رفع اقتصاديات المنطقة بصورة خاصة، والدول بصورة عامة.
- 2) الكشف عن العلاقات القائمة بين المنطقة وما يجاورها من مناطق بسبب التوطن الصناعي فيها.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في الآتي:

- 1) استخدام الأساليب الكمية والمعتمدة على التحليلات الإحصائية في معرفة العلاقات المكانية في منطقة مصراته.
- 2) توضيح دور الصناعة في تنمية وتطوير منطقة مصراته.

مجالات البحث:

يختص المجال المكاني بالمكان الذي تقع عليه منطقة مصراته عند التقاء دائرة عرض 23 ° 32 شمالاً وخط طول 6 ° 15 شرقاً بمساحة تقدر بحوالي 2770 كم²، والتي تضم مختلف العمال سواء كانوا مقيمين داخل مصراته أو وافدين إليها من خارج المدينة.

والمجال الزمني هو المجال المتمثل في الفترة التي استغرقها البحث عام 2015. أما المجال البشري فيتمثل في أعداد العمال العاملين في القطاع الصناعي في منطقة مصراته سواء كانوا مقيمين داخل مصراته أو وافدين إليها من خارج المدينة.

الأساليب المستخدمة في البحث:

- 1) الأسلوب الكمي: طلباً لدقة النتائج ودعمًا في الصناعة للإثبات والبرهان معتمداً على استخدام معاملات التحليل الإحصائي.
- 2) الأسلوب الكارتوغرافي: ويتمثل هذا الأسلوب بوضع خريطة تبرز موقع منطقة مصراته بالنسبة لليبيا.
- 3) الأسلوب الحاسوبي: حيث يتم استخدام عدة برامج حاسوبية في التحليل العلمي لعناصر الصناعة بمنطقة البحث.
- 4) الدراسة الميدانية: نظراً لأهميتها في موضوع البحث، حيث أنها تحقق عامل الصدق من المعلومات التي تم جمعها وإضافة المزيد من المعلومات الجديدة والحديثة.

الدراسات السابقة عن الصناعة في ليبيا:

هناك بعض الدراسات التي تناولت الصناعة بصفة عامة ومن أهمها هذه

الدراسات:

- 1) دراسة قنوص وآخرون والتي تم فيها النظر إلى مدى التحويلات التي أحدثتها الثورة الصناعية في ليبيا موضحين العديد من المصانع والتي ساهمت في تقدم البلاد نحو الأفضل⁽¹⁾.
- 2) وتعرض المهدي في كتابه إلى التوطن والهيكل الصناعي في ليبيا، وتوزيع المنشآت الصناعية تحديد مواقعها، وأهم خصائصها والمشتغلين بها، استنبط في بحثه أن أهم مناطق التركيز السكاني في البلاد تتمتع بوجود صناعات مختلفة مما ساعد على الهجرة في تلك المناطق⁽²⁾.

(1) صبحي قنوص وآخرون، ليبيا الثورة في عشرين عاماً، التمويلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، بنغازي، 1989، ص160.

(2) محمد المبروك المهدي، جغرافية ليبيا البشرية، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، مطابع الثورة للطباعة والنشر، بنغازي، 1975، ص185.

3) تناول الحشاني في دراسته عن التصحر في المنطقة الممتدة من مصراته إلى الخمس، تناول تاريخ المنطقة ولمحة جغرافية عنها، ثم تطرق إلى النمو السكاني وكثافته والتوزيع الجغرافي للمستوطنات البشرية في المنطقة، وبين أثر كل من العوامل الجغرافية في عملية التصحر، فتوصل إلى أن النمو السكاني والزحف الحضري والتوسع الصناعي على حساب الأراضي الزراعية، أدى إلى ظهور دلائل التصحر في أرجاء الإقليم⁽¹⁾.

حركة المواد الخام إلى منطقة الدراسة:

يمكن تقسم الصناعة على أساس المواد الخام إلى نوعين:

الأول: صناعات تعتمد في مدخلاتها على مواد خام طبيعية كالمعادن والصخور، وكالخامات الزراعية والنباتية والحيوانية بمختلف أنواعها، أما النوع الثاني فيشمل تلك الصناعات التي تعتمد في مدخلاتها على مخرجات صناعات أخرى، حيث إنها تعتمد على مواد مصنعة ونصف مصنعة تعتبر مواد خام لها⁽²⁾.

ويوجد في منطقة مصراته صناعات تعتمد على مواد خام أولية مباشرة كصناعة طحن الغلال، وصناعة الحديد والصلب، وصناعة الرخام، أما الصناعات الأخرى فهي تعتمد على المواد المصنعة سواء من داخل البلاد أو من خارجها مثل صناعة الألبان، وصناعة الخبز والمكرونات وصناعة الأحذية والتي تعتمد على مصانع أخرى في توفير المادة الأولية الداخلة في صناعتها⁽³⁾.

(1) عبد السلام محمد الحشاني، التصحر التديم والرجوعية في المنطقة الساحلية مصراته - الخمس (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة ناصر، كلية الآداب والعلوم، زليتن، 2000.

(2) إسماعيل مصباح الزاوية، الأنماط المكانية لمواقع الأنشطة الصناعية في منطقة زليتن، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المرقب، قسم الجغرافيا، 2005، ص127.

(3) من نتائج الدراسة الميدانية 2010.

وتقام بعض الصناعات بالقرب من المادة الخام الأولية، والبعض منها تختار الأسواق مكان لإنشاء مصانعها وذلك لسرعة تلاف المادة المصنعة، وفيما يلي عرض لبعض الصناعات، ومدى تأثيرها بقرب المادة الخام أو بعدها عنها⁽¹⁾:

أ - المواقع الصناعية والمادة الخام وأماكن وجودها:

يجب معرفة المادة الخام ودرجة ارتباطها بالمواقع الصناعية من خلال معرفة المسافات التي تفصل بينهما، كما هو موضح بالجدول التالي:

جدول (1) المسافة بين المواقع الصناعية والمادة الخام

المسافة	أقل من 5 كم %	من 5- 19 كم %	20- 49 كم %	50- 100 كم %	أكثر من 100 كم %
صناعات القطاع العام	12	14.8	4	12	57.2
صناعات القطاع الخاص	20	47.2	10	18	4.8
نسبة الإجمالي العام	16	31	7	15	31

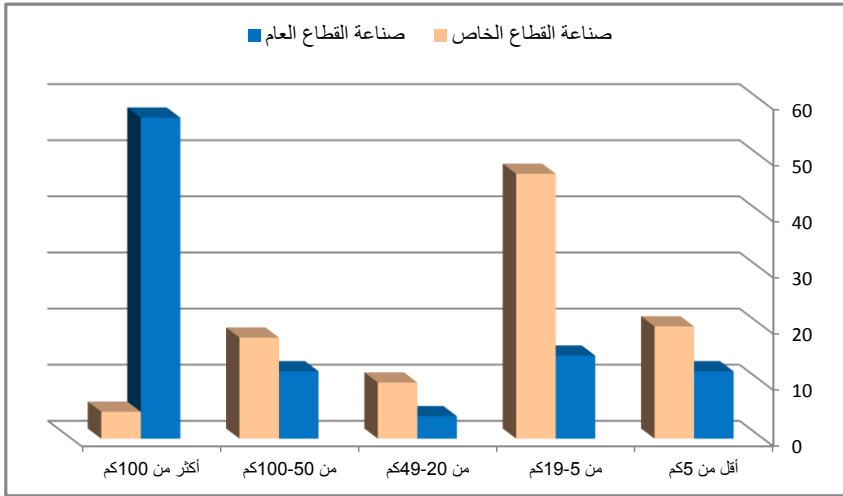
المصدر نتائج الدراسة الميدانية 2015.

ويتضح من تحليل الجدول السابق والشكل (3) أن ما نسبته (16%) من جملة الصناعات في منطقة مصراته اتخذت لها مواقع أقل من (5كم) عن المواد الخام، في حين إن الصناعات التي اتخذت لها مواقع ما بين (5-19كم) بلغت نسبتها (31%) من جملة الصناعات في المنطقة، وتتمثل أغلب هذه الصناعات من القطاع الخاص والذي يظهر ارتباطاً بالمكان، وذلك لأن معظم صناعات القطاع الخاص يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأماكن المادة الخام، فقد بلغ نسبتها (31%) من جملة الصناعات في المنطقة، وهي

(1) إسماعيل مصباح الزاوية، الأنماط المكانية... مرجع سبق ذكره.

الصناعات التي لا ترتبط مباشرةً بأمكان تواجد المادة الخام، ومن أهم هذه الصناعات هي صناعة الحديد والصلب والذي يعتمد على بعض المحاجر الموجودة على بعد 100 كم من مكان إقامته وهو محجر السدادة، كذلك يعتمد على استيراد الحديد الخام مثل صناعة طحن الغلال، وصناعة الرخام، كذلك صناعة الأحذية.

شكل (3) المسافة بين المواقع الصناعية والمادة الخام



المصدر: من إعداد الباحثة بالاعتماد على الجدول السابق.

ب - المواقع الصناعية وتوفر المادة الخام داخل مصراته وخارجها:

هناك العديد من الصناعات المرتبطة بمواقع تواجد المادة الخام والتي تكون قريبة منها، وهناك بعض من الصناعات التي تعتمد على توفير خاماتها في مناطق بعيدة من منطقة الدراسة، أما البعض الآخر فهو يعتمد على استيراد المادة الخام من خارج البلاد لعدم توفرها داخل البلاد، والجدول التالي يوضح مدى بعض الصناعات بمناطق مواد الخام.

جدول (2) المادة الخام وأماكن توافرها داخل وخارج مصراته

المسافة	مصراته %	زليتين %	بني وليد %	داخل البلاد %	خارج البلاد %
صناعات القطاع العام	24	12	-	12	52
صناعات القطاع الخاص	69.6	12.8	4	5.2	8.4
الإجمالي	46.8	12.4	2	8.6	30.2

المصدر نتائج الدراسة الميدانية 2015.

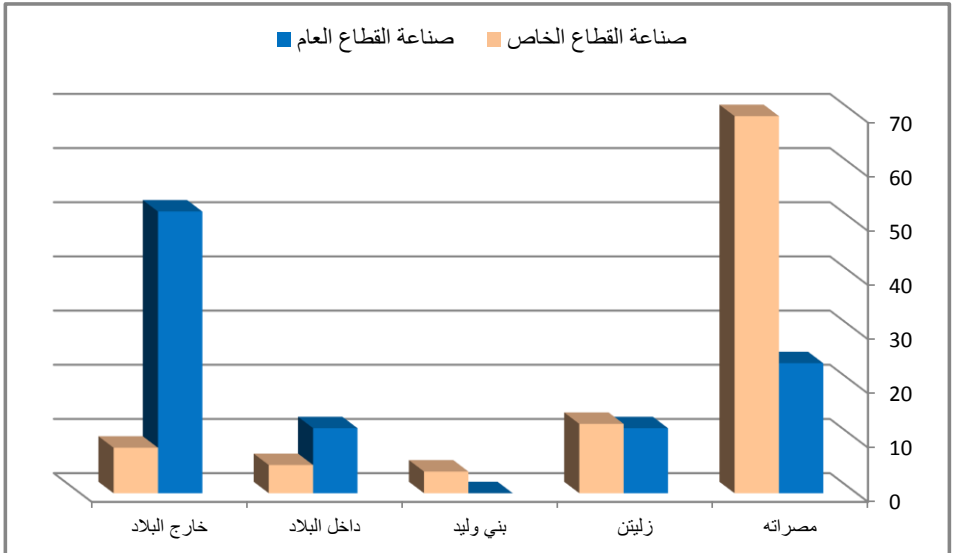
يتبين من تحليل الجدول السابق والشكل (4) أن نسبة (48.8%) من جملة المادة الخام في منطقة الدراسة تعتمد على مواد خام داخل منطقة مصراته والمتمثلة في صناعة منتجات الألبان، والمعتمدة على مشروع تربية الأبقار، كما هو الحال في صناعة الغزل والنسيج والمعتمدة على الصوف الخام داخل المدينة، بالإضافة إلى صناعة المخلات والمعتمدة على ما يتم إنتاجه من المزارع المجاورة، كذلك بعض الصناعات البسيطة والتي تعتمد على مخلفات مجمع الحديد والصلب، بينما بعض الصناعات تعتمد على مواد خام من مدينة زليتين والتي تبلغ نسبتها (12.4%) والمتمثلة في بعض مواد البناء كما هو الحال في مصانع الطوب الإسمنتي^(*) والتي تعتمد بدرجة كبيرة على مصنع الإسمنت القائم في منطقة زليتين، أما بني وليد فهي لا تتعدى (2%) من جملة المادة الخام في منطقة الدراسة، ويرجع السبب إلى استجلاب بعض الصوف منها والداخل في صناعة الغزل والنسيج، أيضاً هناك انخفاض في نسبة المادة الخام القادمة من باقي أنحاء البلاد حيث بلغت (8.6%) من جملة المادة الخام الداخلة في الصناعة والمتمثلة في بعض الصناعات المعدنية وبعض من الصناعات الغذائية مثل: صناعة المكرونة والتي تعتمد على استجلاب بعض من المواد الأولية لاستكمال صناعتها، أما ما نسبته (30.2%) حيث تعتمد عليها صناعات القطاع العام أكثر من الخاص في استيراد المواد الخام من الخارج.

(*) مصانع الطوب الإسمنتي هي المصانع التي تقوم بإنتاج الحجر الذي يدخل في البناء.

ويتبين أن صناعة القطاع العام تعتمد على أكثر من النصف في استيراد المادة الخام من الخارج أي بنسبة (52%) من جملة المادة الخام الداخلة في الصناعات، يتم الاعتماد على مدينة مصراته نفسها في المادة الخام بنسبة (24%)، وفي زليتن فإن (12%) فقط يتم استجلاب منها المادة الخام، وأيضاً بنفس النسبة في الصناعات التي تجلب المادة الخام من داخل البلاد.

وتعتمد صناعات القطاع الخاص بدرجة كبيرة على خدمات موجودة داخل مصراته، حيث تصل إلى ما نسبته (69.6%) من صناعات القطاع الخاص، حيث تضم هذه الصناعات بعض من الصناعات الغذائية وصناعة الغزل والنسيج، وتعتمد صناعات القطاع الخاص بنسبة (12.8%) على زليتن في مادتها الخام، أما (4%) فإنها تأتي من بني وليد، وتتمثل في بعض الأصواف الداخلة في صناعة الغزل والنسيج، وكذلك تعتمد صناعات القطاع العام (5.2%) على مواد خام في أنحاء متفرقة من البلاد، وما نسبته (8.4%) يأتي من خارج البلاد.

شكل (4) أماكن توفر المادة الخام بالنسبة لمنطقة مصراته



المصدر: من إعداد الباحثة بالاعتماد على الجدول السابق.

2 - المواقع الصناعية ومدى تأثيرها بعمليات النقل:

يعد قطاع النقل أحد القطاعات الاقتصادية المهمة حيث يقوم بدور رئيس وفاعل في دفع عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وتطوير باقي قطاعات الإنتاج وقطاعات الخدمات، فتنمية الأراضي الزراعية وتسويق حاصلاتها وتنمية الصناعات القائمة وخلق صناعات جديدة، وإمكانية استثمار المعادن وتنمية التجمعات السكانية، كل ذلك يتوقف إلى حد بعيد على مدى توفر خدمات النقل وكفاءة تشغيلها بالإضافة إلى دورها الفاعل في إنجاح المخططات والبرامج الصحية والتعليمية وأهميتها في نشر الثقافة والوعي بين المواطنين وتحسين ظروفهم المعيشية⁽¹⁾، وفيما يلي استعراض بعض العمليات التي تتأثر بها عمليات النقل في منطقة مصراته:

أ - وسائل النقل التي تستخدم لنقل المادة الخام:

تعد وسائل النقل من أهم عمليات توطن الصناعة في منطقة ما، وبما أن منطقة الدراسة يوجد بها العديد من وسائل النقل، وتعتمد أغلب المصانع الموجودة في مصراته على الصعيدين العام والخاص، على شاحنات جلب المادة الخام من أماكن تواجدها سواءً من الميناء أو من مدن مجاورة، كذلك تبين من خلال الزيارات الميدانية أن بعض المصانع تمتلك شاحنات خاصة، وتقوم بعض المصانع الأخرى باستئجارها لغرض جلب المواد الأولية، وهذا ما يبينه الجدول التالي:

(1) اللجنة الشعبية العامة للمرافق، إقليم طرابلس، مخطط التطوير، مصراته، المخطط الشامل،

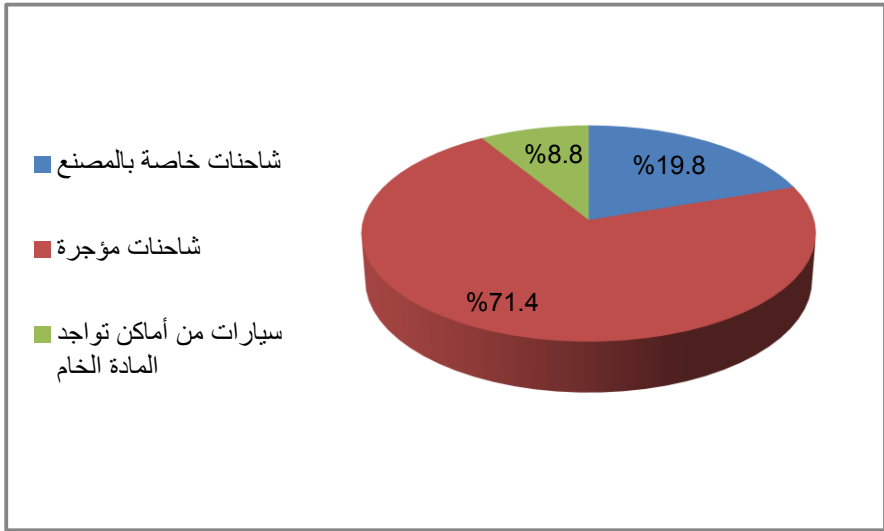
جدول (3)

نوع وسيلة النقل المستعملة في جلب المادة الخام من أماكن تواجدها إلى المصانع

قطاع	وسيلة النقل	شاحنات خاصة بالمصنع %	شاحنات مؤجرة %	سيارات من أماكن تواجد المادة الخام %
صناعات القطاع العام		18.4	69.2	12.4
صناعات القطاع الخاص		21.2	73.6	5.2
الإجمالي		19.8	71.4	8.8

المصدر: نتائج الدراسة الميدانية 2015.

شكل (5) وسائل النقل المستعملة في جلب المادة الخام للمصانع



المصدر: من إعداد الباحثة بالاعتماد على معطيات الجدول (3).

يتضح من خلال تحليل الجدول والشكل السابقين أن نسبة الشاحنات المؤجرة تحظى بأعلى نسبة في القطاع العام والخاص بنسبة (69.2%، 73.6%) على التوالي أي أن أغلب الصناعات تعتمد بشكل كبير على الشاحنات المؤجرة، ونسبة (19.8%) من الصناعات التي تعتمد على شاحنات خاصة بها، أما الشاحنات التي تكون مجهزة من

قبل معدي المادة الخام فقد بلغت نسبتها (8.8%).

ب - وسائل النقل الخاصة بالتسويق:

تختلف وسائل النقل التي تقوم بتسويق المنتجات من صناعة إلى أخرى، ومن مصنع إلى آخر كلاً حسب إمكانياته، كذلك هناك اختلاف في نسب استعمال وسائل النقل بين القطاعين العام والخاص ويتضح ذلك من خلال الجدول التالي:

جدول (4) وسائل النقل الخاصة بالتسويق

قطاع	وسيلة النقل	شاحنات خاصة بالمصنع %	شاحنات مؤجرة %	سيارات من أماكن تواجد المادة الخام %
صناعات القطاع العام		12.4	54	33.6
صناعات القطاع الخاص		37.2	14	48.8
الإجمالي		24.8	34	41.2

المصدر: من اعتماد الباحثة بالاعتماد على نتائج الدراسة الميدانية 2015.

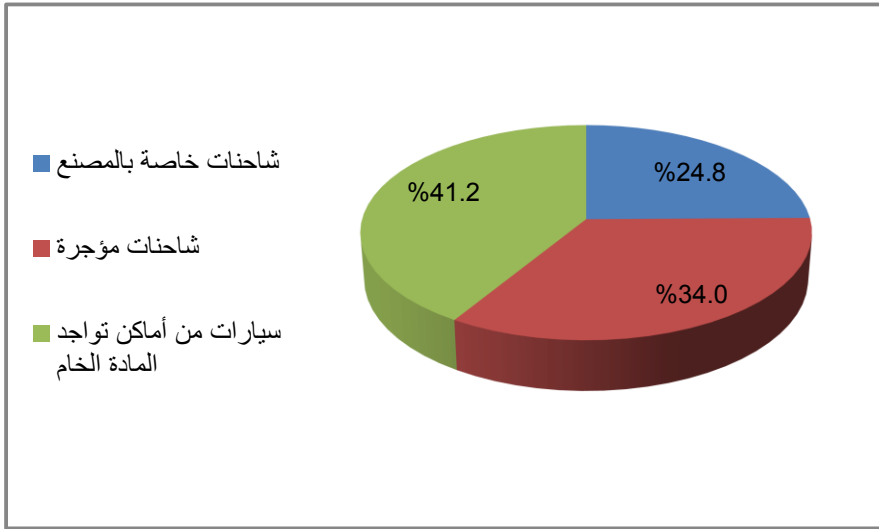
يتضح من خلال الجدول السابق والشكل رقم (6) أن المصانع لا تمتلك شاحنات تخصها وإنما تعتمد بنسبة (41.2%) على المستهلك في أخذ المنتجات المصنعة، وأن نسبة (34%) من المصانع تعتمد على شاحنات مؤجرة في تسويق إنتاجها، بينما النسبة القليلة والتي لا تتعدى (24.8%) من جملة الصناعات في القطاعين تعتمد على وسائل نقل خاصة بها لتسويق منتجاتها.

وفيما يتعلق بصناعة القطاع العام فإنه يعتمد على الشاحنات المؤجرة والتي تبلغ نسبتها (54%)، أما تسويق المنتجات عن طريق المستهلك فإنه بلغ (33.6%) من جملة الصناعات في القطاع العام، أما النسبة القليلة الباقية فهي عبارة عن وسائل نقل خاصة بالمصنع والتي لا تتعدى (12.4%) من جملة صناعات القطاع العام.

وتبلغ صناعات القطاع الخاص التي تقوم بتسويق المنتجات عن طريق استلامها

من قبل المستهلك مباشرة (48.8%)، أما بالنسبة لتسويق المنتجات عن طريق وسائل نقل خاصة بالمصنع فإنها بلغت (37.2%) من جملة صناعات القطاع الخاص، أما النسبة المتبقية فهي (14%) من جملة صناعات القطاع الخاص والتي تعتمد في تسويق منتجاتها على الشاحنات المؤجرة.

شكل (6) وسائل النقل الخاص بالتسويق للقطاع العام والخاص



المصدر: من إعداد الباحثة بالاعتماد على معطيات الجدول (4).

3 - حركة المنتجات الصناعية داخل وخارج منطقة الدراسة:

منذ ما يقارب خمسة عقود تقريباً بدأ الاهتمام والتركيز على المفهوم التسويقي والتوجه نحو السوق من قبل الباحثين والدارسين في مجال التسويق، الذين اعتبروا التوجه نحو السوق هو التطبيق العملي للمفهوم التسويقي من قبل إدارة التسويق في منظمات الأعمال المختلفة، كما اعتبروه استراتيجية ناجحة من الناحية العملية والنظرية⁽¹⁾.

(1) إلهام فخري طلمية، التسويق في المشاريع الصغيرة، دار المناهج للنشر والتوزيع، 2009م،

كذلك يعد المفهوم التسويقي هو "فلسفة تقوم على أن الوصول إلى أهداف المنظمة في أن تكون الأكثر تميزاً في خلق وتوصيل القيمة المميزة للعملاء في السوق المستهدف"⁽¹⁾.

لذلك يعد السوق من مقومات قيام الصناعة وتطورها، وكذلك حجم السوق يعد عاملاً مهماً من عوامل نجاح الصناعة، حيث إن حجم السوق يعتمد على السكان ومستوى دخل الفرد، فقد تتوافر مقومات قيام الصناعة من مواد خام وقوى عاملة ورأس مال وغيرها، ولكن عدم توفر السوق المناسب قد يكون عقبة أساسية أمام قيامها ونجاحها، وقد يكون السوق عاملاً حاسماً في نجاح الصناعة وقيامها على الرغم من الانفتاح إلى بعض المقومات الأخرى لها⁽²⁾.

وبما أن منطقة مصراته تعد ثالث منطقة صناعية على مستوى الدولة بعد طرابلس وبنغازي، فإنها تتميز بالقدرة الشرائية للسكان، حيث يصل حجم سكانها حوالي (500.000) ألف نسمة⁽³⁾، وكذلك بالقرب من منطقة الدراسة أسواق من الممكن أن تستوعب كمية المنتجات المسوقة، وهذا ما يوضحه الجدول التالي:

جدول (5) المناطق التي يسوق إليها الإنتاج من منطقة الدراسة

المنطقة	مصراته	زليتن	بني وليد	طرابلس	مناطق أخرى
نسبة التسويق	53.4	16.2	8.6	17.2	4.6

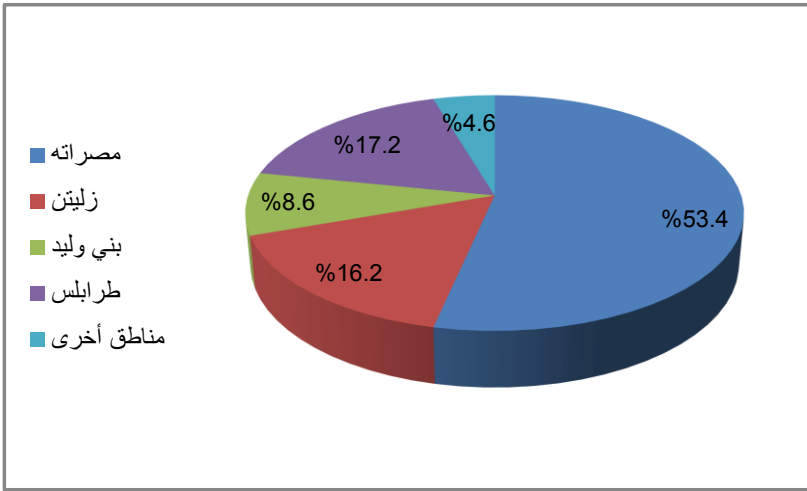
المصدر: نتائج الدراسة الميدانية 2015.

⁽¹⁾ Kotler, Philip, Marketing Management, 11 Edition, Prentice-Hall, Inc, 2003, PP.320.

⁽²⁾ جمعة رجب طنطيش، محمد أزهر السماك، دراسات في جغرافية الصناعة والمعادن، منشورات ELGA، فاليتا مالطا، 2000م، ص74.

⁽³⁾ السجل المدني مصراته، 2010م.

شكل (7) المناطق التي يسوق إليها الإنتاج من مصراته



المصدر: من إعداد الباحثة بالاعتماد على بيانات الجدول (5).

تبين من خلال الجدول والشكل السابقين أن ما يتم تسويقه داخل مصراته يصل إلى (53.4%) من جملة الإنتاج المسوق، ويرجع السبب إلى استهلاك أكثر من نصف الإنتاج داخل مصراته نفسها، وخصوصاً الصناعات الغذائية، لأن مصراته تعد من المناطق المكتظة بالسكان، أما بالنسبة لمنطقة زليتن فإنه يتم تسويق ما نسبته (16.2%) من جملة الإنتاج المسوق، حيث تعد منطقة زليتن هي الأقرب إلى مصراته، وبالتالي تعد السوق المجاورة لها، ونحو (17.2%) إلى مدينة طرابلس، وتعد المكان المناسب لاستهلاك البضائع الواردة إليها، وذلك لأنها العاصمة، والتي غالباً ما يكون عدد سكانها كبير، وأيضاً تضم أكبر الأسواق الاستهلاكية، أما النسب المتبقية فهي بني وليد والتي يتم تسويق حوالي (8.6%) من جملة الإنتاج والذي يتمثل في بعض البضائع البسيطة والتي غالباً ما تكون من القطاع الخاص، أما النسبة الأخيرة المتبقية فهي (4.6%) من جملة الإنتاج والتي تضم مناطق أخرى متفرقة من البلاد.

4 - علاقة المواقع الصناعية بمصادر الطاقة والمياه:

أ - مصادر الطاقة:

لكل صناعة نوع من الطاقة تعتمد عليه، وتستفيد منه بطريقة معينة، فقد تستخدم الصناعة الطاقة الأولية بطريق مباشر، وبالتالي تتوطن المصانع عند مصادرها، أو في موقع يمكن أن تنقل إليه بتكلفة اقتصادية، وقد تستهلك الصناعة الطاقة الأولية بطريقة غير مباشرة أي بعد تحويلها إلى أنماط جديدة، مثلاً الفحم والبتروكول يحولان إلى غازات صناعية، أو كهرباء حرارية، وتحول الطاقة الأولية إلى مشتقة إذا ما كانت الثانية أيسر في الاستخدام، وأسهل في النقل، وأرخص في التكاليف، ويلاحظ أن تكلفة الطاقة ترتفع باطراد⁽¹⁾.

وبما أن هناك بعض الصناعات لا تتوطن بالقرب من مصادر الطاقة، وهذا راجع إلى أنه بالإمكان نقل مصادر الطاقة سواء كانت نפט أو زيت ثقيل أو غاز، وذلك عن طريق ناقلات نפט، أو كانت طارقة كهربائية، والتي تتميز بسهولة إيصالها إلى مناطق الصناعة، وذلك عن طريق كوابل مخصصة لهذا الغرض، والجدول التالي يوضع نوع الطاقة في القطاعين العام والخاص.

جدول (6) نوع الطاقة المستخدمة في الصناعة بمصراته

نفت وغاز %	كهرباء %	نوع الطاقة القطاع
25.2	74.8	صناعات القطاع العام
15.2	84.8	صناعات القطاع الخاص
20.2	79.8	الإجمالي

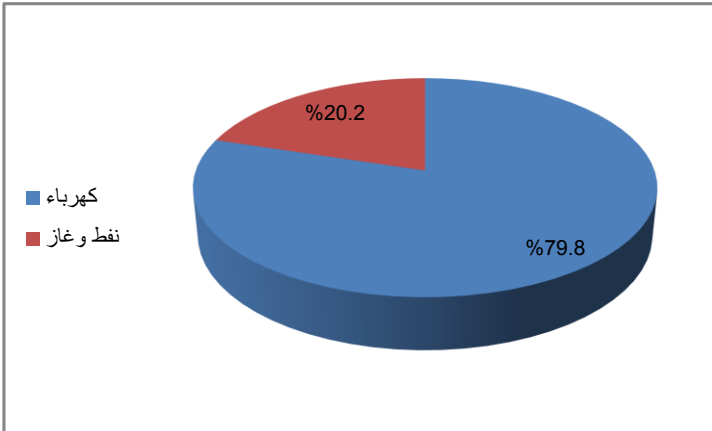
المصدر: نتائج الدراسة الميدانية 2015.

(1) محمد محمود الديب، الجغرافيا الاقتصادية...، مرجع سبق ذكره، ص 817.

يتضح من خلال الجدول السابق والشكل (8) أن صناعات القطاعين العام والخاص تعتمد بشكل كبير على الكهرباء في تشغيل مصانعها وذلك بنسبة (79.8%)، وذلك لسهولة توفر الكهرباء، بالإضافة إلى أن جل المصانع لديها مولدات خاصة لتوليد الكهرباء أثناء فترة انقطاعها، أما ما نسبته (20.2%) من جملة استهلاك الوقود فإنه يعتمد على النفط والغاز.

أما ما يخص صناعات القطاع العام فإنها تعتمد بنسبة كبيرة على الكهرباء والتي تشكل حوالي (74.8%) من جملة استهلاك الوقود في صناعات القطاع العام، أما النسبة المتبقية والتي لا تتعدى (25.2%) فإنها تتمثل في النفط والزيوت الثقيل والذي يستهلك معظمه في صناعة الحديد والصلب، باعتبارها صناعة كبيرة فإنها تستهلك نسبة كبيرة من الكهرباء والنفط، وذلك تستقبله عن طريق ميناء مجمع الحديد والصلب. وبالنسبة لصناعات القطاع الخاص فيلاحظ ما نسبته (84.8%) يستخدم الكهرباء في الصناعة، أما الباقي وهو (15.2%) فهو يتمثل في النفط والغاز.

شكل (8) نوع الطاقة المستخدمة في الصناعة بمصنراته للقطاع العام والخاص



المصدر: من إعداد الباحثة بالاعتماد على معطيات الجدول (6).

ب - مصدر المياه:

تعتمد المؤسسات الصناعية على الماء في عملياتها الإنتاجية، ولذلك ينبغي توفر الماء بكميات كافية ومستمرة وبخصائص متفاوتة، فالماء يستغل ويدخل كعامل فاعل في عدد من العمليات الصناعية التي أهمها: عملية التبريد، الذي يعد أكثر الأشكال في استغلال المياه في الصناعة، حيث تحتاج الآلات مورد مائي دائم لتبريدها حتى لا تتوقف بسبب الحرارة الناتجة عن التشغيل والاحتكاك، فمصانع الحديد والصلب تحتاج إلى المياه لتبريد الآلات، كما تدخل المياه في توليد القدرة البخارية، ويحتاج إنتاج الطن الواحد من الصلب نحو 30م³ من المياه⁽¹⁾.

وتعد المياه من المواد الأولية التي تقوم عليها بعض الصناعات مثل الصناعات الغذائية، بالإضافة إلى صناعة الرخام والتي تعتمد على الماء في قص وجلي الرخام، كذلك هو الحال لبعض الصناعات الكيماوية مثل صناعة الصابون، وأيضاً صناعة مواد البناء والتي تحتاج إلى الماء الداخلة في تركيبها⁽²⁾، والجدول التالي يبين المياه المستخدمة في الصناعة بمصراته.

جدول (7) مصدر المياه المستخدمة في الصناعة بمصراته

نوع الطاقة	كهرباء	نفط وغاز
القطاع	%	%
صناعات القطاع العام	85.2	14.8
صناعات القطاع الخاص	65.6	34.4
الإجمالي	75.4	24.6

المصدر: نتائج الدراسة الميدانية 2015.

(1) وفيق محمد جمال الدين إبراهيم، الجغرافيا الاقتصادية... مرجع سبق ذكره، ص 286.

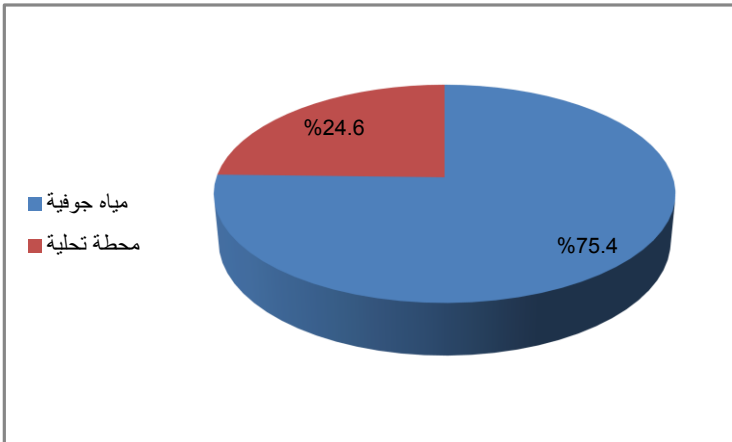
(2) نتائج الدراسة الميدانية لبعض المصانع في مصراته، 2015.

يتبين من خلال الجدول السابق والشكل (9) اعتماد الصناعة على المياه الجوفية بنسبة (75.4%)، ويرجع السبب لأن المياه الجوفية هي المصدر المتاح في ليبيا ككل، بحكم أنها تقتقر إلى مياه العيون والأنهار، لهذا يكون الاعتماد الكلي على المياه الجوفية، أما المياه المحلاة فيكون نسبة الاعتماد عليها من قبل القطاعين العام والخاص بنسبة (24.6%) من جملة المياه المستخدمة في الصناعة.

ويعتمد القطاع العام على المياه الجوفية بنسبة 85.2% فتلك النسبة تعد كبيرة بحكم احتياج الصناعات للمياه وخصوصاً العذبة والداخلة في الصناعات مثل الصناعات الغذائية، وصناعة الحديد والصلب، والتي تحتاج إلى مياه عذبة.

وتعتمد صناعات القطاع الخاص على المياه الجوفية بنسبة (65.6%) من جملة المياه المستخدمة في الأغراض الصناعية، أي ثلثي الصناعات في القطاع الخاص بمصراته تعتمد على المياه الجوفية، أما النسبة المتبقية والتي تتمثل في (34.4%) تعتمد على المياه المحلاة، فيلاحظ أن بعض المصانع لديها محطة تحلية خاصة لتحلية المياه، وخصوصاً تلك الصناعات القائمة في مناطق التي تتميز بملوحة مياهها، وتذكر منها على سبيل المثال لا الحصر صناعة الرخام.

شكل (9) مصدر المياه المستخدمة في الصناعة بمصراته للقطاع العام والخاص



المصدر: من إعداد الباحثة بالاعتماد على معطيات الجدول (7).

5 - حركة القوى العاملة من وإلى منطقة الدراسة:

تعد العمالة أحد المتطلبات الرئيسية لعملية التنمية الصناعية، وهي بحق تشكل عقبة أساسية أمام التطور الصناعي الذي تشهده الدول النامية، ويتحدد أثر العمالة في الإنتاج الصناعي بعد العمال ومستوى كفاءاتهم، ويعتمد عدد العمال على حجم السكان في الدولة، أما مستوى الكفاءة فتعتمد بالدرجة الأولى على درجة التدريب الفني للعمال ومهاراتهم والبيئة الصناعية المتاحة.

وتتأثر الوحدات الصناعية وبدرجات متفاوتة تبعاً لطبيعة الصناعة ونوعية الأيدي العاملة التي تحتاجها، والتوزيع الجغرافي للأيدي العاملة، ولا يمكن للصناعة أن تتجاهل أهمية عنصر القوة العاملة باعتباره أساس العملية الإنتاجية والغاية والوسيلة في الوقت ذاته⁽¹⁾. وتتطرق الدراسة إلى بعض خصائص القوى العاملة في منطقة الدراسة:

أ - عدد عمال الصناعة:

تختلف الصناعات في عدد عمالها، مدى استيعابهم في مصانعها، فمثلاً بعض الصناعات تحتاج إلى أيدي عاملة كثيرة مثل صناعة الغزل والنسيج، وهناك بعض الصناعات التي لا تحتاج إلى أيدي عاملة كثيرة مثل الصناعات الكهربائية والآلات والمكائن الدقيقة، والجدول التالي يوضح عدد العمال في القطاعين العام والخاص.

جدول (8) عدد العمال في القطاعين بمصراته

أكثر من 500 عام	من 100- 499 عام	من 50-99 عام	من 10- 49 عام	أقل من 9 عام	عدد العمال / القطاع
36.5	11.4	5.9	-	-	صناعات القطاع العام
-	-	2.9	9.8	33.5	صناعات القطاع الخاص

(1) محمد أزهر السماك، عباس علي التميمي، أسس جغرافية الصناعة...، مرجع سبق ذكره،

المصدر: نتائج الدراسة الميدانية 2015.

يتضح من خلال الجدول السابق أن القطاع العام يحوي عدداً أكبر من القطاع الخاص من حيث العمالة، حيث يوجد في صناعات القطاع العام والتي تبلغ نسبتها (5.9%) من جملة عدد العمال في القطاعين أنها تضم من 50 إلى 99 عامل، أما المصانع التي تحتوي من 100-499 عامل تبلغ نسبتها 11.4% من جملة عدد العمال في منطقة الدراسة، بينما بلغت نسبة الصناعات التي تحوي على أكثر من 500 عامل ما يقارب من (36.5%) من جملة القطاع العام، ويرجع السبب في أن صناعات القطاع العام تضم أكبر عدد من العمال لأنها صناعات مدعومة من قبل الدولة، أي أن العامل يتقاضى مرتبه من الدولة، ويرجع سبب ذلك إلى أنه يعمل بتعيين وليس بعقد كما هو الحال في صناعات القطاع الخاص.

وبلغت نسبة عدد العمال في صناعات القطاع الخاص الذي يقل عددهم عن 9 عمال (33.5%) من جملة عدد العمال في منطقة الدراسة، بينما عدد العمال الذي يتراوحون من 10-49 عامل تبلغ نسبتهم (9.8%)، أما الصناعات التي تضم من (50-99 عامل) فقد بلغت نسبتهم ما يقارب من (2.9%) من جملة عدد العمال في منطقة مصراته.

ب - مصدر القوى العاملة:

إن ارتباط منطقة الدراسة بغيرها من المناطق المجاورة يعد دليلاً على تركيز الصناعات بها، وخصوصاً صناعة القطاع العام، ففي السابق كانت مصراته غير جاذبة للسكان لأنها لا تحتوي على صناعات كبيرة وكثيرة، حيث كانت تسمى مصراته بذات الرمال، وبعد افتتاح مجمع الحديد والصلب والذي يضم أكثر من 6000 عامل أصبحت منطقة جذب للعمال وخصوصاً من المناطق المجاورة، والجدول التالي يوضح مصدر القوى العاملة في منطقة مصراته.

جدول (9) تصنيف الصناعات حسب مصدر القوى العاملة في مصراته

مناطق أخرى %	طرابلس %	زليتن %	مصراته %	المنطقة القطاع
3.2	4	8.4	84.4	صناعات القطاع العام
24.4	3.2	3.2	69.2	صناعات القطاع الخاص
13.8	3.6	5.8	76.8	الإجمالي

المصدر: نتائج الدراسة الميدانية 2015.

يتضح من خلال الجدول السابق والشكل (10) أن نسبة الصناعات في القطاعين والتي تعتمد على عمالة من نفس المنطقة بلغت نسبتها (76.8%) من إجمالي مصدر القوى العاملة في المنطقة، بينما بلغت في القطاع العام وحده حوالي (84.4%)، وفي الوقت نفسه بلغت (69.2%) في صناعات القطاع الخاص.

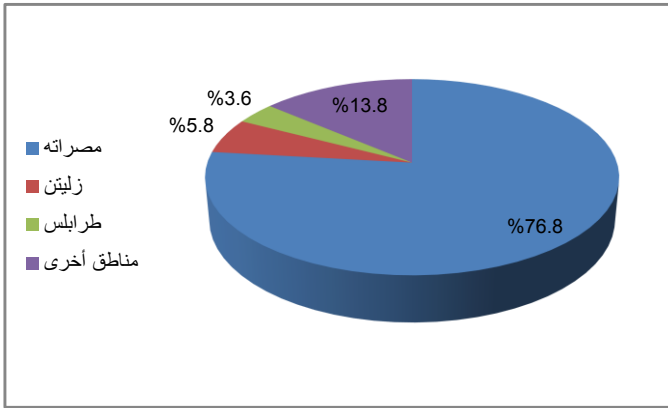
وبالنسبة للصناعات التي اعتمدت في مصادر القوى العاملة من زليتن وصلت إلى (5.8%) من إجمالي مصادر القوى العاملة على مستوى القطاعين، في حين نفسه بلغت صناعات القطاع العام والتي اعتمدت على قوى عاملة من زليتن ما نسبته (8.4%)، أما صناعات القطاع الخاص فقد بلغت (3.2%) من جملة مصدر القوى العاملة.

ونسبة الصناعات على مستوى القطاعين التي اعتمدت على طرابلس (3.6%)، في حين كانت صناعات القطاع العام التي اعتمدت على أيدي عاملة من العاصمة ما نسبته (4%)، بينما القطاع الخاص فإن نسبة اعتماده على طرابلس في مصدر القوى العاملة (3.2%).

واعتمدت صناعات القطاع العام على مناطق أخرى متفرقة من البلاد بنسبة (3.2%) مقارنة بصناعات القطاع الخاص والتي بلغت ما يقارب (24.4%)، وهنا يجب الإشارة من خلال بعض الزيارات الميدانية التي قامت بها الباحثة لصناعات القطاع الخاص أن هناك نسب كبيرة من الأيدي العاملة المستوردة والمتمثلة في العرب والأفارقة،

ولكن المصنع نفسه يتكفل بإقامتهم والإجراءات القانونية لدخولهم وخروجهم من البلاد.

شكل (10) تصنيف الصناعات حسب مصدر القوى العاملة في مصراته



المصدر: من إعداد الباحثة بالاعتماد على الجدول السابق.

ج - نوع ومستوى الخدمات التي تتمتع بها الأيدي العاملة من خلال القطاعين العام والخاص:

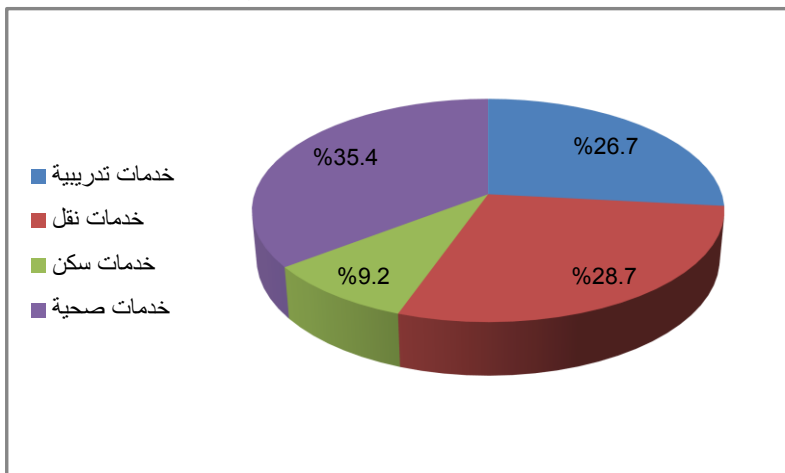
هناك بعض الخدمات المقدمة للأيدي العاملة، من قبل القطاع العام والقطاع الخاص، ولكن تختلف تلك الخدمات من صناعة لأخرى ومن قطاع لآخر، والجدول التالي يبين نوع الخدمات المقدمة للعمال على مستوى منطقة الدراسة.

جدول (10) نوع ومستوى الخدمات التي تتمتع بها الأيدي العاملة بمنطقة الدراسة

نوع الخدمة	خدمات	خدمات نقل	خدمات سكن	خدمات صحية
القطاع	تدريبية %	%	%	%
صناعات القطاع العام	73.2	78.8	25.2	97.2
صناعات القطاع الخاص	13.2	2.4	2	4.4

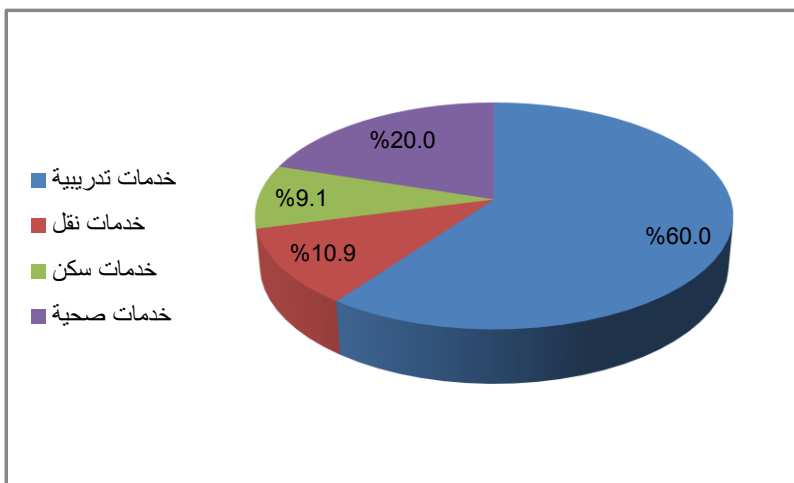
المصدر: نتائج الدراسة الميدانية 2015.

شكل (11) نوع ومستوى الخدمات التي تتمتع بها الأيدي العاملة بمنطقة الدراسة للقطاع العام



المصدر: من إعداد الباحثة بالاعتماد على معطيات الجدول (10).

شكل (12) نوع ومستوى الخدمات التي تتمتع بها الأيدي العاملة بمنطقة الدراسة للقطاع الخاص



المصدر: من إعداد الباحثة بالاعتماد على معطيات الجدول (10)

يتضح من خلال الجدول السابق والشكلين السابقين أن (73.2%) من الأيدي العاملة تحظى بخدمات تدريبية في مؤسسات القطاع العام، بينما تنخفض في مؤسسات القطاع الخاص إلى (13.2%) من جملة الأيدي العاملة المدربة، ويرجع السبب في أن مؤسسات القطاع الخاص وهي في الأصل مؤسسات ملك للأفراد والتي غالباً ما تكون غير محتاجة إلى أيدي عاملة ماهرة، إلى جانب عدم إمكانية إيفادهم إلى الخارج لتلقي الدورات التدريبية، وذلك لنقص العامل المادي، على عكس القطاع العام والذي تموله الدولة.

ويتبين فيما يخص خدمات النقل أن (87.8%) من الأيدي العاملة تحظى بخدمة النقل في منشآت القطاع العام، بينما تتضاءل النسبة في القطاع الخاص حتى تصل إلى (2.4%) من جملة خدمات النقل المقدمة للأيدي العاملة.

وبالنسبة لخدمات السكن فإنها قليلة جداً للقطاعين، حيث يلحظ أن القطاع العام يقدم السكن للأيدي العاملة التابعة بنسبة (25.2%) وتلك الخدمة تتوفر في الصناعات الكبرى، وعلى رأسها صناعة الحديد والصلب والذي يوفر السكن للأيدي العاملة وخصوصاً القادمة من خارج مصراته، أما على صعيد القطاع الخاص فبلغت نسبة توفيره للسكن (2%) فقط من جملة عدد العمالة الموجودة في القطاع الخاص، ومن خلال الزيارة الميدانية تبين أن بعض العمال يتخذون المصنع مكاناً للعمل والسكن معاً، وخصوصاً العمالة الموفدة.

ويتفوق القطاع العام على القطاع الخاص في الخدمات الصحية بنسبة (97.2%) للعمالة التابعين له، وذلك عن طريق توفير العيادات الخاصة داخل بعض المصانع، وإذا لزم الأمر وكانت إصابة عمل فإن الأمر يتطلب العيادات الخارجية التابعة للدولة، وأن نسبة (4.4%) من جملة الخدمات الصحية التي تقدم للعمال تتمثل في الإسعافات الأولية وبعض إصابات العمل.

الخاتمة

مما سبق تناول البحث العلاقات المكانية الصناعية بمنطقة مصراته، والتي تم الشرح فيها عن حركة المواد الخام إلى منطقة الدراسة، حيث يتم تقسيم الصناعة على

أساس المواد الخام إلى نوعين: الأول صناعة تعتمد في مدخلاتها على مواد خام طبيعية كالمعادن والصخور والخامات الزراعية، أما النوع الثاني فيشمل الصناعات التي تعتمد في مدخلاتها على مخرجات صناعات أخرى، حيث أنها تعتمد على مواد مصنعة ونصف مصنعة، وتتأثر بعض الصناعات بقرب المادة الخام أو بعدها عنها وأماكن تواجدها، كذلك تتأثر المواد الصناعية بمدى توفر المادة الخام داخل مصراته وخارجها، كذلك تتأثر بعمليات النقل والذي يعد عاملاً أساسياً في دفع عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية، حيث خصصت المصانع وسائل نقل خاصة لجلب المادة الخام ووسائل نقل خاصة بالتسويق، كذلك تطرق البحث إلى حركة المنتجات من منطقة الدراسة إلى السوق والذي يعد من أهم مقومات قيام الصناعة وتطورها، وكذلك حجم السوق والذي يعد عاملاً مهماً في نجاح الصناعة، حيث إن حجم السوق يعتمد على السكان ومستوى دخل الفرد، أما المياه فتعتمد عليها المؤسسات الصناعية في عملياتها الإنتاجية، ولذلك ينبغي توفر الماء بكميات كافية ومستمرة وبخصائص متفاوتة، وكذلك عالج البحث حركة القوى العاملة من وإلى منطقة الدراسة، حيث يعد العمال أحد المتطلبات الرئيسية لعملية التنمية الصناعية، وتتأثر الوحدات الصناعية ودرجات متفاوتة تبعاً لطبيعة الصناعة ونوعية الأيدي العاملة التي تحتاجها، والتوزيع الجغرافي للأيدي العاملة.

نتائج البحث:

أولت البلاد اهتماماً بالصناعات في خططها التنموية، ووفرت العديد من المستلزمات الأساسية للعديد من الصناعات، لذلك شهدت منطقة مصراته قيام نهضة صناعية، حيث ظهرت العديد من الصناعات الكبرى بمنطقة مصراته.

حققت الصناعة داخل منطقة الدراسة توفير فرص عمل لعدد كبير من الباحثين عنه وهو ما يعد إسهاماً للحد من معدل البطالة.

تعد المياه الجوفية هي الأكثر استخداماً للأغراض الصناعية، حيث إنها المصدر الوحيد المتاح في أغلب جهات المنطقة.

زيادة أعداد العاملين في جميع المصانع العامة قد يسبب عبءً مادياً كبيراً عليها.

التوصيات:

بالخطيط الجيد الهادف يمكن للصناعات أياً كان نوعها أن تشكل إضافة نحو الإنتاج الاقتصادي، وأن تشكل قاعدة إنتاجية تدعم الاقتصاد المحلي لمنطقة مصراته. العمل على تقديم التسهيلات والدعم الفني والمالي لوحدات الإنتاج القائمة بالقطاع الخاص والعام.

إيجاد الحلول العلمية والإنسانية لمعالجة مشكلة تضخم العمالة في الشركات العامة واقترح الآليات المناسبة للمعالجة مثل التقاعد الاختياري وإعادة التأهيل وغيره. الاهتمام بإقامة المناطق الصناعية لدورها في الحد من الانتشار العشوائي لمصانع القطاع الخاص.

تنفيذ مشروعات ذات جدوى اقتصادية تقوم على استغلال المواد الخام المحلية.

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

راجيتش شاندر، تعريب محمد محمود عمار، التصنيع والتنمية في العالم الثالث، مكتبة النهضة المصرية، 1994.

محمد خميس الزوكة، جغرافية المعادن والصناعة، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، 1988.

إسماعيل مصباح الزاوية، الأنماط المكانية لمواقع الأنشطة الصناعية في منطقة زيتن، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المرقب، قسم الجغرافيا، 2005.

اللجنة الشعبية العامة للمرافق، إقليم طرابلس، مخطط التطوير، مصراته، المخطط الشامل.

الهام فحري طلمية، التسويق في المشاريع الصغيرة، دار المناهج لنشر والتوزيع، 2009.
جمعة رجب طنطيش، محمد أزهر السماك، دراسات في جغرافية الصناعة والمعادن، منشورات ELGA، فايتا مالطا، 2000.

السجل المدني مصراته، 2015.

محمد محمود الديب، الجغرافيا الاقتصادية منظور معاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، 2006.
وفيق محمد جمال جمال الدين إبراهيم، الجغرافيا الاقتصادية، أسس وتطبيقات، الطبعة الأولى، 2012.

محمد أزهر السماك، عباس علي التميمي، أسس جغرافية الصناعة وتطبيقاتها، 1987.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

Kotler, Philip, Marketing Management, 11 Edition Prentice-Hall, Inc, 2003.

واقع وآفاق الخدمات التعليمية للتعليم المتوسط لمنطقة الخمس عام 2015م

د. بشير عمران أبونايجي

د. أنور عمر أبو شينة

مقدمة:

تأتي الخدمات التعليمية على رأس الخدمات السيادية المهمة والضرورية لشرائح المجتمع كافة؛ لأنها تؤمن إعداد الكوادر المهنية التي تسهم في عملية التنمية على المستويين الإقليمي والقومي، كما لا ننسى أن عملية التعليم تنمي ثقافة الأم، لأنها تضع الضوابط التي تعمل على التقليل من عملية النمو المتسارعة بتنظيم عملية النسل⁽¹⁾، كما أن هذه الخدمة هي المقياس لتقدم الدول وتخلفها، ولذا فإن فشل أي دولة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتقدم هذه الخدمة. ولم تظهر أهمية الخدمات التعليمية على حيز الوجود إلا في الآونة الأخيرة من القرن الماضي فقد لوحظ بأن العلم بدأ يأخذ استقلاليتته بعد أن كان يأتي في ثنايا موضوعات جغرافية خاصة فيما يتعلق بتخطيط المدن وجغرافية العمران، هذا ويتميز هذا العلم بالتطبيق مباشرة على الحيز الموجود أي دخوله تحت ما يسمى بالجغرافيا التطبيقية التي هي ذات صفة ديناميكية تتغير وتتطور بسرعة، وكذلك فهي متعددة العلاقات والجوانب⁽²⁾ ومن ثم فإن هناك بعض التعريفات التي أطلقت على كافة الخدمات ومن بينها الخدمات التعليمية فقد عرفها (Philip Katter) على أنها "نشاط أو منفعة يستطيع طرف ما تقديمها للآخر وتكون غير ملموسة، أي غير مادية" أما (Cornrows) فعرفها على أنها "أنشطة تدرك بالحواس وقابلة للتبادل وتقدمها شركات أو مؤسسات معينة مختصة بتلك الخدمات أو باعتبارها مؤسسة خدمية"⁽³⁾ كما يعد التعليم

¹ - فتحي محمد مصيلحي، جغرافية الخدمات الإطار النظري وتجارب عربية، دار الماجد للنشر والتوزيع، ط2، القاهرة، 2007، ص311.

² - فتحي محمد أبو عيانه، جغرافية العمران، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1983، ص 36.

³ - خلف حسين الدليمي، تخطيط الخدمات المجتمعية والبنية التحتية، دار الصفاء للنشر، عمان، 2009، ص87.

الأداء الرئيسة للتنمية الاقتصادية الاجتماعية وأنه يشكل المظهر الحضاري للدولة⁽¹⁾ وفيما يتعلق بخدمة التعليم المتوسط (الثانوي) فقد صدر أول قرار بهذه المرحلة عام 1952 وفي عام 1955 صدر قرار وزاري يهدف إلى تنظيم التعليم الثانوي وقد نص هذا القرار على أن يكون التنظيم وفقاً للتعليم الثانوي في جمهورية مصر وهي أن المرحلة الثانوية تنقسم إلى مرحلتين هما المرحلة الإعدادية ومدتها سنتان وتقدم تعليماً موحداً للجميع، أما المرحلة الثانية وهي الثانوية ومدتها ثلاث سنوات تكون السنة الأولى عامة أما السنتان الثانية والثالثة تنتسب منهما قسماً العلمي والأدبي، وفي عام 1975 صدرت أول لائحة بشأن التعليم الإلزامي وقد ضمت المرحلة الابتدائية مع المرحلة الإعدادية وسمي بمرحلة التعليم الأساسي، وفيما يتعلق بالتعليم الثانوي فقد بقي على نفس حاله⁽²⁾ أما عن منطقة الدراسة فقد بلغ عدد المؤسسات التعليمية للتعليم المتوسط نحو ستة عشر مدرسة موزعة على محلات المنطقة منها ما يتبع القطاع الحكومي ومنها ما يتبع القطاع الخاص إلا أننا في هذا البحث سنقتصر دراستنا في هذا البحث على القطاع الحكومي فقط، ويتناول هذا البحث دراسة التوزيع الجغرافي للمؤسسات التعليمية على مستوى المنطقة وذلك لمعرفة الانتشار المكاني للخدمات التعليمية ومدى كفاءة هذه الخدمة وكفايتها.

ويضم البحث بعض المحاور أهمها:

المحور الأول: يضم كل من أهداف ومشكلة البحث وحدود ومجال ومصادر البحث إضافة إلى أسلوب ومنهج البحث.

المحور الثاني: التوزيع المكاني للمؤسسات التعليمية.

المحور الثالث: كفاءة الخدمات التعليمية

¹ -Pacione,M., and Micheal, P. "Rural Geography" London(1983) P.269.

² - محمد الفالوقي، رمضان القذافي، التعليم الثانوي في البلاد العربية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 1990،

المحور الرابع: التقديرات المستقبلية للخدمات التعليمية.

وينتهي هذا البحث بالنتائج التي توصل إليها الباحثان مع إصدار بعض التوصيات التي يوصي بها الباحثان.

*تساؤلات البحث:

تتمثل تساؤلات البحث في السؤال الآتي:

- هل هناك توافق أو توازن بين نمو المؤسسات التعليمية وبين أعداد الطلاب بهذه المؤسسات؟ وهل هذه المؤسسات ذات كفاءة وكفاية متوافقة مع معايير العالمية أو حتى المعايير التي وضعتها الدولة؟

*أهداف البحث:

يهدف البحث إلى دراسة التوزيع الجغرافي للمؤسسات التعليمية على مستوى محلات المنطقة.

معرفة مدى كفاءة وكفاية الخدمات التعليمية.

تحليل البيانات والمعلومات الإحصائية المتوفرة عن الخدمات التعليمية.

*أهمية الدراسة:

ترجع أهمية هذه الدراسة في إظهار وتطور المدينة سكانياً وانعكاس ذلك على المؤسسات التعليمية، وكذلك معرفة أعداد الطلاب، وعدد المدارس، والتوزيع المكاني لمواقع المدارس داخل المدينة وإيجاد كثافة الفصول للدلالة على حجم الزيادة في الإقبال على مرحلة التعليم المتوسط.

*منطقة الدراسة:

تقع منطقة الدراسة في الجزء الشمالي الغربي من ليبيا حيث يحدها من الشرق وادي كعام ومن الغرب وادي غنيمة ومن الشمال البحر المتوسط ومن الجنوب سلسلة جبال مسلاته، أما من الناحية الفلكية فتقع المنطقة بين دائرتي عرض 32.15° و 32.45° وبين خطي طول 14.00° و 14.30° والشكل رقم (1) يوضح ذلك.

الشكل (١)
الموقع الجغرافي والفلكي لمنطقة الخمس



*المنهجية وأساليب البحث:

من أهم المناهج والأساليب التي ارتكز عليها البحث ما يلي:
 المنهج الموضوعي: تم إتباع هذا المنهج كموضوع يتمثل في دراسة الخدمات التعليمية باعتبارها الحيز المكاني الذي تشغله الدراسة.
 المنهج الوصفي: وهو المنهج الذي يصف الدراسة من خلال الاطلاع على الدراسات والموضوعات المتشابهة والمناظرة لموضوع الدراسة.
 المنهج التحليلي: وتم من خلاله تحليل العلاقة بين السكان وتقديم الخدمات التعليمية لهم.
 الأسلوب الكمي: وهدف هذا الأسلوب إلى تحليل البيانات الرقمية والجداول

الإحصائية.

الأسلوب الكرتوجرافي: اعتمد الباحثان على رسم الخرائط التي توضح توزيع الظاهرة في منطقة الدراسة.

مصادر البحث:

اعتمد الباحثان على عدد من المصادر منها:

- 1- المكتبة: وذلك للاستفادة من المراجع والمصادر التي ترتبط بالموضع ذات العلاقة.
- 2- المصادر الإحصائية: وأهمها المعلومات التي أمكن الحصول عليها من مكتب الدراسة والامتحانات بوزارة التربية والتعليم بمنطقة الخمس.

* الدراسات السابقة:

دراسة التير (2008) ركزت هذه الدراسة على العلاقة بين عدد الطلبة والسكان، وذلك لمعرفة نسبة الالتحاق والتسرب للطلبة، كما تطرقت الدراسة إلى معرفة كفاءة الخدمة التعليمية، وفق مجموعة من المؤشرات التخطيطية⁽¹⁾.

دراسة خلف الله (2006) تطرقت هذه الدراسة إلى دراسة التعليم العام من حيث مراحلها وتطوره وتوزيعه الجغرافي⁽²⁾

دراسة محمد (2006) هدفت الدراسة إلى التوزيع المكاني للخدمات التعليمية للتعليم الأساسي، مع إبراز مدى كفاءة وكفاية الخدمة التعليمية⁽³⁾.

¹ - علي محمد التير، التعليم والصحة في منطقة زليتن دراسة في جغرافية الخدمات، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، 2008.

² - مصطفى خلف الله، الوظيفة التعليمية لشعبية الزاوية، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة السابع من إبريل، 2006.

³ - هاني حسني محمد التحليل المكاني لتوزيع مدارس مرحلة التعليم الأساسي بحي المنتزه باستخدام نظم المعلومات الجغرافية، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 2006.

دراسة الثابت (2005) حيث تناولت هذه الدراسة أهمية هذه الوظيفة ومدى احتياج السكان لها⁽¹⁾.

دراسة العتيبي (2005) أبرزت هذه الدراسة تطور التعليم العام بجميع أشكاله وأنماطه خلال فترات تاريخية، كما اهتمت الدراسة بمدى كفاءة وكفاية الخدمات التعليمية، وتوضيح العلاقات المكانية بكل مرحلة⁽²⁾.

دراسة البرعصي (2004) تناولت هذه الدراسة التوزيع الجغرافي للخدمات التعليمية على مختلف أحياء المدينة، كما استعرضت هذه الدراسة مستوى كفاءة وكفاية هذه الخدمة باستخدام الأساليب الإحصائية⁽³⁾.

دراسة الشركسي (2001) تطرقت هذه الدراسة إلى تطور هذه الخدمة وعددها ومراكز انتشارها وتوزيعها الجغرافي حسب القطاعين الخاص والعام⁽⁴⁾.

المفاهيم والمصطلحات:

الخدمات التعليمية: يقصد بها مدارس المراحل التعليمية للتعليم الثانوي التي تلي مرحلة التعليم الأساسي.

2- الكفاءة: يقصد بها درجة الخدمات المقدمة في المدارس جيدة أم متوسطة أم رديئة، وسوف يتم عمل التصنيف اعتماداً على عدد من المعايير المحلية.

3- الكفاية: يقصد بها عدد المؤسسات التعليمية وتوزيعها الجغرافي لكي تغطي كافة

¹ - وداد الثابت الوظيفة التعليمية في منطقة العجيلات للمدة 1990-2003، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة السابع من إبريل، 2005.

² - سيف محمد العتيبي، التعليم العام بحاضرة الإحساء دراسة في جغرافية الخدمات، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس، 2005.

³ - أسامة البرعصي، التباين المكاني للخدمات الصحية والتعليمية بمدينة المرج الجديدة، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة قاربونس، 2004.

⁴ - ونيس عبد القادر الشركسي، التعليم والصحة في بلدية مصراتة، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2001.

احتياجات السكان من هذه الخدمة.

أولاً: التوزيع الجغرافي للخدمات التعليمية للتعليم المتوسط.

تكمن أهمية دراسة التوزيع الجغرافي للخدمات التعليمية في التعرف على عدالة التوزيع، حيث يرى هالوك أن مهمة التوزيع هو إظهار التباين في توزيع الخدمات التعليمية والأبنية والقوى البشرية⁽¹⁾ وهذا يتم من خلال دراسة واقع هذا النوع من التعليم والتعرف على مدى كفايته من حيث الكم والنوع والتخطيط لتوزيع المدارس بما يتلائم مع توزيع السكان الذين يجب أن تقدم لهم الخدمة التعليمية ثم التعرف على الاحتياجات المستقبلية للتعليم وتحديدها، هذا وتتباين أعداد الطلبة في مرحلة التعليم المتوسط من محلة لأخرى بمنطقة الدراسة، فيلاحظ دائماً أن هذه المرحلة أعداد الطلبة بها أقل من مرحلة التعليم الأساسي، ويرد ذلك إلى تحول أعداد كبيرة خاصة من الطلبة الذكور إلى أنواع التعليم الأخرى، وهو التعليم التقني كالدراسة في المعاهد النفطية التي تتمركز في العاصمة طرابلس، إضافة إلى التحاق أعداد كبير منهم بعد الثورة إلى الدورات الأمنية كالشرطة والجيش، وغيرها من المجالات التي يلتحق بها الطالب بعد اجتياز مرحلة التعليم الأساسي، فيلاحظ من خلال الجدول رقم (1) أن أعداد الطلبة متباينة من محلة لأخرى حسب العام الدراسي 2014-2015م، حيث بلغ أعلى نسبة لعدد الطلبة بمحلة المعقولة بنحو 19.4% من جملة الطلبة بالمنطقة البالغ عددهم 1318 طالباً، وتليها نسبة محلة بن جحا بنحو 14.8% من جملة عدد الطلبة ويرجع السبب في ذلك تركيز أعداد السكان بهاتين المحلتين، والجدول رقم (1) والشكل رقم (2) يوضحان هذا لتوزيع.

¹ - فاطمة محمد أحمد عبد الصمد، الخدمات التعليمية في محافظة القاهرة دراسة جغرافية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، قسم الجغرافيا، جامعة القاهرة، 1997، ص 1-3.

جدول (1)

التوزيع الجغرافي لطلبة التعليم المتوسط على مستوى محلات المنطقة

المحلة	عدد الطلبة	%
غنيمة	219	3.2
المرقب	507	7.5
الخمس المدينة	696	10.2
بن جحا	1005	14.8
لبده	502	7.4
رأس الحمام	660	9.7
خليفة	222	3.3
المعقولة	1318	19.4
الساحل	789	11.6
كعام	722	10.6
قورقاس	163	2.4
المجموع	6803	100

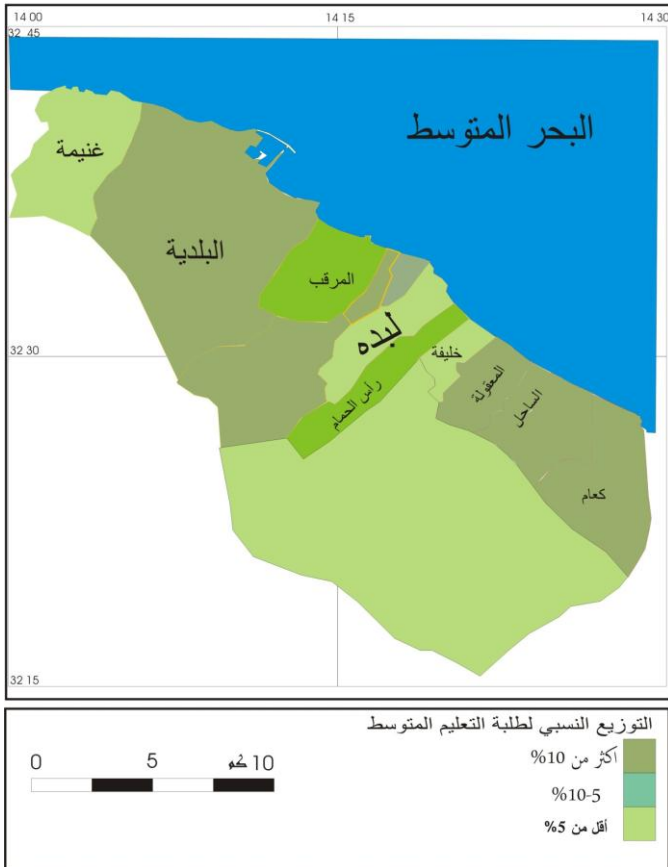
المصدر: استناداً إلى إحصائيات وزارة التربية والتعليم الخمس، قسم الامتحانات الخمس، بيانات غير منشورة 2015.

وبالتالي يمكن تقسيم عدد الطلبة ونسبتهم على مستوى محلات المنطقة إلى ثلاث فئات

- 1- الفئة الأولى: وهي الفئة التي تزداد فيها نسبة الطلبة على 10% من جملة عدد الطلبة بالمنطقة، كما هو الحال بمحلة الخمس المدينة وبن جحا وكعام والساحل والمعقولة ويرد ذلك إلى انتشار السكان وارتفاع كثافتهم لهذه المحلات
 - 2- الفئة الثانية: بلغت نسبة عدد الطلبة بهذه الفئة من 5-10% من جملة نسبة عدد الطلبة بالمنطقة، وتضم كلاً من محلتَي المرقب ورأس الحمام.
 - 3- الفئة الثالثة: تصل نسبة عدد الطلاب بهذه الفئة أدنى من 5% من جملة نسبة عدد الطلبة بالمنطقة، وتضم بقية المحلات الأخرى.
- وعموماً فإن قطاع التعليم ما قبل الجامعي يحتاج إلى بذل المزيد من الجهود التنموية من أجل ملاحقة الزيادة السكانية.

الشكل (2)

التوزيع النسبي لعدد الطلبة على مستوى محلات المنطقة خلال عام 2015



المصدر: استناداً إلى بيانات الجدول رقم (1).

ثانياً: التوزيع العددي والنسبي لعدد المدارس.

بلغت عدد المدارس بهذه المنطقة والتي تخدم هذا النوع من التعليم سبع وعشرون مدرسة موزعة على محلات المنطقة والتي تتفاوت فيما بينها فأعلى نسبة احتلتها محلة لبده فقد بلغت نسبتها 14.8% من جملة نسبة عدد المدارس بالمنطقة، أما بالنسبة لباقي المحلات فلم تتجاوز نسبتها عن 11.1% كما هو مبين من الجدول رقم (2).

جدول (2)

التوزيع العددي والنسبي للخدمات التعليمية للتعليم المتوسط على مستوى محلات المنطقة

المحلة	عدد المدارس	%	عدد الفصول	%	عدد المدرسين	%
غنيمة	1	3.7	12	3.2	28	3.0
المرقب	1	3.7	25	6.6	65	7.1
البلدية	3	11.1	40	10.6	79	8.6
بن جحا	3	11.1	48	12.7	215	23.4
لبده	4	14.8	45	11.9	103	11.2
رأس الحمام	2	7.4	30	7.9	57	6.2
خليفة	3	11.1	22	5.8	67	7.3
المعقولة	3	11.1	66	17.5	83	9.0
الساحل	3	11.1	41	10.8	118	12.8
كعام	3	11.1	36	9.5	80	8.7
قوقاس	1	3.7	13	3.4	25	2.7
المجموع	27	100	378	100	920	100

المصدر: استناداً إلى إحصائيات وزارة التربية والتعليم الخمس، قسم الامتحانات الخمس، بيانات غير منشورة 2015.

ثالثاً: التوزيع العددي والنسبي لعدد الفصول.

يعتبر عدد الفصول هو المقياس الحقيقي لمدى توافر الخدمة التعليمية سواء أكان على مستوى المراحل التعليمية أو حسب نوع التعليم، وتعد دراسة الفصول مقارنة بعدد الطلاب أو الفئة العمرية في سن التعليم من الدراسات الهامة التي تبرز الاختلافات المكانية لكثافة المدارس وكثافة الفصول والتي على أساسها يمكن التعرف على مدى الحاجة إلى العناصر التعليمية الأخرى وأهمها المدرسون ثم التجهيزات المدرسية والمرافق التعليمية، بلغت عدد الفصول على مستوى محلات المنطقة نحو 378 فصلاً، تتباين أعداد الفصول من محلة لأخرى حسب الجدول السابق فأعلى عدداً للفصول نالت به محلة المعقولة بنحو 66 فصلاً أي بنسبة 17.5% من جملة الفصول بالمنطقة ويرجع السبب في ذلك إلى ارتفاع أعداد الطلبة بهذه المحلة، وتليها في المرتبة من حيث عدد الفصول محلة بن جحا بعدد فصول 48 فصلاً بنسبة 12.7% وتليها محلة الساحل بعدد

41 فصلاً، أما عن بقية محلات المنطقة فالجدول رقم (2) يبين ذلك.

رابعاً: التوزيع العددي والنسبي لعدد المدرسين.

تعد دراسة حجم الخدمات التعليمية حسب عدد المدرسين من أهم العناصر التي تقدم الخدمة التعليمية لأنها تعبر عن طبيعة الأحجام الفعلية للمؤسسات التعليمية، فقد بلغ عدد المدرسين على مستوى المنطقة 920 مدرساً، موزعة على محلات المنطقة فأعلى نسبة من المدرسين بلغت 23.4% بمحلة بن جحا، وتليها في المرتبة محلة الساحل بنسبة 12.8% أما عن باقي المحلات فهي موضحة من الجدول السابق.

كفاءة الخدمات التعليمية للتعليم المتوسط.

تعد دراسة كفاءة الخدمات التعليمية من أهم الموضوعات في مجال الدراسة، لأنها تكشف لنا طبيعة هذه الخدمة، وأهم المشاكل التي تواجهها، ومدى تطبيق خطط التنمية التي أنشأتها الدولة في جانب هذه الخدمة، وهل هي متوافقة مع المعايير العالمية بل حتى مع المعايير التي وضعتها الدولة؟ أم أن هناك قصوراً في تلك المعايير التي من خلالها يتم فهم ما هو حاصل في هذه المؤسسات التعليمية التي هي من شأنها الرقي بمستوى الدولة والنهوض بها، وسيتم دراسة هذه المعدلات والمعايير وفق البيانات الإحصائية المتاحة التي أمكن الحصول عليها من وزارة التعليم والتربية بالخمسة وذلك لقياس كفاءة الخدمة التعليمية للتعليم المتوسط خلال عام 2015، والتي سنكشف عن مدى تحقيق الكفاءة للمستوى وفق دلائل ومؤشرات إحصائية.

أولاً: متوسط الفصول في المدرسة.

تكمن دراسة متوسط الفصول في المدرسة في معرفة عدد الطلبة الذين ستستوعبهم هذه المؤسسات والتي يتم قبولهم فيها فبشكل عام على مستوى المنطقة بلغ متوسط عدد الفصول بالمدارس 14 فصل لكل مدرسة والجدول رقم (3) يوضح ذلك.

جدول (3)

متوسط عدد الفصول بمدارس منطقة الدراسة لعام 2015م

معدل الفصول / مدرسة	عدد المدارس	عدد الفصول	المحلة
12	1	12	غغريمة
25	1	25	المرقب
13.3	3	40	البلدية
16	3	48	بن جحا
11.3	4	45	لبده
15	2	30	رأس الحمام
7.3	3	22	أولاد خليفة
22	3	66	المعقولة
13.7	3	41	الساحل
12	3	36	كعام
13	1	13	قوقاس
14	27	378	المجموع

المصدر: استناداً إلى إحصائيات وزارة التربية والتعليم الخمس، قسم الامتحانات الخمس، بيانات غير منشورة 2015.

يتضح من الجدول السابق أن أعداد الفصول ترتفع عن المتوسط الذي وضعته الدولة والذي يبلغ 8.6 فصول لكل مدرسة كما هو الحال بمحلة المرقب التي بلغ متوسط الفصول بالمدرسة 25 فصلاً/مدرسة، وعلى الرغم من أن بعض المحلات توجد بها ثانوية واحدة، كما هو الحال في محلة المرقب، وبالرغم من انخفاض الكثافة السكانية بهذه المحلة إلا أن الطلبة المتمركزين بالمحلات الأخرى يدرسون بهذه الثانوية، وتضم هذه الثانوية الطالبات الإناث فقط، مما يلجئ الآباء لتدريس بناتهم في هذه الثانوية، إما لإمكاناتها من حيث توافر المدرسين، أو المعامل المدرسية، أو أن الآباء يفضلون أن تدرس بناتهم في ثانوية غير مختلطة بالذكور وبالتالي يمكن تقسيم هذا المتوسط إلى عدد من الفئات:

- الفئة الأولى: وهذه الفئة بلغ متوسط عدد الفصول بالمدرسة من 25 فأكثر وتتمثل في

محلة المرقب.

- الفئة الثانية: يتراوح متوسط عدد الفصول بالمدرسة ما بين 20-25 فصلاً/مدرسة، وتضم هذه الفئة محلة المعقولة، وكلما ارتفعت عدد الفصول بالمدرسة كلما قلت كثافة الفصول من الطلبة، وهذا بدوره يؤدي إلى سير العملية التعليمية نحو الأفضل.
- الفئة الثالثة: يتراوح متوسط عدد الفصول بالمدرسة ما بين 15-20 فصلاً/مدرسة، وتشمل محلتي بن جحا ورأس الحمام.
- الفئة الرابعة: تصل متوسطات عدد الفصول بالمدرسة بهذه الفئة ما بين 10-15 فصلاً/مدرسة، وتضم هذه الفئة محلات غنيمة والبلدية ولبده والساحل وكعام وقوقاس.
- الفئة الخامسة: يصل متوسط عدد الفصول داخل المدرسة أقل من 10 فصول/مدرسة، وتضم محلة خليفة.

ثانياً: كثافة الفصول.

يعد هذا المؤشر من المؤشرات الهامة لقياس مدى كفاءة الخدمة التعليمية، فمن خلاله يتم إيجاد العلاقة بين الطلاب وعدد الفصول الموجودة بالمدارس، ليتم فهم وتوضيح كثافة هذه الفصول، وكيفية توفير المدرسين لمواكبة سير العملية التعليمية، ويتضح من الجدول رقم (4) أن كثافة الفصول بالمدرسة على مستوى محلات المنطقة لم تتجاوز 18 طالباً لكل فصل وهذا يدل على كفاءة الخدمة التعليمية بهذه المدارس فهي لم تصل حتى إلى المعدل الذي وضعته الدولة والذي يصل إلى 27 طالباً لكل فصل وهذا ما يمكن ملاحظته من الجدول رقم (4).

جدول (4)

متوسط كثافة الطلبة بالفصول بمنطقة الدراسة لعام 2015م

متوسط عدد الطلبة في الفصل	عدد الفصول	عدد الطلبة	المحلة
18.3	12	219	غنيمة
20.3	25	507	المرقب
17.4	40	696	البلدية
20.9	48	1005	بن جحا
11.2	45	502	لبده
22.0	30	660	رأس الحمام
10.1	22	222	أولاد خليفة
20.0	66	1318	المعقولة
19.2	41	789	الساحل
20.1	36	722	كعام
12.5	13	163	قوقاس
18.0	378	6803	المجموع

المصدر: استناداً إلى إحصائيات وزارة التربية والتعليم الخمس، قسم الامتحانات الخمس، بيانات غير منشورة 2015.

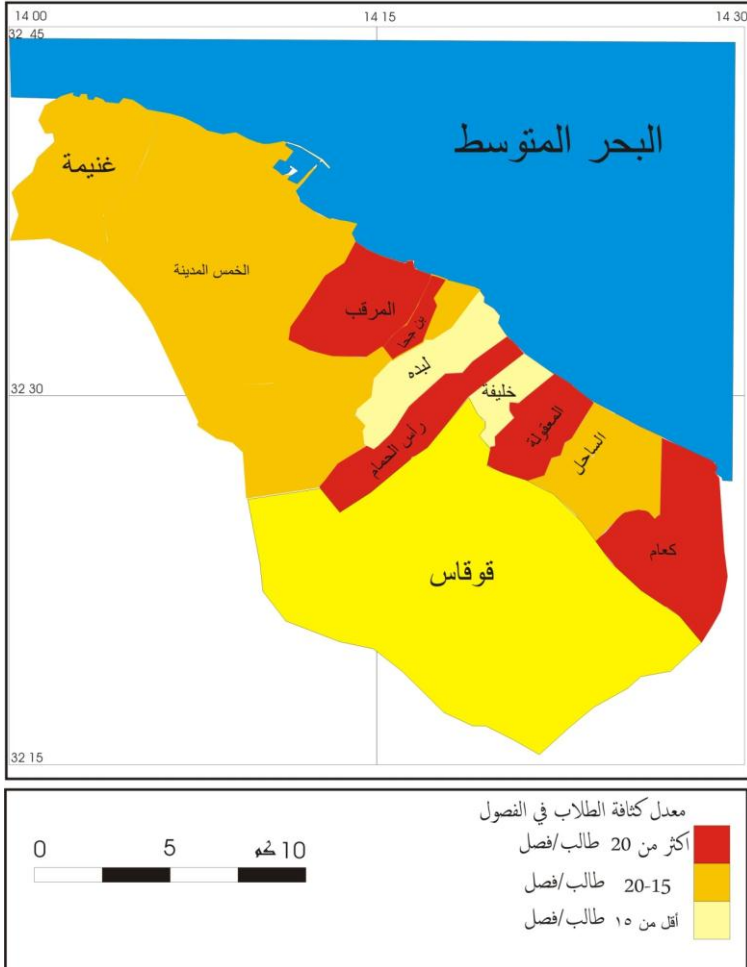
من الجدول السابق يمكن أن نميز ثلاث فئات لدراسة الكثافة على مستوى المنطقة وهي:
 الفئة التي تزيد فيها كثافة الفصل عن 20 طالباً لكل فصل وتضم هذه الفئة محلات المرقب وبن جحا والمعقولة وكعام.
 الفئة الثانية: وهي الفئة التي تتراوح كثافة الفصول من 15-20 طالباً لكل فصل وهي غنيمة والبلدية والساحل.

الفئة الثالثة: وهي الفئة التي تتراوح كثافة الفصول أقل من 15 طالباً لكل فصل وتشمل

محلة خليفة ومحلة لبده ووقواس والشكل رقم (3) يوضح ذلك.

الشكل (3)

معدل كثافة الطلبة في الفصول خلال عام 2015



المصدر: استناداً إلى بيانات الجدول رقم (4).

ثالثاً: متوسط الطلاب في المدرسة.

تعد دراسة متوسط عدد الطلاب في المدرسة مؤشراً ومقياساً آخر لدراسة مستوى كفاءة الخدمة التعليمية، ويوضح هذا المؤشر مدى قدرة المؤسسات التعليمية علي

استيعاب أعداد الطلبة، وتوافقهم مع حاجة المحلات التي تضمهم المنطقة من مباني مدرسية لتلبية حاجة السكان⁽¹⁾، وبالنظر إلى الجدول رقم (5) يلاحظ أن متوسط عدد الطلبة بالمؤسسات التعليمية ترتفع عن المعدل الذي وضعته الدولة الذي يبلغ (232.6) طالباً لكل مدرسة حسب المعيار المحلي والجدول رقم (5) يوضح ذلك.

جدول (5)

متوسط أعداد الطلاب في المدرسة لعام 2015م

الجهة	عدد الطلبة	عدد المدارس	متوسط عدد الطلبة في المدرسة
غنيمة	219	1	219
المرقب	507	1	507
الخمسة المدينة	696	3	232
بن جحا	1005	3	335
ليده	502	4	126
رأس الحمام	660	2	330
أولاد خليفة	222	3	74
المعقولة	1318	3	439
الساحل	789	3	263
كعام	722	3	241
قوقاس	163	1	163
المجموع	6803	27	252

المصدر: استناداً إلى إحصائيات وزارة التربية والتعليم الخمس، قسم الامتحانات الخمس، بيانات غير منشورة 2015.

يتضح من الجدول السابق أن متوسط أعداد الطلبة في المدارس يمكن تقسيمه إلى ثلاث فئات هي:

¹ - علي محمد التير، التعليم والصحة في منطقة زليتن، رسالة دكتوراه غير منشورة، مرجع سابق، ص 167.

- الفئة الأولى: مدارس يتجاوز متوسط عدد الطلبة فيها عن 500 طالب لكل مدرسة وتضم محلة المرقب فعلى الرغم من انخفاض الكثافة السكانية بهذه المحلة إلا أن الطلبة المتمركزين بالمحلات الأخرى يدرسون بهذه الثانوية، وذلك إما لإمكانياتها وكفاءتها من حيث توافر المدرسين، أو المعامل المدرسية، أو أن هناك عواما اجتماعية وهي أن الآباء يفضلون أن تدرس بناتهم في مدارس غير مختلطة.

- الفئة الثانية: مدارس يتراوح متوسط الطلبة بها من 250-500 طالب لكل مدرسة وهذه الفئة كذلك تتجاوز المعدل العام وتضم رأس الحمام والمعقولة والساحل وكعام.

- الفئة الثالثة: وهي تضم مدارس الطلبة أدنى من 250 طالب لكل مدرسة وهذه المدارس جاءت وفق المعيار الذي وضعته الدولة بل في المحلات أقل بكثير من المعدل العام ويرجع السبب في ذلك وجود عدد من المدارس وعدد الطلبة بها قليل ولربما يرجع السبب في ذلك أن المنطقة تعاني من انخفاض معدلات النمو السكاني وهذا ما تم ملاحظته حتى عند دراسة كثافة الطلبة بالمدارس

رابعاً: معدل الطلاب لكل مدرس.

يعد هذا المؤشر من المؤشرات الهامة التي يعتني بها في دراسة كفاءة الخدمة التعليمية، فمن خلال الجدول يتضح أن معدل الطلاب لكل مدرس على مستوى المنطقة بلغ حسب عامي 2014-2015م 7 طلاب لكل مدرس، وبذلك يرتفع عن المعدل العام للبلاد الذي بلغ 5,1 طلاب لكل مدرس.

جدول (6)

معدل طالب لكل مدرس على مستوى محلات المنطقة خلال عامي 2014-2015م

متوسط عدد الطلبة لكل مدرس	عدد المدرسين	عدد الطلبة	المحلة
8	28	219	غنيمة
8	65	507	المرقب
9	79	696	البلدية
5	215	1005	بن جحا
5	103	502	لبده
12	57	660	رأس الحمام
3	67	222	أولاد خليفة
16	83	1318	المعقولة
7	118	789	الساحل
9	80	722	كعام
7	25	163	قوقاس
7	920	6803	المجموع

المصدر: استناداً إلى إحصائيات وزارة التربية والتعليم الخمس، قسم الامتحانات الخمس، بيانات غير منشورة 2015.

من الجدول السابق يلاحظ ما يلي:

- الفئة الأولى: - الفئة الأولى: ارتفع معدل هذه الفئة أكثر من 15 طالباً لكل مدرس كما هو الحال في محلة المعقولة.

- الفئة الثانية، يتراوح متوسط محلات هذه الفئة فمابين 10-15 طالباً لكل مدرس، كما هو الحال في محلة رأس الحمام، .

- الفئة الثالثة: وهي الفئة التي يتراوح متوسطها فما بين 5-10 طلاب لكل مدرس، وتضم محلة غنيمة والمرقب والخمس المدينة والساحل وكعام وقوقاس وهذه المحلات متوسط الطلاب لكل مدرس مرتفعة في هذه الفئة من 7-9 طلاب لكل مدرس ويرجع السبب إلى انخفاض عدد المدرسين عن عدد الطلبة مما أدى هذا إلى ارتفاع متوسط الطلاب لكل مدرس. باستثناء محلتي لبده وبن جحا التي كانت معدلاتها متوافقة مع المعدل العام

- الفئة الرابعة: يصل المتوسط بهذه الفئة أقل من 5 طلاب لكل مدرس، وتضم محلة خليفة

خامساً: معدل مدرس لكل فصل.

تأتي دراسة أهمية هذا المعدل لقياس معدل مدرس لكل فصل، وهو أحد المؤشرات التي يقاس بها كفاءة الخدمات التعليمية، فتأتي أهمية قياس هذا المعدل في توفر المدرسين، ومدى اكتفاء هذه المدارس من المدرسين الذين هم الأساس والعمود الفقري الذي تقوم عليه العملية التعليمية، وكذلك تأتي أهمية هذا المعدل لقياس عدد المدرسين المطلوبين للمدارس، ومدى احتياج المدارس من هؤلاء المدرسين، وقد بلغ المعدل العام على مستوى الدولة 5.5 مدرس لكل فصل، ومن خلال الجدول يتضح أن معدل عدد المدرسين لكل فصل على مستوى محلات المنطقة لم يتجاوز 2 مدرس لكل فصل وهذا يدل على سوء كفاءة هذا المؤشر.

جدول (7)

معدل مدرس لكل فصل على مستوى محلات المنطقة خلال عامي 2014-2015م

المحلة	عدد المدرسين	عدد الفصول	متوسط عدد المدرسين/فصل
غنيمية	28	12	2
المرقب	65	25	3
البلدية	79	40	2
بن جحا	215	48	4
ليده	103	45	2
رأس الحمام	57	30	2
أولاد خليفة	67	22	3
المعقولة	83	66	1
الساحل	118	41	3
كعام	80	36	2
قوقاس	25	13	2
المجموع	920	378	2

المصدر: استناداً إلى إحصائيات وزارة التربية والتعليم الخمس، قسم الامتحانات الخمس، بيانات غير منشورة 2015.

يتضح من الجدول السابق ما يأتي:

- الفئة الأولى: يتراوح متوسط هذه الفئة فيما بين 4-5 مدرسين لكل فصل، فهذه المؤتمرات معدلاتها أدنى من المعدل العام، وهذا يدل على انخفاض عدد المدرسين عن عدد الفصول المخدومة، ويسبب هذا إلى عدم سير العملية التعليمية بطريقة سليمة، وتضم هذه الفئة محلة بن جحا.

- الفئة الثانية: تراوح متوسط مدرس لكل فصل فيما بين 3-4 مدرسين لكل فصل، وتضم محلات المرقب، وخليفة، والساحل.

- الفئة الثالثة: يقل متوسط مدرس لكل فصل عن 3 مدرسين لكل فصل، ويضم محلات هذه الفئة كل من غنيمة والبلدية ولبدنه ورأس الحمام وكعام وقوقاس وأدنها معدلاً محلة المعقولة.

ثالثاً: تقدير الاحتياجات المستقبلية للخدمات التعليمية للتعليم المتوسط.

مقدمة:

تعد دراسة الاحتياجات المستقبلية للخدمات التعليمية من أهم المصادر التي يعتمد عليها عند تخطيط برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية، حيث يدخل تقدير الاحتياجات المستقبلية فيما يسمى بتخطيط الخدمات التعليمية، فهي الوسيلة والأداة المستخدمة في التخطيط التنموي، وذلك من أجل تحقيق الرفاهة الاقتصادية والاجتماعية،⁽¹⁾ إن نجاح التخطيط التعليمي، وتحقيق عدالته، يتطلب كفاية من عدد المدارس، والفصول التي يتم تقديرها حسب احتياجات السكان من هذه الخدمة في المستقبل.⁽²⁾ هذا ويعد تقدير حجم السكان من الأمور المهمة في التخطيط للخدمات

¹ - Jones, Ho.1995."Social Welfare In Third World Development" First Edition,

Macmillan Education LTD, London. 167-188

² - جهاد محمد أبو طويلة، واقع خدمات التعليم العام والاحتياجات المستقبلية في الضفة الغربية، المجلة الجغرافية

العربية، العدد السابع والثلاثون، الجزء الأول، الجمعية الجغرافية المصرية، القاهرة، 2001، ص85.

التعليمية على مستوى الشعبية ومدنها، إذ يعتمد هذا التقدير على حجم عدد السكان العام، وعدد الطلبة، وكذلك تقدير عدد المدارس، وعدد الفصول، وعدد المدرسين الذين يتوقف عليهم تخطيط العملية التعليمية⁽¹⁾، وقد أولت الدولة اهتماماً بوضع خطط تنموية ومستقبلية، ولكن يبدو أنها لا تتم وفق ما أعد لها، وذلك بسبب عدم كفاءة الأجهزة القائمة على التنفيذ.⁽²⁾ ويقول Lewis Keeble "إن أول ما يتطلبه السكان في الأحياء السكنية هي المدرسة، وبالتالي فإن وجود المؤسسة التعليمية أمر ضروري لتركز السكان"⁽³⁾، ومن ثم فإن تحقيق مبدأ التوازن في تخطيط الخدمة التعليمية يجب أن يأخذ في عين الاعتبار توزيع الخدمة مع توزيع السكان.⁽⁴⁾ هذا وإن تقييم الخدمة التعليمية وتقدير الاحتياجات المستقبلية سبب في بناء وتقديم الدولة في العملية التعليمية⁽⁵⁾، ومع التطورات والمستجدات التي تشهدها منطقة الدراسة كان لزاماً علينا دراسة التوقعات المستقبلية للخدمة التعليمية، وسيتم دراسة هذه التوقعات بشكل مبدئي على مستوى محلات منطقة الخمس، وذلك حسب تقديري 2025 ولكن قد تختلف هذه التوقعات مستقبلاً نتيجة للتغيرات التي طرأت على ليبيا بصفة عامة ومنطقة الدراسة بصفة خاصة، من خلال الزيادة الطبيعية وغير الطبيعية، وكذلك مدى تنفيذ مخططات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وقد اعتمد الباحثان تقدير حجم الزيادة المتوقعة للسكان على عام الأساس 2010. والجدول رقم (8) يوضح التقديرات المستقبلية لعدد الطلبة وما يلزمهم من عدد للمدارس والفصول.

¹ - علي زكي علي سليمان، جغرافية الخدمات في محافظة البحيرة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، قسم الجغرافيا، 1994، ص 205.

² - أمال حلمي سليمان، جغرافية المرافق والخدمات في شعبية سبها، المجلة الجغرافية العربية، العدد الرابع والخمسون، الجزء الثاني، الجمعية الجغرافية المصرية، القاهرة، 2009، ص 225.

³ - Keeble, L., Principles and Practice of Town and Country Planning, Estates Gazette Ltd. London, 1972.p.222.

⁴ - ناصر مرشد سعد الزير، التعليم المتوسط الحكومي في مدينة الرياض، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، قسم الجغرافيا، 2000، ص 241.

⁵ - سيف محمد العتيبي، التعليم العام بحاضرة الإحساء، مرجع سابق، ص 351.

الجدول (8)

التقديرات المستقبلية لعدد الطلبة والمدارس والفصول

المحلة	عدد الطلبة عام 2015	عدد الطلبة عام 2025	عدد الفصول المتوقعة عام 2025	عدد المدارس المتوقعة عام 2025
المرقب	1920	5219	193	22
الخمس المدينة	507	1378	51	6
لبده	502	502	19	2
رأس الحمام	660	1794	66	8
خليفة	222	300	11	1
المعقولة	1318	1318	49	6
الساحل	789	2145	79	9
كعام	722	722	27	3
قوقاس	163	443	16	2
المجموع	6803	13821	512	60

المصدر: استناداً إلى بيانات الجدول رقم (1).

يتضح من الجدول السابق أن تقديرات عدد الطلاب لعام 2025 تصل بنحو 13821 طالب ويلزم هؤلاء الطلبة حوالي 512 فصلاً أي يلزم هؤلاء الطلبة حسب المعايير المحلية نحو 60 مدرسة خلال العام 2025 هذا على مستوى المنطقة وتبين أعداد

النتائج والتوصيات:

من أهم النتائج التي توصل إليها الباحثان ما يلي:

تفاوت أعداد الطلبة من محلة لأخرى وذلك تبعاً لعدد السكان المقيمين في تلك المحلات تتباين أعداد الفصول والمدارس والمدرسين كذلك من محلة لأخرى. لوحظ أن متوسط أعداد الفصول بمدارس منطقة الدراسة جاءت متوافقة مع المعايير المحلية وهذا يدل على كفاءة الخدمة باستثناء محلة خليفة. كفاءة متوسط ما يخدمه الفصل من الطلبة (كثافة الطلاب) حيث لم يتجاوز المتوسط عن

18 طالب لكل فصل.

كفاءة متوسط أعداد الطلبة في المدرسة في كثير من محلات المنطقة باستثناء محطة المرقب والمعقولة وبن جحا ورأس الحمام إلا أن هذه المحلات تمتاز مدارسها بوجود عدد كافٍ من الفصول.

سوء كفاءة ما يخدمه المدرس من الطلاب حيث بلغ ما يخدمه المدرس من الطلاب 7 طلاب لكل مدارس وبذلك يتجاوز المعيار المحلي البالغ 5 طلاب لكل مدرس.

سوء كفاءة ما يخدمه المدرس من الفصول حيث يصل المعدل العام 2 مدرسين لكل فصل وبالتالي أقل من المعدل العام البالغ 5.5 مدرسين لكل فصل.

توصيات البحث:

تحتاج المنطقة إلى تخطيط متوازن في أعداد المدارس وذلك للرفع من مستوى كفاءتها.

تحتاج المؤسسات التعليمية إلى زيادة في أعداد المدرسين.

أن يكون التخطيط التعليمي مرتبط بالتخطيط القومي وذلك تبعاً للمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية.

تحتاج المنطقة على أعداد من المؤسسات التعليمية والتي من المفترض أن تأتي وفق خطط تنمية للسنوات المقبلة.

المصادر والمراجع:

1- البرعصي، أسامة، التباين المكاني للخدمات الصحية والتعليمية بمدينة المرج الجديدة، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة قارون، 2005.

2- التير، علي محمد، التعليم والصحة في منطقة زليتن، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، 2008.

3- الثابت، وداد الوظيفة التعليمية في منطقة العجيلات للمدة 1990-2003، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة السابع من إبريل، 2004.2005.

4- الزير، ناصر مرشد سعد، التعليم المتوسط الحكومي في مدينة الرياض، رسالة

- دكتوراه غير منشورة، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، قسم الجغرافيا، 2000، ص 241
- 5- الشركسي، ونيس عبد القادر ، التعليم والصحة في بلدية مصراتة، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2001.
- 6- العتيبي، سيف محمد، التعليم العام بحاضرة الإحساء، دراسة في جغرافية الخدمات، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس، 2005.
- 7- أبو طويلة، جهاد محمد ، واقع خدمات التعليم العام والاحتياجات المستقبلية في الضفة الغربية، المجلة الجغرافية العربية، العدد السابع والثلاثون، الجزء الأول، الجمعية الجغرافية المصرية، القاهرة، 2001
- 8- أبوعيانة، فتحي محمد ، جغرافية السكان أسس وتطبيقات، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط5، 2000.
- 9- خلف الله مصطفى، الوظيفة التعليمية لشعبية الزاوية، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة السابع من إبريل، 2006
- 10- سليمان، أمال حلمي ، جغرافية المرافق والخدمات في شعبية سبها، المجلة الجغرافية العربية، العدد الرابع والخمسون، الجزء الثاني، الجمعية الجغرافية المصرية، القاهرة، 2009.
- 11- سليمان، علي زكي علي ، جغرافية الخدمات في محافظة البحيرة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، قسم الجغرافيا، 1994.
- 12- عبد الله، علاء سيد محمود، التعليم الابتدائي في مصر، دراسة في جغرافية الخدمات، المجلة الجغرافية العربية، العدد السابع والثلاثون، الجزء الأول، الجمعية الجغرافية المصرية، القاهرة، 2001.
- 13- محمد، هاني حسني، التحليل المكاني لتوزيع مدارس مرحلة التعليم الأساسي بحي المنتزه باستخدام نظم المعلومات الجغرافية، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب،

جامعة الإسكندرية، 2006.

14- الهيئة الوطنية للمعلومات والتوثيق، النتائج النهائية للتعداد العام للسكان، 2006، طرابلس، شعبية المرقب، 2006.

15- Barclay. Georges .Techniques of Population Analysis. John Wiley and Sons. New York. 1970.

16- Jones, Ho.1995."Social Welfare In Third World Development"
First Edition, Macmillan Education LTD, London.

17- Keeble ,L., Principles and Practice of Town and Country
Planning, Estates Gazette Ltd. London, 1972.

نموذج نظري لتصور العلاقة بين الاكثاب وتصور الانتحار

إعداد: د. عثمان علي أميمن*

أ. زينب محمد حمودة**

تمهيد:

يرى "ديفيد ويلر" أن النموذج عبارة عن "تصور لمجموعة من الظواهر يتم تكوينه على أساس عقلائي، ويكون هدفه النهائي تزويد النسق الصوري الذي عندما يتم تحقيقه أصبح نظرية، وبالحدود والعلاقات والقضايا.... ويرتبط هذا التعريف بصورة أو بأخرى بفكرة "ماكس فيبر" عن النموذج المثالي والذي حدده بأنه "تصور عقلي وبناء فكري يطرحه الباحث مسبقاً لتوجيه البحث ومتطلباته وإجراءاته الميدانية، كما أنه (النموذج) يرتبط بذهن الباحث وتصوره حول دراسة الواقع بصورة مباشرة أو غير مباشرة"⁽¹⁾.

ويعرف التير (2013) النموذج بأنه "مجموعة تصورات حول الكيفية التي يتصور بها العالم أو الظاهرة. هو تصور حول الظاهرة يوجه الباحث نحو العناصر أو المتغيرات التي يمكن الاهتمام بها. هو نموذج نظري يتألف من مفاهيم وتصورات ودعاوي وقضايا تتصل بمجال رئيس". الباراديجم ليس بنظرية؛ فقد يتركب من عدد كبير من النظريات، قد تتصل جميعها بمدرسة نظرية واحدة، وقد تستمد النظريات من مدارس مختلفة"⁽²⁾.

النماذج العلمية عبارة عن صياغات تصورية منسقة علي نحو مبسط تضع العناصر المتشابهة في شكل أطار محدد. وللنماذج وظائف محددة من أهمها أنها تقدم لنا صوراً من النظريات، مثل نموذج علم الاجتماع الوضعي أو العضوي، أو أصراعي

* أستاذ علم النفس الاجتماعي بجامعة المرقب.

** مساعد محاضر بكلية آداب مسلاته.

1 - محمد عبدالله عبدالرحمن، النظرية في علم الاجتماع: النظرية الكلاسيكية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2006، ص60.

2 - مصطفى عمر التير، الغاية تبرر الوسيلة: دراسة اجتماعية لظاهرة الغش في الامتحانات، طرابلس:

دار مداد للطباعة والنشر والتوزيع والإنتاج الفني، 2013، ص46.

الخ... وتمكن النماذج من إدراك ويسرعة وعلي نحو شامل أنواع العلاقات بين المتغيرات التي تعبر عنها النظريات. ويمكن إخضاع النتائج المشتقة من هذه التوقعات لمزيد من الفحص الشامل. وبما أن هذه النتائج لا وجود لها، فإنه يمكن صياغة إجراءات بحث وتصميمات تساعد علي اشتقاقها. كما تبين النماذج بوضوح حدود النظريات ونطاقها التصوري لأنها تعمل من خلال تركيز اهتمامها علي الظواهر التي تشتمل عليها النظرية. "يستخدم مصطلح "نموذج" أحيانا بدلاً من مصطلح نظرية أو مرادفاً له، ويمكننا النظر إلى كل من النموذج والنظرية باعتبارهما أدوات شرح أو محاور لها إطار مفاهيمي واسع. وتتصف النماذج في اغلب الأحيان بأنها تستعمل التشبيهات لإعطاء صورة بصرية أو بيانية عن الظاهرة المراد شرحها، وإذا التزمت النماذج بالدقة وعدم تحريف الحقائق فيمكنها أن تساعدنا كثيراً على الوصول إلى وضوح الرؤية والتركيز على القضايا الأساسية في طبيعة الظاهرة موضوع الدراسة" (1).

يفيد النموذج Model في معرفة مدي بداية حدود أو نهاية النظرية ومعرفة ما تفيد في تفسيره أو تخفق فيه. يفيد النموذج في تحديد العلاقات المتداخلة بين خصائص الظواهر مثل نموذج الأسرة، ولكن يؤخذ علي بعض النماذج عجزها عن التفسير؛ فنمط الأسرة النواة مثلاً لا يفيد في تفسير أي شيء داخل هذه الوحدة. هذا وتتميز النماذج بالآتي:

- 1) النموذج مثال يمكن الاقتداء به.
- 2) النموذج تصور للطريقة التي يرتبط بها اثنين أو أكثر من المفاهيم.
- 3) النموذج بناء من العلاقات والعناصر يوضح التفاعل بينهم ويمثل جزءاً من الواقع.
- 4) النموذج بناء مفاهيمي يبسط الأجزاء المعقدة من الواقع ويحدد المكونات الرئيسية ويوضح العلاقات المتبادلة بين هذه المكونات.

¹ - لويس كوهين، و لورانس مانبون، مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والتربوية، ترجمة: كوثر حسين

كزجك، وليم تاووضروس عبيد، القاهرة: الدار العربية للنشر والتوزيع، 1990، ص35.

5) النموذج هيكل يحتوي على مجموعة من المتغيرات بينها علاقات متبادلة لها تماثل مع المتغيرات والعلاقات القائمة في الحياة الواقعية، ويهدف النموذج إلى الاسترشاد به في الفهم والتفسير.

6) النموذج أداة يسترشد بها الباحث في وصفه وتفسيره للواقع أو للظاهرة التي يدرسها،⁽¹⁾.

ويمكن للباحث إعداد مقاييس لمتغيرات النمط الفرضي وتحليل بياناتها. وليس من الضروري أن يتحقق النمط الفرضي تحقيقاً كاملاً، ذلك لأن النمط هو أداة تصويرية تفيد الباحث في تنظيم بياناته، كما تفتح أمامه أفقاً جديدة جديرة بالاهتمام. هذا ولقد لعبت الأنماط الفرضية دوراً مهماً في تطوير علم الاجتماع وتنمية المعرفة الاجتماعية من منظور تاريخي مقارن. كما أن صياغة الأنماط الفرضية ساعدت الباحثين علي التعرف علي العلاقات البنائية لكثير من الظواهر والعلاقات والأنظمة، وكشفت عن الاختلافات التي يمكن أن تكون قائمة بين الواقع والنظريات التي تسعى إلي تفسيره علي نحو أسهم في تعديل هذه النظريات.

نموذج نظري لتفسير العلاقة بين الاكئاب والعدوان والغربة عن الذات وتصور الانتحار:
يلحظ كثرة انتشار حالات الانتحار في كافة مجتمعات العالم هذه الأيام. ويكتنف ظاهرة الانتحار الكثير من الغموض. ذلك لأن العوامل التي تدفع الفرد للانتحار تذهب مع المنتحر نفسه. فنحن لا نملك أدلة بين أيدينا على معرفة أسباب انتحار شخص ما. ثم إن الكثير من الناس لا يفكرون بموضوعية في أسباب انتحار قريب لهم مثلاً. فصدمة الانتحار قد تجعل أقارب المنتحر يقبلون مواساة الناس لهم. ويمرور الأيام والشهور ينسى ذوو المنتحر التفكير في أسباب انتحار قريبهم. كما أن الكثير من الأقارب قد يعرفون أسباب انتحار قريبهم مثلاً، ولكن مع ذلك يحرصون على إخفاء هذه الأسباب أمام الناس. ولذلك من المفيد جداً إجراء دراسات مكثفة بإتباع منهج دراسة الحالة مثلاً حول حالات

¹ - إبراهيم أبو لغد، ولويس مليكة، البحث الاجتماعي: مفاهيمه وأدواته، سرس اللبان: مركز التربية الأساسية في العالم العربي، 1995، ص159.

لأفراد انتحروا من خلال جمع معلومات عنهم من قبل أقاربهم. ذلك لأن معرفة الظروف النفسية والبيولوجية والاجتماعية التي سبقت انتحار شخص ما، قد تفيدنا في معرفة أسباب إقدام ذلك الشخص على ارتكاب الفعل الانتحاري. ولاشك أننا لو حللنا هذه الأسباب بدقة وموضوعية، فإننا قد نتمكن من التنبؤ بانتحار بعض الأشخاص مستقبلاً عندما نلاحظ أن ما عرفناه من أسباب حول أناس انتحروا في السابق ينطبق عليهم.

وهناك طريقة أخرى نستطيع أن نعرف بها مدى استعداد الفرد للتورط في السلوك الانتحاري. وتتمثل هذه الطريقة في معرفة اتجاه الفرد نحو السلوك الانتحاري، وفي معرفة درجاته على مقاييس تقيس قضايا تتعلق بأسباب الانتحار مثل الاكتئاب، اليأس، ضغوط الحياة، العدوانية، الاغتراب، تصور الانتحار، وما إلى ذلك. ذلك لأن الدرجات المرتفعة على هذه المقاييس قد تنبئ جيداً باستعداد بعض الأفراد لارتكاب فعل الانتحار. ويعتبر هذا اللون من البحث العلمي من الأساليب الوقائية التي تفيد في حماية المجتمع من وقوع بعض الكوارث والظواهر السلبية فيه.

لقد درس باحثون بعض العوامل المتعلقة بتصور الانتحار، وتبين أن تصور الانتحار يرتبط بالدرجة الأولى بعوامل كاليأس، والاكتئاب وضغوط الحياة منفردة أم مجتمعة، (1).

ولقد قدمت تفسيرات نفسية واجتماعية وبيولوجية للسلوك الانتحاري. بيد أن هذه التفسيرات تظل تحتاج إلى أدلة امبيريقية تقبلها أو تدحضها. والباحث المهتم بدراسة ظاهرة ما عادةً ما يفكر بطريقة عقلانية في العوامل المؤدية لهذه لظاهرة على المستوى النظري، وقد يفترض علاقات بين متغيرات ذات علاقة بالظاهرة على مستوى التفكير المجرد أو الخيال. وهو يصيغ في العادة أولاً فروضه بطريقة عقلية ومنطقية لتفسير الظاهرة، ثم يحاول التحقق من صدق هذه الفروض امبيريقياً. ولاشك أن الخيال العلمي

¹ - أمانة محمد العكاشي، مظاهر ضغوط الحياة والاكتئاب واليأس وعلاقتها بتصور الانتحار لدى طلبة الثانويات التخصصية بشعبية المرقب: دراسة امبيريقية، (رسالة ماجستير غير منشورة)، الخمس: كلية الآداب والعلوم، 2006.

الخصب المبني على المنطق هو مفتاح الوصول إلى الفروض الذكية ومن ثم مفتاح الوصول إلى تفسير كافة الظواهر والمشكلات النفسية والاجتماعية.

ولذلك وانطلاقاً من هذه المبادئ، فإن الباحث يفترض أن هناك علاقة بين الاكتئاب والعدوان والاعتراب النفسي كمتغيرات مستقلة ودخيلة وبين تصور الانتحار. وهذا الافتراض ينطلق من رؤية نظرية مبعثرة تصف معاناة الإنسان، وتصف بعض سلوكياته في مواقف معينة. والتحليل التالي يوضح العلاقة بين هذه المتغيرات.

الاكتئاب والعدوان والغربة عن الذات:

يشير الاكتئاب Depression إلى حالة مزاجية من الحزن والغم والتفكير التشاؤمي مع ضعف الاهتمام أو الرضا عن الأنشطة الممتعة العادية، والمصحوب بحالات حادة من فقدان الشهية للطعام، وفقدان الوزن الناجم عن ذلك، والأرق وبخاصة الأرق الأوسط والأخير، أو النوم الزائد، والوهن، ومشاعر الدونية أو قلة القيمة، أو الشعور بالذنب، وفقدان القدرة على التفكير أو التركيز، أو اجترار أفكار الموت أو الانتحار، ويظهر الاكتئاب كعرض لاضطرابات ذهنية كثيرة،⁽¹⁾.

الاكتئاب عبارة عن خبرة وجدانية ذاتية تتبدى في أعراض الحزن، والتشاؤم، والشعور بالفشل وعدم الرضا، والشعور بالذنب، وعدم حب الذات، وإيذاء الذات، والانسحاب الاجتماعي والتردد وتغير صورة الذات وصعوبة النوم والتعب، وأخيراً فقدان الشهية. أما " بيك" Beck فعرف الاكتئاب بأنه خبرة معرفية . وجدانية تتبدى في أعراض الحزن، والتشاؤم، وعدم حب الذات ونقدها، والأفكار الانتحارية والتيهج والاستثارة، وفقدان الاهتمام والتردد، وانعدام القيمة، وفقدان الطاقة، وتغيرات في نمط النوم والقابلية للغضب، وتغيرات في الشهية وصعوبة التركيز، والإرهاق والإجهاد، وفقدان الاهتمام بالجنس"،⁽²⁾.

1- Colman. Andrew, M. Oxford Dictionary of Psychology, London: Printed by Great Britain by Clays Ltd, St Ives plc, 2002, p.196.

2 - هاشم عبدالحميد محمود محمد، تصور الانتحار وعلاقته بالاكتئاب واليأس لدى عينة من طلاب الثانوى العام، كلية الآداب: جامعة جنوب الوادي بقنا، د.ت.

ويشير مفهوم العدوان Aggression إلى كل فعل يستهدف أساساً إلحاق الأذى بالآخر أو بعضوية، سواء أكان الإيذاء جسدياً أو نفسياً. العدوان كل سلوك يوجه نحو الغير الغرض منه إلحاق الأذى والضرر النفسي والمادي، وقد يوجه نحو الذات فيلحق الضرر بها⁽¹⁾.

وعرف فايد (2001) العدوان بأنه أي سلوك يتسم بالأذى أو التدمير أو الهدم سواء كان موجهاً ضد الآخرين أو ضد الذات، وسواء تم التعبير في شكل بدني أو شكل لفظي،⁽²⁾. وبناءً على تعريف الاككتاب السابق يمكننا أن نفترض أن الاككتاب قد يكون على علاقة قوية بالانتحار الذي هو فعل عدواني صرف. والانتحار هو قتل النفس. ويعتبر الانتحار أشد أنواع العدوان الموجهة نحو الذات، وإذا كان الانتحار هو نوع من العدوان الموجه للذات، فما هي الصلة بينه وبين الاككتاب؟

الهدف الأساسي للعدوان هو إيذاء الآخر أو العضوية جسدياً أو نفسياً. بيد أن "فرويد" يؤكد على أن للإنسان نزعة داخلية في الاعتداء والتدمير، وهذه النزعة تنطوي تحت غريزة التاناتوس "غريزة الموت". فالإنسان في رأي "فرويد" هو ذئب لأخيه الإنسان، وأن الإنسان أناني وجشع، وأنه لا توجد محبة صادقة في الواقع بين إنسان وآخر. ففي رأي "فرويد" أن لدي الإنسان ميل فطري بدائي للتدمير ورغبة ملحة في قهر ذاته وقهر الآخرين. ولذلك فإن الإنسان لا يستطيع منع نفسه من الرغبة في التدمير الموجه للذات أو للآخر. يقول "فرويد" في هذا الصدد: "ليس الإنسان قطعاً ذاك الكائن الطيب، ذا القلب المتعطش إلى الحب، والذي يُقال عنه أنه يدافع عن نفسه عندما يهاجم، بل هو، على العكس من ذلك، كأن تنطوي معطياته الغريزية على قدر كبير من العدوانية... إن الإنسان في الواقع يغيره أن يشبع حاجته العدوانية على حساب قريبه، ويستغل عمله بلا

¹ - أديب الخالدي، المرجع في الصحة النفسية، ط (2)، غريان: الدار العربية للنشر والتوزيع، 2002، ص104.

² - فايد، حسين علي، العدوان والاككتاب في العصر الحديث (ب)، نظرة تكاملية، الإسكندرية، مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع، 2001، ص13.

تعويض، ويستغله جنسياً من دون موافقته، ويستولي على أملاكه ويذله، وينزل به الآلام ويضطهده ويقتله"، وهذا يعني أن العدوانية من المقومات الأساسية للكائن البشري،⁽¹⁾ للإنسان في رأي "فرويد" استعداد بيولوجي ونفسي للعدوان. ولذلك فإن أية استئارة عدوانية ستطلق العدوان من عقاله في شكل عدوان مباشر، وقد تستخدم وسائل أكثر ليونة لبلوغ أهدافها. وقد يحول الواقع دون ظهور العدوانية، ولذلك فإن العدوانية تنتظر الوقت المناسب للتعبير عن نفسها، فتكشف تلقائياً عن الطبيعة المتوحشة والمفترسة في الإنسان. ونستطيع أن نكشف العدوان فينا من خلال الخلل في علاقتنا بالآخرين.

يشكك "فرويد" في مقولة "أحبب قريبك كنفسك". ويعلل "فرويد" ذلك بقوله: إن حبي لهو في نظري شيء ثمين، ثمين بحيث لا أملك الحق في هدره والتفريط به دونما وعي، وهو يفرض علي واجبات يفترض في أن أكون قادراً على الوفاء بها ولو مقابل تضحيات. وإذا أحببت كائناً آخر، فلا بد أن يكون مستأهلاً لذلك بصفة من الصفات ...

إنه يستأهل حبي حين يشبهني في وجوه مهمة شبيهاً عظيماً، يمكنني معه أن أحب فيه نفسي أنا. إنه يستأهله إذا كان أكمل مني إلى حد يتيح لي إمكانية أن أحب فيه مثلي الأعلى بالذات. وعلى أن أحبه إذا كان ابن صديقي، لأن ألم صديقي، إذا وقع مكروه لابنه، سيكون أيضاً ألمي، ولن يكون أمامي مناص من أن أشاطره إياه. ولكن إذا كان بالمقابل مجهولاً مني، وإذا لم يجتذبني بأي صفة شخصية، ولم يلعب بعد أي دور في حياتي العاطفية، فإنه من العسير جداً على أن أشعر تجاهه بعاطفة حب. ولو فعلت ذلك لاقترفت ظلاماً، لأن أهلي وأصحابي جميعاً يقدرون حبي لهم على أنه إثارة وتفضيل، وسأكون محجفاً بحقهم لو خصصت غريباً بالمحابة نفسها. وإذا كان لا بد والحالة هذه، أن أشركه في مشاعر الحب التي تخالجنني، كما يقتضي العقل إزاء الكون قاطبة (وهذا فقط لأنه يحيا على هذه الأرض مثله مثل الحشرة أو دودة الأرض أو الحفت - والذي هو جنس من الثعابين غير السامة-)، فإنني أخشى ألا يشع من قلبي باتجاهه سوى قدر

¹ - فيصل عباس، التحليل النفسي وقضايا الإنسان والحضارة، بيروت: دار الفكر اللبناني، 1991،

ضئيل للغاية من الحب، كما أخشى بكل تأكيد ألا يكون في مقدوري أن أعقد عليه من الحب بقدر ما يأذن لي العقل أن أحتبسه من أجل نفسي،⁽¹⁾.

ومعنى هذا أن الحضارة تطالبنا بأن نحب الآخر كحبنا لأنفسنا، وفي هذا مطلب تقصر دونه الطبيعة البشرية. ومن هنا فإننا نرى قلة وفاء الناس لبعضهم البعض سواءً أكانوا إخوة أم أقارب أم أصدقاء. ولا يرجع هذا إلى الفساد الاجتماعي، وإنما يرجع إلى تلك الطبيعة العدوانية في الإنسان والتي تعبر عن نفسها في شكل المنافسة وحب السيطرة. هذا وقد يظهر الفرد ظاهرياً استهجاناً للقتل والتدمير، بيد أننا نرى في الواقع أن بعض الأفراد لا يتردد في الإساءة إلى قريبه بالكذب والخداع والافتراء عليه إذا أمكنه ذلك بلا عقاب. وتتجسد العدوانية في السلوك الاجتماعي في عدة مظاهر مثل: رفض مساعدة الآخرين، والسخرية، والنقد اللاذع والدعابة القاسية أو الفاحشة، والتمني أو الرغبة في موت الآخر، وإلحاق الأذى بالآخر، وإكراهه وإذلاله وتدميره وبخاصة في ظل حضارة المجتمعات التنافسية.

الأصل في العدوان أنه موجه للذات في رأي "فرويد". ولذلك فإن الفرد لا بد وأن يوجه عدوانيته نحو الخارج (نحو الآخر) لكي يحمي نفسه. إن حب الإنسان لذاته يدفعه إلى توجيه عدوانيته للآخر. أي أن نزوة الموت التي أبعدت عن الأنا ما هي إلا نتيجة لتأثير الليبيدو النرجسي. إن العدوانية التي تفرغ للخارج تعبير عن توتر يعانيه الفرد أو تعبير عن ألم لم يعد قادراً على تحمله.

تستهدف غريزة الموت في رأي "فرويد" الهدم والتدمير، أي تفكيك الارتباطات ومن ثم هدم الأشياء. ويفترض أن الهدف النهائي لها هو إعادة الكائنات الحية إلى حالة غير عضوية. فهي تمثل النزعة الأساسية عند كل كائن حي للعودة إلى الحالة اللاعضوية. وإذا كنا نقر بأن الكائن الحي قد أتى بعد اللاحي وانبثق منه، فإن نزوة الموت تتوافق مع الصيغة التي تذهب إلى أن النزوة تنزع إلى العودة إلى حالة سابقة، وبهذا المنظور يموت

¹ - سيجموند فرويد، قلق في الحضارة، ترجمة: جورج طرابيشي، ط (4)، بيروت: دار الطليعة للطباعة

والنشر، 1996، ص ص 69-70.

كل كائن حي بالضرورة بفعل أسباب داخلية. وفي رأي "فرويد" أن نزوة الموت تعمل في الداخل وبصمت. ولذلك فنحن نفطن إليها فقط عندما تتجه إلى الخارج وتصبح نزوة هدم. ويبدو أن اتجاه هذه النزوة إلى الخارج شيء ضروري لبقاء الفرد. وعندما يبدأ الأنا الأعلى في التكوين يثبت قدر كبير من نزوة العدوان داخل الأنا. حيث يعمل بطريقة تؤدي إلى فناء النفس... وغالباً ما يسبب للشخص الذي يملكه الغضب انتقالاً من حالة العدوان المكبوت إلى حالة إفناء النفس، وذلك بتوجيه عدوانه إلى نفسه (وكان يفضل أن يوجهه إلى شخص آخر)، ويظل جزءاً من الميل إلى إفناء النفس باقياً في الداخل بصفة دائمة حتى ينجح آخر الأمر في إفناء الفرد... وهكذا يمكن أن نفترض أن الفرد إنما يموت بسبب صراعاته الداخلية،⁽¹⁾.

يتسم الإنسان المكتئب بعدة سمات تجعله ناقماً على نفسه. فهو مثلاً يشعر بالذنب وذلك لارتكابه أخطاء لا تغتفر في نظره. ويأخذ الشعور بالذنب شكل هتك عرض المحارم، والسكوت عن الأخطاء، أو التحريض على ممارسة الأخطاء والموبقات، أو مطالبة الأفراد بفعل أشياء ضد إرادتهم، أو انتهاك شعيرة دينية، أو التقصير في الأمور الدينية، أو التقصير في خدمة من يتوجب خدمتهم وما إلى ذلك. فكل مظاهر الشعور بالذنب هذه قد تشعر الفرد بالإثم وكرهية ذاته ومن ثم تدفعه للاعتداء على نفسه في شكل تعريض نفسه للهلاك بالجوع، أو تعمد القيام بالعمل المضني أو المميت على الرغم من قلة الإمكانيات، أو اقرار ذنب متعمد لأجل نيل العقاب، أو قتل النفس المتعمد.

ولكن كيف يتكون الشعور بالذنب؟ قد يكون الشعور بالذنب نتاج الضمير أو الوعي اليقظ، والضمير ليس قوة فطرية في الإنسان، بل إنه غريزة القسوة والعنف التي تتجه إلى تفرغ نفسها داخل الإنسان بعد أن تعجز عن تفرغها في الخارج. يشعر الشخص بالذنب أو بيقظة الضمير بعد أن يتوقف عن توجيه عدوانيته للخارج مثلاً. ذلك لأن الشخص المدمر أو المروع، يكابد ثقلاً مروعاً لعجزه عن التكيف مع وضعه الجديد، وضع المسالمة

¹ - فيصل عباس، التحليل النفسي وقضايا الإنسان والحضارة، بيروت: دار الفكر اللبناني، 1991، ص

والكف عن الاعتداء على الآخرين. لقد تحول مثل هذا في وضعه الجديد، وضع المسالمة إلى حالة التعقل والتفكير في العقاب، إي غدا يمتلك وعياً، بيد أن هناك قوى لا شعورية تدفعه لإشباع دافعه العدوانى بطرق ملتوية وخفية أو مقنعة. وهكذا فإن الغرائز (الرغبات والقوى الحيوية) التي لا تفرغ نفسها في الخارج، تتجه نحو الداخل، أي يجتافه الإنسان، مع الأوامر والنواهي، والمتطلبات الاجتماعية والأخلاقية، وأن تلك القلاع الهائلة التي يحمي بها التنظيم الاجتماعي نفسه ضد الغرائز الحرة، بالإضافة إلى صرامة العقاب، تؤدي إلى أن تتقلب كل غرائز الإنسان الحر، المتشرد، ضد الإنسان نفسه. فالعداء والقسوة، والابتهاج بالاضطهاد، تتقلب كلها ضد الإنسان... فيعاني القلق، والذنب. وهنا يكمن أصل "الضمير المتعب"، أو "الوعي الشقي"،⁽¹⁾.

وقياساً على ذلك فإن الراغب في قتل نفسه، ربما كان يمارس سلوكيات غير مقبولة لرغبته في إشباع غرائز معينة، ولكنه وعندما يتوقف عن فعل ذلك ليقظة ضميره أو تعقله أو وعيه، فإنه قد يعجز عن توافقه مع وضعه الجديد، كما أن غرائزه السابقة ما تزال تبحث عن الإشباع، وقد تحقق ذلك بطرق ملتوية ومقنعة. حقاً إن مثل هذا الشخص توقف عن فعل ما يخالف نصوص ثقافته، بيد أن انفلاته من العقاب وشعوره بالذنب - في رأيه- لا يريحانه، فينقلب عدوانه تجاه نفسه كرجبة في الخلاص من الذنب، وقد تكون محصلة ذلك قتله لنفسه. ذلك لأن الفرد الذي لا يوجه عدوانيته للخارج، أو يكف عن ما يفعله لصحوة ضميره مثلاً، لا بد يوجه عدوانيته لداخله، أي بقتل نفسه.

يكتئب الفرد أيضاً عندما يفتقد حب ذويه أو يشعر بالوحدة والعزلة. وفقدان حب الوالدين أو الأقارب أو الأصدقاء، أو التعرض للغدر من قبل شخص عزيز، قد يتسبب في شعور الفرد بالأم غير محتملة لا يمكن الشفاء منها إلا بإنهاء الحياة. كما يكتئب الفرد بسبب افتقاده عزيز بالموت، أو أثناء تعرضه لصدمة نفسية أو عاطفية، أو تعرضه أو تعرض ذويه لخسارة مادية، أو كارثة طبيعية. كما يكتئب الفرد عند شعوره بالدونية، أو

¹ - فيصل عباس، الاغتراب: الإنسان المعاصر وشقاء الوعي، بيروت: دار المنهل اللبناني، 2008، ص

عند تحقيره أو إساءة معاملته، أو مصادرة حقوقه، أو محاباة الآخرين وتقديرهم على حساب تهميشه.

هناك أدلة علمية على أن للاكتئاب استعداداً وراثياً وبخاصةً في حالات الاكتئاب الذهاني والاكتئاب الشديد. فالإكتئاب يزداد قليلاً عند الأبناء إذا كان أحد الوالدين يعاني من المرض، وأكثر إذا كان كلا الوالدين مصابين بالاكتئاب. ولقد تبين أن فقدان الأم وإهمال الوالدين، أو زيادة رعايتهما، والصراعات المختلفة تتسبب في الاكتئاب. كذلك يرتبط الاكتئاب بالوسواس، والحرص الشديد، وصحوة الضمير، وتغيير السكن، والترقي في العمل، وزيادة عدد أفراد الأسرة، والأحداث السارة مثل الخطوبة والحصول على ترقية. ويرى منظرو النظرية المعرفية أن أسلوب التفكير هو الذي يؤدي إلى المزاج المكتئب، بحيث يصل الفرد عند تعرضه لمشكلة ما إلى مثلث الاكتئاب، والذي تكون أولى زواياه (أنا سيء، أو فاشل)، وثاني الزوايا (إن الناس سيئون ولا يكثرثون)، وفي الزاوية الثالثة (لا أمل في المستقبل)، ويدور الفرد بين هذه النقاط مندفعاً نحو مزاج مكتئب معمماً هذه العبارات السلبية،⁽¹⁾.

هذا ويعد الاكتئاب مرضاً نفسياً، وهو يظهر نتيجة حدوث اضطراب في بعض المواد الكيميائية كالسيروتونين في المخ. ولا يفكر الشخص المكتئب بطريقة صحيحة، لأن المرض يمنعه من فهم الاختيارات الممكنة التي تساعد على الخلاص من ألمه. ويعتقد معظم المكتئبين أن مستقبلهم غير مشرق وليس لديهم ماض سعيد، ولا يدركون إمكانية علاجهم، ولا ينشدون طلب المساعدة لتفانهم الجسمية وآلامهم النفسية. حقاً أن المكتئب لا يرغب في الموت. بيد أنه يختار الموت كحل لآلامه غير المحتملة ومعاناته من أمراض نفسية كثيرة.

وقد يتعاطى المكتئب المخدرات أو الخمر لنسيان همومه. بيد أن تعاطيه هذا قد يطلق العنان لأفكاره المدمرة فيقتل نفسه. ذلك لأن التعاطي يجعل الفرد متهوراً، وقد يصل

¹ - وليد سرحان، وجمال الخطيب ومحمد حباشنة، "الاكتئاب"، عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع،

تهوره لقتل نفسه، وقد يخفي المريض اكتتابه خشية نعتة بالخجل والضعف والدونية. يعاني المكتتب شعوراً مريراً بالدونية، وقلة القيمة، وبخاصةً عندما يفقد حب ذويه. حيث يشعر بأنه منبوذ ومكروه، وبأنه يفقد قوة التأثير في الآخرين، فيصبح مفهومه من ثم عن ذاته مشوهاً، ويشعر بالنقص وقلة الفائدة. بيد أن هذا الشعور بالدونية لا يمر بسلام. حيث قد يُصاب الفرد الذي يشعر بالدونية بالإحباط والتوتر واللذين قد يتم تصريفهما في شكل سلوك عدواني سواءً أكان تجاه الذات أم الآخر لتأكيد الذات أو للانتقام منها.

هناك أدلة علمية على وجود علاقة بين العدوان والاكتئاب. حيث تبين وجود علاقة بين العدوان والاكتئاب أحادي القطبية. ووجدت علاقة بين العدوان والاضطراب ثنائي القطبية الذي يتضمن كلاً من الاكتئاب والهوس. ويرجع الارتباط بين الاكتئاب والعدوان إلى الرفض والإحباط اللذين يولدا مشاعر الغضب وأشكال السلوك العدواني. كما يسهل الاستعداد للعدوان والاكتئاب تقوية العلاقة بينهما. كذلك يعزي العدوان والاكتئاب على التوالي إلى اضطرابات طفولة خارجية وداخلية. وهناك من يرجع الارتباط بين العدوان والاكتئاب إلى عوامل جينية وبيئية، وذلك لوجود ميول اكتئابية وعدوانية. ولقد اتضح وجود علاقة بين العدوان العلاقتي والاكتئاب بشكل واضح لدى الإناث أكثر من الذكور. واتضح أن الأطفال ذوي العنف التفاعلي يعانون أكثر من الأطفال ذوي العنف النشط المؤبد، من الأعراض الاكتئابية والأعراض البدنية واضطراب النوم، واضطراب الشخصية. ووجد ارتباط سالب جوهري بين العدوان وتقدير الذات. ووجدت علاقة موجبة جوهريّة بين تقدير الذات الإيجابي والعدواني. وثمة نظريات ترى أن الاكتئاب عبارة عن غضب موجه للداخل. وهناك نظريات أخرى ترى وجود علاقة بين الغضب المحول ضد الذات والاكتئاب.

وأكدت دراسات كثيرة وجود ارتباط جوهري بين الاكتئاب وكل من العدائية الموجهة ضد الذات والمستوى العام للغضب الذي يخبره الأفراد. ووجد بعض الباحثين علاقة ارتباط موجبة جوهرياً بين التعبير عن الغضب من خلال التهجم اللفظي والتهجم البدني تجاه الناس والتهجم البدني تجاه الأشياء أو البيئة، وبين كل من الغضب والقلق

والاكتئاب. وبصدد علاقة متغير الجنس بالعدوان وجدت فروق لصالح الذكور على مقياس العدوان، وأن ارتباط العدوان بالاكتئاب جاء لصالح الإناث. ووجد أن العدوان الصريح يرتبط بالاكتئاب لدى الذكور مع تقدم العمر. بيد أن العكس صحيح بالنسبة للإناث. ووجد أن ارتفاع المشاعر الاكتئابية يرتبط لدى الإناث بكبت غضبهن، ووجد أن الفروق بين الذكور والإناث بالنسبة للاكتئاب جاءت لصالح الإناث. لكن لم توجد فروق جوهرية بين الجنسين فيما يتعلق بالغضب. وبصدد العلاقة بين الغضب والاكتئاب جاءت الفروق لصالح الإناث، (1).

قد يرتبط الاكتئاب أيضاً بالغيرة عن الذات. وتعرف الغيرة عن الذات بأنها "شعور الفرد بانفصاله عن ذاته، وهو نمط من التجربة يرى الفرد نفسه فيها كما لو كانت ذاته غريبة عنه، إن الفرد يصبح منفصلاً عن نفسه"، (2).

عندما يكتئب الفرد، فإنه يشعر بالدونية، وقلة القيمة، ذلك لأن الإنسان المكتئب إنسان فاقد للدفء والحنان، وفاقد للقدرة على الاستمتاع بالأنشطة الاجتماعية المألوفة، وهو يعاني من ضعف مفهوم الذات لديه. والمكتئب إنسان لم يحقق أي نجاح يذكر، ولذلك فهو يشعر بالإحباط والفشل. يعاني المكتئب أيضاً من الفراغ أو الخواء العاطفي في أسرته، وذلك لافتقاده مثلاً أحد والديه أو كليهما، وقد يعاني من ضعف الارتباط العاطفي بوالديه. ولذلك فهو يشعر بأنه غير مقبول من قبلهما، وقد يؤمن في قرارة نفسه بأنه إنسان غير مفيد اجتماعياً.

الإنسان المكتئب إنسان فاقد لكل أمل في حياته. ولذلك فهو يرى أن المستقبل غير مشرق، وتكون محصلة ذلك شعوره بالملل والتعاسة، وهو ملل ناجم عن عدم إيجاده لأي عمل يجد فيه ذاته، أو يشكل له معنى. والمكتئب يفتقد الطاقة الذهنية والجسمية للقيام

¹ - حسين علي فايد، العدوان والاكتئاب في العصر الحديث (ب)، نظرة تكاملية، الإسكندرية، مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع، 2001، ص ص 91-125.

² - خالد محمد عسل، فاطمة محمود مجاهد، الاغتراب النفسي بين الفهم النظري والإرشاد النفسي

الإكلينيكي، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2010، ص 31.

بأي عمل، وهو يفكر في إنهاء حياته. وبالتعمن في هذه الأعراض الاكتئابية يتضح أنها تعبر عن مظاهر الغربة عن الذات. يشعر المغترب عن ذاته بممل كبير؛ إذ لا شيء يجذبه للحياة، فهو غير محبوب، وليست له قيمة ولم يحرز نجاحاً يذكر، وهو لا يستطيع التأثير في الأحداث من حوله، حيث لا يفيد غيره ولا يستفيد. المغترب عن نفسه لم يحقق نجاحات تذكر في حياته، ما يجعله يتوقع دائماً الفشل تلو الفشل، وهو مجتر دائماً لهومومه، ما يجعله ينظر للحياة بمنظار أسود وقد تراوده فكرة قتل نفسه، وهو يشعر بالضيق، والعجز عن التركيز الذهني وافتقاد الطاقة الجسمية لأداء أي عمل. ولذلك فإننا نفترض أن الإنسان المكتئب لا بد وأن يغترب عن ذاته، وأن يسلك العدوان، وبناءً على ذلك فإننا نقدم الفرضين التاليين:

- 1) إن الأفراد الذين ترتفع درجاتهم على مقياس الاكتئاب أكثر ممارسةً للسلوك العدواني من الأفراد الذين لا ترتفع درجاتهم على نفس المقياس.
 - 2) إن الأفراد الذين ترتفع درجاتهم على مقياس الاكتئاب أكثر شعوراً بالغربة عن الذات من الأفراد الذين لا ترتفع درجاتهم على نفس المقياس.
- الاكتئاب وتصور الانتحار:

يقصد بالانتحار فعل قتل النفس بطريقة متعمدة. ويقدر أن 15% من الناس الذين يعانون من اضطراب الاكتئاب الأساسي أو اضطراب الاكتئاب الثنائي يقتلون أنفسهم سنوياً، وقدّر أن الانتحار يعد السبب التاسع المفضي للموت في الولايات المتحدة وفقاً للأرقام الرسمية، وهي أرقام يعتقد أنها أدنى بقليل من الأرقام الواقعية. وقد أوضح "دوركايم" في كتابه "الانتحار" أن الانتحار الأثاني ينتج عن مشاعر لوم الذات والإحساس بالفشل، وهو أكثر انتشاراً بين العزاب من المتزوجين، وهو ينبثق من فقدان التماسك الاجتماعي، أما الانتحار الإيثاري، فإنه ينفذ لمنفعة الآخرين وهو أكثر شيوعاً في اليابان، وينبثق من الإحساس بالفشل للمجتمع، وهناك الانتحار الأنومي وينبثق من الإحساس من الشعور بأن الحياة غير هادفة، وهو نادر بين الكاثوليك، وبيزغ من غياب المعايير

الاجتماعية التي سماها، (1).

وعرف دور كايم (Durkheim 1897) الانتحار بأنه " كل حالات الموت التي تنتج بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن فعل إيجابي أو سلبي يقوم به الفرد بنفسه وهو يعرف أن هذا الفعل يصل به إلى الموت". وقصر بعض الباحثين تعريف الانتحار في معناه اللغوي حيث عرفوه، بأنه " كل فعل أو أفعال يقوم بها صاحبها لقتل نفسه بنفسه ، وقد تم له ذلك وانتهت حياته نتيجة هذه الأفعال". كما عرف بأنه " قتل الإنسان لنفسه ". وميز بعض الباحثين في تعريفهم للانتحار بين نوعين: الانتحار الحقيقي . أي الموت الجسدي . والانتحار النفسي. وعرف وليم الخولي (1976) الانتحار الحقيقي بأنه " قتل الإنسان لنفسه عمدا". بينما عرف الانتحار النفسي *Psychic suicide* بأنه " نوع من الانتحار غير الصريح، حيث يزهد البعض في الحياة تماما ويبغضونها، وتدفعهم عوامل اليأس إلى تحطيم أنفسهم فيصابون بحالات مرضية. أما بيك وآخرون (2002) فذهبوا إلى أن الانتحار ليس حدثاً منعزلاً ، بل هو عملية معقدة ، وأن السلوك الانتحاري يمكن تصوره باعتباره واقعا متصل لقوة كامنة تشمل تصور الانتحار ، ثم التأملات الانتحارية ، يليها محاولة الانتحار، وأخيرا إكمال هذه المحاولة الانتحارية . ويتفق بونر وريتش *Bonner* (2004 & Rich) مع ما أشار إليه بيك وآخرون (1979) في كون السلوك الانتحاري عملية ديناميكية معقدة بدلا من كونه حدثاً منعزلاً ثابتاً ، وقد عرفا السلوك الانتحاري بأنه " عملية مركبة من مراحل مختلفة تبدأ بتصور الانتحار الكامن ، وتتقدم خلال مراحل من تأمل الانتحار النشط ، ثم التخطيط للانتحار النشط ، وفي النهاية تتراكم محاولات انتحار نشطة لدى الفرد ، وقد يتذبذب مركز الفرد في هذه العملية وفقا لتأثير العمليات البيولوجية والنفسية والاجتماعية، (2).

¹- Colman. Andrew, M. Oxford Dictionary of Psychology, London: Printed by Great Britain by Clays Ltd, St Ives plc, 2002, P.719.

² - هاشم عبدالحميد محمود محمد ، تصور الانتحار وعلاقته بالاكئاب واليأس لدى عينة من طلاب الثانوى العام، كلية الآداب: جامعة جنوب الوادي بقنا، د.ت.

تتفاوت المعدلات المعلنة للانتحار في الدول المختلفة ما بين (25-45) حالة انتحار لكل مائة ألف من السكان سنوياً في الدول الغربية، وتنخفض في الدول العربية إلى ما دون هذه الحالة لكل مائة ألف من السكان. وقد يرجع ذلك إلى أن هناك حماية من الانتحار في المجتمع العربي الإسلامي بسبب الوازع الديني والترابط الأسري والاجتماعي. بيد أن انخفاض النسبة في الدول العربية وغيرها من الدول النامية، يرتبط بعدم دقة التبليغ. ونظراً لما يحمل الانتحار من وصمة في المجتمع، فإن الكثير من الحالات لا تسجل على أنها انتحار، وتعطى كأسباب طبيعية للوفاة. هذا والذكور أكثر انتحاراً من الإناث، مع أن محاولات الإناث الانتحارية تفوق نسبة الذكور. ويرتبط الانتحار بالعزلة الاجتماعية، والعزوبية، وهو منتشر بشكل أكثر بين المطلقين والأرامل، وأن الاكتئاب يأتي على رأس المشاكل النفسية المؤدية للانتحار، ولذا فإن 70% من المنتحرين مكتئبون، وأن بعض المنتحرين من ذوي الشخصيات المضطربة، والمدمنين على الكحول والمخدرات، ومن مرضى الفصام العقلي، والعاطلة من العمل، ومحاولات الانتحار السابقة، والأمراض العضوية المستعصية، والمنتمين لطبقة دنيا أو عليا،⁽¹⁾.

يعد الاكتئاب من بين أهم الأسباب الشائعة جداً وراء الانتحار. ففي دراسة أجريت على محاولات الانتحار، تم تشخيص 35-79% من الأشخاص الذين حاولوا الانتحار بأنهم مكتئبون، ووجد في دراسة أخرى تضمنت مراهقين انتحروا، أنه كان ما يقرب من 50% منهم مكتئبين قبل المحاولة القاتلة أو المميتة. وقدر فينش سميث وآخرون (1970) أن 15% على الأقل من كل حوادث السيارات القاتلة هي في الحقيقة حوادث انتحار،⁽²⁾.

¹ - وليد سرحان، وجمال الخطيب ومحمد حباشنة، "الاكتئاب"، عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2001، ص 62.

² - حنفي محمود إمام، نور احمد الرمادي، الصحة النفسية والاضطرابات النفسية، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 2001، ص 337-338.

تؤكد الدراسات الامبيريقية على اختلاف العوامل المؤدية للانتحار. فقد وجد سيدن (1967) أن الانتحار يرتبط بالمدن الكبرى مثل مدينة "سان فرانسيسكو" التي ترتفع فيها نسبة استهلاك الخمر، ويذكر أن التشريح قد بين أن نسبة كبيرة قد ماتت بالتسمم ما يؤكد أنه الطريقة المحببة لأهل هذه المدينة للانتحار. ووجد بريد (1967) أن نسبة الانتحار أعلى قليلاً في الربيع وفي الصيف، وأن الانتحار بين الرجال أكثر تواتراً في الشهور الباردة، وأنه لا يوجد فرق من ناحية الوقت ليلاً ونهاراً. وتبين أن نسبة الانتحار في إسرائيل في الفترة من (1949-1958) وصلت إلى 10.5 في كل (100.000) للسكان، وهي نسبة مرتفعة، وأن نسبة الرجال إلى النساء 1:3، وأن الانتحار يزداد بزيادة العمر، وينتشر بين المطلقين والعزاب والمهاجرين الأوروبيين، وأن أقل معدلاته تنتشر بين المتزوجين والمولودين بفلسطين، وأنه يرتبط بالخلل الاجتماعي الناجم عن الهجرة الجماعية، والأزمات الاقتصادية.

ودرس دويلن (1967) العوامل الاجتماعية المرتبطة بالانتحار مثل السن، والجنس، والأصل، والظروف الزوجية والمقر الجغرافي والمستوى الاقتصادي، والدين والعوامل النفسية والانفعالية، فوجد أن الانتحار: أكثر تواتراً بين الرجال عما هو بين النساء، وأكثر تواتراً بين البيض عما هو بين الزوج، وأنه يصل إلى قمته بين الرجال في سن متقدمة وعند النساء في سن (65)، وأن محاولات الانتحار أو الانتحار غير التام أكثر تواتراً بين صغار السن والنساء والزوج، وأن أقل نسبة للانتحار بين المتزوجين وأغلاها بين المطلقين، وأن للتغير الاقتصادي السريع أثره فيه، وأن الانتحار يقل حين تكون الرابطة الدينية قوية وحين يكون البنیان الاجتماعي قوياً. ووجد بارتر وزملاؤه (1968) حول دراسة تناولت (45) مراهقاً حاولوا الانتحار، أن المراهقين الذين حاولوا الانتحار سبق لهم المحاولة ولكن تم تجاهل محاولاتهم، وأن كثيراً من المراهقين ممن حاولوا الانتحار يستمرون في محاولاتهم بعد الإيداع في المستشفيات، وأن هناك ارتباطاً بين الظروف المعيشية واستمرار محاولات الانتحار، وأن الانتحار يرتبط بالمراهقين الذين يفتقرون إلى روابط عائلية مشبعة، أو ممن عانوا من فقدان أحد الوالدين، وممن كان نشاطهم

الاجتماعي ضيقاً، وممن يحتاجون لمساعدات من هيئة اجتماعية أو عيادة نفسية. وحدد تايتشر وجاكوبز (1966) العوامل التي تدفع المراهقين للانتحار بوجود تاريخ طويل من المشكلات، وقدم مشكلات جديدة، وظهور مشكلات أحدث أدت إلى قطع ما تبقى من علاقات اجتماعية لها معنى، والمشكلة هي الشعور بالعزلة.

ووجد بجراس وآخرون (1966) في كندا أن الفتيات المراهقات ذهبن إلى أن المحاولات الانتحارية التي قامت بها (21) مراهقة، ترتبط بالحرمان الأمومي والنقص في العلاقة الأبوية وتحطم صورة الأم. ووجد جولد (1965) أن الاكتئاب في صورته الخالصة أو المقنعة موجود في الأطفال والمراهقين الذين حاولوا الانتحار وبدرجة تفوق ما هو مكتوب في الكتب. ووجد واج (1966) أن حالات الانتحار وجدت بين سيكوباتيين، وعصابيين، وأن شعور الطفل بأنه غير محمي أو غير محبوب يدفعه للانتحار. ودرس أوتو (1964) ما إذا كان هناك سلوك معين يسبق محاولة الانتحار بين (1727) طفلاً ومراهقاً سويدياً تحت سن (21) فوجد أن هناك تغييراً في السلوك يسبق المحاولة ويتمثل في أعراض اكتئاب وأعراض عصابية من نوع الشعور بالألم النفسي وعدم الراحة، وصعوبة النوم وأعراض نفسجسمية، وأن الأعراض غير المألوفة تمثلت في العدوان والاضطرابات السلوكية والثورات الانفعالية. ووجدت اتلنجر (1964) أن من حاولوا الانتحار، ارتكب بالفعل بعضهم الفعل الانتحاري، وعندما قارنت الباحثة بين الحالات التي انتحرت والحالات التي توقفت نشاطها عند مجرد المحاولة، وجدت اختلافات لها دلالتها، منها: أن نسبة تواتر الانتحار في عائلات من انتحروا تعادل ضعف التواتر في الحالات الأخرى، وأنه يزداد تواتر اضطراب الحياة العائلية وعدم استقرارها أثناء فترة المراهقة بين المنتحرين، وكان المنتحرون أقل في التدريب في النواحي المهنية عن المحاولين فقط، وكانت نسبة الجرائم بين المنتحرين أعلى، كما كانت النزعة نحو الإفراط في الخمر والمخدرات بينهم أعلى، وكانت الأعراض الذهانية بما في ذلك الاكتئاب في سن البلوغ بينهم أعلى، وألحق عدد أكبر من بينهم بالمستشفيات العقلية. وتتبع بوركوني (1966) في أمريكا حالات حولت الانتحار، فوجد أن (21) حالة انتحرت، وكشف

البحث أن السلوك الانتحاري (المحاولة والتهديد بالانتحار والأفكار الانتحارية) من أحسن ما يمكن التنبؤ به على الانتحار مستقبلاً،⁽¹⁾.

تتعدد العوامل المسؤولة عن الانتحار؛ وقد اقترح علماء النفس وغيرهم أن هناك عوامل مسؤولة عن الانتحار منها: ارتفاع معدلات الطلاق، وتأثير طلاق الوالدين على المراهقين، والعجز الوظيفي الخطير داخل الأسرة، مثل سوء معاملة الطفل، أو إدمان الوالدين الكحوليات، والضغط الناشئة عن الوالدين والمدرسة. وتبين أن لبعض المفحوصين الذين حاولوا الانتحار خبرة أكثر بإساءة استعمال العقاقير، وتاريخ أكثر باستخدام الكحوليات والعقاقير، وتاريخ انتحار أكثر، وبطالة والدية أكثر، وغياب والدي أكثر، واضطراب أسري أكثر،⁽²⁾.

قد يرتكب الفرد الانتحار بسبب فقدانه للدعم والحب الأسري الناجم عن فقدان أحد والديه أو كليهما، وذلك لشعوره بقلّة من يدعمه ويسانده، ذلك لأن فقد الفرد لوالديه قد يسبب له اكتئاباً الأمر يدفعه لممارسة الفعل الانتحاري. ثم إن الفرد قد ينتحر لشعوره بالتعاسة والكآبة أو لافتقاره الانسجام مع والديه. الانتحار ظاهرة مثيرة للجدل، ولذلك فقد طرح بعض الباحثين سؤالاً مؤداه: لماذا يقتل الناس أنفسهم؟ وقد كانت الإجابة ببساطة كالآتي: يقتل الناس أنفسهم لأنهم مرضى، ذلك لأن الناس الأصحاء لا يرتكبون الانتحار. ولقد تبين أن أكثر من 90% من الناس ينتحرون لأنهم يعانون من مرض نفسي واضح أثناء موتهم، واتضح أن الاكتئاب غير المعالج هو السبب الأول للانتحار. ذلك لأن المرض الاكتئابي يشوه التفكير ولا يجعل صاحبه يفكر بعقلانية؛ فمرضه يجلب له الأفكار التي تشعره بالتعاسة واليأس، ما يدفعه لارتكاب الفعل الانتحاري.

¹ - سعد جلال، في الصحة العقلية: الأمراض النفسية والعقلية والانحرافات السلوكية، القاهرة: دار الفكر العربي، 1986، ص ص 464-471.

² - حنفي محمود إمام، نور احمد الرمادي، الصحة النفسية والاضطرابات النفسية، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 2001، ص 340.

ثمة علاقة بين الاكتئاب وبين الانتحار، فقد وجد في إحدى الدراسات أن 17% من المبحوثين كانوا يعالجون من الاكتئاب قبل محاولتهم الانتحار، ما يؤكد ضرورة الكشف النفسي على هذه الحالات ومتابعتها من الناحية النفسية والاجتماعية حتى لا تتكرر مرة أخرى المحاولة التي قد فشلت، (1).

تؤكد أدلة علمية امبيريقية على أن الانتحار يرتبط بالاكتئاب، ذلك لأن المكتئب شخص محبط ورافض للحياة، وينتحر حوالي 15% ممن لديهم اكتئاب شديد، كما لوحظ أن 80% من المنتحرين كانوا يعانون من الاكتئاب، ولوحظ أن 25% من المنتحرين كانوا مدمنين. ذلك لأن إدمان بعض المواد يطلق التثبيطات لدى المرضى المكتئبين فيجعلهم يقدمون على الانتحار. وقد لوحظ بشكل عام أن كافة أشكال الانتحار ترتبط بالاضطرابات الاكتئابية، واضطرابات الهوس، والقلق، واضطرابات الذعر. بيد أن الاكتئاب يعد أكثر الاضطرابات النفسية تكراراً لدى محاولي الانتحار. ولقد وجد ويرزيكي (1998) أن الانتحار يرتبط بمتغيرات سلوكية ونفسية معينة مثل الاكتئاب، والشعور بالوحدة النفسية، وضغوط الحياة الشديدة، والألم أو المرض، والفقد الحديث لأي شخص أو شيء عزيز، واستخدام المخدرات والكحول. وفي تتبع طويل المدى وجد أن 15% من الأفراد المكتئبين يقتلون أنفسهم في النهاية، ولوحظ أن 60% من حالات الانتحار ترجع إلى الاكتئاب أو الاكتئاب المصحوب بسوء استخدام الكحول. ووجد Dyck (1991) أن هناك ارتباطاً موجباً جوهرياً بين الاكتئاب وكل من اليأس وتصور الانتحار، في حين ارتبطت أسباب الحياة ارتباطاً سالباً جوهرياً بكل من اليأس والاكتئاب وتصور الانتحار. ولقد حدد Zhang (1996) أن الاكتئاب هو أفضل منبئ منفرد لتصور الانتحار.

ووجد عبد الخالق وليستر (1998) أن الاكتئاب يعتبر أكثر المتغيرات تنبؤاً من المتغيرات الأخرى وبشكل جوهري بتصور الانتحار لدى أفراد العينتين الأمريكية والكويتية. واكتشف Deman (1999) أن عزل تأثير الاكتئاب أدى إلى تضاول حجم الارتباط بين

¹ - حمزة الجبالي، جرائم الأطفال والمراهقين، عمان: دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 2005،

تصور الانتحار وبين كل من تقدير الذات، وأحداث الحياة، والمساندة الاجتماعية. ووجد Dear (2000) ارتباطاً موجباً جوهرياً بين الاكتئاب وتصور الانتحار بعد عزل درجات الاندفاعية المختلة وظيفياً، في حين جاء الارتباط غير جوهري بين الاندفاعية المختلة وظيفياً وتصور الانتحار عند عزل درجات الاكتئاب. ووجد فايد (1998) أن درجة تصور الانتحار تزداد بفعل التأثير المشترك لكل من الاكتئاب واليأس لدى الذكور والإناث، وأنه عند عزل اليأس عن العلاقة بين الاكتئاب وتصور الانتحار تراجعت قيمة معامل الارتباط بشكل ملحوظ لدى مجموعة الإناث دون مجموعة الذكور. لكن لم تتغير العلاقة بين اليأس وتصور الانتحار عند عزل تأثير الاكتئاب بالنسبة للذكور والإناث.

ووجد Dori و Overholster (1999) في دراسة أجريها على عينة من المراهقين المكتئبين وعلى عينة من المراهقين المكتئبين الذين حاولوا الانتحار مرة واحدة في حياتهم، وعلى عينة من المراهقين المكتئبين الذين حاولوا الانتحار عدة مرات، أن جميع المجموعات الثلاث قررت مستويات منخفضة من تقدير الذات، وأن المراهقين الانتحاريين قد خبروا اكتئاباً وبأساً شديدين على نحو جوهري مما خبره المراهقون المكتئبون غير الانتحاريين.

يفترض أنصار مدرسة التحليل النفسي أن الاكتئاب ما هو إلا حنق وغضب بسبب الإحباط أو خيبة الأمل في إشباع الحاجة للحب، ولكنه غضب يتحول بسبب ميكانيزمات الدفاع التي يقوم بها الفرد للدفاع عن الذات عند وجود أي تهديد لها. وكأن لسان حال الشخص يقول لموضوع الحب " إنك لا تشبع حاجتي لك، أو لحبي فيك"، والنتيجة الشعورية هي أنه " ما دمت لا تحبني فأنا أكرهك"، ولكنني لا أستطيع أن أصرح أو حتى أعترف بكرهيتي لك " بفعل الإحساس بالذنب، والصرامة في بناء الأنا الأعلى"، وإذن فإنني الجدير بالكراهية، واستحق الكراهية والعقاب بسبب عيوبي، وأوجه القصور. وهكذا يبدو أن الإنسان الكاره محطماً لغيره وفي ظروف بعينها محطماً لنفسه، إذا لم يسعفه الحب فيسانده في تلطيف حدة الكراهية. وفي هذه الظروف يتخلق الاكتئاب في صورته

المتدرجة من الاكتئاب العصابي الطفيف إلى الاكتئاب الميلانخولي الذهاني الذي قد ينتهي بالإنسان للانتحار، (1).

كما يذهب السيكو ديناميون إلى أن الرفض أو النبذ من جانب الآخرين الهامين في باكورة الحياة، قد يجعل الأشخاص ينمون دفاعات ضد الألم الذي يتوقعونه بصورة لا شعورية في مرحلة الرشد. فإذا تهاوت هذه الدفاعات وخط هذا الشخص بين ألم فقدان القديم الغامر والنبذ أو الانفصال الحالي، فإنه قد يقدم على الانتحار. كما يذهب أصحاب النظريات السيكو دينامية إلى أن بعض الأطفال الذين أصيبوا بصدمة من جراء فقدان قديم مدمر، يكبرون ولديهم الاعتقاد بأن العلاقات الاجتماعية التفاعلية الوثيقة لا يمكن أن تستمر بمرور الزمن"، (2).

يتضح مما سبق أن الاكتئاب يعد من بين أقوى العوامل المؤدية للانتحار. وحيث إن بعض الباحثين قد يجرون دراستهم لاختبار علاقة الاكتئاب بالانتحار، فإننا نفترض أن الأفراد العاديين الذين ترتفع درجاتهم على مقياس الاكتئاب، لا بد أن وترتفع درجاتهم على مقياس تصور الانتحار، وأن هذا ربما يقود بعضهم إلى إنهاء حياته بالانتحار الحقيقي. ذلك لأن بعض الأفراد عادةً ما تعبر اتجاهاتهم نحو موضوع ما عن سلوكياتهم الفعلية فيما يتعلق بهذا الموضوع، وعليه فإننا نقدم الفرض التالي:

(3) إن الأفراد الذين ترتفع درجاتهم على مقياس الاكتئاب أكثر تصوراً للانتحار من بقية الأفراد الذين لا ترتفع درجاتهم على نفس المقياس.

العدوان وتصور الانتحار:

ذكرنا في مكان سابق أن " فرويد " يفترض أن لدى الإنسان نزوة فطرية للعدوان، وأن هذا العدوان قد يوجه للذات، وقد يوجه للآخر، وأن الإنسان يوجه عدوانه للآخر لكي

¹ - حسين على فايد، دراسات في الصحة النفسية (أ)، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، 2001، ص 126-132.

² - حنفي محمود إمام، نور احمد الرمادي، الصحة النفسية والاضطرابات النفسية، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 2001، ص 342.

يحمي نفسه من توجيه عدوانيته لنفسه. واتضح من بعض الأدبيات السابقة أن الاكتئاب نوع من الغضب الداخلي الذي يوجه للذات. وبناءً على ذلك يمكننا أن نفترض أن الإنسان الذي يتسم بالعدوانية يتوق باستمرار لتفريغ عدوانيته تجاه الآخرين في شكل عدوان لفظي أو جسدي. ولكن وفي أحيان كثيرة قد لا يستطيع الفرد التعبير عن عوانه، وذلك بتوجيهه للعالم الخارجي بسبب القيم والمعايير والقوانين التي تنظم الحياة الاجتماعية، وبسبب أساليب التنشئة الاجتماعية التي يتعرض لها والتي تطالبه بألا يستخدم أساليب العنف والعدوان كوسيلة لبلوغ الأهداف. ولذا فإننا نتوقع أن يكظم مثل هؤلاء الأفراد ولا سيما الذين خبروا الإحباط بالذات عدوانيتهم. بيد أن كظم أو قمع العدوانية لا يحلها، إذ أنها تحتاج إلى تعبير أو تفيس فعلي. ويتفاقم هذا الموقف عندما يعاني الفرد من حالات اليأس والاكتئاب، ويتعرض لضغوط الحياة الشديدة، ويفتقد حب الأفراد الذين يشكلون له أهمية كبيرة. إن مشاعر الاكتئاب هذه وفقدان مواضيع الحب والأنشطة المختلفة، لا بد وأن تخلق لدى بعض الأفراد غضباً شديداً، وحيث أن هذا الغضب الشديد قد لا تتوافر له فرص التعبير عنه في صورة سلوك عدواني جسدي أو لفظي، فإنه قد يتردد إلى الذات في شكل قتل للنفس، وبناءً على ذلك نقدم الفرض التالي:

(4) إن الأفراد الذين ترتفع درجاتهم على مقياس العدوان أكثر تصوراً للانتحار من بقية الأفراد الذين لا ترتفع درجاتهم على نفس المقياس.

الغربة عن الذات وتصور الانتحار:

عرف سيمان (1990) الاغتراب عن الذات بأنه "عدم قدرة الفرد على التواصل مع نفسه وشعوره بالانفصال عما يرغب في أن يكون عليه، حيث تسير حياة الفرد بلا هدف لكونه مستجيباً لما تقدم له الحياة دون تحقيق ما يريد من أهداف، وعدم القدرة على إيجاد الأنشطة المكافئة ذاتياً".

وتعامل "اريك فروم" مع مفهوم الاغتراب من الوجهة السيكلولوجية، مركزاً على الفرد وليس على المجتمع كسبب للاغتراب، وفي ضوء ذلك عرف الاغتراب بأنه "نمط من الخبرة، من خلالها يرى الفرد نفسه كمغترب، فهو يشعر أنه غريب عن نفسه، حيث لم ير

ذاته أو يخبرها كمركز لعالمه، أو كناشئ وخالق لأفعاله، ولكن أفعاله ومترتباتها تصبح لها السيادة، إنه يطيعها ويخضع لها⁽¹⁾.

وحددت "كارن هورني" الاغتراب عن الذات في نمطين: الاغتراب عن الذات الفعلية، والاعتراب عن الذات الحقيقية، ويشير الاغتراب عن الذات الفعلية إلى إزالة كافة ما كان المرء عليه بما في ذلك ارتباط حياته الحالية بماضيه، وجوهر هذا الاغتراب هو البعد عن مشاعر الفرد ومعتقداته، وفقدان الشعور بذاته ككل، أما الاغتراب عن الحقيقة فيتمثل في التوقف عن سريان الحياة في الفرد من خلال الطاقات النابعة من هذا المنبع أو المصدر الذي تشير إليه هورني باعتباره جوهر وجودنا⁽²⁾.

وحدد (محمد، د.ت) تصور الانتحار بأنه ما يقع على متصل السلوك الانتحاري الذي يبدأ بأفكار انتحارية كاملة، ثم أفكار أكثر وضوحاً: أو تفكير مكثف، وفي النهاية محاولات انتحار فعلية، (محمد، د.ت)⁽³⁾.

ولكن ما علاقة الغربة عن الذات بتصور الانتحار؟ لعل التحليل الآتي يلقي الضوء على هذه العلاقة. يعد الشعور بالغربة عن الذات من أعنف وأشد مظاهر الاغتراب. ومن مظاهر الغربة عن الذات: فشل الفرد في تحقيق ذاته وتفرده وتميزه، وعدم معرفته بميوله واهتماماته وبمعنى وجوده، وشعوره بقلّة القيمة. ويغترب الفرد عن ذاته عندما يعجز عن التفكير والتركيز الذهني، وتحمل المسؤولية، ويفتقد الاستقلالية، ويعيش في عالم الخيال وأحلام اليقظة، ويعيش على هامش الحياة. ومن مظاهر الغربة عن الذات فقدان الهوية، وقلّة الشعور بالأمن النفسي والاجتماعي، والتوحد مع الآخر وبشكل قد يطمس فيه الهوية والتميز والتفرد، وفشل الفرد في التعبير عن همومه ومعاناته، وافتقاده روح المبادرة، وعجزه

¹ - عبداللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2003، ص 40.

² - المرجع السابق، ص 42.

³ - هاشم عبدالحميد محمود محمد، تصور الانتحار وعلاقته بالاكتئاب واليأس لدى عينة من طلاب الثانوى العام، كلية الآداب: جامعة جنوب الوادي بقنا، د.ت.

عن فهم نفسه، وفقدان الشعور بقيمة الحياة، والشعور بالاكنتاب، وتناقض أفعاله مع أقواله، وشعوره بالتمزق والتفكك على مستوى الشخصية، وشعوره بالضياح وفقدان الحب والولاء للآخر، وفقدان العزيمة والحرية، والشعور بالقلق والذل والمهانة، واحتقار الذات، والتطرف في عشق الذات، والالتصاق بأفكار وأوهام لا يمكن تحقيقها على أرض الواقع، وعجزه عن إدراك كينونته، وتحديد ما يريده بالضبط في هذه الدنيا، وما يريده منه الآخرون.

تعد الغربة عن الذات أكثر مظاهر الاغتراب ضرراً بالفرد. ذلك لأن كافة أشكال الاغتراب الأخرى تتجمع في الغربة عن الذات. وتتخذ الغربة عن الذات عدة مظاهر. ومن بين هذه المظاهر: شعور الفرد بالإحباط والفشل في تحقيق أهدافه في الحياة. ذلك لأن الفرد المحبط لا يستطيع إيجاد ما يجذبه لهذه الحياة، ما يجعله يعاني من المرارة بكافة صورها. ومن هنا فإنه لا يشعر بالرضا عن ذاته. فهو في نظر نفسه إنسان لا قيمة له، وهو أقل قيمة من الآخرين. بيد أن تحقير الفرد لذاته لا يمر دون أن يترك فيه رواسب ورؤى تجسد فيه التشاؤم من المستقبل وقلة جدوى الحياة، وقلة وضوح الأهداف، وقلة إيجاد من يمكن الاعتماد عليه وقت الشدائد. وعندما يفرغ المرء ذاته من مضمونها يصبح بمثابة الريشة التي تتقاذفها رياح الحياة. حيث يصبح لا يدرك ما يريده بالضبط من هذه الحياة، وقد يتساعل في بعض الأحيان عن جدوى وجوده فيها، وقد يتشرب فكرة أن مماته أفضل من حياته.

يشترط أن يفيد الفرد نفسه ويفيد الآخرين. بيد أن المغترب عن ذاته إنسان لا يستطيع خدمة نفسه ولا يستطيع خدمة غيره، ويقدر إخفاقه في تقديم يد العون للآخرين، ويقدر انزاله عن مجتمعه، وذلك لقلة إيمانه بقلة جدوى الأهداف الاجتماعية، وقلة حصوله على بناءات الفرصة الاجتماعية التي تمكنه من تحقيق ذاته، بقدر ما ينعزل عن مجتمعه، وتقل قوة تأثيره في الآخرين، وتقل معرفته بما يجري حوله، وتقل معنى الحياة وأهدافها في نظره. وعندما يصبح الفرد مقتنعاً على هذا النحو، فإنه يفقد التقدير الاجتماعي، وتكون محصلة ذلك إمعانه في ممارسة الانسحاب الاجتماعي والعزلة عن

الآخرين.

المغترب عن ذاته إنسان يئس؛ فهو يعتقد عن قناعة أن لا أمل له يلوح في أفق الحياة، وأنه لم يحقق أي هدف يربطه بهذه الحياة ويجعله من ثم يحرص على الحفاظ عليه. ولذلك فإن موازين النجاح والإخفاق تصبح متساوية بالنسبة له. والشيء نفسه يقال على المساواة بين الحياة والموت. فالإنسان المغترب عن ذاته إنسان لم يحقق أي هدف أو نجاح يذكر، ولذلك فلا يوجد بالنسبة له ما يجذبه للحياة، وقد يصبح أكثر شعوراً بالمرارة وبالآلام غير المحتملة، وشعوره بالمرارة هذا، قد يفوق حتى شعوره بألم الموت، بل وقد تصبح الموت بالنسبة له أسهل وأنجع الوسائل لحل آلامه غير المحتملة.

عندما تتفاقم إحباطات المرء، وتقل قيمته بالنسبة لنفسه وللآخرين، فإنه يصبح مثلاً للإحباط والخيبة، وتقل ثقة الآخرين فيه، وتقل الثقة به في إنجاز ما يطلب منه. ونظراً لهذه الاعتقادات المدمرة، فإن الفرد قد يتصل بالفعل من تلك الفرص التي تفسح له المجال لإثبات وتأكيد ذاته. ويتوالي الأيام والسنين قد تترسخ لدى الفرد قناعة مؤداها: أنه غير جدير بالثقة، بل وقد يؤمن مثل هذا الفرد عن قناعة بأنه غير جدير بالثقة، وغير جدير بحب ودعم ذويه، وقد يؤمن في قرارة نفسه بأنه غير جدير حتى بالحياة نفسها.

يشعر الفرد الذي يرتبط بالحياة بقوة بأن الحياة حلوة وجديرة بالعيش. ثم إن مشروعاته الحياتية المتجددة ونجاحاته المستمرة تملأ عليه حياته، فلا يشعر بالملل والرتابة. فهو دائم الانتقال من نجاح إلى آخر، وهو يلمس التدعيم المعنوي والمادي من قبل الآخرين. وهذا التدعيم يجدد دائماً طاقاته للعمل، كما يجعله يحرص باستمرار على أن يكون عند حسن ظن الآخرين به. بيد أن المغترب عن نفسه إنسان يكابد الملل والرتابة؛ فهو لا يمتلك ما يجدد إحساسه بمعنى وجوده وقيمه. إن الحياة الفارغة بالنسبة له من أي مضمون، تجعله يجتر همومه وإحباطاته، وينظر للحياة بمنظار أسود كما يقال. وطول فترة الاجترار هذه وكثرة الإحباطات ومرارتها تطيل فترة معاناته، فيشعر بوطأة طول الزمن أكثر من غيره، وشعوره بطول وطأة الزمن يرفع من درجة آلامه التي قد تصل إلى عتبتها الحرجة؛ عتبة الاحتمال، وهي عتبة عادة ما تكون مسؤولة عن

التورط في ارتكاب فعل الانتحار .

يتوق المرء لأن يقدم أعمالاً تقيده وتقيد مجتمعه، ولذا فإن الفرد في فترة من حياته لأبد وأن يقدم عملاً ما يرضيه ويرى غيره. ومن هنا فإن الفرد قد يتساءل أحياناً عن معنى وجوده ودوره في هذه الحياة. بيد أن المغترب عن ذاته لا يمتلك أي دور في الحياة، وذلك لانفصاله عن ذاته وعن مجتمعه. وافتقاد المغترب عن ذاته لدور يؤديه في حياته لا يمر بسلام، حيث قد يشعر بالدونية وقلة القيمة، ويشعر بقلة الرضا عن ذاته، وبأنه لا حول ولا قوة له، وقد يتفاقم شعوره بالإحباط والمرارة فيقدم على قتل نفسه.

والإنسان المغترب عن ذاته لا يمتلك قوة التأثير في الآخرين، ولذا تراه يؤمن عن قناعة بأنه رمز للفشل، وقد يشعره الآخرون بالفعل بأنه كذلك. وقد يشعر المغترب عن ذاته بأنه لا يمتلك مقومات التأثير في الآخرين مثل القدرة على أداء دور ما، أو فقدان الجاذبية أو الوسامة، أو روح الدعابة، أو قوة الشخصية، وما إلى ذلك. والمغترب عن ذاته إنسان لم تتح له فرص تأكيد ذاته، ولم يذق طعم النجاح، فتكون محصلة ذلك إخفاقه بالفعل في أداء ما يوكل إليه. وعندما تتراكم إحباطاته يصبح مقتنعاً في قرارة نفسه بأنه لن يجيد شيئاً، ما يعمق من غربته عن ذاته وعن الآخرين.

يفتقد المغترب عن ذاته حب ذويه وتقديرهم، فهو يفتقد موضوعات الحب والدعم مثل والديه وأقاربه، ويفتقد الحماس لممارسة أي سلوك، وهو إنسان تختلط عنده الأمور، فهو لا يحب ولا يجد من يحبه. وهو إنسان يفتقد دعم وتقدير الآخرين ويفتقد قوة التأثير فيهم، وهو قد يصل من جراء ذلك إلى مرحلة لا يميز فيها بين الصواب والخطأ، وقد لا يعرف ما يريده بالضبط من هذه الدنيا، وتكون محصلة ذلك كله شعوره بالضياع، والتمزق، والتفكك على مستوى الشخصية.

يفكر الإنسان المغترب عن ذاته باستمرار في همومه وفي إحباطاته. بيد أن هذا التفكير المستمر في الإحباطات والهموم عادةً ما يستنزف الطاقة النفسية للإنسان المغترب عن ذاته بشكلٍ كبيرٍ. والمغترب عن ذاته يحرص على كبت الإحباطات والخبرات المرة التي خبرها في حياته في اللاشعور، حتى يظهر بمظهر القوة. بيد أن المغترب عن ذاته

وهو يقاوم ظهور خبراته وتجاربه المرة على سطح شعوره، إنما يستهلك في سبيل ذلك طاقة نفسية هائلة، هذه الطاقة التي كان من المفترض أن يسخرها في انجاز خدمات ومهام تفيده. الاستنزاف الكبير للطاقة النفسية في أداء أعمال غير مفيدة مثل ممارسة آلية الكبت، يحول دون انجاز الفرد أعمال مفيدة في الحياة الاجتماعية مثل أداء عمل ما، أو حتى التفكير فيه، وذلك لشعوره بالتعب الذهني والجسمي عند ممارسة أدنى جهد.

لا شك أن النجاح يولد النجاح، ولا شك أن نجاح الفرد في أداء مهمة ما سيحقق ذاته، وسيجعله يتمسك بأهداب الحياة. بيد أن الإنسان المغترب عن نفسه لم يحرز أي نجاح في حياته، وهو يعيش على هامش الحياة الاجتماعية، فهو لم يتفاعل مع غيره، ولم يقدم ويفيدونه، ولذلك وبتتالي إبطائه يكون اتجاهاً سالباً نحو الأهداف الاجتماعية، بل وقد لا يجد أهدافاً تقابل ما لديه من قدرات وإبداعات متميزة. ولا شك أن الذكي جداً أو المبدع جداً يعد غريباً أو شاذاً من وجهة نظر مجتمعه. ولذلك فهو لا يتوافق مع مجتمعه بالمحصلة. وهكذا فإن المغترب عن ذاته قد يعيش اغتراباً مزدوجاً عن الذات: اغتراب بسبب فشله في المجارة الاجتماعية، واغتراب بسبب قلة وجود أهداف تقابل إبداعاته وقدراته المختلفة. وهذه نتيجة طبيعية، ذلك لأن الإنسان يحتاج إلى السعي والاجتهاد في سبيل هدف يستحق أن يعيش من أجله، أي أن الإنسان يعمل ويجتهد إذا ما كان هناك هدف يسعى إلى تحقيقه. أما إذا فقد الشعور بالهدف في حياته، فستصبح حياته فارغة لا معنى لها، ويشعر بالملل واليأس واللامعنى في حياته، فيخبر الفراغ الوجودي،⁽¹⁾.

لاشك أن الانتحار خبرة لا يمكن للمنتحر وصفها، ولذلك فنحن لا نستطيع أن نصف ونخبر الدوافع التي تدفع بالمنتحر باتجاه الفعل الانتحاري. لكن يمكننا مثلاً وضع مقياس يقيس اتجاهات الفرد نحو الفعل الانتحاري. وإذا ما عرفنا أن اتجاهات الفرد نحو الانتحار كانت إيجابية، فإننا نتوقع أنه قد يقتل نفس في لحظة ما. وثمة مؤشرات نستشف منها الاتجاهات الإيجابية نحو قتل النفس، وهي اتجاهات يقيسها مقياس تصور

¹ - حسين علي فايد، العدوان والاكتئاب في العصر الحديث (ب)، نظرة تكاملية، الإسكندرية، مؤسسة

حورس الدولية للنشر والتوزيع، 2001، ص 105.

الانتحار". ومن بين هذه المؤشرات: أن الفرد الراغب في الانتحار فاقد للشعور بالحب، ولذا فهو يعتقد في قرارة نفسه أنه وبإنهاء حياته سيجد من يبكي وينوح عليه بعد مماته، فكأن الانتحار صرخة من أجل الحب. كما يشعر صاحب الميول الانتحارية بأنه عبء على الآخرين، لاعتقاده بأنه غير مرغوب، ولذا فهو يرى أن في إنهاء حياته راحة لنفسه المضطربة وراحة للآخرين. يتسم صاحب الاتجاهات الإيجابية نحو الانتحار بمفهوم ذات سلبي، والشعور بالدونية، ما يجعله مقتنع بأنه غير جدير بالحياة، ذلك لأنه لا شيء يربطه بها. يعاني المتجه للفعل الانتحاري من مشكلات عاطفية كثيرة لم يجد حلاً، وقد يكون في مقدمتها الفشل في الحصول على الحب والتقدير، وإحراز أهداف ذات معنى، ما يجعله يكابد مشكلات لا حصر لها، وهي مشكلات قد يصل في لحظة ما إلى حلها بقتل نفسه.

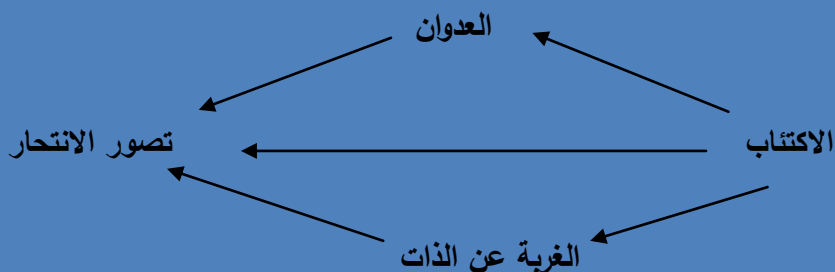
المتجه للانتحار يجتر همومه باستمرار ولا يفكر إلا في كل ما هو سيء وسلب في حياته، وهو عاجز عن التوافق مع حياته، حيث لا يعمل مثلاً على تغيير نمط حياته والبحث عن معانٍ جديدة لها. ولذلك وبكثرة اجتراره لكل ما هو سلبي، فإنه يصل إلى طريق مسدود، هو إيقاف مشوار هذه الطريق المؤلمة بقتل نفسه. وبالفعل قد تتسلط على مثل هذا الشخص الميول الانتحارية، فيحاول قتل نفسه، وقد تختمر أو تساوره فكرة الانتحار لعدة أيام أو أسابيع قبل قتل نفسه، ليشكل بناءً معرفياً يبرر له قتل نفسه. وفي لحظة ما يراه ذووه وقد قتل نفسه. لا يقدم الراغب في الانتحار على قتل نفسه بالفعل بين عشية وضحاها، حيث عادة ما تصدر عنه مؤشرات أو عبارات تدل على رغبته المبيتة في قتل نفسه. ومن بين هذه المؤشرات: إهماله الأكل والشرب، وهندامه، وتعرض نفسه للمهالك، واحتقار نفسه، وذكر عبارات مثل: " لا شيء جاذب في هذه الحياة"، "أنا إنسان فاشل"، " لا يوجد من يحبني"، " لقد تعبت من آلامي" الخ... وقد يصل به الأمر إلى أن

يخبر شخص ما بأنه ينوي قتل نفسه. ويؤكد سرحان وزملاؤه (2001) "أن ثلثي المنتحرين يكونون قد حالوا الانتحار مرة أو أكثر، ولم تؤخذ محاولاتهم على محمل الجد"، (1).

على هذا النحو قد يرتكب الشخص بالفعل أفعالاً مميّنة يستهدف من ورائها قتل نفسه. وهكذا يصبح الاغتراب عن الذات والذي يأخذ شكل الفشل في تحقيق أشياء لها معنى، وفقدان الارتباط بالآخر، والشعور بالغرابة ولو وسط الأقارب، والشعور بالحزن الشديد، وقلة الانجذاب للحياة، والشعور بالدونية، أحد العوامل التي قد تدفع بالفرد باتجاه الفعل الانتحاري، وبناءً على ما سبق يمكننا أن نفترض الآتي:

(5) إن الأفراد الذين ترتفع درجاتهم على مقياس الغربة عن الذات أكثر تصوراً للانتحار من أولئك الأفراد الذين لا ترتفع درجاتهم على نفس المقياس.

لقد بينا في التصور النظري السابق افتراض وجود علاقة بعض المتغيرات المستقلة بتصور الانتحار كمتغير تابع، ولا شك أن هذا الافتراض النظري يحتاج إلى دليل امبيريق، ويمكن توضيح شكل العلاقة بين المتغيرات السالفة الذكر في النموذج الآتي: التصور النظري السابق لظاهرة الغش في الامتحان.



¹ - وليد سرحان، وجمال الخطيب ومحمد حباشنة، "الاكتئاب"، عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2001، ص 61.

المراجع:

- أبولغد، إبراهيم، ولويس مليكة، البحث الاجتماعي: مفاهيمه وأدواته، سرس الليان: مركز التربية الأساسية في العالم العربي، 1995.
- إمام، حنفي محمود، نور احمد الرمادي، الصحة النفسية والاضطرابات النفسية، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 2001.
- آمنة محمد العكاشي، مظاهر ضغوط الحياة والاكنتاب واليأس وعلاقتها بتصور الانتحار لدى طلبة الثانويات التخصصية بشعبية المرقب: دراسة امبيريقية، (رسالة ماجستير غير منشورة)، الخمس: كلية الآداب والعلوم، 2006.
- التير، مصطفى عمر، الغاية تبرر الوسيلة: دراسة اجتماعية لظاهرة الغش في الامتحانات، طرابلس: دار مداد للطباعة والنشر والتوزيع والإنتاج الفني، 2013.
- الجبالي، حمزة، جرائم الأطفال والمراهقين، عمان: دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 2005.
- جلال، سعد، في الصحة العقلية: الأمراض النفسية والعقلية والانحرافات السلوكية، القاهرة: دار الفكر العربي، 1986.
- حسين على فايد، دراسات في الصحة النفسية (أ)، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، 2001.
- خالد محمد عسل، فاطمة محمود مجاهد، الاغتراب النفسي بين الفهم النظري والإرشاد النفسي الكلينيكي، الإسكندرية: دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، 2010.
- الخالدي، أديب المرجع في الصحة النفسية، ط (2)، غريان: الدار العربية للنشر والتوزيع، 2002.
- خليفة، عبداللطيف محمد، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 2003.
- سرحان، وليد وجمال الخطيب ومحمد حباشنة، "الاكتئاب"، عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2001.

سيجموند فرويد، قلق في الحضارة، ترجمة: جورج طرابيشي، ط (4) ، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1996.

سيجموند فرويد، ما فوق مبدأ اللذة ط (5)، ترجمة، إسحق رمزي، القاهرة: دار المعارف، 1994.

عبدالله محمد عبدالرحمن، النظرية في علم الاجتماع: النظرية الكلاسيكية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2006.

فايد، حسين علي، العدوان والاكتئاب في العصر الحديث (ب) ، نظرة تكاملية، الإسكندرية، مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع، 2001.

فيصل عباس، الاغتراب: الإنسان المعاصر وشقاء الوعي، بيروت: دار المنهل اللبناني، 2008.

فيصل عباس، التحليل النفسي وقضايا الإنسان والحضارة، بيروت: دار الفكر اللبناني، 1991.

لويس كوهين و لورانس مانيون، مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والتربوية، ترجمة: كوثر حسين كوجك، وليم تاوضروس عبيد، القاهرة: الدار العربية للنشر والتوزيع، 1990.

هاشم عبدالحميد محمود محمد ، تصور الانتحار وعلاقته بالاكتئاب واليأس لدى عينة من طلاب الثانوى العام، كلية الآداب: جامعة جنوب الوادي بقنا، د.ت.

20) Colman. Andrew, M. Oxford Dictionary of Psychology, London: Printed by Great Britain by Clays Ltd, St Ives plc, 2002.

التنبؤ بأثر الرضا الوظيفي، وفعالية الذات في خفض الضغوط النفسية دراسة أمبريقية على عينة من أطباء مستشفى زليتن التعليمي

د. مفتاح محمد أبوجناح

مقدمة الدراسة:

اهتمت هذه الدراسة بدراسة العلاقة بين ثلاثة متغيرات مهمة في الحياة الحديثة بصفة عامة، وفي الإرشاد الطبي النفسي بصفة خاصة وهي: الرضا الوظيفي، وفعالية الذات، والضغوط النفسية؛ فالرضا الوظيفي للعاملين مثلاً: يعتبر عاملاً مهماً لنجاح أي مؤسسة خدمية في تحقيق أهدافها؛ وخاصة الأطباء في المؤسسات الصحية؛ ولذلك ينبغي لهذه المؤسسات السعي لتحقيق الرضا الداخلي مثل: توفير إمكانات الممارسة المهنية، والتدريب والتطوير، وتوافق مستوى العمل مع إمكانات الموظف، والأمان الوظيفي، أضف إلى ذلك ضمان محفزات الرضا الخارجية مثل: المرتب المناسب لظروف الحياة، وتهيئة بيئة العمل المريحة، والانسجام بين الزملاء في العمل وجعل المتغيرات سالفة الذكر فعالة على المدى الطويل.

ومن جهة أخرى؛ فإن الشعور بالضغوط النفسية المصاحبة للعمل الطبي يأتي كأحدى مسببات عدم الرضا الوظيفي؛ عندما يواجه العاملون في القطاع الصحي وبخاصة الأطباء ضغوطاً تؤثر على رضاهم الوظيفي، ومن ثم تؤثر على أدائهم، وتنعكس على كثير من جوانب حياتهم المختلفة. وتختلف درجة تأثير هذه الضغوط باختلاف أساليب المواجهة التي يستخدمها الطبيب؛ فهناك أساليب إيجابية تساعد الطبيب على التغلب على هذه الضغوط؛ مما يتيح له التكيف مع عمله، وهناك أساليب سلبية، أو أساليب أقل فعالية لخفض الضغوط، وهي الاعتماد على تحقيق الرضا الوظيفي للطبيب فقط دون الاهتمام بمتغيرات أخرى، وهو مما دفع الباحثين للتوصية بضرورة البحث عن استراتيجيات ومنهجيات وطرق ناجعة للتخلص أو التخفيف من الأثر السلبي للضغوط النفسية، أو التخفيف من أثرها السلبي على الأقل.

وتتنوع في مهنة الطب عوامل الضغوط النفسية؛ التي تضع تحديات كبيرة أمام الطبيب؛ كنتيجة لتزايد حالات العلاج بشتى ظروفها وأنواعها وتصنيفاتها؛ مما يعكس حجم المسؤولية للأخصائيين الطبيين نحو الممارسة الطبية في تعدد الضغوط المتمثلة في الأحداث الصحية الجارية، التي تسير نحو ضغوط أكثر فأكثر عمقا، ودرجات أكبر من التعقيد، وذلك بسبب المزيد من احتياجات المواطنين الذين يعيشون حياة صعبة فرضت عليهم بشتى الأشكال والظروف؛ كظروف الحرب والنزاعات، وظروف التحضر ومتطلبات التقنية المعارضة المعاصرة؛ أضف إلى ذلك كله: قلة المستلزمات العلاجية، وغياب الاستقرار الإداري، والأمن النفسي والانفعالي؛ الأمر الذي يشكل عبئا إضافياً ويزيد من تأثير الضغوط النفسية على الأطباء في أماكن عملهم وخارجها، الأمر الذي يُضعف أثر الرضا الوظيفي في مواجهة حجم هذه الضغوط التي يتعرض لها الطبيب.

ولكي يتمكن الطبيب من الاستمرار في ممارسته المهنية الطبية؛ في وجود هذه المتغيرات الضاغطة سالفة الذكر؛ ودون أن تؤثر على صحته وعطائه؛ يتعين الاهتمام بمتغير آخر لا يقل أهمية عن الرضا الوظيفي؛ ألا وهو الفعالية الذاتية - بجانب الرضا الوظيفي - لمواجهة الضغوط النفسية المحيطة بالأطباء. وقد ورد في الأدب السابق دراسات كثيرة - طبقت في المجال التربوي والتعليمي - تشير إلى وجود علاقة عكسية بين الضغوط والرضا الوظيفي مثل دراسات: (حجاج: 2007، وأبو الحصين: 2010، الأفندي 2012، ويستوزن Westhuizen, 2012) ، كما أشارت الدراسات إلى أن للفعالية الذاتية علاقة إيجابية بالإنجاز في المجالات المختلفة، وأنها تعتبر عاملاً مهماً للرفع من مستوى دافعية الفرد لمواجهة مشكلات وضغوطات المهنة، مما يسهم في تحقيق أهدافه، ذلك لأن السلوك الإنساني يعتمد بشكل أساسي على مما يعتقد الفرد عن فعاليته الذاتية وتوقعاته عن مهاراته السلوكية المطلوبة للتعامل مع أحداث الحياة الضاغطة بنجاح، (Bandura, 1997)، ولذا تُعدّ فعالية الذات من أهم ميكانيزمات القوى الشخصية لدى الأفراد؛ باعتبارها تمثل حافزاً مهما يدفع الأفراد للقيام بأي عمل أو نشاط ويساعدهم على مواجهة الضغوط التي تعترضهم في مراحل حياتهم المختلفة (صالح، 1993: 34)، بيد أن

فعالية الذات المنخفضة ربما تتسبب في خلق مشاعر القلق لدى الأشخاص عندما يقيمون أنفسهم على أنهم غير قادرين على مواجهة الضغوط المتضمنة في المواقف المختلفة، فقد أكد العديد من الباحثين أن فعالية الذات بإمكانها أن تُبدد المشاعر السلبية للضغوط، (شاهين، 2012: 194). وقد لاحظ الباحث الاهتمام الكبير للأدب السابق-بدراسة الرضا أو الفعالية الذاتية- في المجال التربوي والتعليمي؛ ولكنه لاحظ ندرة الدراسات التي أجريت على مجتمع الأطباء، كما ألاحظ الباحث أيضاً أن الدراسات السابقة ركزت على عامل الرضا الوظيفي فقط كعامل مخفّض للضغوط النفسية، وأهملت جانب لا يقل أهمية -إن لم يكن هو الأهم- في خفض الضغوط النفسية ألا وهو فعالية الذات.

تحديد مشكلة الدراسة:

يواجه العاملون في القطاع الصحي وبخاصة الأطباء ضغوطاً كثيرةً في عملهم، وهي ضغوط قد تؤثر على رضاهم الوظيفي- وبخاصة في غياب الشعور بالفعالية الذاتية- مما ينعكس سلباً على أدائهم المهني، وينعكس على كثير من جوانب حياتهم المختلفة، ويفترض الباحث أن الاستراتيجية الأكثر نجاحاً هي أن تتم المزوجة بين فعالية الذات والرضا الوظيفي لخفض الضغوط النفسية لدى الأطباء. ومن هذا المنطلق، أُنشئ موضوع هذه الدراسة التي تسعى إلى التعرف على أبعاد ظاهرة الضغوط النفسية لدى الأطباء، ومعرفة انعكاساتها السلوكية والصحية عليهم، وأثر كل من الرضا الوظيفي وفعالية الذات في خفضها؛ وهو مما يميز هذه الدراسة عن سابقتها، وحتى يُعالج هذا الموضوع بطريقة علمية وموضوعية: لا بد أن يوضع أولاً في إطار نظري يفسر امبريقاً العلاقة بين متغيرات تم اختيارها في الإطار النظري، بهدف معرفة نوع العلاقة بين كل من الرضا الوظيفي وكفاءة الذات وبين الضغوط النفسية للأطباء؛ وعليه فقد صيغت مشكلة هذه الدراسة في السؤال الرئيسي الآتي: هل يمكن "التنبؤ بأثر الرضا الوظيفي، وفعالية الذات في خفض الضغوط النفسية لدى عينة من أطباء مستشفى زليتن التعليمي بمستوى له دلالة احصائية "

أهداف الدراسة: حددت أهداف الدراسة في الإجابة على التساؤلات الآتية:

ما نوع ومستوى دلالة العلاقة بين الضغوط النفسية وفعالية الذات لدى الأطباء في مستشفى زليتن التعليمي؟

ما نوع ومستوى دلالة العلاقة بين فعالية الذات والرضا الوظيفي لدى الأطباء في مستشفى زليتن التعليمي؟

ما نوع ومستوى دلالة العلاقة بين فعالية الذات والرضا الوظيفي لدى الأطباء في مستشفى زليتن التعليمي؟

هل يمكن التنبؤ بمتغيرات الرضا الوظيفي وفعالية الذات في خفض الضغوط النفسية لدى مجتمع الأطباء في مستشفى زليتن التعليمي؟

أهمية الدراسة:

لهذه الدراسة أهميتين: نظرية، وتطبيقية؛ فمن الناحية النظرية:

تسعى الدراسة الحالية إلى الإسهام في إثراء جانب مهم من مجالات الدراسات النفسية الإكلينيكية وهو الكشف عن العلاقة بين فعالية الذات والرضا الوظيفي والضغوط النفسية لدى عينة من الأطباء، مما يسهم في سد الفراغ العلمي في هذا المجال محلياً وخارجياً.

اعتبار الضغط النفسي مرض العصر وعامل مهدد لصحة الإنسان مما يدعو لدراسته والتفكير في وضع استراتيجيات ومنهجيات وطرق علاجية تحد منه عن طريق الرفع من فعالية الذات والرضا الوظيفي لدى الممارسين لمهنة الطب.

وأما الأهمية التطبيقية: وحسب نتائج الدراسة فتكمن في:

توقع أن تسهم نتائج هذه الدراسة في مساعدة الأطباء على تعلم الأساليب الناجحة التي تؤدي إلى خفض الضغوط النفسية لديهم وتخفيف أثارها عليهم ورفع روحهم المعنوية.

قد تسهم توصيات هذه الدراسة في تعلم الأطباء للأساليب التي ترفع فاعليتهم الذاتية وتنمية اتجاهاتهم نحو وظائفهم.

قد تسهم توصيات هذه الدراسة في الحد من عزوف الأطباء عن ممارسة المهنة، وتسريحهم والتحاقهم بوظائف أخرى.

قد تفيد نتائج هذه الدراسة في وضع برامج علاجية لتخفيف أثر الضغوط النفسية والوقاية منها.

حدود الدراسة:

الحدود المكانية: مستشفى زليتن التعليمي.

الحدود الزمنية: أجريت الدراسة في الفترة 2015-2016

الحدود الموضوعية: اقتصر نتائج الدراسة على عينة البحث، وعلى إطارها النظري في حدود المصطلحات الآتية: الضغوط النفسية، والرضا الوظيفي، وفعالية الذات في إطار مهنة الطبيب.

التعريف بمصطلحات الدراسة:

الضغوط: يشير الأحمدى إلى أن الضغوط هي عبارة عن "استجابة تكيفية لدى الفرد تختلف باختلاف خصائص الفرد، نتيجة للتفاعل مع البيئة وتتمثل في اختلال التوازن الداخلي للجسم مما يؤدي غالباً إلى مشكلات صحية وجسمية ونفسية" (الأحمدى، 2002: 19)

الضغط النفسي: هو عبارة عن "تجربة ذاتية لمجموعة ضغوط يمر بها الفرد؛ تحدث اختلالاً نفسياً أو عضوياً لديه، وينتج عن عوامل كثيرة مثل: البيئة الخارجية، المؤسسة، أو عن الفرد نفسه" (سعاد مخلوف، 2006: 15).

الضغوط النفسية: هي عبارة عن "مجموعة من التفاعلات بين الفرد وبيئته والتي تسببت في حالة عاطفية أو وجدانية غير سارة مثل التوتر وعدم الشعور بالأمان (راوية حسن، 2003: 399)، وقد عرّفت الضغوط النفسية أيضاً بأنها: "حالة فسيولوجية تؤدي إلى انخفاض الإنتاجية أو الكفاية أو القدرة على الاستمرار في العمل بسبب استمرار بذل الطاقة في إنجاز العمل، هذا بالنسبة للعمل؛ أما بالنسبة للفرد فتؤدي إلى الأحاسيس والمشاعر المعقدة التي تضايق الفرد وتؤلمه" (الهاشمي، 2002: 80). " وفي هذه الدراسة حددت درجة الضغوط النفسية بالدرجة الكلية التي سيتحصل عليها الطبيب من خلال طريقة استجابته عن فقرات الاستبانة التي تم اختيارها لقياس الضغوط النفسية

بأبعادها المختلفة.

الرضا الوظيفي: عرّف الزايد، (2005: 55) الرضا الوظيفي بأنه: "عبارة عن درجة شعور الفرد (بالسعادة) ويمدى إشباع الحاجات التي يرغب أن يشبعها من وظيفته، من خلال قيامه بأداء وظيفة معينة" وفي هذه الدراسة حددت درجة الرضا الوظيفي بالدرجة الكلية التي سيتحصل عليها الطبيب من خلال طريقة استجابته عن فقرات الاستبانة التي تم اختيارها لقياس الرضا الوظيفي بأبعاده المختلفة.

فعالية الذات: يعرّف الباحث فعالية الذات بأنها: معتقدات ذاتية يُقيّم بها الفرد قدراته على القيام بأعمال صعبة، والنجاح فيها بكل ثقة واقتدر، والسيطرة على الأحداث في المواقف التي يمر بها في مواقف أو مهام توكل إليه، وعدم الاستسلام للفشل في هذه المهام مهما كانت سلبية الظروف المحيطة. وفي هذه الدراسة حُددت درجة فعالية الذات: بالدرجة الكلية التي سيتحصل عليها الطبيب من خلال طريقة استجابته عن فقرات الاستبانة التي تم اختيارها لقياس فعالية الذات بأبعادها المختلفة.

تعريف الطبيب: هو الشخص المؤهل والمتخصص لعلاج المرض، ويستعمل الاصطلاح الإنجليزي في حالات معينة طبيب المدرسة يطلق هذا "School doctor" أو كأن يقال طبيب العائلة، "Family doctor's" ويطلق المصطلح على كل من يقوم بعمليات التطبيب بمعناها الواسع، ولو لم يكن خريج كلية الطب مثل: الصيدلي وطبيب الأسنان وأخصائي العلاج الطبيعي، ومن الخطأ الشائع في اللغة العربية "إطلاق كلمة دكتور على طبيب، لأن هذا اللقب في معناه العلمي الدقيق لا يجوز إطلاقه إلا على الحاصلين على درجة الدكتوراه من خريجي كلية الطب، أو طب الأسنان أو الصيدلة، أو الطب البيطري، أو العلاج الطبيعي" (مراد، د. ت: 495).

أما إجرائياً فيعرف الباحث الطبيب بأنه: الشخص الذي تحصل على إجازة علمية في مجال الطب أو وتخصصية في المجالات الآتية: مثل طبيب الباطنة، طبيب الجراحة، طب العظام، طب العيون، وطب الاسنان وما إلى ذلك.

الإطار النظري والدراسات السابقة:

مفهوم الرضا الوظيفي:

أشار لاندر (Lander, 2009: 177) إلى أن مفهوم الرضا يدور حول فكرة أساسية مفادها: " أن الرضا يتمركز حول موقف الموظف إيجاباً أو سلباً تجاه عمله، أي تقديراً لعمله من حيث ميله له، أو كرهه له، كما يعرفه أبو رحمة (2012: 35) بأنه "عبارة عن شعور الموظف بالارتياح النفسي تجاه العمل وزملاء العمل يظهر من خلال سلوكه الخارجي في حرصه على حسن التعامل وزيادة الإنتاجية، ذلك نتيجة لما يحصل عليه من حوافز مادية ومعنوية من المؤسسة التي يعمل بها". ويرى الباحث أن الرضا الوظيفي إنما هو مجموعة من العوامل والمؤثرات الخارجية والداخلية المتعلقة بالطبيب والعمل الذي يقوم به، وتؤدي هذه العوامل كلها إلى رضا الطبيب عن عمله أو وظيفته أو عدم رضاه؛ فكلما كانت هذه العوامل متفقة مع ما يطمح له الطبيب من انجازات، جعلته أكثر تقبلاً ونجاحاً وانتاجيه في هذا العمل.

نظريات الرضا الوظيفي:

هناك العديد من النظريات التي تفسر الرضا الوظيفي؛ فعلى سبيل المثال هناك نظرية القيمة: لأدوين لوك، ونظرية (Z): لوليم أوشي، ونظرية التوقع: لفكتور فروم، وبورتر ولولير، ونظرية الانصاف: لأدمز، ونظرية الحاجة للإنجاز لماكلياند (لاندر Lander 2009, أبو رحمة 2012, الزيدان 2014)؛ غير أن الباحث يفترض أن نظرية ماسلو للحاجات هي الأنسب والأقرب لتفسير استجابة العينة وربطها بموضوع دراسته:

فعلماء النفس من المؤيدين لهذه النظرية يؤكدون على أن الاحتياجات تنظم نفسها حسب نظام أولويات معينة؛ فمثلاً إذا ما أشبع الطبيب رغباته واحتياجاته الأولية فإنه يرتقي الى اشباع احتياجاته الكامنة على المستويات الوسطى والعليا، وبمعنى آخر فان الطبيب يؤجل عملية من شأنها محاولة اشباع احتياجاته العليا قبل اشباع جميع احتياجاته الدنيا، ولقد بين ماسلو بأن الاحتياجات الإنسانية تتدرج بالتوالي في خمس مستويات؛ يوجزها الباحث حسب ما ورد في الزيدان (2014: 11) هي:

الاحتياجات الفسيولوجية الأساسية:

وتقع هذه الاحتياجات على أدنى درجات السلم وتتضمن احتياجات الفرد المحددة كالمأكل والمشرب، والملبس، وتُشبع هذا الاحتياجات عادة بواسطة تصرفات الفرد الاقتصادية؛ حيث أن الطبيب يعمل من أجل الحصول على الأجر الذي يشبع احتياجاته الفسيولوجية الدنيا.

احتياجات الأمان:

معلوماً أن الطبيب بحاجة إلى أن يعمل على حماية نفسه من أخطار البيئة والطبيعة؛ فإذا ما أشبع احتياجاته الفسيولوجية فإنه يأخذ الإجراءات التي تضمن له السلامة من الأخطار المهددة لحياته.

احتياجات الحب والحنان والخدمة الاجتماعية:

فالإنسان اجتماعي بطبيعته يكره العزلة والانفراد، ولهذا فهو يقوم بتكوين الأسرة والعشيرة والأمة ويعمل كل ما في وسعه للمحافظة عليها؛ فهو يؤثر على مجتمعه ويتأثر به، ويتعاون مع الآخرين في هذا المجتمع لكي يتمكن كلاً منهم من سد حاجاته الاقتصادية ونزعاته الاجتماعية؛ وبمعنى آخر، إن الطبيب يحب الانتماء؛ الذي يمنحه الحب والعطف والحنان؛ لأن كل ذلك يكسبه مركزاً وقوةً لمجابهة التعب والضغوط والأخطار التي يمكن أن يتعرض لها.

احترام وتقدير الذات:

يسعى الإنسان دائماً من أجل الحصول على تقدير الآخرين و احترامهم فهو بحاجة الى الشعور بأنه ذو قيمة واحترام في المجتمع الذي يعيش فيه، وأن أعضاء ذلك المجتمع افراد ذوي قيمة، يجدر به أن يحترمهم، فالطبيب مثلاً يرغب دائماً في تبادل هذه المشاعر مع أفراد مجتمعه، وتجدر الإشارة هنا إلى أن العقائد الدينية والقيم الأخلاقية والسياسية السائدة تلعب دوراً كبيراً في تحقيق الاحتياجات الإنسانية وبخاصة اشباع حاجة تقدير الذات.

تحقيق الذات والكياسة في العمل:

وهي القدرة على حثّ النَّفس وضبطها، واستنباط ما هو أنفع عند القيام بالعمل؛ بكل

فطنة، وذكاء، ولباقة، وتقع هذه الحاجة في أعلى درجات سلم الأولويات، فهي أرقى الاحتياجات الإنسانية وأسامها ولكنها أقلها تحديداً.

فعالية الذات Self-Efficacy

تعريف فعالية الذات:

عرف باندورا (Bandura, 1977: 191) فعالية الذات بأنها: " أحكام الفرد أو توقعاته عن أداءه الممكن للسلوك في مواقف تتسم بالغموض، وتنعكس هذه التوقعات على اختياره للأنشطة المتضمنة في الأداء، والجهود المبذولة ومواجهة الصعاب وإنجاز السلوك " وأضاف أبو غالي (2011: 625) أن فعالية الذات هي: "معتقدات يمتلكها الفرد تحدد قدرته على أداء السلوك وتوجيهه، مما ينعكس على الأنشطة التي يقوم بها، والكيفية التي يتعامل بها في المواقف التي تواجهه في الحياة، أما المصري فيرى أن فعالية الذات هي عبارة عن: " توقع الفرد لقدرته على الأداء، والسيطرة على الأحداث في المواقف التي يمر بها عند قيامه بمهام توكل إليه " (المصري, 2011: 8)

أبعاد فعالية الذات:

تنقسم معتقدات الفرد عن فعاليته الذاتية إلى ثلاثة أبعاد وفق باندورا وهي: قدر الفعالية: Magnitude وتشير إلى مستوى قوة دوافع الفرد للأداء في المجالات، والمواقف المختلفة، والعمومية Generality وتشير إلى القدرة على انتقال فعالية الذات من موقف ما إلى مواقف مشابهة في القوة أو الشدة Strength وتشير أيضاً إلى قدرة واعتقاد الفرد أنه بإمكانه أداء المهام، أو الأنشطة موضوع النقاش أو القياس (حجازي, 2013: 10).

خصائص فعالية الذات:

وهذه الخصائص يمكن من خلالها إخضاع فعالية الذات للتنمية والتطوير ولخصها الباحث وفق ما ورد عن علي (2008: 86-87) كالآتي:

هناك خصائص عامة للفعالية الذاتية وتتمثل في: مجموعة الأحكام والمعتقدات والمعلومات من مستويات الفرد وإمكاناته ومشاعره.

ثقة الفرد في النجاح وأداء عمل ما، ووجود قدر من الاستطاعة سواء كانت فسيولوجية أو

عقلية أو نفسية، بالإضافة إلى توافر الدافعية في الموقف.

توقعات الفرد لأدائه في المستقبل، وعدم التركيز فقط على المهارات التي يمتلكها حالياً، وعلى ما يستطيع أدائه مع ما يتوافق لديه من مهارات.

الفعالية الذاتية ليست سمة ثابتة أو مستقرة في السلوك الشخصي؛ فهي مجموعة من الأحكام التي لا تتصل بما ينجزه الفرد فقط، بل تتعداه للحكم على ما يستطيع إنجازه، وهي نتاج للقدرة الشخصية للفرد.

إن فعالية الذات تنمو من خلال تفاعل الفرد مع البيئة ومع الآخرين من حوله، وتتم بالتدريب واكتساب الخبرات المختلفة.

إن فعالية الذات ترتبط بالتوقع والتنبؤ بالإنجاز، ولكن ليس بالضرورة أن تعكس هذه التوقعات أو التنبؤات قدرة الفرد واستطاعته الحقيقية، فمن الممكن أن يكون الفرد لديه توقع بفعالية ذات مرتفعة؛ ولكن تكون الإمكانيات قليلة.

تتحدد فعالية الذات بالعديد من العوامل مثل صعوبة الموقف، وكمية الجهد المبذول، ومدى مثابرة الفرد.

إن فعالية الذات ليست مجرد إدراك وتوقع فقط، ولكنها يجب أن تترجم إلى بذل جهد وتحقيق نتائج مرغوب فيها.

مصادر الفعالية الذاتية:

للفعالية الذاتية أربع مصادر تسمى (مصادر الفعالية الذاتية) لخصت وُعدلت لتوافق عينة الدراسة وهي مرتبة ترتيباً تنازلياً حسب قوة التأثير كالاتي:

خبرات النجاح السابقة: Successful Previous Experience

فكلما اتسمت أغلب خبرات العمل السابقة للطبيب بالنجاح، ارتفعت لديه الفعالية الذاتية

للقيام بهذا العمل مجدداً، وكلما أُنتمت أغلب خبرات العمل السابقة بالفشل، انخفضت لديه الفعالية الذاتية للقيام بهذا العمل مستقبلاً، فالفعالية الذاتية لا تتكون إلا بعد تراكم خبرات الفشل أو خبرات النجاح. ويضيف جبالو ليتل (2003)، Giallo & Little مصدراً آخر لتكون الفعالية الذاتية ألا وهو:

الخبرات البديلة: Vicarious Experience وهي تشير إلى مقدرة الفرد على تعلم سلوك جديد من خلال ملاحظته لنماذج السلوك الاجتماعي التي يتعايش معها، فالطبيب المستجد مثلاً يستطيع أن ينمي من فعالية الذات من خلال سلوك من سبقوه في الخبرة والممارسة في القسم الذي ينتمي إليه.

المقارنة بالأقران: Partner Experience

وهو عامل آخر من العوامل التي المحددة للفعالية الذاتية للطبيب، ويتمثل في مقارنة النفس مع الآخرين في أداء معين، وخصوصاً الأشخاص الذين هم في مثل مستواه أو أقل منه؛ فلو فرضنا مثلاً: أن أحد الزملاء لك في مهنة الطب كان في مثل مستواك المهني كطبيب، وكان قد أدى أداءً جيداً في عملية جراحية ما قام بها، فإن هذا سيرفع الفعالية الذاتية لديك كطبيب وكزميل له في نفس هذا الموقف والعكس صحيح (حجازي 2013: 420)

الإقناع اللفظي: Verbal Persuasion

ويشير هذا المصدر إلى الرسائل اللفظية التي يتلقاها الأفراد من هذا المصدر حول قدراتهم واستطاعتهم، وهذا المصدر قد يعتمد على الأشخاص المحيطين بالفرد، وما يقومون به من إقناع له حول استطاعته القيام بعمل ما من عدمه، وفي مجتمع الأطباء مثلاً: فكلما زاد إقناع الأطباء لبعضهم البعض على أنهم قادرين على القيام بعملية ما، كلما ارتفعت الفعالية الذاتية لديهم بالنسبة لهذا العمل والعكس صحيح، وأحياناً قد يكون هذا الإقناع اللفظي داخلياً حيث يأخذ صور الحديث مع الذات (باندورا، 1997: 125) (Bandura،)، ووفق هذا المصدر يمكن للطبيب إقناع ذاته والحديث معها بقدرتها على القيام بعمل ما، غير أن جابر (1995: 444) يرى أن تأثير هذا المصدر محدود، ومع

ذلك فإن الباحث يرجح أن الإقناع اللفظي في ظل الظروف السليمة يُمكن من رفع فعالية الذات أو خفضها، ولكي يتحقق ذلك ينبغي أن يثق الطبيب بالشخص القائم بالإقناع؛ فالنصائح أو التحذيرات التي تصدر عن شخص موثوق به لها تأثير كبير في فعالية الذات عن تلك التي تصدر عن شخص غير موثوق به.

التنبه الانفعالي أو الاستثارة الانفعالية: Emotional Arousal

"إن مستوى الحالة الانفعالية التي سيكون عليها الشخص أثناء تأديته عمل ما تؤثر على فعاليته الذاتية نحو القيام بهذا العمل"، (حجازي 2013: 420)، فلو افترضنا مثلاً أن طبيب ما بدأ بعملية جراحية وهو مشدود الأعصاب وفي حالة قلق عالية، فإن هذا القلق سيخفض فعاليته الذاتية نحو إجراء هذه العملية وبالتالي سيفشل فيها، وكنتيجة لذلك سيتترك إجراء هذه العملية، كما يجب الانتباه إلى ما أشار إليه هوي (2000) Hoy : ومفاده "أن مستوى الاستثارة الانفعالية تساهم في رفع مستوى الفعالية الذاتية؛ إذا كانت متوسطة، وتخفضها إذا كانت شديدة".

العوامل المسببة للضغوط النفسية للأطباء:

أعتمد الباحث على محاور المقياس المستخدم في هذه الدراسة لتحديد العوامل المسببة للضغوط النفسية وهي كالاتي:

أسباب بيئية تتعلق بمكان العمل: وتوضحها استجابات الطبيب تتعلق بالأجهزة الطبية التسهيلات الإدارية اللازمة لتمكين الأطباء من أداء عملهم من حيث ملائمتهم للمهنة الطبية، مثل الإضاءة، والتكييف، والتهوية، والهدوء، والنظافة، والخدمات، والاتصالات.

أسباب اجتماعية: وتوضحها استجابات الطبيب على تغيير ظروف المعيشة، وتغيير عادات المعيشة، وتغيير مواقف العمل، وتغيير السكن، وتغيير أوقات الفراغ، وتغيير اجتماعات العائلة، والأعياد، والعلاقة بالمرضى، والاداريين، والمسؤولين، وبالزملاء والأطباء، وبالمرضى، وبالزوار.

عوامل مهنية: وتوضحها استجابات الطبيب على تنوع التوجيهات والطلبات المتجددة

وتغيير المسؤولية المهنية، وعبء العمل،

عوامل سلوكية: وتوضحها استجابات الطبيب على تغيير عادات النوم، وتغيير عادات الغذاء، والراحة.

أسباب مادية مالية: وتوضحها استجابات الطبيب على السعي نحو تحقيق مستوى ملائم من الدخل، بالإضافة إلى عدم الشعور بملاءمة الدخل بالنسبة للمستوى المهني، ومعنوية الشعور بالتقدير، والحوافز، والترقيات، واطاحة الفرصة لتجديد المعلومات.

العبء النفسي: وتوضحها استجابات الطبيب على الضغوط الناجمة عن الملل، وعدم القدرة على التكيف، وعدم الرضا عن نوعية وظروف العمل.

عوامل سلوكية: وتوضحها استجابات الطبيب على فقدان الشهية، آلام الرأس، القلق، الإحباط ومن هنا يتضح أن للضغط النفسي انعكاسات سلبية على سلوك الطبيب.

الإحساس بالأمن: يتمثل في احساس الطبيب بالضمان الصحي في حالة تعرضه لعدوى مرضية من جراء الممارسة المهنية، وأن محل عمله نظيف، ومعقم، ومؤمن من العابثين، وآمن في بيته وفي عمله.

النظريات المفسرة للضغوط:

إن من أهم وأشمل النظريات التي تناولت تفسير الضغوط هي: **نظرية فعالية الذات لباندورا (Self- Efficacy theory (Bandura 1977 : 215-191).**

وعلى أساس هذه النظرية يفسر الباحث كيف يواجه الأطباء الضغوط النفسية كالاتي: إن قدرة الطبيب على التغلب على الأحداث الصادمة والخبرات الضاغطة الحياتية وبصفة خاصة المهنية منها تتوقف على درجة فعالية ذاته **Self-Efficacy**، وأن فعالية الذات لدى الطبيب تنمو من خلال إدراك الطبيب لقدراته وإمكاناته الشخصية، ومن خلال تعدد الخبرات التي يمر بها في حياته العملية المهنية، حيث تعمل تلك الخبرات في مساعدته على التغلب على المواقف الضاغطة التي يتعرض لها في حياته، ووفق نظرية بادورا: أن الطبيب عندما يواجه بموقف معين في مهنته فإنه يقيم الموقف من خلال نوعين من التوقعات: أولهما توقع النتيجة، ويشير ذلك إلى تقييم الطبيب لسلوكه الشخصي الذي

يؤدي إلى نتيجة معينة، وثانيهما توقع الفعالية ويشير ذلك إلى اعتقاد الطبيب وقناعته بأنه يستطيع تنفيذ القرار الذي يتطلب حدوث النتيجة بشكل ناجح، وعلى ضوء نظرية باندورا عن فعالية الذات؛ فإن توقعات الفعالية لدى الطبيب عندما تكون في تزايد تكون مصادر الطبيب وطاقاته كافية لمواجهة الموقف الضاغط، وبالتالي يصبح المواقف الضاغطة أقل تهديداً له.

الدراسات السابقة:

هناك دراسات كثيرة تناولت الرضا الوظيفي، وفعالية الذات، والضغوط النفسية بالدراسة لا يتسع المجال لذكرها ولذا اقتصر الباحث على أهمها وأحدثها، كما ركز الباحث على نتائجها لمقارنتها بنتائج الدراسة الحالية وهذه الدراسات هي:

دراسة: الأحمدى، حنان (2002): بعنوان ضغوط العمل عند الأطباء "المصادر والأعراض"، ومن أهم نتائجها تحديد مصادر الضغوط لأفراد العينة المتمثلة في: المسؤولية، والاستقلالية المهنية، وغموض الدور، كما بينت الدراسة مستوى ضغوط العمل لدى المبحوثين والعلاقة بين أعراض الضغوط ومصادرها، وكان لغموض الدور، والمسؤولية علاقة معنوية بضغوط العمل.

دراسة: سلمان (2004): هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على الضغوط الوظيفية التي يتعرض لها العاملون في مستشفيات جامعة عين شمس بالقاهرة، أجريت الدراسة على عينة مختلطة ذكور وإناث قوامها 380 مفردة وطبق مقياس الضغوط الوظيفية، وقد بينت نتائج الدراسة أن مستوى الضغوط الوظيفية لدى أفراد العينة يقع حول الدرجة المتوسطة، ووجود علاقة ارتباطية عكسية جوهرية عند مستوى معنوية ($\alpha = 0.01$) بين الضغوط الوظيفية والانتماء التنظيمي.

دراسة: إبراهيم (2005) بعنوان الفعالية الذاتية، وعلاقتها بالفعالية المهنية، والضغوط النفسية المرتبطة بمهنة التعليم، على عينة من (200) معلم، وطالب، وانتهت النتائج إلى وجود علاقة ارتباطية طردية بين الفعالية الذاتية، والفعالية المهنية والمعتقدات التربوية، وعلاقة عكسية بين الفعالية المهنية، والضغوط النفسية للمعلمين.

دراسة: حجاج (2007): هدفت إلى التعرف على مستوى الضغوط الوظيفية التي يتعرض لها العاملون في مهنة التمريض، والكشف عن علاقة بين ضغط العمل وكل من الانتماء والرضا الوظيفي، وكانت عينة الدراسة 444 مفحوص، وتوصلت نتائج الدراسة إلى إن العاملين في مهنة التمريض في مستشفى الشفاء بغزة يعانون من مستوى ضغط مرتفع، ووجود علاقة عكسية ذات دلالة إحصائية بين ضغط العمل والرضا الوظيفي.

دراسة: بحري وفارس (2014): بعنوان علاقة الضغط المهني بالمساندة الاجتماعية لدى المرأة العاملة، عينة الدراسة قوامها (127) امرأة متزوجة وعازبة، واستخدمت الدراسة مقياس الضغط المهني، ومقياس المساندة الاجتماعية وأسفرت النتائج عن وجود علاقة ارتباطية عكسية بين الضغط المهني والمساندة الاجتماعية،

دراسة: الرحيلي (2011): هدفت إلى رصد عوامل الرضا الوظيفي للطبيب السعودي داخل المؤسسة الصحية، العينة تكونت من 233 طبيباً وطبيبة واستخدم مقياس مينيسوتا للرضا الوظيفي كأداة رئيسة للبحث، وتوصلت الدراسة إلى نتائج عديدة أهمها: وجود ارتباط بين الرضا الوظيفي وبين كل من متغيرات: مكان العمل، والعمر، والحالة الاجتماعية، والدخل الشهري، والمسمى الوظيفي، والتخصص، وسنوات العمل.

دراسة: شاهين، (2012) هدفت إلى بحث علاقة فعالية الذات بكلٍ من القلق والتحصيل الدراسي لدوي صعوبات التعلم، تكونت عينة الدراسة من (23 ذكور 34 إناث) وكانت أهم النتائج: وجود علاقة موجبة دالة إحصائياً بين فعالية الذات والتحصيل الدراسي وعلاقة سالبة دالة إحصائياً بين فعالية الذات والقلق، يختلف كل من فعالية الذات ومكوناتها الفرعية.

دراسة: أبو الحصين (2010): بعنوان الضغوط النفسية لدى الممرضين والممرضات العاملين في المجال الحكومي وعلاقتها بفعالية الذات: تكونت عينة الدراسة من (274 ممرض وممرضة) وطبق الاستبيان للتحقق من أهداف الدراسة، وأظهرت النتائج: أنه لا توجد علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين الضغوط النفسية لدى الممرضين والممرضات وفعالية الذات.

دراسة: أبو مصطفى والأشقر (2011) هدفت إلى التعرف على العلاقة بين الضغوط المهنية والرضا الوظيفي لدى المعلم؛ حيث تكونت العينة من (330) معلماً ومعلمة، أُستخدم فيها مقياس الرضا الوظيفي للمعلم الفلسطيني من إعداد نظمي أبو مصطفى، ومن أهم نتائج هذه الدراسة وجود علاقة سالبة دالة بين كل من الدرجة الكلية لمقياس الضغوط المهنية، والرضا الوظيفي.

دراسة: الأفندي (2012) هدفت إلى التعرف على العلاقة بين عوامل الرضا الوظيفي وتطوير فعالية أداء المعلمين في المدارس الحكومية، حيث تكونت عينة الدراسة من (170) معلماً ومعلمة، وأظهرت النتائج أن أكثر عوامل الرضا الوظيفي التي تسهم في تطوير فعالية أداء المعلمين كانت: سلامة النظام والانضباط المدرسي، ومراعاة احتياجات المعلمين المهنية في الجدول المدرسي، وتوفير الأمن والأمان والحرية والديمقراطية للمعلمين، واستخدام أساليب متنوعة وحديثة في الإشراف التربوي.

دراسة: الزيدان (2014) هدفت إلى الكشف عن طبيعة العلاقة بين الرضا الوظيفي وفعالية الذات لدى معلمي التربية الخاصة، وتكونت عينة الدراسة تكونت من (481) من معلمي التربية الخاصة بمدارس التعليم العام، أُستخدم مقياس الرضا الوظيفي: اعداد الشابحي (1996)، ومقياس فعالية الذات إعداد العدل (2001) فكانت أهم النتائج: توجد علاقة ارتباطية طردية متوسطة دالة إحصائياً بين درجات الرضا الوظيفي وفعالية الذات لمعلمي التربية الخاصة بمنطقة حائل، ويمكن التنبؤ بفعالية الذات لدى معلمي التربية الخاصة من خلال أبعاد الرضا الوظيفي.

دراسة: لي، وياترسون، وفيجا (2011) Lee, Patterson & Vega, هدفت الدراسة إلى الكشف عن تصورات معلمي التربية الخاصة في كاليفورنيا لفعاليتهم الذاتية وعلاقتها بجودة إعدادهم كمعلمين، وكانت عينة الدراسة (154) معلماً ومعلمة، وقد أظهرت النتائج وجود مستوى تصور متوسط لفعالية الذات لدى المعلمين، ولكنه أعلى لدى الذكور، والمعلمين الأكثر خبرة؛ في مقابل الإناث والمعلمين الأقل خبرة، ووجود علاقة ارتباط موجبة دالة بين تصورات المعلم لفعاليتهم الذاتية وبين ثقته في برامج الإعداد

والمهارات المكتسبة منها.

دراسة: لروما وهوتشن وجولفييت وبينسون (2010) Ruma, Houchins, Jolivette & Benson, هدفت الدراسة إلى الكشف عن العلاقة بين الفعالية الذاتية الجماعية وبين فعالية المعلم والرضا الوظيفي, تكونت عينة الدراسة من (70) معلماً ومعلمة , أظهرت نتائج الدراسة وجود أثر موجب, ودال إحصائياً متبادل بين الرضا الوظيفي للمعلم وفعاليتيه الذاتية, ووجود أثر دال موجب إحصائياً للفعالية الجماعية على الفعالية الذاتية.

دراسة: فوريس (2011) Voris, هدفت الدراسة الى الكشف عن العلاقة بين الرضا الوظيفي والفعالية الذاتية لدى معلمي التربية الخاصة في مدينة كنتاكي بالولايات المتحدة الأمريكية, وتكونت عينة الدراسة من (222) معلماً ومعلمة وقد أظهرت النتائج: وجود علاقة ارتباط دالة بين الرضا الوظيفي والفعالية الذاتية وبخاصة عند المعلمين الحائزين على شهادات في التربية الخاصة.

دراسة: أديبومي (2012) Adebomoi هدفت إلى الكشف عن أثر العلاقة بين الرضا الوظيفي والفعالية الذاتية على الالتزام الوظيفي لدى معلمي التربية الخاصة في نيجيريا؛ تكونت عينة الدراسة من (250) معلماً وقد أظهرت النتائج وجود علاقة ارتباط ايجابية دالة إحصائياً بين الفعالية الذاتية بجميع مجالاتها وبين الرضا الوظيفي العام والرضا عن بيئة العمل لدى معلمي التربية الخاصة.

دراسة: مويندي (2011) Muindi, تناولت العلاقة بين المشاركة في صنع القرار والرضا الوظيفي بين أعضاء هيئة التدريس في جامعة نيروبي, وأشارت النتائج إلى وجود علاقة إيجابية قوية إلى حد كبير ($r = 0.888$) بين الرضا عن العمل والمشاركة في صنع القرار.

دراسة: رفيق (2014) Rafique, et. al. أهتمت بالعوامل المؤثرة على الرضا الوظيفي للعاملين في مؤسسات القطاع الخاص: بالقضية باكستان فوجد أن التمكين، التعويض، ووضوح أهداف المنظمة، ونظام التقييم فيها، ومكان العمل، والتدريب والتنمية، وإدارة السلوك والدوافع أظهرت تأثيراً إيجابياً على الرضا الوظيفي.

دراسة: مونفا وآخرون, (2015) Monga, et. al. تناولت عوامل الرضا الوظيفي للعاملين في بنك ICICI في هيماشال براديش Himachal Pradesh، ووجدت أن المرتبات، والعلاقات الشخصية، والاتصالات، والمواقف من الرؤساء، وظروف العمل، والعمل بروح الفريق، هي أجدى من عوامل التدريب والتنمية، والمكافآت والتعويضات، وطبيعة الوظيفة، والأمن الوظيفي، والوضوح الروح المعنوية في تحديد الرضا الوظيفي لموظفي بنك ICICI في هيماشال براديش.

التعليق على الدراسات السابقة:

لقد استفاد الباحث من هذه الدراسات: في إعداد الاستبانات، والإطار النظري لهذه الدراسة، ومناقشة نتائجها؛ إلا أنه يلاحظ على هذه الدراسات؛ على حد علم الباحث؛ قلة اهتمامها بدراسة العلاقة بين المتغيرات الثلاثة " الرضا - الفعالية - الضغوط" جملة واحدة، وندرة اهتمامها باستخدام الرضا الوظيفي وفعالية الذات كعاملين مستقلين للتنبؤ بخفض أثر الضغوط النفسية كعامل تابع، كما أن الدراسات السابقة كان أكثر اهتمامها بالطلاب، والمدرسين والمرضى، مقابل وجود دراستين فقط أهتمتا بمجتمع الأطباء وهما دراسة الأحمدى (2002) التي تناولت ضغوط العمل لدى الأطباء "المصادر والأعراض" ودراسة الرحيلي (2011) هدفت إلى رصد عوامل الرضا الوظيفي للطبيب السعودي داخل المؤسسة الصحية، وكذلك لحظ الباحث ندرة الدراسات التي أهتمت بدراسة علاقة فعالية الذات بالضغوط بصفة عامة؛ باستثناء دراسة أبو الحصن (2010) التي أسفرت نتائجها عن عدم وجود علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين الضغوط النفسية لدى الممرضين والممرضات وفعالية الذات لديهم، وحسب ما أطلع عليه الباحث من دراسات قديمة وحديثة فإن الدراسة الحالية تميزت عن سابقتها في تناول عدة متغيرات مهمة ومفيدة وينبغي معرفتها عن مجتمع الأطباء محلياً وخارجياً.

الطريقة والإجراءات لجمع بيانات الدراسة:

منهج الدراسة:

هدفت هذه الدراسة للكشف عن العلاقة بين عدة متغيرات هي: الضغوط النفسية، والرضا

الوظيفي، وفعالية الذات لدى مجتمع الأطباء، وعليه فقد اتبع الباحث خطوات المنهج الوصفي: الارتباطي للكشف عن العلاقة بين متغيرات الدراسة، ووصفها وتحليل جوانبها المتعلقة بتساؤلاتها، ومقارنة نتائجها، وربطها بإطارها النظري.

مواصفات عينة الدراسة:

تكونت عينة الدراسة من (155) مفحوص؛ منهم (88 طبيب)، و(66 طبيبة)، بمتوسط عمري بلغ (6.35 ± 32.65) ، بنسب عمرية بلغت 77.4% كانت أعمارهم تقع بين (25- 32) سنة، ونسبة 18.7% تراوحت أعمارهم بين (35- 44) سنة، ونسبة 3.9% تراوحت أعمارهم بين (45- 55) سنة؛ أما بالنسبة لمدة الخبرة فبلغت 83.9% تراوحت خبرتهم بين (1- 10) سنة، ونسبة 11.6% تراوحت خبرتهم بين (11- 20) سنة، ونسبة 4.5% تراوحت خبرتهم بين (21- 30) سنة.

أدوات الدراسة:

استخدمت في هذه الدراسة ثلاثة استبانات وهي: (الضغوط النفسية - الرضا الوظيفي - الفعالية الذاتية)؛ كل استبانة منها مقسم إلى مجموعة من المحاور، وعدلت الاستبانات لكي تتاسب مجتمع الأطباء مستعينا بنماذج من الاستبانات التي استُخدمت في قياس المتغيرات نفسها، من الدراسات السابقة: فمقياس الضغوط النفسية، تم بناءه وفق قائمة مصادر الضغوط النفسية (طه ويسن، 2005، ورجاء مريم، 2008)، والرضا الوظيفي تم بناءه وفق استبانة الرضا الوظيفي (الشرعاوي، 2009، والخزاعلة، 2014)، وفعالية الذات؛ تم بناءه وفق استبانة فعالية الذات (قريشي، 2011)، وقد قام الباحث بتكييف وتعديل فقرات المقاييس المذكورة بتوجيه فقراتها التي اعتمدت لتلائم مهنة الأطباء دون إحداث أي تغيير جوهري في أي فقرة من فقراتها؛ وتم التحقق من صحتها وثباتها وفق الآتي:

أولاً: تم التحقق من الصدق الظاهري لاستبانات الدراسة: وذلك بعرضها على مجموعة من الخبراء والمختصين بلغ عددهم (15) مختصاً في الطب النفسي، وعلم النفس، والتوجيه والإرشاد النفسي؛ حيث طُلب منهم إبداء رأيهم في الاستبانات الثلاث من حيث مدى

ارتباطها بمهنة الأطباء، وبهدف الدراسة، وبمدى ارتباط كل فقرة من فقراتها بالمجال الذي تنتمي إليه، وما مدى أهمية كل فقرة في التعبير عن جانب من جوانب المجال الذي تقيسه، وما مدى دقة الصياغة اللغوية لكل فقرة، ووضوحها وصدقها في التعبير عما يقصد بقياسها، وقد أجمع (12) محكماً على صلاحية الفقرات لقياس السمات المستهدف قياسها في الدراسة، وقد تم الأخذ بملاحظاتهم وآرائهم، إذ تم تعديل صياغة بعض الفقرات في ضوء توجيهاتهم، وقد اعتمد الباحث هذه النتيجة بناء على ما أشار إليه موسى "أن موافقة (80 %) من المحكمين على كل فقرة من فقرات الاستبانات الثلاث مؤشراً على صدقها الظاهري" (السعودي موسى، 2013: 25).

ثانياً: تم حساب الصدق العاملي وصدق التكوين لاستبانات الدراسة الثلاثة: وقد تبين أن أغلب معاملات الارتباط ذات دلالة إحصائية عند مستوى ($a = 0.01$) ، وقد قام الباحث باستبعاد الفقرات التي لم يكن معامل ارتباطها مع الدرجة الكلية للمقياس دالاً إحصائياً عند مستوى ($a = 0.01$)

ثبات مقاييس الدراسة:

تم حساب الثبات للاستبانات المستخدمة بطريقتي ألفا كرونباخ وسبيرمان براون، والجدول الآتي يوضح ذلك.

جدول رقم (1) يبين معاملات الثبات بطريقتي ألفا كرونباخ وسبيرمان براون

سبيرمان براون	ألفا كرونباخ	معامل الثبات المقياس
0.71	0.75	مقياس الرضا الوظيفي
0.74	0.76	مقياس فعالية الذات
0.77	0.86	مقياس الضغوط النفسية

يتبين من الجدول رقم (1) أن معاملات الثبات كانت مرتفعة في جميع مقاييس الدراسة، مما يطمئن الباحث من إمكانية استخدامها في جمع بيانات هذا الدراسة.

الإحصاء المستخدم:

استخدم الباحث منظومة الـ SPSS في تحليل بيانات الدراسة: لتحديد نوع وقوة العلاقة بين متغيرات الدراسة عن طريق استخدام ارتباط بيرسون واختبار "T"، كما أُستخدم تحليل الانحدار المتعدد التدريجي Stepwise Multiple Regression ذلك لتحديد أهمية كل متغير مستقل على حدة في المساهمة في خفض الضغوط النفسية كمتغير تابع.

عرض نتائج الدراسة ومناقشتها:

أولاً: الإجابة عن التساؤل الأول والذي مفاده: ما نوع وقوة العلاقة بين الضغوط النفسية والرضا الوظيفي لدى الأطباء في مستشفى زليتن التعليمي؟ للإجابة عن هذا التساؤل قام الباحث بإيجاد العلاقة بين الرضا الوظيفي بأبعاده، وبين الضغوط النفسية بأبعادها مستخدماً معامل ارتباط بيرسون، وكانت النتائج كالآتي:

من خلال بيانات الجدول رقم (2) يتضح وجود علاقة سالبة ودالة إحصائياً بين الضغوط النفسية بشكل عام وكل من الرضا المهني بمستوى معنوي ($a = 0.05$) والرضا الخدمي بمستوى معنوي ($a = 0.01$). كما يتضح من الجدول نفسه أنه وفيما عدا الضغوط المادية والعلاقة بالمسؤولين؛ فإن بعدي الرضا الاجتماعي، والمهني لهما علاقة سالبة ببقية أبعاد الضغوط بمستوى معنوية تراوح بين ($a = 0.05$) إلى ($a = 0.01$) ، ويشكلان أهم بعدين في تكون الضغوط لدى مجموعة الأطباء عينة الدراسة، ويليهما في الأهمية بعد الرضا الخدمي، فالمادي ثم بقية الأبعاد.

جدول رقم (2) يبين نتائج العلاقة بين الرضا الوظيفي وأبعاده وبين الضغوط النفسية وأبعادها

نوع الرضا نوع الضغوط	الرضا الخدمي	الرضا الإداري	الرضا الاجتماعي	الرضا المادي	الرضا الترفيهي	الرضا المهني
الضغوط ككل	-.23**	-.01	-.12	-.10	-.05	-.20*
الضغوط الانفعالية	-.193*	.080	-.335**	.113	-.175*	-.42**
الضغوط السيكوسوماتية	-.129	-.052	-.323**	.020	-.190*	-.38**
الضغوط السياسية	-.115	.054	-.314**	-.010	-.121	-.22**
ضغوط بيئة المكان	-.251**	.025	-.176*	.072	.041	-.139
ضغوط بيئة الممرضين	-.097	.043	-.215**	.081	-.021	-.23**
ضغوط بيئة الأطباء	-.070	.079	.224**	-.189*	-.015	.205*
ضغوط بيئة المرضى	-.141	-.044	.295**	-.255**	.032	.146
ضغوط بيئة الزوار	.019	-.254**	.230**	-.285**	-.007	.183*
ضغوط بيئة المسؤولين	-.073	.023	.060	-.038	.124	.056
ضغوط بيئة المستلزمات	-.172*	-.033	.246**	-.121	.200*	.259**
البعد المادي للضغوط	-.181*	-.038	.115	-.289**	.035	.196*
دالة عند $(a = 0.05)**$			دالة عند $(a = 0.01)**$			

ثانياً: الإجابة عن التساؤل الثاني والذي مفاده: ما نوع وقوة العلاقة بين الضغوط النفسية وفعالية الذات لدى الأطباء في مستشفى زليتن التعليمي؟ للإجابة عن هذا التساؤل قام الباحث بإيجاد العلاقة بين الضغوط النفسية وأبعادها والفعالية الذاتية وأبعادها؛ مستخدماً معامل ارتباط بيرسون، وكانت النتائج كالآتي:

جدول رقم (3) يبين نتائج العلاقة بين الضغوط النفسية وأبعادها والفعالية الذاتية وأبعادها

نوع الضغوط	الفعالية العقلية	الفعالية التحمل	الفعالية النفسية	الفعالية الاجتماعية	الفعالية المهنية	الفعالية الذاتية
الضغوط النفسية	-0.03	-.296**	-.174°	-.281**	-.33**	-.39**
الضغوط العضوية	-0.13	-.315**	-0.10	-.293**	-.34**	-.35**
الضغوط السياسية	0.10	-.219**	-0.13	-.166°	-0.15	-.21°
الضغوط بيئة المكان	0.15	-0.11	-0.07	0.02-	-0.159°	-0.06
الضغوط بيئة الممرضين	-0.06	-.167°	0.02-	-.28**	-0.11	-.18°
الضغوط بيئة الأطباء	.309**-	.352**-	-0.04	.320**-	.217**-	-.331**
الضغوط بيئة المرضى	.347**-	.330**-	(-a = 0.01	.336**-	.264**-	-.365**
ضغوط بيئة الزوار	.177°-	.291**-	-0.09	.282**-	.200°-	-.252**
ضغوط بيئة المسؤولين	0.14-	.200°-	0.06-	0.07-	0.03-	0.14-
ضغوط بيئة المستلزمات	.353**-	.324**-	-0.03	.364**-	.261**-	-.367**
الضغوط المادية	.271**-	.176°-	-0.03	.284**-	.184°-	-.255**
الضغوط بيئة العمل	.328**-	.264**-	(-a = 0.05	.250**-	0.14-	-.262**
دالة عند (a = 0.05)**			دالة عند (a = 0.01)**			

من خلال بيانات الجدول رقم (3) وبناء على المقياس المستخدم يتضح أنه ماعدا

الفعالية العقلية توجد علاقة سالبة دالة إحصائياً بين كل أبعاد الضغوط النفسية بشكل عام وكل أبعاد فعالية الذات، بمستوى معنوية تراوح بين (a = 0.05) إلى (a = 0.01)، كما يتضح من الجدول نفسه أن فعالية التحمل، والفعالية الاجتماعية، والفعالية المهنية هي الأقوى علاقة بالضغوط النفسية وتليها بقية الأبعاد.

ثالثاً: إجابة التساؤل الثالث والذي مفاده: ما نوع وقوة العلاقة بين فعالية الذات والرضا الوظيفي لدى الأطباء في مستشفى زليتن التعليمي؟ للإجابة عن هذا التساؤل قام الباحث بتحديد العلاقة بين الفعالية الذاتية وأبعادها وبين الرضا الوظيفي وأبعاده بطريقة معامل ارتباط بيرسون، وكانت النتائج كالآتي:

جدول رقم (4) يبين العلاقة بين الفعالية الذاتية وأبعادها وبين الرضا الوظيفي وأبعاده.

الرضا المهني	البعد المهني للرضا	البعد الترفيهي للرضا	البعد المادي للرضا	البعد الاجتماعي للرضا	البعد الإداري للرضا	اسم البعد
.194*	.209**	.159*	.040	.134	.114	البعد العقلي للفعالية
.422**	.530**	.137	-.199*	.475**	.021	بعد التحمل للفعالية
.129	.137	-.006	.013	.071	.126	البعد النفسي للفعالية
.455**	.506**	.212**	-.079	.441**	.132	البعد الاجتماعي للفعالية
.362**	.412**	.176*	-.151	.429**	.029	البعد المهني للفعالية
.465**	.534**	.199*	-.118	.467**	.120	الفعالية الذاتية
دالة عند ** (a = 0.01)			دالة عند ** (a = 0.05)			

يتضح من بيانات الجدول رقم (4) وجود علاقة موجبة دالة إحصائياً بين الفعالية الذاتية وبين الرضا الوظيفي بصفة عامة بمستوى معنوية تراوح بين (a = 0.05)، (a = 0.01)، ومن الجدول نفسه يتضح وبصفة عامة أن للبعد المادي علاقات عكسية مع معظم أبعاد فعالية الذات وهي نتيجة طبيعية، وذلك للتأثير المتوقع للبعد المادي وما يلعبه من دور في تنمية أو خفض الفعالية الذاتية لأفراد العينة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن للفعالية دوراً كبيراً في التعويض عن البعد المادي، كما أنه باستثناء البعد النفسي

للفعالية والبعد الإداري للرضا النتائج أوضحت وجود علاقة موجبة دالة إحصائياً بين جميع أبعاد المقياسين -الفعالية والرضا- بمستوى معنوية تراوح بين (0.05 = a) ، (0.01 =).
 رابعاً: إجابة السؤال الرابع الذي مؤداه هل يمكن التنبؤ بمتغيرات الرضا الوظيفي وفعالية الذات في خفض الضغوط النفسية لدى مجتمع الأطباء في مستشفى زليتن التعليمي؟ للإجابة عن هذا التساؤل أُستُخدم تحليل الانحدار المتعدد التدريجي Stepwise Multiple Regression لتحديد أهمية كل متغير مستقل على حدة في المساهمة في خفض الضغوط النفسية، ومعرفة أثر المتغيرات المستقلة المتمثلة بمقاييس الرضا الوظيفي، وفعالية الذات وأبعادهما على المتغير التابع المتمثل في مقياس الضغوط النفسية وأبعاده، ولخصت النتائج في الجدول رقم (5) على النحو الآتي:

جدول (5) يوضح ملخص التنبؤ بأثر الرضا الوظيفي، وفعالية الذات على خفض الضغوط النفسية وأبعادهما بصفة عامة لدى الأطباء.

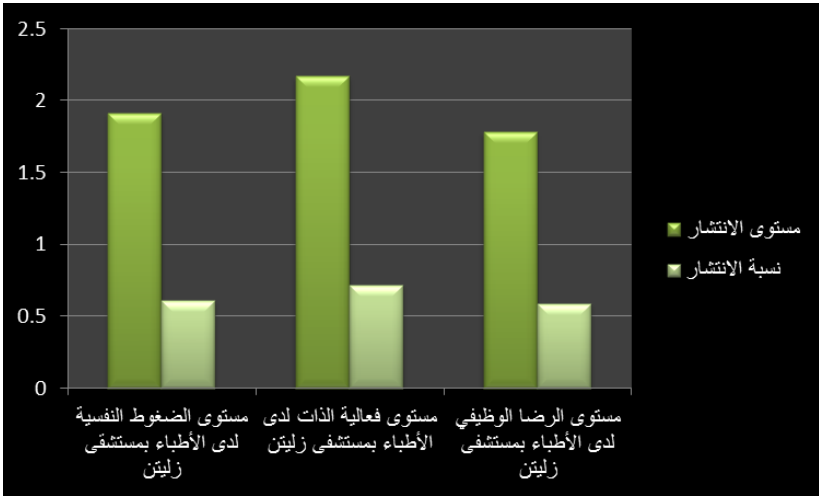
المتغير المستقل الرضا والفعالية	نسبة الإسهام	المتغير التابع خفض الضغوط النفسية	معامل التحديد	مستوى المعنوية
البعد المهني للرضا	37%-	البعد النفسي للضغوط	23%	(a = 0.01)
البعد المهني للفعالية	18%-			
البعد الإداري للرضا	14%-			
المهني للرضا	28%-	البعد العضوي للضغوط	21%	(a = 0.01)
البعد المهني للفعالية	22%-			
البعد المهني للرضا	26%-	بعد البيئة المكانية للضغوط	25%	(a = 0.01)
البعد الاجتماعي للرضا	19%-			
بعد فعالية التحمل	31%-	بعد بيئة الزملاء الأطباء	27%	(a = 0.01)
البعد العقلي للفعالية	23%-			
البعد النفسي للفعالية	16%-			

(a = 0.01)	%25	الضغوط الناتجة عن بيئة المرضى	32- % البعد العقلي للفعالية
			25- % البعد المادي للرضا
			24- % البعد الاجتماعي للرضا
(a = 0.01)	%22	الضغوط الناتجة عن بيئة الزوار	28- % البعد الإداري للرضا
			22- % البعد الاجتماعي للفعالية
			17- % فعالية التحمل
(a = 0.01)	%28	الضغوط الناتجة عن بيئة المستلزمات	25- % البعد الاجتماعي للفعالية
			23- % البعد العقلي للفعالية
(a = 0.01)	%25	الضغوط المتعلقة ببيئة العمل	33- % البعد العقلي للفعالية
			17- % البعد المادي للرضا
(a = 0.01)	%26	البعد المادي للضغوط	28- % البعد المادي للرضا
			18- % البعد العقلي للفعالية
			17- % البعد الاجتماعي للفعالية
			14- % البعد المهني للرضا
(a = 0.01)	%22	الضغوط النفسية عامة	23- % بعد الرضا المهني
			19 % لبعد تحمل للفعالية
			17 % البعد الاجتماعي للفعالية
(a = 0.01)	%29	الضغوط النفسية عامة	32- % بعد الرضا المهني العام
			28- % الفعالية الذاتية العامة
(a = 0.01)	%24	عدد الابعاد المساهمة = 12	21 % متوسط الرضا الوظيفي
(a = 0.01)	%26	عدد الابعاد المساهمة = 16	23 % متوسط فعالية الذات
(a = 0.01)	%25	عدد الابعاد المساهمة = 28	22 % متوسط نسبة الاسهام لبعد الرضا والفعالية

بصورة عامة وبالتمعن في ملخص النتائج الواردة في الجدول رقم (5) يُلاحظ ارتفاع نسب المساهمة العالية، والمتباينة بين أبعاد الرضا الوظيفي، وفعالية الذات (كمتغيرين مستقلين) في التنبؤ بتأثيرهما في خفض مستوى الضغوط النفسية (كمتغير تابع) لعينة الأطباء؛ حيث بلغت نسبة مساهمة الرضا الوظيفي 21 % وقوة تأثير بلغت 24% بمستوى معنوية ($a = 0.01$)، ويعدد ابعاد مؤثرة = 12 بعد؛ أما نسبة مساهمة أبعاد فعالية الذات فبلغت (23%) وقوة تأثيرها (26%) ومستوى القيمة المعنوية لهذا التأثير هي ($a = 0.01$)، ويعدد أبعاد مساهمة = 16 ؛ أما متوسط نسبة المساهمة لأبعاد الرضا الوظيفي مع فعالية الذات فبلغت (22%) وقوة تأثير بلغت (25%) وبلغ مستوى القيمة المعنوية لهذا التأثير ($a = 0.01$)، ويعدد أبعاد مساهمة = 28 بعد و تدل هذه النتيجة على الدور الكبير الذي يلعبه الرضا الوظيفي مع فعالية الذات في التنبؤ بخفض الضغوط النفسية لدى الأطباء.

مناقشة النتائج:

من خلال استعراض نتائج الجداول أرقام: (2, 3, 4)؛ خلصت نتائج الدراسة للإجابة على تساؤلات الدراسة: (الأول، والثاني، والثالث) إلى وجود علاقة سالبة دالة إحصائياً ($\alpha = 0.05$) بين الضغوط النفسية بشكل عام وكل من الرضا الوظيفي، وفعالية الذات، ووجود علاقة موجبة دالة إحصائياً ($a = 0.05$) بين الرضا الوظيفي وفعالية الذات؛ بمعنى آخر بتبين أنه كلما أرتفع مستوى الرضا الوظيفي قلت الضغوط النفسية، وكلما زاد مستوى فعالية الذات انخفضت معها الضغوط النفسية، وكلما زاد مستوى الرضا الوظيفي ومستوى فعالية الذات مع انخفاض مستوى الضغوط النفسية بشكل أكبر لدى الأطباء؛ والعكس صحيح؛ بينما كلما زادت فعالية الذات زاد معها الرضا الوظيفي، ولكن كلما زاد الرضا الوظيفي زادت معه فعالية الذات والعكس صحيح، وقد تسهم هذه العلاقة الإيجابية بين الرضا والفعالية بصورة أكبر في التنبؤ بأثرهما في خفض الضغوط النفسية لدى أفراد العينة، والشكل رقم (1) يوضح مستوى ونسبة الانتشار للضغوط النفسية، والرضا الوظيفي، وفعالية الذات لدى الأطباء بمستشفى زليتن التعليمي



شكل رقم (1) مستوى ونسبة الانتشار للضغوط النفسية، والرضا الوظيفي، وفعالية الذات لدى الأطباء بمستشفى زليتن التعليمي.

بالنظر إلى الرسم البياني يتضح أن مستوى ونسبة انتشار فعالية الذات لدى الأطباء أعلى من مستوى ونسبة انتشار الضغوط النفسية، وأنه أعلى من مستوى ونسبة انتشار الرضا الوظيفي وتفسر هذه النتائج نظريات عدة كتنظرية فعالية الذات لباندورا (1977) Self-Efficacy theory أن الفرد عندما يواجه بموقف معين فإنه يقيّم ذلك الموقف وأن نوع توقعاته ومستوى الفعالية الذاتية لديه؛ وقياساً على ذلك فعندما تكون الفعالية عالية وفي تزايد تكون مصادر الطبيب كافية لمواجهة الموقف، وبالتالي يصبح الموقف أقل تهديداً له، وينخفض مستوى الضغوط لديه، وما يعزز مما توصلت إليه نتائج هذه الدراسة على السؤال الأول في الجدول رقم (2)؛ هو ما توصلت إليه دراسات كل من: حجاج (2007) الذي أظهرت دراسته وجود علاقة عكسية ذات دلالة إحصائية بين ضغط العمل والرضا الوظيفي للممرضات، ودراسة أبو الحصين (2010) التي خلصت إلى أن بعد الرضا المادي احتل أولى المراتب في العلاقة مع الضغوط بينما احتل الرضا النفسي المرتبة الأقل، كما جاءت نتائج الدراسة الحالية مماثلة لدراسات أخرى كدراسة الأحمدى، (2002)، التي أظهرت وجود علاقة عكسية بين الضغوط والرضا، ودراسة إبراهيم،

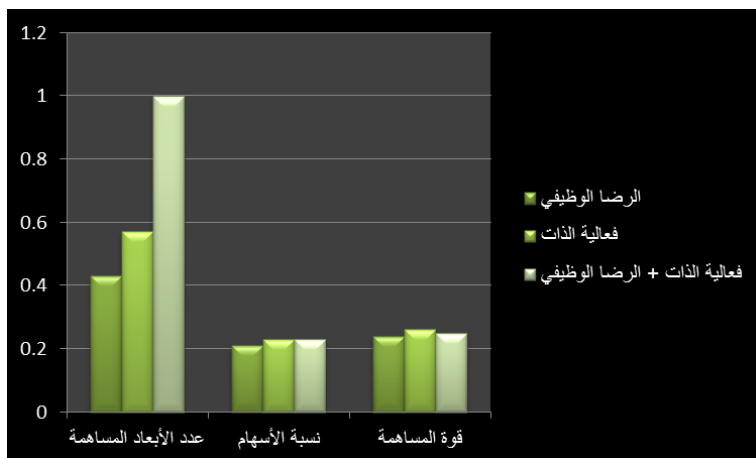
(2005)، التي بينت وجود علاقة عكسية بين الضغوط والفعالية، ودراسة الرحيلي، (2011)، التي أثبتت وجود علاقة ارتباط بين الرضا الوظيفي وبين مسببات ضغوط العمل، ودراسة بحري وفارس، (2014)، التي خلصت إلى وجود علاقة ارتباطية عكسية بين الضغط المهني والمساندة الاجتماعية؛ كاستراتيجية لخفض الضغوط، ودراسة أبو مصطفى والأشقر، (2011)، التي أظهرت علاقة سالبة دالة ($a = 0.05$) بين كل من الدرجة الكلية لمقياس الضغوط المهنية، والرضا الوظيفي.

أما نتائج الدراسة الحالية على التساؤل الثاني والذي مفاده "ما نوع وقوة العلاقة بين الضغوط النفسية وفعالية الذات لدى الأطباء في مستشفى زليتن التعليمي؟"؛ وكما تبين من الجدول رقم (3)؛ فإن نتائج الدراسة الحالية جاءت مخالفة لنتائج دراسة أبو الحصين (2010) التي أظهرت عدم وجود علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين الضغوط النفسية لدى الممرضين والممرضات وفعالية الذات لديهم، ويمكن أن يعزى ذلك إلى اختلاف خصائص العينة، واختلاف عبء الدور والمسؤولية بين ما يقوم به الممرضين والممرضات وبين عينة الأطباء، ولم يجد الباحث دراسات كثيرة أهتمت بدراسة فعالية الذات بصفة عامة وعلى مجتمع الأطباء بصفة خاصة.

أما نتائج السؤال الثالث كما في الجدول رقم (4)؛ فقد خاصت إلى وجود علاقة موجبة طردية دالة إحصائية ($a = 0.05$) بين فعالية الذات، والرضا الوظيفي وكما نشاهد من الشكل (1) أن مستوى ونسبة انتشار فعالية الذات لدى الأطباء أعلى من مستوى ونسبة انتشار الرضا الوظيفي مما يعني أن مستوى الفعالية العالية لدى الأطباء يمكن أن يكون قد اسهم في التنبؤ بخفض مستوى الضغوط النفسية ورفع مستوى الرضا لدى أفراد العينة وبالرجوع إلى الدراسات السابقة فقد أيدت هذه النتائج دراسة الزيدان (2014) التي جاءت نتائجها متوافقة مع نتائج الدراسة الحالية وهي وجود علاقة ارتباطية طردية متوسطة دالة إحصائياً بين درجات الرضا الوظيفي لمعلمي التربية الخاصة وفعاليتهم الذاتية، وكذلك دعمت نتائج الدراسة الحالية نتائج دراسات أخرى توصلت لنفس النتائج وهي وجود

علاقة ارتباط موجبة دالة بين الرضا الوظيفي للمعلمين وفعاليتهم الذاتية: (روما وآخرون, 2010؛ ولي, وآخرون, 2011؛ وفوريس, 2011؛ والأفندي 2012؛ وادبيومي, 2012). (Adebomoi 2012).

ولمعرفة الإجابة عن السؤال الرابع للدراسة والذي مفاده: ما مدى مساهمة كل من الرضا الوظيفي وفعالية الذات في التنبؤ بخفض الضغوط النفسية؟ كانت النتائج وكما تم عرضها في الجدول رقم (5) أحصائياً، وتم توضيحها بيانياً بالشكل رقم (2) على النحو الآتي:



شكل رقم (2) يوضح ملخص نتائج تحليل الانحدار المتعدد لاختبار قوة المساهمة، ونسبتها، وعدد الأبعاد المساهمة فيها للرضا الوظيفي، وفعالية الذات على الضغوط النفسية لعينة الدراسة.

في الرسم البياني بالشكل رقم (2) يتضح أن نسبة مساهمة أبعاد الرضا الوظيفي في التنبؤ بخفض الضغوط النفسية بلغت (21%)، بقوة تفسيرية (24%) ومستوى معنوية (a = 0.01)، بعدد أبعاد 12؛ أما نسبة مساهمة أبعاد فعالية الذات في خفض الضغوط النفسية بلغت (23%) بقوة تفسيرية (26%) ومستوى معنوية (a = 0.01)، وبعدد أبعاد (16) مما يعني أن نسبة مساهمة فعالية الذات في التنبؤ بخفض الضغوط النفسية موضوع الدراسة الأطباء أعلى نسبة إسهام وأقوى نسبة تفسيرية بمستوى معنوية (a =)

0.01) من نسبة إسهام، والقوة التفسيرية للرضا الوظيفي في التنبؤ بخفض الضغوط النفسية لدى الأطباء. وتزداد النسبة والقوة التفسيرية بمزاوجة أثر الرضا مع أثر الفعالية في التنبؤ بخفض الضغوط النفسية؛ مما يعني أنه يمكن التنبؤ بكل من الرضا الوظيفي وفعالية الذات في خفض الضغوط النفسية لدى عينة الأطباء، وبالرجوع للأدبيات السابقة؛ ما عدا دراسة الزيدان (2014) التي أظهرت نتائجها بأنه يمكن التنبؤ بفعالية الذات لدى معلمي التربية الخاصة من خلال أبعاد الرضا الوظيفي؛ لم يجد الباحث نتائج دراسات سابقة مدعمة لنتائج هذه الدراسة أو قريبة منها أو مشابهة لها؛ وهو مما يميز هذه الدراسة وانفرادها بهذه النتيجة حسب علم الباحث وحسب ما أمكن الاطلاع عليه من دراسات في الادب السابق.

الاستنتاجات:

وجود علاقة سالبة دالة إحصائياً عند مستوى ($a = 0.05$) بين الضغوط النفسية بشكل عام وكل من الرضا الوظيفي، وفعالية الذات؛ مما يعني أن للرضا الوظيفي وفعالية الذات دوراً مهماً في تأثيرهما المشترك في خفض الضغوط النفسية أو زيادتها كما عبرت عنه نوع وقوة العلاقة لهذه المتغيرات.

وجود علاقة موجبة طردية دالة إحصائياً بمستوى ($a = 0.05$) بين فعالية الذات، والرضا الوظيفي؛ مما يعني ضرورة الاهتمام بهذين العاملين لدى الأطباء، والعمل على تنميتها لتحسين الأداء المهني للأطباء، وتحسين جودة العمل الطبي.

نتائج هذه الدراسة أظهرت أن نسبة مساهمة فعالية الذات في خفض الضغوط النفسية أعلى (23%) من مساهمة الرضا الوظيفي (21%) في ذلك، كما أظهرت النتائج نفسها؛ أنه يمكن التنبؤ بمستوى الضغوط النفسية للأطباء، بقياس مستوى كل من فعالية الذات بالدرجة الأولى والرضا الوظيفي بالدرجة الثانية للأطباء؛ فكلما ارتفع مستوى الرضا الوظيفي والفعالية الذاتية، كلما كان الأطباء أكثر مقاومة للضغوط وأقل عرضة لها.

التوصيات:

لحظ الباحث وحسب نتائج هذه الدراسة الاختلاف بين الأفراد وبين مدى تأثيرهم على أبعاد

مقياس الضغوط، وهذا التباين يتيح للمسؤولين توجيه أولوياتهم وإمكاناتهم للتخطيط لخفض مستوى ونسبة انتشار هذه الضغوط بين أفراد العينة، وبناء عليه يوصي الباحث بالآتي:

الاهتمام بخفض مستوى الضغوط النفسية لأفراد العينة بصفة عامة مع إعطاء الأولوية: للضغوط النفسية بسبب البعد المادي، ثم العناية بضغوط التعامل مع المرضى، وضغوط نقص المستلزمات الطبية، ثم ضغوط بيئة العمل والخدمات، وأخيراً تلبية بقية الضغوط. ضرورة رفع مستوى الرضا المهني المعنوي لأفراد العينة بصفة عامة وإعطاء الأولوية في الاهتمام؛ ثم يليه الرضا الاجتماعي ثم الرضا المادي، ثم بقية أنواع الرضا. تحسين فعالية الذات لأفراد العينة بصفة عامة؛ وإعطاء الأولوية للخبرة الحديثة، والمتوسطة، والتخصصات الغير جراحية.

الاهتمام بالأطباء وتطوير قدراتهم وتوجيه اهتمام المسؤولين بالرفع من معنوياتهم؛ وإعطاء الأولوية في ذلك للرفع من فعالية الذات لديهم، ثم تحسين ظروف الرضا الوظيفي لهم حسب ما توصلت إليه نتائج هذه الدراسة.

يوصي الباحث الأطباء والمسؤولين بضرورة إجراء اختبارات دورية في الضغوط، والرضا، والفعالية لمجتمع الأطباء وذلك لمتابعة تطور الصحة النفسية وفعالية الذات لهذه الشريحة المهمة للمجتمع.

إجراء دراسات مقارنة محلية " بين المستشفيات الخاصة والحكومية" ومقارنات محلية وخارجية عن الموضوع نفسه للوقوف على حقائق أكثر وللتحقق من المستوى المحلي للفعالية والرضا ومستوى الضغوط.

ضرورة احترام إجازات وأوقات الراحة للطبيب وخاصة من يعملون منهم بنظام المناوبة الليلية، وكذلك إجراء مثل هذه الدراسة على أطباء المناوبة الليلية.

المراجع العربية:

إبراهيم، إبراهيم (2005). الكفاءة الذاتية وعلاقتها بالكفاءة المهنية والمعتقدات التربوية والضغوط النفسية لدى المعلمين وطلاب كلية المعلمين بالمملكة العربية السعودية المجلة التربوية، 75، الصفحات 131-161.

أبو الحصين، محمد فرج الله مسلم (2010). الضغوط النفسية لدى الممرضين والممرضات العاملين في المجال الحكومي وعلاقتها بفعالية الذات، رسالة ماجستير منشورة، قسم علم النفس، كلية التربية الجامعة الإسلامية بغزة

أبو رحمة، محمد (2012). ضغوط العمل وعلاقتها بالرضا الوظيفي لدى المشرفين التربويين بمحافظة غزة. رسالة ماجستير منشورة، كلية التربية، الجامعة الإسلامية غزة
أبو غالي، عطا (2011). فعالية الذات وعلاقتها بضغوط الحياة لدى الطالبات المتزوجات في جامعة الأقصى. مجلة الجامعة الإسلامية التربوية والنفسية. مجلد 20-1
654 - 619

أبو مصطفى، نظمي، الأشقر، ياسر (2011). الضغوط المهنية وعلاقتها بالرضا الوظيفي لدى المعلم الفلسطيني مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الانسانية) ،
المجلد التاسع عشر، العدد: الأول، ص 209 - 238

الأحمدي، حنان عبد الرحيم (2002). ضغوط العمل لدي الأطباء: (المصادر والأعراض)، دراسة ميدانية للأطباء العاملين في المستشفيات الحكومية والخاصة بمدينة الرياض. الرياض: مركز البحوث، معهد الإدارة العامة، القاهرة، الرياض، ص 19.
الأفندي، أسماعيل (2012). عوامل الرضا الوظيفي وتطوير فعالية أداء المعلمين في المدارس الثانوية الحكومية في محافظة بيت لحم. بحث علمي، منشور في المؤتمر التربوي الثالث لمديرية التربية والتعليم - الخليل، جامعة القدس المفتوحة. التاسع عشر،
العدد الأول: ص 209 - 238.

بحري، نبيل وفارس، علي (2014). علاقة الضغط المهني بالمساندة الاجتماعية لدى المرأة العاملة: دراسة ميدانية، مجلة مركز جيل البحث العلمي العدد: 03 تشرين أول :
اكتوبر 2014

جابر، جابر عبد الحميد (1995). نظريات الشخصية، القاهرة، دار النهضة العربية.
حجازي جولتان حسن (2013). فعالية الذات وعلاقتها بالتوافق المهني وجودة الأداء لدى معلمات غرف المصادر في المدارس الحكومية في الضفة الغربية المجلة الأردنية في

العلوم التربوية، مجلد 9، عدد 4. 433-419.

حنان عبد الرحيم الأحمدى: ضغوط العمل لدى الأطباء " المصادر والأعراض"، مركز البحوث، معهد الإدارة العامة، القاهرة، الرياض، ص19.

الحياة لدى الشباب الجامعي. مجلة كلية التربية - جامعة

الخرزاعلة محمد (2014). مدى الرضا الوظيفي لدى موظفي جامعة الملك فيصل في المملكة العربية السعودية. مجلة المنارة، المجلد 20، العدد 1/ب

خليل حجاج (2007). تأثير ضغط العمل على كل من الانتماء والرضا الوظيفي للممرضين العاملين بمستشفى الشفاء بغزة، مجلة جامعة الأزهر - غزة، سلسلة العلوم

الإنسانية المجلد: 9، العدد: 2 ص 95-118

راوية حسن(2003). السلوك التنظيمي المعاصر، الدار الجامعية، الإسكندرية، ص

(399

رجاء مريم (2008). مصادر الضغوط النفسية المهنية لدى العاملات في مهنة التمريض، دراسة ميدانية على المستشفيات التابعة لوزارة التعليم العالى في محافظة دمشق، كلية التربية، جامعة دمشق، مجلة جامعة دمشق، المجلد 24، العدد الثاني.

الرحيلي، رينا سعد (2011). الرضا الوظيفي لدى الأطباء السعوديين العاملين في المستشفيات الحكومية، رسالة ماجستير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية تم

استرجاعها على الرابط:

https://www.kau.edu.sa/Show_Res.aspx?Site_ID=306&L

الزاید، عبدالله (2005). بيئة العمل وعلاقتها بالرضا الوظيفي. رسالة ماجستير غير منشورة، قسم العلوم الإدارية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض.

الزیدان، خالد بن زیدان بن سلیمان (2014). الرضا الوظيفي وعلاقته بفعالية الذات لدى عينة من معلمي التربية الخاصة بمراحل التعليم بمنطقة حائل دراسة مقدمة إلى قسم علم

النفس كلية التربية بجامعة أم القرى متطلب تكميلي لنيل درجة الماجستير في علم نفس تخصص (الإرشاد النفسي)

السعودي موسى (2013). أثر الحوافز المادية على الرضا الوظيفي لدى العاملين في مؤسسة الضمان الاجتماعي الأردنية، دراسة ميدانية، جامعة البلقاء التطبيقية، السلط، الأردن، دراسات، العلوم الإدارية، المجلد 40، العدد 1.

سلمان، أحمد عيسى (2004). تأثير الضغوط الوظيفية على الانتماء التنظيمي بالتطبيق على مستشفيات جامعة عين شمس، رسالة ماجستير غير منشورة مكتبة كلية التجارة، جامعة عين شمس.

شاهين، هيام صابر صادق (2012). فعالية الذات مدخل لخفض أعراض القلق وتحسين التحصيل الدراسي لدى عينة من التلاميذ ذوي صعوبات التعلم مجلة جامعة دمشق- المجلد: - 28 العدد 4.

الشرعوي، محمد علي، (2009)، " مستوى الرضا الوظيفي للموظفات في المستويات الإدارية (العليا والوسطى) في الجامعات الأردنية"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم التربوية، الجامعة الأردنية، الأردن.

صالح، عواطف حسين (1993). الفعالية الذاتية وعلاقتها بضغوط الحياة لدى الشباب الجامعي. مجلة كلية التربية -جامعة المنصورة، 3، الصفحات 461-487.

طه إسماعيل طه ويسن الطاف (2005) الضغوط المهنية وعلاقتها بالتوافق المهني لدى أساتذة الجامعات، مجلة البحوث التربوية والنفسية العدد الثاني عشر جامعة بغداد/ كلية التربية للبنات.

قريشي فيصل، (2011)، "التدين وعلاقته بالفعالية الذاتية لدى مرضى الاضطرابات الوعائية القلبية"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، قسم العلوم الاجتماعية، شعبة علم النفس، جامعة الحاج لخضر باتنة.

مخلف سعاد (2006). الضغط النفسي ومدى تأثيره على سلوك الأطباء العاملين بالمراكز الصحية دراسة ميدانية بولاية المسيلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة الاخوة منتوري قسنطينة. ص:86.

مخلف سعاد (2011). الضغط النفسي ومدى تأثيره على سلوك الأطباء العاملين

بالمراكز الصحية، دراسة ميدانية بولاية المسيلة مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم نفس العمل والتنظيم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الاخوة منتوري، قسنطينة، الجزائر

مراد، عبد الفتاح، (د.ت) موسوعة البحث العلمي وإعداد الرسائل والأبحاث والمؤلفات، جمهورية مصر العربية.

المصري، نيفين (2011). قلق المستقبل وعلاقته بكل من فعالية الذات ومستوى الطموح الأكاديمي لدى عينة من طلبة جامعة الأزهر بغزة. قسم علم النفس. كلية التربية. جامعة الأزهر بغزة.

الهاشمي لوكيا (2002). لضغط النفسي لدى اساتذة التعليم العالي، مشروع بحث معتمد من طرف وزارة التعليم العالي والبحث العلمي 98 - 2501/02/96 T. الجزائر .

المراجع الأجنبية:

Lee, Y., Patterson, P., & Vega, L. (2011). Perils to Self-Efficacy Perceptions and Teacher- reparation Quality among Special Education Intern Teachers. *Teacher Education Quarterly*, 1(1): 61-

Ruma, k., Houchins, D., Jolivette, K., & Benson, G. (2010). Efficacy Beliefs of Special Educators: The Relationships among Collective Efficacy, Teacher Self-Efficacy, and Job Satisfaction. *Journal of Teacher Education*, 1(1): 1-6.

Bandura, A. (1977). self-efficacy. Toward a unifying theory of behavioural change . *Psychological Review* , 84 , pp 191-215.

Adebomi, O. (2012). Job Satisfaction and Self-Efficacy as Correlates of Job Commitment of Special Education Teachers in Oyo State. *Journal of Education and Practice*, 3(9): 95-103.

Voris, B.(2011). Teacher Efficacy, Job Satisfaction, And Alternative Certification In Early Career Special Education Teachers. University of Kentucky Doctoral Dissertations. Paper 159.

http://uknowledge.uky.edu/gradschool_diss/159

Lander, F.(2009). Multiple Impacts Of Organizational Climate And Individual Value System Upon Job Satisfaction . *Personnel Psychology Journal*, 22, pp 171-183..

Westhuizen, J. (2012). Job satisfaction amongst teachers at special needs

schools. South African Journal of Education, 1(1): 255-266.

Muindi F. K. (2011). The relationship between participation in decision making and job satisfaction among academic staff in the School of Business, University of Nairobi. Journal of Human Resources Management Research, pp. 1-34.

Rafique, T., Butt, F. S., Khawaja, A. B., Akhtar, N., Hussain, A., & Bashir, M. (2014). Factors Effecting Job Satisfaction of Employees working in Private Organizations: A Case of Pakistan. Research Journal of Applied Sciences, Engineering and Technology, 7(7), 1335-1343.

Monga A., Verma N., O. P. Monga O. P. (2015). A Study of Job Satisfaction of Employees of ICICI Bank in Himachal Pradesh. Human Resource Management Research, Vol. 5(1), pp. 18-25

Giallo, R., & Little, E. (2003). Classroom Behavior Problems, The Relationship between Preparedness, Classroom Experiences and Self-Efficacy in Graduate and Student Teachers. Australian

Hoy, A. (2000). Changes in Teacher Efficacy during the Early Years of Teaching. Paper presented at the annual meeting of the American Educational Research Association, (pp. 1-26). New Orleans: LA .

علاقات أباضي ورقلة التجارية مع شمال الصحراء وجنوبها

لمياء محمد سالم شرف الدين¹

مقدمة

حظي موضوع خوارج بلاد المغرب الأبازيين باهتمام ثلّة من البحاّث، إلّا أنّ دراساتهم قد اتخذت وجهة سياسيّة أو مذهبيّة، ولم يحظ الخوارج الأبازية بدراسة لأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعيّة بمعزل عن هاتين الوجهتين.

ويُعتبر البحاّث المستشرقين أول من طرق مجال البحث الاقتصادي والاجتماعي للخوارج الأبازيين، ومن أبرزهم ليفتسكي Lewicki، الذي انصب اهتمامه على دراسة المصادر الأبازية ومنها انطلق للبحث في نشاط الأبازيين التجاري، شمال/جنوب الصحراء. وكان مسار بحثه نشاط الأبازيين التجاري في الواحات بعد سقوط "الدولة" الرستميّة، معتمدا أساسا على الرجوع إلى فترة زمنية سابقة وإيجاد جذور للعلاقات الأبازية بالمراكز التجارية في كل من شمال الصحراء وجنوبها.

إنّ المنهج الذي اتبعه ليفتسكي لإبراز العلاقات بين أباضي الواحات مع شمال وجنوب الصحراء، حفّزني لإستقراء ما توفر لدي من مصادر في محاولة للبحث في الأسباب الموضوعيّة التي دفعت بأباضي الواحات لمزاولة التجارة وأبعادها، مع اتخاذ أباضي ورقلة أنموذجا.

إنّ صمت المصادر عن علاقات الأبازيين التجارية مع شمال وجنوب الصحراء في القرن الرابع للهجرة، حدا بي للإنتقال إلى دراستها في القرن الخامس خاصة بعد الهجرة الهلالية، لما توفّر من معلومات. وقد كانت هذه الأخيرة لصيقة بتطور ورقلة السياسي والاقتصادي من ناحية، وظهور ثقل بشري بها من ناحية أخرى. وقد كان لزاما التعرض في البدء إلى أوضاع التّجمعات الأبازية في بلاد المغرب حتى قيام "الدولة" الفاطمية

¹ - عضو هيئة تدريس جامعة الطرابلس.

(297هـ/909م)، إنطلاقاً من ظهور المذهب الإباضي في بلاد المغرب ومساره حتى قيام الإمامة الرستمية وبناء العاصمة. مع تتبع ما حفّ بها من مشاكل أدت إلى سقوطها، ثم انسحاب الإباضيين إلى الجنوب، أي إلى مناطق الواحات كعماقر أخيرة لهم، ومحاولة تفسير هذا الانسحاب. ومن ثمّة الولوج إلى موضوع الدراسة "علاقات إباضي ورقلة مع شمال وجنوب الصحراء"، الذي صدرته بتاريخ تأسيس المدينة وتعدد تسمياتها. ثمّ تعرّضت إلى موقعها وإلى مكوناتها الاقتصادية، وذلك لإبراز النشاط الاقتصادي التجاري من بينها مقتصرة على العلاقات التجارية لورقلة مع شمال وجنوب الصحراء، وما رافق هذا النشاط التجاري من نشاطات حضارية، منها نشر الإسلام واللغة العربية في المناطق السودانية.

أوضاع التجمعات الإباضية حتى قيام "الدولة" الفاطمية (297هـ/909م)

يُعدّ البحث في أوضاع التجمعات الإباضية جزءاً على قدر من الأهمية في هذه الدراسة، ذلك أنه يحيلنا إلى معرفة التطورات في منطقة المغرب المتعلقة بالتجمعات الإباضية التي كان لدخول الفاطميين للمنطقة وقع عليها؛ إذ فرّ أغلب عناصرها إلى المناطق الجنوبية. وللوصول إلى إبراز ذلك وجب التعرّض في البدء إلى ظهور المذهب الإباضي ومساره حتى قيام الإمامة الرستمية وبناء العاصمة - التي اختلف المؤرخون الأوائل في تحديد تاريخ تأسيسها¹ -، مع تتبع ما حفّ بها من مشاكل أدت مجتمعة إلى سقوطها سنة (297هـ/909م).

¹ يذكر كل من ابن عذاري وابن خلدون سنة 144هـ/761م تاريخاً للتأسيس على اثر فرار عبد الرحمن بن رستم من القيروان، في حين يذكر ابن الصّغير سنة 160-162هـ/776-778م تاريخاً لذلك، وهو تاريخ تولّي عبد الرحمن بن رستم الإمامة. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1983، ج1، ص72؛ ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، 1983، مج11، ص225؛ ابن الصّغير،

لئن كان للصقيرية¹ السبق في الظهور على مسرح الأحداث في منطقة المغرب سنة (122هـ/739م)² ومناوئة السلطة المركزية/الأموية الممثلة في عمر بن عبد الله المرادي عامل مدينة طنجة وماوالاها، فإنّ للأباضيّة دورا لا يقل شأنًا وإن كان متأخرا، سنة (140هـ/757م)³.

أخبار الأئمة الرستميّين، تحقيق وتعليق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص28.

¹ الصقرية: فرقة خارجية من أتباع زياد بن الأصفر، وفي قول أنّ رئيسها هو عبد الله بن صفار السعدي الذي كان من أتباع نافع بن الأزرق لكنه انفصل عنه اثر خروجه عن عبد الله بن الزبير سنة 757/هـ64م. وكان السبب في انفصاله عنه، شدّته في تعقّب مخالفه واستحلال دماهم وقتل اطفالهم ونسائهم. ودخلت الصقرية بلاد المغرب واستقرت بسجلماسة حيث كونوا دولة بني مدرار بها، التي شهدت ازدهارا وتقدما اقتصاديا ومعماريا. العربي، إسماعيل، معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، دار الافاق الجديدة، المغرب، 1993، ص250.

² قامت هذه الانتفاضة بقيادة ميسرة المطغري متزعما للخوارج الصقرية ضد الخلافة الأموية في بلاد المغرب. الرقيق، أبو اسحاق ابراهيم، تاريخ إفريقيّة والمغرب، تحقيق عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص73.

³ تعدّ سنة 140هـ/757م بداية تاريخ حركات الخوارج الأباضية في بلاد المغرب وذلك اثر عودة حملة العلم من المشرق، وهم: عاصم السدراني وأبو داود القبلي وإسماعيل بن درار الغدامسي وعبد الرحمن بن رستم وأبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، الذي تعتبره المصادر الأباضية "أول الأئمة، وتؤرخ لثورته باعتبارها بداية لمرحلة الظهور". عبد الرازق محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985، ص82. لمزيد من المعلومات عن هؤلاء حملة العلم الخمسة، أنظر: الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد، طبقات مشايخ المغرب، تحقيق وطبع إبراهيم طلاي، مطبعة البعث قسنطينية، الجزائر، د.ت، ج1، صص22-23، 29، 40-46؛ الشماخي، أبو العباس أحمد بن أبي عثمان سعيد بن عبد الواحد، كتاب السير، دراسة وتحقيق محمد حسن، دار المدار الاسلامي، بيروت، 2009، ج2، صص245-259، 262-263، 267، 268، 271، Lewicki, T, " The ibadites in Arabia and Africa, The ibadites in North Africa and Sudan to the fourteenth century", in *Journal of World History*, 1971, Vol XIII, p.88.

إنّ ما يُستشف من هذه الأسماء أنّ أول من اعتنق المذهب الأباضي كانوا من المغاربة البتر المستقرين بالقيروان وطرابلس وجبل نفوسة وغدامس ونفزاوة وسدراتة. وكانت هذه المناطق مجمعا لقبائل هوية وزناتة وزواغة ولواتة ومطماطة. ابن خلدون، المصدر السابق، مج11، صص229-235.

تجمع المصادر الأباضية على أن أول من دخل بلاد المغرب ناشرا المذهب الأباضي هو سلمة بن سعد قادما من البصرة ومعه عكرمة مولى بن عباس داعيًا للمذهب الصفري في أوائل القرن الثاني للهجرة سنة (105 هـ/723م تقريباً)¹. وقد استطاع سلمة بن سعد أن يكسب أنصارا في المغرب الأدنى وجبل نفوسة². فأهل إفريقية كغيرهم من سكان بلاد المغرب، كانوا يعانون الاضطهاد والتفرقة والمعاملة السيئة من قبل ولاة الخلافة الأموية، ووجدوا ضالتهم في الخوارج الاباضية المناوئين للأمويين والذين كانوا أقرب فرق الخوارج إلى السنة، فرفعوا شعار الثورة ضدها.

وتعاقبت ثورات الأباضية ببلاد المغرب بدءا من سنة (126هـ/744م)، "فتحرّكت قبائل زناتة وهوارة ونفوسة وضريسة وغيرها رافعة شعار المذهب الأباضي"³. ففي هذا التاريخ، قامت قبيلة هوارة بقيادة عبد الله بن مسعود التجيبي بثورة ضد حكم عبد الرحمن بن حبيب الفهري في طرابلس⁴. وفي سنة (131هـ/748م) قامت ثورة أخرى بقيادة عبد

¹ أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكريا، تحقيق إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ص41؛ الشماخي، المصدر السابق، ج1، ص212، ج2، ص245. ويختلف الدرجيني عن أبي زكريا والشماخي في اسم حامل المذهب، فيذكر أنه سلامة بن سعيد. الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص11.

² الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص11.

³ الشماخي، المصدر السابق، ج1، ص43.

⁴ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق وتقديم علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1995، ص252.

الجبار بن قيس المرادي والحارث بن تليد الحضرمي¹، وأعقبها ثورة ثالثة سنة (132هـ/749م) بقيادة إسماعيل بن زياد النفوسي².

لم تكن هذه الثورات لتعبّر عن تنظيم أباضي يهدف لإقامة كيان مستقل حتى سنة (140هـ/757م)، عندما أعلن أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري إمامة الظهور³ إثر رجوعه من المشرق مع حملة العلم الخمسة.

استطاع أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، المتغلب على طرابلس⁴ وقابس⁵، مقارعة الخوارج الصفرية (ورفجومة) في القيروان والإستلاء عليها سنة (141هـ/758م) وتولية عبد الرحمن بن رستم عاملاً له عليها⁶، ولكنّه لم يستطع الصمود أمام قوات المسودة بقيادة محمد بن الأشعث عامل الخليفة العباسي المنصور سنة (144هـ/761م) - لإنقسام جنده وتفرقهم إلى زروعهم، وقد كان الوقت وقت زرع - وقُتل في تاورغا⁷. وتفرّق بمقتله أصحابه في جنوب طرابلس وقابس⁸ وغيرها من مناطق

¹ ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص252؛ الرقيق، المصدر السابق، ص 91؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص247؛ ابن الأثير، عز الدين، *الكامل في التاريخ*، مراجعة وتعليق نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي، بيروت، 1980، ج4، ص279.

² ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، *فتوح إفريقية والأندلس*، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964، ص104؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج11، ص223.

³ عندما يرى الأباضيون في أنفسهم قوة وقدرة على مواجهة الأحداث يعلنون إمامة الظهور، إلا أنهم عقب المحن كانوا يعدّون أنفسهم بتكثّم وفق إمامة الدفاع. عبد الرزاق، *الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري*، ص101.

⁴ الرقيق، المصدر السابق، ص104؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص71. الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص248.

⁵ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص250.

⁶ ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص71؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج4، ص281.

⁷ أبو زكريا، المصدر السابق، ص69؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، صص254-256.

⁸ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص256.

الجنوب. كما فرّ عامله على القيروان إلى المغرب الأوسط¹، واضطر الأباضيون إلى التخبّي وفق ما يسمّى "إمامة الدّفاع"² بإمرة أبي حاتم الملزوزي الذي تمكّن من استرداد طرابلس والقيروان لفترة من الزمن، إلّا أنّه اندحر أمام القوى العباسية بقيادة يزيد بن حاتم سنة (155هـ/772م) وقتل في جماعة من جنده³.

ككل مرّة بعد الهزيمة ينسحب الأباضيون إلى الجنوب، فكان أن اندفع من بقي من قوات أبي حاتم إلى الجنوب والجنوب الغربي وتاهرت، حيث انظّم عدد منهم إلى عبد الرحمن بن رستم واجتمع رأيهم على تقديمه وبناء مدينة تجمعهم. وما إن وصلت أخبار ذلك إلى أباضيي المشرق (البصرة) حتى بادروا بإرسال المساعدات المالية إليه. فأنفقها في أوجه عدّة منها الدفاعي والإنمائي مما كان له دور في عمران تاهرت وإزدهارها⁴.

أصبحت تاهرت بتولي عبد الرحمن بن رستم الإمامة وباستقطابها للعديد من القبائل المغربية الإباضية الفارّة من القوات العباسية مركزا سياسيا ودينيا لكل أباضيي بلاد المغرب. كما أضحت مركزا اقتصاديا هاما وسوقا مهما، لم يجذب الجماعات الإباضية في منطقة المغرب وحسب بل كان قبلة لتجار المشرق والمغرب على حد السواء. فيذكر الشماخي أنه "انتقل إليها أهل الأموال والتجار من مصر وإفريقية والمغرب لخوفهم على

¹ يذكر الرقيق أنه قد فرّ إلى تاهرت حيث اختبأ بها ونزلها، وينحى ابن عذاري منحاه. أما الشماخي فيذكر أنه فرّ إلى سوفجج. الرقيق، المصدر السابق، ص105؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، 72؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص257.

² يذكر محمود اسماعيل عبد الرازق أنّ "معركة تاورغا سنة 144هـ (761م) نهاية لإمامة الظهور التي استمرت أربعة أعوام سيطر الإباضية إبانها على إفريقية والمغرب الأدنى، فلم يقو الأباضية بعدها على الظهور واضطروا إلى العمل في تستر وكتمان وهو ما يعرف في إصطلاحهم بإمامة الدفاع." عبد الرازق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ص89.

³ الرقيق، المصدر السابق، ص109؛ أبو زكريا، المصدر السابق، صص73-80؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص79؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، صص258-262؛ ابن خلدون، المصدر السابق، مج11، ص227.

⁴ ابن الصغير، المصدر السابق، صص29، 32، 34، 35؛ أبو زكريا، المصدر السابق، ص83؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص266.

أموالهم من أئمة الجور، ومن هناك دخلتها الفرق ونفقت فيها السِّلَع مع كونها كثيرة الخصب فعظمت بها الأموال.¹

ولقد خَوَّل لها كل ذلك أن ترتبط تجاريا ببلاد السودان وغيرها من البلاد المشرقية والمغربية. فيذكر ابن الصغير "أنَّ السبل قد استعملت إلى بلاد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة، فأقاموا على ذلك سنتين أو أقل أو أكثر والعمارة زائدة والتجار من كل الأقطار تاجرون."²

انعكس هذا الازدهار الاقتصادي على مناحي الحياة الأخرى في الإمامة الرستمية، فبنيت القصور وغُرست البساتين ونُصبت الأجرء ورُكبت الخيول وكثُرَت العبيد والخدم.³ كما أثر ذلك على اتساع رقعة الإمامة الرستمية، فكان أن امتدت من طرابلس شرقا إلى تلمسان غربا.⁴

على الرغم من هذا الازدهار، فقد عانت الإمامة الرستمية من مشاكل داخلية وخارجية تعود في تاريخها إلى عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ثاني أئمة الإمارة الرستمية (171-208 هـ/787-823م)⁵. فعلى المستوى الداخلي تعرّض المذهب الأباضي لإتقسامات عدّة، وكتاب ابن زكريا "سير الأئمة وأخبارهم" حافل بالشواهد على ذلك، إذ يسهب في الحديث عن أسباب إفتراق الأباضية⁶، فكان الأول بقيام أبي قدامة

¹ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص286. ويمكن أن نفسّر تواجد هذه الجماعات التجارية بتاهرت أيضا بكون هذه الأخيرة "تستقبل الذهب والعبيد، وفيها توزّع هاتين السلعتين في اتجاه البحر الأبيض المتوسط". لومبار موريس، الإسلام في مجده الأول (ق2-5 هـ/8-11م)، ترجمة إسماعيل العربي، دار الأفق الجديدة، المغرب، 1990، ص88.

² ابن الصغير، المصدر السابق، ص36.

³ المصدر نفسه، ص38.

⁴ المصدر نفسه، ص45.

⁵ فقيه ومحدّث له مؤلف أجوبة في الفقه والأحكام وأصول الدين. شهد عصره افتراق الأباضية وعدّة ثورات. أبو زكريا، المصدر السابق، صص86-126؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، صص272-291.

⁶ أبو زكريا، المصدر السابق، ص197؛ لمزيد من المعلومات عن الفرق الأباضية أنظر: الدّرجيني، المصدر السابق، ج1، صص47-55؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص441. ولمزيد من التفاصيل حول الفرق

يزيد بن فندين اليفرنى وأصحابه على عبد الوهاب ابن عبد الرحمن ابن رستم سنة (171هـ/787م) عندما أراد هذا الأخير أن يولي أمور المسلمين أهل العلم والبصيرة دونه ودون أصحابه¹. ولعلّه من الجدير بالذكر أن معارضة ابن فندين لتولي عبد الوهاب بن عبد الرحمن الإمامة ظهرت عندما اراد الناس مبايعته إثر وفاة أبيه². أمّا الافتراق الثاني فكان بإمرة خلف بن السّمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى المعافري³ إثر وفاة أبيه. وقد أراد أن يخلفه على طرابلس رغم معارضة الإمام عبد الوهاب⁴.

لم يقتصر الأمر على هذا الانشقاق المذهبي بل تعداه إلى صراع من أجل السلطة داخل الأسرة الرستميّة نفسها، فيذكر ابن الصغير أنه قام صراع بين يعقوب بن أفلح وبين أخيه أبو حاتم يوسف⁵ سنة (281-283هـ/894-896م) حتى "أنّ السبيل قد قُطعت

المنشقة عن الأباضية، انظر: ليفتسكي، تادايوش، دراسات شمال إفريقيا - جمع وترجمة لبحوث ذات أبعاد تاريخية/ إجتماعية ولغوية، ترجمة أحمد بومزقو، إعداد للنشر وتقديم موحد ومادي، منشورات مؤسسة تالوت الثقافية - سلسلة دراسات (1)، 2005، صص 71-75؛ ليفتسكي، دراسات شمال إفريقيا، سلسلة دراسات (2)، 2006، صص 57-61؛

Lewicki, " La répartition géographique des groupements ibadites dans l'Afrique du Nord au Moyen âge", dans *Rocznik Orientalist Yezny*, TXXXI, Première partie, pp.311-314.

¹ أبو زكريا، المصدر السابق، صص 89، 85. ويسميه ابن الصغير باليزيدية نسبة إلى يزيد بن فندين، المصدر السابق، ص 44.

² أبو زكريا، المصدر السابق، صص 86-87. أنظر بالخصوص أيضا : الشماخي، المصدر السابق، ج 2، ص 273.

³ وقد كان وزيراً للإمام عبد الوهاب حتى طلبه أهل طرابلس أن يكون عاملاً عليهم. أبو زكريا، المصدر السابق، ج 2، ص 292.

⁴ أبو زكريا، المصدر السابق، صص 119-122. أنظر بالخصوص أيضا : الشماخي، المصدر السابق، ج 2، صص 311-312.

⁵ أبو حاتم يوسف بن أبي اليقظان محمد ، ذكره الشماخي بالامام الماهر والبحر الزاخر والعالم الذاكر. وقد بويع بعد وفاة أبيه أبو اليقظان محمد ابن أفلح (261-281هـ/874-894م) وبقي في سدة الحكم أربع عشرة سنة. : الشماخي، المصدر السابق، ج 2، ص 416.

وَفَرَّغَ مِنْ أَيْدِي النَّاسِ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ.¹ كما يذكر ابن عذاري أن أبا حاتم بن أبي اليقظان قد قتله بنو أخيه سنة (294هـ/906م).²

وقد كان قد ظهر الصراع من أجل السلطة على أشده بظهور الخارجيين عن الإمامة الرستميّة، وكان أولهم نفاث بن نصر³ عندما عين أفلح بن عبد الوهاب⁴ سعد بن أبي يونس⁵ عاملا على قنطرة⁶. وتعبّر محاولات الأئمة الرستميين للمحافظة على سلطانهم داخل الأسرة عن ذلك، فيذكر ابن الصغير أن أفلح بن عبد الوهاب "قد أرش بين لواته وزناته وما بين لواته ومطاطة"⁷ خوفا من أن تجتمع ضده. وقام أبو بكر بن أفلح¹ بقتل

¹ ابن الصغير، المصدر السابق، ص113.

² ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص197.

³ من أهل جبل نفوسة فقيه أخذ العلم على الإمام أفلح بن عبد الوهاب في تاهرت وكان محبا للرياسة متطلعا للإمارة، وعندما وليّ الإمام زميل نفاث في الدراسة سعيد بن أبي يونس عاملا على قنطرة، خرج نفاث عن الامام أفلح، ثم خرج الى المشرق حيث التقى بالخليفة العباسي الذي مكته من نسخ ديوان جابر، ثم عاد إلى بلده. أبو زكريا، المصدر السابق، صص139-146.

⁴ هو أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، فقيه ومحدث، له كتاب أجوبة في الفقه والأحكام وأصول الدين كوالده عبد الوهاب. ولقد حكم تاهرت بعد أبيه وبقي في "إمامته ستين سنة واليا، إماما حسن السيرة، رؤوفا بالريعية، لا يخاف في الله لومة لائم..." أبو زكريا، المصدر السابق، ص146. الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص326.

⁵ يذكره أبو زكريا "سعيد"، وهو من جبل نفوسة وقد كان والده عاملا في عهدي الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن وأفلح ابن عبد الوهاب ابن عبد الرحمن. درس في تاهرت على الامام أفلح وكان معه نفاث بن نصر وعند عودته إلى جبل نفوسة أقره الامام أفلح على قنطرة خلفا لوالده. وقد شارك اضطرابا في موقعة مانو بين إبراهيم بن الأغلب وبين أهل جبل نفوسة اثر وصفه بالجبن. أبو زكريا، المصدر السابق، صص139، 156؛ البغطوري، مقرين بن محمد، سيرة مشايخ نفوسة، تحقيق توفيق عياد الشقروني، منشورات مؤسسة تالوليت الثقافية- سلسلة الأبحاث التاريخية (2)، 2014، ص70؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، صص351-353؛ ليفتسكي، تسمية شيوخ جبل نفوسة (دراسة لُسنِيّة في الأتوميا والطوبونوميا الأمازيغيّة)، ترجمة عبد الله زارو، إعداد للنشر وتقديم موحد ومادي، منشورات مؤسسة تالوليت الثقافية- سلسلة الأبحاث التاريخية (1)، 2013، صص80-81.

⁶ هي بلد في بلاد الجريد في الجنوب التونسي الذي يطلق عليه الاباضيون القصور. ليفتسكي، دراسات شمال إفريقيا...، سلسلة دراسات (1)، ص48 و سلسلة دراسات (2)، ص59.

Lewicki, "La répartition géographique des groupements ibadites...", *Op.cit.*,

p.310.

⁷ ابن الصغير، المصدر السابق، ص63.

محمد بن عرفة² لما أصبح عليه من علو شأن في الإمامة الرستميّة ومناقبته عليها. وقد انجّر عن ذلك حروب بين أنصار كلّ منهما آنذاك³.

أردفت هذه المشاكل الداخليّة بأخرى خارجيّة تتعلّق بفتور علاقة الإمامة الرستميّة بالتنظيم الأمّ في المشرق وانقطاع مسانده لها، وبخروج مناطق أباضيّة عن سلطتها. فكان للصراع على السلطة والمعبر عن تحوّل الإمامة الرستميّة إلى ما يشبه الملكيّة الوراثيّة⁴ - بتقديم الرستميين لأفراد الأسرة لتولّي الأمر دون النظر إلى المبدأ الذي من أجله ناضل الخوارج⁵ - أثره في فتور العلاقة بين أباضي المشرق وبين أباضي المغرب. وفقد هؤلاء الدّعم من تنظيم كان قد ساندهم قبلا.

لقد ساند التنظيم الأباضي الأمّ في المشرق الإمامة الرستميّة إبّان قيامها سنة (160-162هـ/776-778م) معنويا وماديا. فأما من الناحية المعنويّة قام أباضي المشرق بمراسلة أباضي المغرب مشجعيهم على إقامة "دولة" أباضيّة، واستقطاب العديد من المغاربة لتلقيهم أصول وتعاليم المذهب. فالمشرق (البصرة) يمثّل "البؤرة الفكرية التي كان

¹ هو رابع الأئمة الرستميين، تولى الإمامة بعد وفاة أبيه وقد كان أخوه أبو اليقضان في بلاد المشرق. بقي في سدة الحكم أربع سنوات، حتى تاريخ عودة أخيه(258-261هـ/871-874م). ولم يستطع مواجهة أخيه ومناصريه عند عودته من المشرق ففر من تاهرت. ولا تنكر المصادر مصيره. أبو زكريا، المصدر السابق، ص146.

² يذكر الباروني أنه صهر الإمام أبي بكر بن أفلح وكان معدودا في قومه حسن السيرة، وقد سلّمه مقاليد الدولة. ولسوء إدارة الامام ابي بكر وانشغاله بالسهر والترفيه مال الناس لمحمد بن عرفة مما اغاظ الامام فأمر بقتله. الباروني، أبو الربيع سليمان، مختصر تاريخ الأباضية، منشورات مؤسسة تالويت الثقافية، سلسلة الأبحاث التاريخية، دت، ص47.

³ ابن الصغير، المصدر السابق، ص71؛ الدّرجيني، المصدر السابق، ج1، ص83.

⁴ عبد الرازق، محمود إسماعيل، الحركات السرية في الإسلام - رؤية عصرية - ، دار القلم، بيروت، 1973، ص20.

⁵ اعتبر الخوارج الخلافة حقًا للجميع، فهي ليست حكرا على قريش أو أئمة أسرة بعينها، بل " جؤزوا أن تكون الإمامة في غير قريش وكل من نصّبوه برأيهم وعاشر الناس على ما مثلوا له من العدل واجتتاب الجور كان إماما. فيجوز أن يكون الإمام عبدا أو حرا أو نبطيا أو قرشيا". الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، 1975، ج1، ص116.

زعماء الأباضية يعتمدون عليها.¹ وأمّا من الناحية الماديّة، فقد أرسل التنظيم حال في البصرة ثلاثة أحمال من الأموال إلى عبد الرحمن بن رستم مؤسس الإمامة/الإمارة الرستميّة بناهت.²

وكان لهذه الاموال أثرها في انتعاش أحوال تاهرت الاقتصادية، فسيطرت على بعض المسالك التجارية المتّجهة جنوبا. وكان أن احتاجت إلى أسواق خارجة عن سلطة القوى المركزيّة بالمنطقة - تصرّف فيها بضائعها- ووجدت ضالتها في الأسواق التي يخولها لها أباضيو المشرق، الذين كانوا يدركون ما يمكن أن يحققه لهم التعامل التجاري مع بلاد المغرب من أرباح؛ ذلك "أنّ مركز البصرة عند ملتقى طرق قاريّة وبحريّة من شأنه أن يفيدها من تيارات التبادل (التجاري) خصوصا مع مواطنيهم الذين نزلوا البلدان البعيدة من اليمن حتى فرغانة* والسّوس الأقصى*³."

وبالرغم من توقف المساندة الماديّة المباشرة المشرقيّة لأباضيي المغرب منذ عهد عبد الرحمن ابن رستم⁴، فإنّ العلاقات بين أباضيي المشرق وبين أباضيي المغرب استمرت

¹ فوزي، فاروق عمر، "ملاحم من تاريخ الخوارج الأباضية كما تكشفها مخطوطة الأركوي" في مجلة المؤرخ العربي، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، 1975، العدد 2، ص174.

² ابن الصغير، المصدر السابق، صص32-34؛ أبو زكريا، المصدر السابق، ص83؛ الدرّجيني، المصدر السابق، ج1، ص45.

* إسم أرض تضمّ عدة بلدان ، وهي تقع شرق سمرقند. الإدريسي، محمد بن عبد الله ، نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، مج1، صص507،503.

** آخر بلاد المغرب المصاقب للصحراء. البكري، أبو عبيد، كتاب المسالك والممالك، تحقيق وتقديم وفهرسة أدريان فان ليوفان وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1992، ج2، صص851، 854، 866.

³ بلا، شارل، الجاحظ في البصرة ويغداد وسامراء، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، 1985، صص318-319.

⁴ يذكر كل من ابن الصغير وأبو زكريا أن عبد الرحمن بن رستم قد رد مالا أتاه من المشرق (عشرة أحمال) لعدم حاجته إليه بقوله: " فأبّا إنّما كنا قبلنا منهم في أول بدء أمرهم للحاجة التي كانت بنا إليه والفاقة التي لزمت عوام إخواننا، فالآن أننا مستعنون عن أموال غيرهم". ابن الصغير، المصدر السابق، ص40؛ أبو زكريا، المصدر السابق، ص84.

في إطارها المعنوي (الفتاوى) والماديّ التجاري في عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم.

لقد كان المشرق مصدر الفتاوى بالنسبة لأباضيي المغرب. فها هو الإمام عبد الوهاب يستفتي أهل المشرق عندما منعه نفوسة من المسير إلى الحج خوفاً عليه، فأفتوه بأن من شروط الحج أمان الطريق، فأرسل من يحج عنه.¹ وأرسل أهل تاهرت إلى علماء المشرق يستفتونهم في أمر ابن فندين وخروجه على الإمام عبد الوهاب.² وكذلك فعل أهل طرابلس عندما أرادوا تولية خلف بن السمح عاملاً على طرابلس وقد منعهم من ذلك الإمام عبد الوهاب.³

وإن لم تتجح محاولات التنظيم الأم في الخروج بأباضيي بلاد المغرب من دائرة الصراع الداخلي، وبدأ دوره في الضّمور نتيجة الخلاف الفقهي بين الطرفين، فإنّ العلاقات التجارية بينهما لم تقطع، فكان أن نشط الوكلاء بين المنطقتين، وهاهو الإمام عبد الوهاب يرسل إلى الربيع بن حبيب بإثني عشر ألف درهم أو دينار ليشتري له بها جهازاً من البصرة ليتجر به.⁴ كما أرسل أيضاً "ألف دينار إلى أخوانه من أهل المشرق بالبصرة أن يشتروا له به الكتب."⁵

¹ أبو زكريا، المصدر السابق، ص115؛ الدرّجيني، المصدر السابق، ج1، ص66؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، صص287. ومن الجدير بالذكر أن ما ورد في نص الشماخي، في إطار الحديث عن عزم عبد الوهاب على الحج، قد يحيلنا إلى أن الحج هو تجارة في ذات الوقت. إذ ما علمنا أن عبد الوهاب كان حاذقاً بالتجارة وقد استقرّ بجبل نفوسة مدة سبع سنوات بعد أن منعه أهلها من الارتحال إلى المشرق خوفاً عليه من المسودة، وأرسل خلالها إلى الربيع بن حبيب أن يبعث له بضاعة من المشرق وقد كان له ما أراد. ويؤكد هذه الوجهة التجارية للحج قول الشماخي " فلما تمّ حجه وقضى وطره منه بعد مراجعات إلى المشرق ومراسلات إلى الربيع، ارتحل راجعاً إلى المغرب إلى تيهرت". الشماخي، المصدر نفسه، ج2، صص289-290.

² أبو زكريا، المصدر السابق، ص89؛ الدرّجيني، المصدر السابق، ج1، ص49؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، صص274-275.

³ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص312.

⁴ الشماخي، المصدر نفسه، ج2، ص290.

⁵ أبو زكريا، المصدر السابق، ص99.

إلا أنه بتطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في العصر العباسي في منطقة المشرق، ظهرت حركات معارضة جديدة وُسِّمت بأبعادها الاجتماعية والاقتصادية، وإن لم يُنف عنها وجهتها السياسيّة ولا توظيفها الدين للوصول إلى مبتغاها (الزنج والقرامطة...) ¹ وبخروج العديد من أباضي المشرق إلى المناطق البعيدة ومن بينها بلاد المغرب - "حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي...² - خفّ ثقل أباضي المشرق كهيئة مساندة لأباضي بلاد المغرب. إضافة إلى ذلك الخلاف الفقهي الذي برز بينهما، فلم تعد البصرة متنفسا لأباضي بلاد المغرب، وظهر بجلاء فتور العلاقة بينهما، إن لم نقل انقطاعها، وبالتالي فقدان الدّعم³.

ويضاف إلى هذا السبب الخارجي لضعف الإمامة الرستميّة أي فقدان المساندة المشرقيّة، مخالفة أباضي المناطق المجاورة لها وخروجهم عنها. فكان أن خرج على الإمام عبد الوهاب، ابن مسالة الأباضي⁴. ويضيف الفرد بل عاملا آخر من عوامل الضعف الذي اعترى الإمامة الرستميّة، وهو أن الرستميين نتيجة لكونهم إلى حياة الدّعة والاهتمام بالعلوم الدينيّة لم يفكروا في الحرب وفي النضال وفي العناية بإعداد جيش قادر على الدفاع عن عاصمتهم، ولذا انهارت هذه الأخيرة سنة (297هـ/909م) حين هاجمها

¹ لمزيد من التفاصيل حول أبعاد هذه الحركات، أنظر: أبو طالب، نجيب، الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية، تقديم الطاهر لبيب، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، 1990، ص 165؛ بزون، حسن، القرظية بين الدين والثورة، دار الحقيقة، بيروت، 1988، ص 32؛ الدوري، عبد العزيز، مقدّمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة، بيروت، 1980، ص 72.

² ابن الصغير، المصدر السابق، ص 36.

³ يذهب محمود إسماعيل إلى القول بأن انقطاع الصلات بين أباضي المشرق وبين أباضي بلاد المغرب لا يمكن أن يكون قطعياً، وذلك نتيجة لصمت المصادر التاريخية صمّتا يكاد يكون نهائياً عن نشاط الخوارج في منطقة المشرق، والذي ربما يعود إلى طبيعة العمل السري آنذاك. عبد الرازق، الحركات السرية في الإسلام، ص 18.

⁴ ورد في مؤلف ابن الصغير سبب الخلاف، وما هو إلا ذريعة بسيطة. وهي أن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم قد خطب فتاة كان ابن مسالة قد خطبها لنفسه قبله... ابن الصغير، المصدر السابق، ص 52.

الجيش العُبيدي بإمرة أبي عبد الله الشيعي¹. ولقد فرّ منها يعقوب ابن أفلح بعياله وأهله إلى الجنوب، إلى ورقلة التي أُعتبرت مع غيرها من المناطق الجنوبيّة الصحراوية المعقل الأخير لأباضية تاهرت ومناطق الشمال، واستقبله فيها أبو صالح جنانون بن يمران² وأهل ورقلة³، وطلبوا منه أن "يلوه على أنفسهم فامتتع لهم من ذلك..."⁴ ومنذ ذلك الوقت، "اقتصر التعبير الأباضي على النواحي المذهبية والحضارية في منطقة الصحراء الشاسعة."⁵

في الواقع لم يكن هذا الاندفاع نحو الجنوب (ورقلة، جبل نفوسة، غدامس...) مجرد صدفة بقدر ما كان اتجاها طبيعياً لما تمثّله هذه المناطق من أهمية في حركة التجارة بين الشمال والجنوب، وذلك لاستقبالها لبضائع الجنوب وإعادة تسويقها إلى الشمال والعكس. ويذكر الإدريسي في هذا الخصوص، أنّه "ليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة إلا ما يجلب إليها من التمر من بلاد سجلماسة أو بلاد الزاب، يجلبه إليهم أهل ورقلان الصحراء."⁶

يبين ليفنتسكي أن المصادر المكتوبة في العصور الوسطى شاهدة بصورة غير قابلة للتشكيك على أنّ الصحراء كانت محورا لولوج القبائل المغربية من الشمال والسودانيين من

¹ بل، الفرد، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، 1969، ص150.

² فقيه أباضي، عالم ورع من أقطاب الدين. الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص104؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، صص 542-545.

³ ذكرت ورقلة في صور لفظية متعددة ومختلفة، سنتناولها لاحقا عند الحديث عن تسميتها وتكوينها وجغرافيتها. ولكن اعتمدت في هذه الدراسة اسم ورقلة لأنها التسمية المعروفة اليوم.

⁴ أبو زكريا، المصدر السابق، صص 188-189.

⁵ موسى لقبال، "من قضايا التاريخ الرستمي الكبرى: مكتبة المعصومة بتاهرت، هل أحرقت أو نقلت عيونها إلى سدراة في جوار بني وارجلان؟"، في مجلة الأصالة، وزارة التعاليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، د.ت، العدد 41، ص 58.

<http://archive.org/steam/Asaladz/Asala-41>

⁶ الإدريسي، المصدر السابق، مج1، ص20.

الجنوب¹، فهي لم تكن حاجزا بين الشمال والجنوب بل محورا نشطا في التجارة بين طرفيها². وازداد هذا النشاط التجاري بتدفق الذهب والعبيد إلى الشمال مقابل السلع التي يحتاجها أهل السودان ومن أهمها الملح. فكان لهذه المناطق أكثر من بعد بالنسبة للأباضييين (اجتماعي واقتصادي واستراتيجي).

فاجتماعيًا مثلت هذه المناطق مواطنهم الأصلية، إذ أن القبائل التي أنشأت الإمارة الأباضية وساندتها كانت من المناطق الداخلية. أما البعد الاقتصادي، فيتمثل في أنّ هذه المناطق تعدّ من أهم مناطق تجارة العبور بين أسواق الشمال وأسواق بلاد السودان. دون أن ننسى أهميّة الجانب الإستراتيجي، فبُعد المسافة النَّسيبي بين مواطن الأباضية وبين مركز الخلافة الفاطمية من ناحية وقلّة موارد هذه المناطق من ناحية أخرى جعل الفاطميين يصرفون النظر عن هذه التجمعات.

إذا، إن توجه الأباضية بعد سقوط تاهرت (297هـ/909م) نحو الجنوب حيث استقرت جموعها في منطقة العبور إلى بلاد السودان (ورقلة) -التي إزدهرت باستقرار الأباضييين بها³- كان اختيارا موضوعيًا كما سبق وأن أُشرت.

¹ Lewicki, " Traits d'histoire du commerce transsaharien, marchands et missionnaires ibadites en Sudan Occidental et central au cours du VIII-XII siècles", dans *Etnografia Polska*, Warsaw, 1964, Vol VIII, p. 291.

² بوفيل، ا. ي، *تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير*، تتقيح هاليت روبن، ترجمة الهادي بولقمة ومحمد عزيز، منشورات جامعة قاروينس، بنغازي، 1988، ص 17.

³ الثامي، عمرو خليفة، "ملاح عن الحركة العلمية بوجلان ونواحيها منذ انتهاء الدولة الرسمية حتى أواخر القرن السادس الهجري"، في *مجلة الأصالة*، وزارة التعايم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، د.ت، العدد 42-43، ص 17.

<http://archive.org/steam/Asaladz/Asala-42.43>;

Chaba Mohamed, "Une vieille cité devenue métropole : Ouargla" (Note), In *Méditerranée*, tome 99, 3-4, 2002. Le Sahara, cette «autre Méditerranée» (Fernand Braudel) p. 103.

إن استقرار هذه التجمعات في هذه المنطقة دون غيرها يحيلنا إلى التساؤل التالي: هل أن استقرارهم في ورقلة كان من أجل إنشاء مجتمع أباضي مستقل عن الشمال له مقومات العيش من التجارة وحسب أم هي محاولة للسيطرة على المناطق السودانية لإيجاد أسواق بديلة عن تلك التي في الشمال؟ وفي محاولة للإجابة عن هذا التساؤل سأتناول في الصفحات التالية علاقات ورقلة التجارية مع الشمال والجنوب.

علاقات أباضي ورقلة التجارية مع شمال و جنوب الصحراء بعد قيام الدولة الفاطمية

قبل البحث في العلاقات التجارية بين ورقلة وشمال و جنوب الصحراء سأعرج على تعدد تسميات المدينة وتاريخ تأسيسها ثم موقعها وإمكانياتها الإقتصادية، وبدرجة أولى التجارية منها. وإن كانت الدراسة تتطوي على مفهوم النشاط التجاري بما يحمله من معنى للديناميكية التجارية، التي تستوجب النظر في جميع المؤسسات الخاصة بها من طرق وأسواق و سلع وأسعار ومعاملات...، فإن ندرة المعلومات حول هذه المؤسسات تجعل الدراسة تأخذ مساراً أحادياً؛ وهو البحث في العلاقات التجارية المجردة، حيث سيكون ذكر السلع والأسعار والمعاملات ... منوطاً بما يتوفر من معلومات عنها.

لم تشر المصادر الأولى، التي كان مدار اهتمامها التأريخ للدويلات والامارات وما يقع في دائرة الحضارة الإسلامية من أقاليم ومدن إلى ورقلة، إلا بعد قيام "الدولة" الرستمية في القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد). فذكرتها المصادر الأباضية التي أرخت للرستميين واعتنت بأعلام المذهب الاباضي (ابو زكرياء، الوسياني، الدرجيني، الشماخي). وتردد ذكرها في المصادر التاريخية والجغرافية وكتب الرحلة بدءاً بالبكري، فالادريسي والزهرري وابن سعيد... وانتهاءً بابن خلدون والحسن الوزان وغيرهما.

لقد ورد ذكر ورقلة في مؤلف البكري كما في طبقات الدرجيني وسير الوسياني وسير الشماخي، بإسم وارجلان¹. وحذف منها الألف الأولى، أبو زكرياء الذي أَرخ للأئمة الرستميين وتحدث عن هجرتهم إليها²، كما كان شأنها عند ياقوت الحموي، فجاءت في معجمه ورجلان³. وأشار إليها كل من الإدريسي والزُّهري بإسم وارقلان⁴. وذكرها ابن سعيد بإسم واركلان⁵. أما ابن خلدون فأشار إليها تسميات عدّة منها واركلا⁶ وواركلة⁷ ووركلة⁸ وواركلي/واركلي⁹. وذكرها الحسن الوزان بإسم وركلة¹⁰. أما العدواني، فذكرها بالإسم المتداول في عصرنا الحاضر، وهو ورقلة¹¹.

¹ البكري، المصدر السابق، ج2، ص881؛ الدرجيني، المصدر السابق، ج2، صص 331،332، 342، 343، 344، 373، 374 وفي أماكن متفرقة من الكتاب؛ الوسياني، أبو الربيع سليمان بن حسان، سير الوسياني، تحقيق ودراسة عمر بن لقمان حمو سليمان بو عصابة، وزارة التراث والثقافة، مسقط، سلطنة عمان، 2009، ج1، صص 273، 314، 336، 344، 347، 374 وفي أماكن متفرقة من الكتاب؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، صص 338، 450، 459، 526 وفي أماكن متفرقة من الكتاب.

² أبو زكريا، المصدر السابق، ص 189 وما بعدها.

³ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، ج5، ص371.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ج1، صص 20، 24، 29؛ الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دت، صص 112، 116، 119.

⁵ ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى، كتاب الجغرافيا، تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1982، ص 126.

⁶ ابن خلدون، المصدر السابق، ج11، صص 75، 356، 415، 418، 419، 412، صص 596، 663، ج13، صص 98، 106، 119.

⁷ المصدر نفسه، ج13، ص99.

⁸ المصدر نفسه، ج13، ص10.

⁹ المصدر نفسه، ج11، ص 199، ج12، صص 917، 921، 924، 925، ج13، صص 279، 282، 688.

¹⁰ الوزان الفاسي، الحسن بن محمد، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج2، ص136.

¹¹ العدواني، محمد بن محمد بن عمر، تاريخ العدواني، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، صص 90، 260.

إنّ هذا التعدّد والإختلاف في رسم "ورقلة" في المصادر العربيّة يعود على الأرجح إلى الإختلاف في نطق الكلمة في لسان العرب، كما يذهب إلى ذلك ابن خلدون.¹ من جهة أخرى، اختلفت حول ماهية ورقلة. فكانت عند البكري "... سبعة حصون للبربر، أكبرها يسمّى أغرم أن يكامن، أي حصن العهود..."² ويشير الزهري إليها تارة بمدينة وطورا ببلاد، فيذكر "وأخر عمل القيروان في الجنوب مدينة وارقلان..."³، "ويُدخل" "ويُدخل من هذه المدينة [وارقلان] إلى هذه البلاد [بلاد السودان]..."⁴، "وفي المشرق [من جناوة] آخر بلاد وارقلان..."⁵ ويوافق في ذلك ابن سعيد الذي يقول "... ومدينتها التي تسمى واركلان... وهي بلاد نخل وعبيد..."⁶ ويصفها الحسن الوزان، بأنّها مدينة، فيقول "وركلة مدينة أزلية..."⁷

أما صاحب الإستبصار، فيشير إليها بالبلد/البلاد. فيقول "وإن أردت الطريق من تادمكة إلى القيروان، فإنك تسير في صحراء 50 يوما إلى بلد وارجلان في طرف الصحراء مما يلي إفريقية: وهو بلد خصيب... وفيه سبع مدن مسورة حصينة تقرب

¹ "أن العرب وضعت لكل شيء إسما، وأن استعمالها إنما هو لأوضاعها التي من لغتها ارتحالا واشتقاقا. وهذا إنما هو في الأكثر، وإلا فالعرب قد استعملت كثيرا من غير لغتها في مسماه، إما لكونه علما فلا يغير... وإما استعانة وتخفيفا لتداوله بين الألسنة... فتصير باستعمال العرب كأنها من أوضاعهم. ويسمونها المعربة. وقد يغيرونها بعض التغيير في الحركات أو في الحروف وهو شائع لهم لأنه بمنزلة وضع جديد... وقد يكون الحرف من الكلمة ليس من حروف لغتهم فيبدلونه بما يقرب منه في المخرج. فإن مخارج الحروف كثيرة منضبطة وإنما نطقت العرب منها بالثمانية والعشرين حروف أبجد. وبين كل مخرجين منها حروف أكثر من واحد منها ما نطقت به الأمم ومنها ما لم تنطق..." المصدر السابق، ج3، صص 13-14.

² البكري، المصدر السابق، ج2، ص881.

³ الزهري، المصدر السابق، ص112،

⁴ المصدر نفسه، ص119.

⁵ المصدر نفسه، ص125.

⁶ ابن سعيد، المصدر السابق، ص126.

⁷ الوزان، المصدر السابق، ج2، ص136.

بعضها من بعض... وهي بلاد كثيرة الزرع والضرع والبساتين...¹ ويحذو حذوه ابن خلدون، فيذكرها بقوله "بلد واركلي قبلة بجاية، بلد واحد مستبحر العمران كثير النخل..."² وأيضا "وهذا البلد لهذا العهد باب لولوج السفر من الزاب إلى المفازة الصحراوية المفضية إلى بلاد السودان..."³، كما يصفها أيضا بالمصر.⁴ ويشير إليها ياقوت الحموي بالكورة، بالكورة، فيقول "كورة بين إفريقية وبلاد الجريد ضاربة في البر كثيرة النخل والخيرات..."⁵ مما سبق يتضح أن ورقلة لم تكن مدينة بقدر ماهي منطقة تضم قرى⁶ وقصورا⁷ وحصونا⁸ ومدنا⁹. وجاء في مخطوط يخص تاريخ مشايخ المنطقة الممتدة من ورقلة إلى إلی فزان الذي اكتشفه شارل فيرو في جامع نقوصة، أنها كانت تضم 325 مدينة و1051 عين ماء¹⁰. إذا فورقلة كانت تعني في ذات الوقت المدينة والإقليم، وهي تشبه في ذلك قسطيلية التي كانت تعني في ذات الوقت مدينة توزر، وبلاد الجريد الشاسعة

¹ مؤلف مجهول (مراكشي من القرن 12/هـ)، كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، بغداد، 1986، ص224.

² ابن خلدون، المصدر السابق، ج11، ص199.

³ المصدر السابق، ج13، ص107.

⁴ ابن خلدون، المصدر السابق، ج13، ص106.

⁵ الحموي، المصدر السابق، مج5، ص371.

⁶ يذكر الدرّجيني أن ايفران من قرى وارجلان. المصدر السابق، ج2، ص386. ويذكر الحسن الوزان ان بضواحي ورقلة عدد لا يحصى من القرى. الوزان، المصدر السابق، ج2، ص136.

⁷ من قصور وارجلان يذكر الدرّجيني قصر بكر، ويذكر الشماخي قصر ورادين. الدرّجيني، المصدر السابق، ج2، ص2، ص344؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص565. ويشير ابن خلدون إلى أن بها "قصورا متقاربة الخطة"، المصدر السابق، ج13، ص106. ويذكر الحسن الوزان أيضا أن بضواحيها عدة قصور. الوزان، المصدر السابق، ج2، ص136.

⁸ البكري، المصدر السابق، ج2، ص881.

⁹ مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص224.

¹⁰ Féraud, L. Charles, " Les Ben-Djellab sultans de Tougourt, Notes historiques sur la province de Constantine", dans *Revue africaine*, A. Tournan, Librairie-éditeur, Alger, Juillet 1886, Vol.30, P.263.

والتي كان مركزها توزر.¹ ويبدو أن مرد الاختلاف في تحديد ماهية ورقلة، تغير وضعيتها وضعيتها السياسية-الادارية عبر القرون وفق ما وصفها به المؤلفون العرب الذين أدرجناهم بتراتب زمني.

لئن تعددت الاشارات حول تسمية ورقلة، أي كيفية نطق إسمها في المصادر العربية في العصر الاسلامي (وارجلان، ورجلان، واركلان، وركلة، واركلا، وارقلان) وتعددت الاشارات إلى ماهيتها (مدينة، بلاد، بلد، كورة)، فإن المعلومات بالمقابل عن تاريخ تأسيسها تبدو شحيحة. فلا نجد له ذكرا، حسب علمي، إلا في مؤلفي ابن خلدون والحسن الوزان. فيشير ابن خلدون إلى أن ورقلة أو كما جاءت في عبره واركلا، تنسب لبني واركلا وهم احدى بطون زناتة الذين "كانت مواطنهم قبلة الزاب، واخطوا المصر المعروف بهم لهذا العهد... بنوها قصورا متقاربة الخطة. ثم استبحر عمرانها، فائتلفت وصارت مصرا."² مصرا.² أما الحسن الوزان، فيذكر أنها "مدينة أزلية بناها النوميديون في صحراء نوميديا*...³ تحيلنا هاتان المعلوماتان إلى استنتاجين: الأول يتمثل في أن من أسس ورقلة هي القبائل الزناتية التي كانت تسكن الزاب ثم اتجهت جنوبا حيث موقع ورقلة؛ أما الثاني فيتمثل في أن تأسيسها كان في العهد الروماني إثر الإستيلاء على نوميديا الذي كان بدءا من 46ق.م.⁴ فالزناتيون قد هاجروا من مواطنهم وسكنوا الحزام الشمالي من

1 Virginie Prevost, « Une tentative d'histoire de la ville ibadite de Sadrāta », *Mélanges de la Casa de Velázquez* [En ligne], 38-2 | 2008, p.5. Mis en ligne le 15 novembre 2010, consulté le 29 février 2016. URL <http://mcv.revues.org/822>.

² ابن خلدون، المصدر السابق، ج13، ص106.

³ الوزان، المصدر السابق، ج2، ص136.

* نوميديا اسم أطلقه اللاتينيون ويقابله عند العرب بلاد الجريد " حيث ينبت النخيل..." الوزان، المصدر السابق، ج1، ص29.

⁴ بوفيل، المرجع السابق، ص70.

الصحراء¹، "فارين من ضغط الاستعمار الروماني الاستيطاني الذي طردهم من أراضيهم الخصبة لغرض استغلالها في الزراعة ولبناء المستوطنات لرعاياها... وما إن وصلوا إلى منطقة بالصحراء يتوفر فيها الماء والكلاً، حتى نزلوا بأرضها وشرعوا في بناء قصورها، وغرس نخيلها."²

إن وقوع ورقلة على مشارف الصحراء، بكل ما تحمله هذه الأخيرة من معاني الجذب، لم يمنع من توفر المياه بها. فقد كانت العيون الجارية مصدرها، و"بلغ عددها إحدى وخمسين وألف عين، ومنها خاصة عين الصفا التي تأتي مياهها من سدراتة... وعين القبائل في ناحية يفرن وعين الحواس بناحية نقوصة."³ كما مثلت الآبار مورداً أساسياً للماء في ورقلة وإن كانت عملية استخراجها مضمّنة وغريبة. ويشير إلى ذلك كل من ابن خلدون والحميري. فيذكر الأول "وفي هذه البلاد الصحراوية إلى وراء العرق غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في ثلول المغرب، وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى. وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة، فتُحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جرمها، ثم تصعج الفعلة ويقذفون عليها زيرة من الحديد تكسر طبقها عن الماء، فينبعث صاعداً فيفعم البئر، ثم يجري على وجه الأرض وادياً. ويزعمون أنّ الماء ربما أعجل بسرعته عن كل شيء. وهذه الغريبة موجودة في قصور توات وتيكورارين ووركلا وريغ."⁴ أمّا الثاني فيقول: "العجب أن الرجل منهم [من أهل ورقلة] يحفر فيها بئراً بأزيد من مائة دينار، فإنّ أرضهم صلبة والماء بعيد، وينزل إليه من يعرف كيف ينقره

¹ المرجع السابق، ص100؛ Gsell, Stéphane, *Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, Tome V: Les royaumes indigènes (Organisation social, politique et économique)*, Librairie Hachette, Paris, 1927, p. 3.

² نكار، أحمد، مدينة ورقلة التسمية والتأسيس (دراسة تاريخية)، في مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة-الجزائر، ديسمبر 2014، العدد17، ص166.

³ بوعصبانة، عمر سليمان، معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان (296-626هـ/909-1229م)، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية، إشراف محمد ناصر، المعهد الوطني العالي لأصول الدين بالجزائر، وزارة الجامعات، الجزائر، السنة الدراسية 1991-1992، ص13.

⁴ ابن خلدون، المصدر السابق، ج13، ص119.

مربوطا في حبال وثيقة. وينقره، فيفور الماء... ويبقى الماء على مَرّ الدهور يفور. وهكذا جميع آبارهم.¹

وخوّلت وفرة المياه لورقلة أن تكون مكان استقرار "كثير الزرع والبساتين"² و"كثيرة النخل والخيرات"³. ويشير الدّرجيني إلى وفرة النخيل بها عند ذكره للمراسلة التي تمت بين أبي صالح جنون بن يمران وبين ابن عم له في المغرب، يدعو فيها الأخير أبا صالح القدوم عليه والاستقرار معه لوفرة الحبوب عندهم فيقول له: "يا ابن عمي إيتني فأئك قمت في أرض فقر، فإنّ عندنا أرضا كريمة، قدر الكساء يحمل البعير وسقه حبا... فأجابه أبو صالح: يا ابن عمي إيتني، فإنّ عندنا أرضا قعدة الرجل يحمل البعير وسقه عسلا."⁴

ومن خلال ما سرده الدّرجيني بخصوص حيلة اهل ورقلة لإيهام أبي عبيد الشيعي بوفرة المياه عندهم حتى يفك حصاره لهم لدليل على أهمية انتاج الزيتون بورقلة ومنه يعصر الزيت. فيذكر الدّرجيني أنهم ملأوا قصاعا كبارا زيتا ووجهوا إليها الجمال الكثيرة لتشرب. فكانت هذه الأخيرة ترفع رأسها عن القصاع بعد أن تكرر منها وتتفض عنها ما شربت لعدم استساغته، فيطير الزيت، وعند رؤية الجند الشيعي ذلك حسبه ماءً، ففك الحصار.⁵ أما الإدريسي، فيشير إلى أنها كانت تصدر الحنطة لأهل زغاوة.⁶

وبما أن ورقلة كانت موطن استقرار، فإنه من البديهي أن تقوم بها بعض الحرف التي يحتاجها أهلها. ولئن تصمت المصادر عن ذكر تفصيلات حولها أو ذكر أنواع المصنوعات، فإن الدّرجيني بذكره أنّ أبا صالح الياجراني كان قد حمل على جملة حمل

¹ الحميري، محمد بن عبد المنعم، كتاب الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975، ص600.

² المصدر نفسه، ص600.

³ الحموي، المصدر السابق، مج5، ص371.

⁴ الدّرجيني، المصدر السابق، ج2، ص343.

⁵ المصدر نفسه، ج1، ص95.

⁶ الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص111.

ثياب لرجل ورجلاني إلى تادمكة¹، نستشف وجود صناعة النسيج بورقلة. كما لا يستبعد قيام حرف تعتمد على المواد المتوفرة في ورقلة، من بينها صناعة السلال والحصر اعتمادا على سعف النخيل، وصناعة القرب والنعال اعتمادا على الجلود، والأواني الفخارية اعتمادا على الطين.

لئن خولت المياه قيام نشاط زراعي في ورقلة وبعض الحرف الموازية له، فإن النشاط الإقتصادي الذي اعتمدت عليه في ازدهارها كان زرع وتربية الأغنام² والإبل على وجه الخصوص والتجارة وهما نشاطين مكملين لبعضهما البعض. إذ ارتبط نشاط ورقلة التجاري بالإبل لإعتمادهم عليها في النقل والتنقل. ويبدو أن أهلها قد امتلكوا ثروة حيوانية مهمة من الإبل وكانوا يزاولون - وفق ذلك - الرعي. فورقلة كغيرها من المناطق الواقعة في شمال الصحراء كانت المنفذ إلى تجارة العبيد والذهب. وتقل الذهب الملتقط مسألة تتصل بالتجارة التي كان يقوم بها الجمالون من البربر عبر الصحراء إنطلاقا من مراكز الإيداع [في الجنوب] حتى محطات القوافل على حافات الصحراء من الشمال.³

تعدّ تربية الجمال من أبرز الأنشطة الاقتصادية في ورقلة كغيرها من المناطق الصحراوية. فالجمال رفيق الصحراوي، وعليها يعول. فمن لحمها يأكل، ومن لبنها يشرب، كما يستعمل جلودها ووبرها. ولقد اعتنى الورقلانيين بتربيتها في المناطق المحيطة بورقلة، كما يُستشف من النص الذي ذكر فيه الدرجيني نصيحة الشيخ يعقوب بن سهلون لرجل قدم من دمر إلى ورقلة، أن يشتري جمالا ويتركها ترعى في "يفدانن طوم" الواقعة بين ورقلة واندرار⁴. وذكر في موضع آخر أنه كان لأبي صالح الياجراني إبل في أدرج بالقرب

¹ الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص375.

² ذكر أبو زكريا أن أبا القاسم سليمان بن موسى كانت له اغنام كثيرة ترعى في اندرار من أحواز ورقلة. ابو زكريا، المصدر السابق، ص286.

³ لومبار، موريس، الإسلام في مجده الأول (ق2-8هـ5-11م)، ترجمة إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1990، ص164.

⁴ الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص332.

بالقرب من ورقلة¹ وقد جلب بعضها إليها لبيعها². ولم يعتن أهل ورقلة بهذه الثروة الحيوانية لحاجتهم إليها في حياتهم اليومية فحسب، بل لأنّ الجمال سهلت عليهم التنقل في المنطقة الصحراوية التي يقطنونها، نظرا للخصائص التي يمتاز بها. فالجمال لقدرته على شرب كمية كبيرة من الماء في غضون دقائق والاحتفاظ بها واستهلاكها خلال أيام وحتى أسابيع، يعتبر أكثر الحيوانات صبرا وتحملا للعطش³، كما أنّه لا يحتاج إلى كثير من الغذاء مقارنة بغيره من الحيوانات الداجنة. فالجمال يستهلك ما يتوفر من الأعشاب والنباتات حتى الشوكيّة منها وهو يسير، فلا يستلزم اجتراره غذاءه استقراره بالمكان،⁴ كما أنّه يتأقلم مع حرارة الطقس⁵، فالجمال "من بين جميع الدواب الأقل كلفة لصاحبه والأكثر فائدة له"⁶، وفي مجال التنقل في المناطق الصحراوية، يعتبر الأصلح إذ يستطيع "حمل ما بين 120 و150 كلغ ويمكنه أن يقطع 30 كلم في اليوم الواحد في مجالات القفر، أي بمعدل 3.5 و4 كلم في الساعة، واليوم من المشي يتراوح ما بين 10 ساعات و11 ساعة".⁷

¹ المصدر السابق، ج2، ص373.

² المصدر السابق، ج2، ص374.

³ يستطيع الجمال أن يشرب 100 لتر من الماء في دقائق، فخلال عشر دقائق يشرب ثلث وزنه أي بمتوسط 15 لتر في الدقيقة الواحدة. ووفقا لذلك، يمكنه الاستغناء عن الماء لمدة أسبوع في فصل الصيف، وما بين 7 و10 أيام في فصلي الخريف والربيع. أما في فصل الشتاء، فيمكنه الاستغناء عن شرب الماء ما بين 4 و6 أسابيع. Ministère de l'agriculture, du développement rural et des pêches maritimes) direction de l'élevage, *Elevage du dromadaire*, p.4.

http://www.fellah-trade.com/ressources/pdf/Elevage_dromadaire.pdf

⁴ المرجع نفسه، ص3.

⁵ المرجع نفسه، ص5.

⁶ مارمول كارياخ، إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبرومحمد الأخضر وأحمد توفيق ومحمد بنجلون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1984، ج1، ص71.

⁷ علوي، حسن حافظي، سلجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1997، ص344.

لقد مكّن الجمل أهل ورقلة الواقعة في طرف الصحراء¹ من إختراق هذا المجال القاحل والمشاركة في التجارة الصحراوية إن لم نقل أنهم أصبحوا سادتها². فورقلة التي كان يطلق عليها العرب سلطنة الواحات والتي كانت منذ غابر الأزمان مركزا فعالا وعاصمة كل المنطقة الصحراوية الواقعة في بين شمال وجنوب الصحراء³، كانت "بوابة السودان والممر والممر الواجب سلوكه من طرف رجال القوافل الذين يربطون بين منطقة التل بقسنطينة وبين بلاد العبيد والذهب."⁴ ومن الجدير بالذكر أنّ اعتناق سكان ورقلة المذهب الأباضي الأباضي - مذهب عاصمة الرستميين المركز الاقتصادي المهم في بلاد المغرب- كان قد ساعدها لأن تجد لها موضع قدم في المراكز التجارية المغربية. فاتخذها التجار مركزا للتوغل منه إلى الصحراء سواء منهم أباضيو المغرب أو التجار المشاركة الوافدين على عاصمة الأباضيين تاهرت.

ولعلّ من أبرز الدلائل على نشاط ورقلة التجاري، ما ورد في كتب الرحالة والجغرافيين من تعديد للطرق الرابطة بين الشمال والجنوب وبين الغرب والشرق مرورا بورقلة. فيذكر البكري أنّه "... إن أردت من تادمكة إلى القيروان، فإنّك تسير في الصحراء خمسين يوما إلى وارجلان... ومنها إلى مدينة قسطنطينية أربعة عشر يوما... وبين وارجلان وقلعة أبي طويل ثلاثة عشر يوما."⁵ كما بيّين الإدريسي أهميتها كمحور وسط نشط في التجارة بين بلاد المغرب وبين بلاد السودان⁶ واتصالها بالشرق، فذكر المسافة بينها وبين جبل نفوسة نفوسة إثنين عشر مرحلة⁷. أما الزهري فأشار إلى أنّه يُدخل من ورقلة إلى بلاد السودان

¹ الحميري، المصدر السابق، ص 600.

² يذكر علوي أنّه "... من المعروف أن الجمل ساعد إلى حد كبير على انعاش القطاع التجاري عبر الصحراء الكبرى، إن لم يكن المسؤول الأول عن ظهوره." المرجع السابق، ص 343.

³ فيرو. المرجع السابق، ص 259.

⁴ برنشفيك، روبار، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ج1، ص 328.

⁵ البكري، المصدر السابق، ج2، ص 881.

⁶ الإدريسي، المصدر السابق، مج1، ص 20.

⁷ المصدر نفسه، مج1، ص 279.

وصولاً إلى مدينة كوكو وهي حاضرة الحبشة¹، ويُخرج منها جلب الصحراء من العبيد والخدم²، وأن مدينة فرافون التي تقع شرقي غانة بنحو 20 فرسخاً هي أقرب مدائن الصحراء إلى وارقلان³. ويشير الدّرجيني إلى أنها الوسيط بين سجلماسة وجربة⁴.

صفوة القول، أن أهم نشاط اقتصادي في ورقلة كان التجارة عبر الصحراء، بين الشمال والجنوب للإعتبارات السالفة الذكر. إلا أن المعلومات حول ذلك تبدو متفاوتة. ففي حين تشير مصادر القرن (4هـ/10م) اشارات عابرة، تسهب مصادر القرن (5هـ/11م) وما بعده في تفصيلها.

إن عدم اهتمام المصادر بذكر معلومات عن علاقة ورقلة التجارية مع شمال وجنوب الصحراء في غضون القرن (4هـ/10م)⁵، يعود بالدرجة الأولى إلى ضعف التّجمع الأباضي في ورقلة، زد على ذلك أن أغلب الأباضيين فضلوا البقاء في الشمال. كما يمكن الإشارة إلى أن ورقلة، التي كانت طرفاً في فلك الإمامة الرستميّة، لم يذكر المؤلفون إمكانياتها كما فعلوا مع المركز تاهرت.

أما عن توفّر المعلومات في القرن (5هـ/11م) وما بعده فلصيقة بتطور ورقلة السياسي والاقتصادي. ذلك أنها لم تكن خاضعة أو تابعة لدولة أو إمارة، وإنّما كانت تدار محلياً من قبل مجلس العزابة⁶ "الهيئة المتنفّذة". فهذا المجلس كان يدير شؤونها وينظّم أمورها، وفي أوقات الخطر كان يدافع عنها¹.

¹ الزهري، المصدر السابق، ص123.

² المصدر نفسه، ص119.

³ المصدر نفسه، ص126.

⁴ الدّرجيني، المصدر السابق، ج2، ص502.

⁵ نجد بعض الإشارات في المصادر الأباضية عن علاقات تجارية بين ورقلة وبين والشمال وبلاد السودان أثناء هذه هذه الفترة (ق 4هـ / 10م) لدى كل من والدّرجيني والشماخي. فكان أهل ورقلة يبيعون الثياب بتادمكة، كما يتجرون بالشب مع قلعة بني حماد. الدّرجيني، المصدر السابق، ج2، ص472؛ الشماخي، المصدر السابق، ج1، صص 237، 239؛ ج2، ص564.

⁶ عزابة، مفرداً عزابي وهو كلمة مشتقة من الفعل عزب. وهي تعني البعد أو الإمتناع والعزوف عن الشيء. والعزابة هم المنشغلون بالحياة الروحية عن الحياة الدنيوية. ولا يهتمون بهذه الأخيرة إلا فيما يخدم الصالح العام

اتسع نشاط ورقلة الاقتصادي نتيجة لنشاط أهلها التجاري، مستفيدة من موقعها على الخطوط التجارية من جهة ومن ثروتها من الجمال "سفن الصحراء" من جهة أخرى. وتحصّلت على عائدات مهمة، فأصبحت " ... مدينة ... قبائل مياسير وتجار أغنياء".² كما يمكن إحالة وفرة المعلومات عن العلاقات التجارية بين ورقلة وبين غيرها من المناطق - في القرن (5هـ/ 11م) ومابعده - إلى ظهور تجمّع كبير في ورقلة (ثقل بشري)³ إثر هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب⁴. وقد كان من نتائج هذه التغريبة الهلالية أن اضطرت أحوال بلاد المغرب (خاصة منطقتي إفريقيّة والمغرب الأوسط) وهجره العديد من متساكنيه إلى المناطق الساحلية والجنوبيّة⁵ "لسوء أحوالهم وانقطاع أسفارهم".⁶ وكان لإزدياد عدد سكان ورقلة غير المتوازن وإمكاناتها الاقتصادية الداخلية قد حدا بهم إلى مضاعفة مزاولة التجارة.

والانتقال إلى خدمة العامة. ويكون مجلس العزاية المتكون من عدد محدد من الأشخاص في المسجد أو في مكان مصاب له. ويشرف العزاية على شؤون المجتمع الأباضي دينيا وتعليميا وسياسيا. ويكون في فترة الدفاع والظهور مجلس شورى للإمام، أما في فترة الكتمان فهو يمثل الإمام ويقوم بعمله. لمزيد من المعلومات عن هذا التنظيم، أنظر: روبرتو روبيناتشي، العزاية - حلقة الشيخ محمد بن بكر- (وثيقة قديمة عن حياة نسك الصوامع في الإسلام)، ترجمة لميس الشجني، إعداد للنشر وتقديم موحد ومادي، منشورات مؤسسة تاولت الثقافية- سلسلة أبحاث التاريخية (6)، 2006. ولمزيد من المعلومات عن العزاية ونظام الحلقة التي ينظمون إليها، أنظر الدرجيني، المصدر السابق، ج1، صص 171-183.

¹ معمر، علي يحي، الأباضية في موكب التاريخ - الأباضية في الجزائر-، مكتبة وهبة، مطبعة الدعوة الإسلامية، القاهرة، 1979، 382.

² الإدريسي، المصدر السابق، ج1، صص 296.

³ ذكر الدرجيني تواجد أشخاص من القيروان ومن بلاد ريف في ورقلة. الدرجيني، المصدر السابق، ج2، صص 431-445.

⁴ لمزيد من التفاصيل حول هجرة بني هلال أنظر، ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، صص 289-295، ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، صص 55-57.

⁵ ابن خلدون، المصدر السابق، مج11، ص 43.

⁶ ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، صص 56.

لقد وردت بعض الإشارات إلى علاقات تجارية قائمة بين ورقلة وبين المراكز التجارية المغربية (تلمسان، الزّاب، القيروان، قلعة بني حماد...) قبل التغريبة الهلالية، ولكن إنتفى ذكرها بعدها. فقلعة بني الطويل التي كان يرتادها تجار الشّب من الوردلانين، والذين كان لهم سوق هناك مخصوص بهم يسمى "موقف الشّب"¹، قد هجرها سكانها إلى مدينة بجاية² واختفت كمرکز تجاري³. والقيروان بعد أن كانت قاعدة الأقطار وأعظم مدن الغرب وأيسرها أموالا وأرباحها تجارة وأنفقها سلعة⁴، قد "تعطلت أسواقها"⁵ وأصبحت ممرا عابرا⁶.

وبالنظر في علاقات ورقلة التجارية مع سجلماسة، يتبيّن عدم إنقطاعها. فيذكر الدّرجيني في إطار حديثه عن الطبقة الثانية عشر، أنّ أبا يحي زكريا ابن صالح اليراسني⁷ "وصل ذات مرّة من سجلماسة إلى ورجلان ثم خرج من ورجلان إلى جربة"⁸. كما يمكن القول بأن العلاقات التجارية بين ورقلة وجبل نفوسة لم تنقطع، وذلك لوحدة المذهب المعتنق من جهة، ولأنّ الاتصال بينهما كان أفقيا دون التوغل في مناطق الشمال من جهة أخرى. خاصة وأنّ مدينة شروس قاعدة جبل نفوسة لا تزال تذكر باعتبارها مدينة تجارية مهمة في القرن (VIهـ/ XIIم)⁹.

¹ الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص 472.

² الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص261.

³ موسى، عز الدين أحمد، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن 6هـ، دار الشروق، بيروت، 1983، ص308.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص184.

⁵ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص291.

⁶ موسى، المرجع السابق، ص308.

⁷ فقيه أباضي من جربة، كان يشتغل بالتجارة مع بلاد السودان.

⁸ الدّرجيني، المصدر السابق، ج2، ص502.

⁹ Lewicki, *Etudes maghrébines et soudanaises*, I, Edition scientifique de Pologne, Varsovie, 1967, p.31.

ويُعزى إنقطاع العلاقات التجارية بين ورقلة والمراكز التجارية المغربية في المغربين الأدنى والأوسط إلى تعطل "الطريقين التجاريين الصحراويين... الشرقي والأوسط كليًا أو جزئيًا بسبب الهجرة الهلالية... وما رافقها من اضطراب سياسي واقتصادي في كثير من مناطق المغربين الأدنى والأوسط".¹ بالإضافة إلى فقدان التجار الأبازيين الرقابة والسيطرة على الطريق الشرقي لصالح الطريق الغربي.²

إن مسار العلاقات التجارية بين ورقلة والمناطق المغربية، يبيّن بما لا يدع مجالاً للشك ضرورة التوجه نحو الجنوب، نحو بلاد السودان لمزاولة التجارة.

إنّ علاقات أباضي ورقلة بالجنوب/ بلاد السودان لم تكن وليدة هذا العصر أو منوطة بهذه التطورات وفقدان أسواق الشمال، بل هي امتداد لما كان منذ عهد الإمارة الرستميّة (160-162هـ/776-778م). فتذكر المصادر الأباضية أن أفلح بن عبد الوهاب قد عزم على القيام برحلة تجارية إلى كوكو، إلا أن والده عارض ذلك لتوقفه في مسألة ربا سألها فيها³. ولعلّ في ذكر ابن الصغير لوفادة أفلح لمحمد بن عرفة⁴ - أثناء إمامته (208-258هـ/823-871م) - إلى ملك السودان بهديّة دليل على هذه العلاقات⁵. كما

¹ الشخيلي، صباح إبراهيم، "النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية ق5/11م" في كتاب تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن 19، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984، ص38.

² Brett, Michael, " Ifriqiya as a market for Saharan from the tenth to the twelfth century a.d", in *journal of african history*, X.3, 1969, p.361.

³ الوسياني، المصدر السابق، ج1، ص327؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص361.

⁴ هو صهر الإمام إبي بكر أفلح، إذ تزوج من أخت الإمام، وقد علا شأنه وكان متنفذا حتى قيل أن الامارة كانت بالإسم لأبي بكر وبالْحَقِيقَة لمحمد بن عرفة. ابن الصغير، المصدر السابق، ص72.

⁵ ربما يقصد ببلاد السودان، كوكو، التي كان يريد زيارتها في عهد والده عبد الوهاب (171هـ-208هـ/787-823م). ابن الصغير، المصدر السابق، ص71.

يمكن الإستشهاد بما جاء في مؤلف ابن حماد من أن كيداد والد أبي يزيد¹ "كان يختلف إلى بلاد السودان، فاشترى بتادمكت أمة تسمى سبيكة. حملت منه وولدت أبا يزيد وهو أعرج وفي لسانه شامة. فذهب به أبوه كيداد إلى عرّاف بمدينة كوكو."²

تحيلنا المصادر إلى وجود علاقات تجارية بين ورقلة وبلاد السودان، سواء كان الشرقي أو الأوسط أو الغربي، إلا أنها تتفاوت من حيث الأهمية. فورقلة اشتهرت بتجارته مع السودان الأوسط والغربي (تادمكة، جاو، غانا، ونقارة...)، أما السودان الشرقي (زغاوة، كوار، تنبكتو...) فقد كان ذا علاقات واسعة مع فزان في الأغلب³. ومع ذلك وردت بعض الإشارات إلى العلاقات التجارية بينه وبين ورقلة.⁴

إنّ وقوع ورقلة في جنوب المغرب الأوسط قد جعل إتصالها بالمناطق المجاورة أو بالأحرى الواقعة على طريقها التجاري أمراً بديهياً. فكان أن توطدت علاقتها مع السودان الأوسط وخاصة بتادمكة الواقعة جنوبها، والتي أُعتبرت المنفذ إلى كوكو، بمسير خمسين يوماً في الصحراء⁵. ويشير المؤرخون الأباضيون (الوسيانى، الدرّجيني) إلى وجود هذه العلاقة ابتداءً من القرن (4هـ/10م). فيُذكر أنّ "أبا صالح الياجراني ساق جمالا له من

¹ أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى وكانت سكناه بسداة من نقبوس التي نشأ بها. إنظّم إلى الأباضية النّكار. وقاد ثورة ضد الفاطميين سنة 332هـ/943م واستولى على عدة مناطق وصولاً إلى قاعدة إفريقية القيروان التي سقطت بيده وحاصر المهديّة. إلا أنه انهزم وتم القبض عليه وقتله المنصور، كان ذلك سنة 336هـ/947م. أبو زكريا، المصدر السابق، ص175؛ الدرّجيني، المصدر السابق، ج1، ص96؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، صص 216-220.

² ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، مطبعة جول كربويل، الجزائر، 1927، ص18.

³ لمزيد من التفاصيل أنظر: Martin. B. G, " Kanem, Bornu and Fazzan, notes on the political history of a trade route", in *Journal of african history*, XI, 1969, pp. 15-27.

⁴ يذكر الإدريسي أن أهل زغاوة الذين كانت لهم تجارات بيسيرة، كان يجلب لهم الحنطة من بلاد وارقلان وأنّ أهل مدينة أنكلاس [وهي من أكبر بلاد كوار وأكثرها تجارة وعندهم معدن الشبّ] كانوا يتجولون حتى ينتهوا في جهة المشرق بلاد مصر ويتصرفون في جهة المغرب فيصلون بلاد وارقلان... الإدريسي، المصدر السابق، ج1، صص 29، 111، 117.

⁵ البكري المصدر السابق، ج2، ص881.

القبلة لبييعهم في وارجلان، فاشترى منها رجلا جملا. فسأل الرجل الثمن، فقال له ثمن جملك في تادمكت. فجهّز أبو صالح للسير معه إلى تادمكت. فأخذ جملا ليركبه، فقال له رجل آخر: احمل لي على جملك حمل ثياب، فأجابه إلى ذلك. فقال أبو صالح: بكم أبيع حملك، قال بكذا وكذا. فوصل الشيخ تادمكت، فساوم الحِمل، فبقي له مما رسم له صاحبه شيء يسير، نحو ثلاثة أرباع القيراط، فلم يبيعه. فرجع به قافلا إلى وارجلان. وما سمعنا بحمل رجع من تادمكت قط إلى وارجلان غيره...¹

يمكن أن يستشف من هذا النص أنّ الحركة التجارية بين ورقلة وتادمكة كانت نشطة، كما يتضح من خلاله أن السلعة المتبادلة هي الثياب من ورقلة مقابل الذهب على الأرجح

إنّ التواصل التجاري بين ورقلة وتادمكة بقي نشطا، ووفقا لما يستجد من ظروف في الشمال المغاربي قد فرض على الوراقلانيين تعميق علاقاتهم التجارية مع الجنوب، كما سبق وأن ذكرنا، ومع تادمكة على وجه الخصوص. فيذكر أبو عمر عثمان السوفي أنّ تلمي الوسياني وهو أحد أهل القصور، كان يسافر باستمرار إلى تادمكة حتى أصبحت له ثروة ذهبية كبيرة هناك، "... فجعل يبعث من تادمكت كل سنة ستة عشر كيس، كل كيس فيه خمسمائة دينار..."² وبالرغم من أن هذا التاجر ليس من أهل ورقلة إلا أن الطريق الذي يسلكه وغيره من تجار الجريد إلى تادمكة هو طريق ورقلة. وكذلك الأمر بالنسبة لتجار جبل نفوسة³ وجربة⁴ وغيرها من مناطق إفريقية.

¹ الوسياني، المصدر السابق، ج2، صص 803-804؛ الدرجيني، المصدر السابق، ج2، صص 374-375.

² الوسياني، المصدر السابق، ج2، ص551؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص602.

³ الوسياني، المصدر السابق، ج2، ص553.

⁴ كان الشيخ أبا يحيى زكريا اليراسني قد خرج مرة في قافلة من سجلماسة إلى وارقلة ومنها إلى جربة " ومعهم قرب مائتي ألف وخمسين ألفا ذهبا وتبرا". الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص649. ويذكر الدرجيني أنها "مائتين وخمسين مثقالا ذهبا تبرا". الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص502.

وإن كانت تادمكة منفذا للدخول إلى بلاد كوكو، فإنها أيضا بوابة إلى بلاد السودان الغربي، مما جعلها محط أنظار أباضيي بلاد المغرب دون الاقتصار على أهل ورقلة. فيذكر البكري أن بين تادمكة ومدينة كوكو تسع مراحل¹. وكانت هذه الأخيرة تتاجر بالملح وهو نقدهم، يُحمل إليهم من بلاد البربر يقال لها توتك مروراً بتادمكة². ويذكر بوعصبانة وإعتمادا على فتوى للشيخ أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني بخصوص "من سرق الملح من وارجلان وهو في السودان، أن عليه بردّ قيمته أو إرجاعه إلى الموضع الذي أخذ منه..."³ أنه من المحتمل أن تكون سباخ ورقلة "أماكن تجمع الملح وبيعه وتصديره إلى بلاد السودان."⁴ ويشير الإدريسي بطريقة لا مباشرة إلى إتصال ورقلة بكوكو عند ذكره لعود الحية الذي ينبت بهذه الأخيرة مبرزا أن الورجلانيين يعرفونه⁵.

بالرغم من أنّ المصادر - المواكبة للفترة قيد الدراسة - لا تذكر ما كان يبيعه أهل كوكو، فإنّ ما يذكره ليون الإفريقي، وإن كتب في فترة متأخرة، من أنّ تجارة كوكو مع ورقلة هي الذهب والعبيد⁶، يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار. فلا يستبعد أن تكون التجارة بينهما - في الفترة قيد الدراسة - قائمة على هاتين السلعتين، خاصة وأنّ الإدريسي قد ذكر وفرة الذهب عند أهل كوكو⁷. كما يمكن التأكيد على ذلك من خلال بعض الإشارات إلى تجارة العبید في ورقلة التي تعدّ إحدى البوابات الرئيسية لبلاد السودان، استخدامهم كيد

¹ البكري، المصدر السابق، ج2، ص883.

² الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص28.

³ بوعصبانة، المرجع السابق، ص155. جاء في كتاب الدليل والبرهان "ومن غضب مالا قيمة له، كمن غضب ملحا في وارجلان فقدر على الغاصب في بلاد السودان استأديناه الملح أو قيمته هنا في هذا الموضع الذي قدرنا عليه فيه." الورجلاني، أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم، *الدليل والبرهان*، تهذيب الطباعة بواسطة فريق العمل بشبكة الدرة الإسلامية، مكتبة الكتب الإسلامية، ج3، ص63، www.aldura.net.

⁴ الورجلاني، المصدر نفسه، ص155.

⁵ الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص28.

⁶ Lewicki, *Etudes maghrébines...*, *Op.cit.*, p.40.

⁷ الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص28.

عاملة بها في الزراعة وكنس العيون وخدمة البيوت¹. فذكر ابن سعيد أنه "منها تدخل العبيد إلى المغرب الأوسط وإفريقيّة".² وذكر الدرجيني أنّ الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر وهو في إيفران إحدى قرى ورقلة قد "وجّه محبوبا وأبا محمد من تين يسلي إلى وارجلان ليشتريا له أمة..."³ كما أشار في موضع آخر إلى كثرة الإماء بورقلة بقوله "غارت غارة لبعض العرب على ورجلان فساقوا عدة من الإماء..."⁴ وكانت غانة من أهم المراكز التجارية التي كان الوردقانيون يرتادونها، فهي مصدر أهم سلعتين تجاريتين آنذاك، وهما الذهب والعبيد⁵. فيذكر ابن الفقيه بشيء من المبالغة والخيال "أنّ بلاد غانة ينبت فيها الذهب نباتا في الرمل كما ينبت الجزر ويقطف عند بزوغ الشمس".⁶ ويؤكد البكري كثرة الذهب بغانة بوصفه ما يزدان به قصر ملكها من ذهب⁷. أمّا الإدريسي فيذكر أنّها مصدر مهم للرقيق⁸.

¹ أبو زكريا، المصدر السابق، ص246.

² ابن سعيد، المصدر السابق، ص126.

³ الدرجيني، المصدر السابق، ج1، صص188-189.

⁴ الدرجيني، المصدر نفسه، ج2، ص434.

⁵ بوفيل، المرجع السابق، ص152. Albergoni Gianni, "Les Bédouins et les échanges: la piste introuvable", dans *Cahiers des sciences humaines*, 1990, 26 (1-2), 1990, p.203.

⁶ ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988، ص83.

⁷ البكري، المصدر السابق، ج2، صص872-873.

⁸ "قأهل غانة كانوا يغيرون على بلاد لملم ويسبون أهلها ويجلبونهم إلى بلدهم، فيبيعونهم إلى التجّار الداخلين إليهم، إليهم، فيخرجهم التجّار إلى سائر الأقطار..." الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر... مأخوذ عن كتاب نزهة المشتاق، ص4. Edrisi, Abou Addallah, *Description de l'Afrique et de l'Espagne*, Texte arabe publié pour la première fois d'après les manuscrits de Paris et Oxford avec une traduction des notes et un glossaire par Reinhart. P.A, Dozyef Michael. J.Degoje, Amsterdam oriental press, O.P, 1964, p.4.

ولعلّ من الدلائل على العلاقات التجارية بين ورقلة وغانة ما أورده السّوفي من أنّه كان لمحمد بن رستم ابن يُسمّى عمران كان مسافرا في غانة¹. ويمكن أن نتبيّن أنّ العلاقات التجارية بين ورقلة وغانة وإن لم تتخذ وجهة مباشرة، يكون فيها أهل ورقلة العنصر الحيوي في التجارة، فإنّ وقوعها على الطريق إلى غانة الذي كان يسلكه أهل نفوسة وبلاد قسطنطية يؤكد هذه العلاقات . فيذكر السّوفي أنّ أبا عمران موسى وولده هارون بن سدين من الحامة قد مرّا بورقلة متجهين إلى غانة ومنها إلى غياروا². كما مرّ بها أيضا الشّيخ إسماعيل بن علي النفزاوي في طريقه إلى غانة³. وبيّن ليفتسكي أن الطريق من ورقلة إلى غانة أكثر أهميّة من طريق ورقلة-تادمكة-جاو، ذلك أنّ مدينة غانة تعتبر البوابة التي يدخل منها تجار بلاد المغرب إلى بلاد الذهب ونقارة⁴ وإلى بلاد التكرور .

لقد ارتاد التجار الأباضيون ونقارة. فيذكر الإدريسي أنّ أهل ورقلة كانوا يشترون الذهب منهم بكثرة حتى أنّهم "قد أخرجوه في دور السكك في بلادهم، فضربوه دنائير..."⁵ أمّا عن عن إتصالهم ببلاد التكرور، فيمكن القول بأنها ليست بحديثة بل هي إستمرار لما كان من علاقات. فيذكر الشماخي أن ركب التكرور قد وصل إلى شروس، فلم يؤخذ من تجاره مكوسا، وأمّر أبو عمرو ميمون بن محمد الشروسي - وقد كان حاكم جبل نفوسة آنذاك- "بإغلاق الأسواق والبروز إلى التكرور من أجل الانتفاع بالبيع والشراء"⁶. فمن خلال ما ذكر الشماخي، نتبيّن أن حركة تجارية قد ظهرت بين جبل نفوسة وبلاد التكرور مروراً بورقلة. كما كان للورقلايين إتصال تجاري بمدينة زافون أيضا. ولكن في طريقهم إليها كانوا يسلكون طريق ورقلة-سجلماسة-أودغست-غانة وصولاً إلى زافون⁷. وبحيلنا ذلك

¹ الوسياني، المصدر السابق، ج2، ص614.

² المصدر نفسه، ج2، صص566-567.

³ المصدر نفسه، ج2، ص689؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص691.

⁴ Lewicki, *Etudes maghrébines...*, *Op.cit.*, p.41.

⁵ الادريسي، نزهة المشتاق...، ج1، ص24.

⁶ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص431.

⁷ Lewicki, *Etudes maghrébines...*, *Op.cit.*, p. 53.

إلى القول بأن إتصال ورقلة بغانة قد إتخذ طريقين. الأول: ورقلة-تادمكة-غانة. والثاني: ورقلة-سجلماسة-أودغست-غانة.

لئن كان الذهب والعبيد سلعتي التجارة بين ورقلة وبلاد السودان بامتياز، فإنّ التجارة في الذهب كانت الأكثر ممارسة على ما يبدو، وذلك لأنّها الأقلّ تعباً والأوفر ربحاً. فالمتاجر في الذهب يكون حملهم خفيف ولا يتطلب جهداً في التنقل به، في حين أنّ المتاجر بالرقيق عليه الإهتمام بهم ورعايتهم حتى يصل بلده. فيقع على عاتقه إيواءهم ومعاشهم وتمريضهم ومراقبتهم حتى لا يفرّ أحد منهم.¹

ولا تقدم لنا مصادرنا معلومات وافية عن المعاملات التجارية التي يتم وفقها التبادل التجاري بين ورقلة والمناطق السودانية، باستثناء ما ذكرته بعض المصادر الأباضية وكتب الجغرافيا. فأشار الدرجيني إلى الوكالة التجارية من خلال ذكره لخروج أبي صالح إلى تادمكة لبيع ثياب رجل ورقلاني². وذكر الإدريسي المقارضة³ فقال: "أنّ أهل كوكو يداخلون التجار ويجالسونهم ويبضعونهم بالبضائع من جهة المقارضة."⁴ أمّا الحموي فقد ذكر بشيء من التفصيل ما يتم خلال التعامل التجاري بين تجار بلاد المغرب والسودانيين من تجارة صامطة المقترنة بالمقايضة كما يذهب إلى القول لومبار⁵. فيقول الحموي أنّ تجار بلاد المغرب بعد أن يصلوا إلى غانة "ينزلون فيها ويتطيبون ثم يستصحبون الأدلاء ويستكثرون كم حمل المياه ويأخذون معهم جهابذة⁶ وسماسرة لعقد المعاملات بينهم وبين

¹ الوسياني، المصدر السابق، ج1، صص446-447.

² الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص375؛ الوسياني، المصدر السابق، ج2، صص803-804.

³ المقارضة هي المضاربة عند أهل المدينة. وهي أن يكون المال لأحد طرفيها ويعمل الآخر فيه على قسم معلوم من الربح ... وقيل المقارضة هي المجازاة، فرب المال ينفع المضارب بماله، والمضارب ينفع رب المال بعمله. عمارة محمد، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، بيروت، 1993، صص552-553.

⁴ الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص28.

⁵ لومبار، المرجع السابق، ص336.

⁶ الجهابذة مفردتها جهبذ وهي كلمة فارسية. والجهبذ "من عمال الديوان: هو النقاد للنفد من الذهب والفضة، العارف العارف بتمييز جيده من رديئه. وهو الصيرفي ومهنته الجهبذة." عمارة، المرجع السابق، ص156.

أرباب التبر... وساروا مجدين بعناء شديد حتى يقدموا الموضع الذي يحجز بينهم وبين أصحاب التبر، فإذا وصلوا ضربوا طبولا معهم عظيمة تسمع في الأفق الذي يسامت هذا الصنف من السودان... فإذا علم التجار أنهم سمعوا الطبل أخرجوا ما صاحبهم من البضائع (الخرز الأزرق، أسورة نحاس، حلق، خواتيم نحاس لا غير)، فوضع كل تجار ما يخصه من ذلك. كل صنف على جهة ويذهبون عن الموضع مرحلة فيأتي السودان ومعهم التبر، فيضعون إلى جانب كل صنف منها مقدارا وينصرفون، ثم يأتي التجار بعدهم، فيأخذ كل واحد ما وجد بجانب بضاعته من التبر، ويتركون البضائع وينصرفون بعد أن يضربوا طبولهم...¹ ويذكر العمري "أنّ المعاملة في بلاد التكرور بالودع، وأنّ التجار أكثر ما تجلب إليهم الودع وتستفيد به فائدة جليّة".²

من هنا يمكن القول أن التعامل التجاري بين ورقلة وبلاد السودان إستوجب وجود وكالات ووسطاء وأدلاء. ويؤكد لومبار على ذلك بقوله "أنّ البيوت التجارية في محطات القوافل في الجنوب تحتفظ بشبكة من المراسلين الذين يعملون لشراء الذهب لحسابها بالمقايضة الصامتة"³ مقابل الملح، الذي يعدّ سلعة في غاية الأهمية بالنسبة لأهل السودان لإنعدامه عندهم ولحاجتهم إليه. ويشير العمري إلى ذلك بقوله "أنّ الملح معدوم في داخل بلاد السودان، فمن الناس من يعرّر، ويصل به إلى ناس منهم يبذلون نظير كل صيرة ملح مثله من الذهب".⁴

¹ الحموي، المصدر السابق، مج2، ص12.

² العمري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: الممالك الإسلامية في اليمن والمغرب والأندلس وأفريقيا، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وعصام مصطفى هزايمة ويوسف أحمد بن ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، 2001، ج4، ص71.

³ لومبار، المرجع السابق، ص336.

⁴ العمري، المصدر السابق، ج4، ص76.

ولا يستبعد استعمال التجار الأباضيين الصكوك إذا ما أسقطنا ما أورده ابن حوقل من أنه رأى صكا على ورقلة بأودغست¹.

أما عن القوافل وكيفية تنظيم مواعيد خروجها، فلا نجد لها إشارة إلا في العموم. فيذكر ابن حوقل أنها تخرج في الشتاء بقوله "وبين بلاد المغرب... وبلد السودان مفاوز وبراري منقطعة قليلة المياه، متعذرة المراعي لا تسلك إلا في الشتاء."² ويشير الإدريسي إلى أنها تخرج في الخريف لحرارة الطقس، فيقول "وهذه الصحراء يسلكها المسافرون في زمان الخريف، وصفة السير بها أنهم يوقرون أجمالهم في السحر الأخير، ويمشون إلى أن تطلع الشمس ويكثر نورها في الجو ويشد الحر على الأرض، فيحطون أحمالهم ويقيدون أجمالهم ويعرسون أمتعتهم ويخيمون على أنفسهم ظللا تكتهم في حر الهجير وسموم القائلة، ويقيمون كذلك إلى أول وقت العصر. وحين تأخذ الشمس في الميل والانحطاط في جهة المغرب يرحلون من هناك ويمشون بقية يومهم ويصلون به المشي إلى وقت العتمة ويعرسون أيما وصلوا وبيبتون بقية ليلهم إلى أول الفجر الأخير ثم يرحلون وهكذا سفر التجار الداخلين إلى بلاد السودان."³

ولعله من الجدير بالذكر أن المرور بالصحراء فرض على التجار أن يتقلوا بصفة جماعية حتى يأمنوا الطريق. وكان لابد لهم من أدلاء لهم دراية بمسالك الصحراء التجارية خاصة وأنّ رمال الصحراء غير ثابتة فتتغير معالم الطرق إثر العواصف الرملية. وقد يكون للقافلة الورقلانية كما في غيرها من القوافل التي تعبر الصحراء الى جنوبها قائد القافلة وبعض مساعديه من الذين يستحيل نجاح الرحلة بدونهم كما هو الحال بالنسبة للتكشيف والدليل.⁴

¹ Levtzion, Nehemia, " Ibn Hawqal, the cheque and Qwdaghost", in *Journal of African history*, IX, 2, 1968, pp. 223-233.

² ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، دت، ص100.

³ الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص107.

⁴ علوي، المرجع السابق، ص376.

لم يكن نشاط التجار الأبازيين - وغيرهم من المغاربة - ليقترصر على مزاولة النشاط التجاري وحسب بل تعداه إلى نشر الإسلام.¹ فيذكر البكري " أن مدينة غانة مدينتان سهليتان، أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها إثنا عشر مسجداً، أحدها يُجمع فيه، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء، وحملة علم ... ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة... وفي مدينة الملك مسجد يصلّي فيه من يفتد عليه من المسلمين، على مقربة من مجلس حكم الملك... وترجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه."² ومن خلال هذا النص نستشف إنتشار الإسلام في السودان الغربي، كما يمكن القول بأنّ عدد المسلمين لم يكن ضئيلاً ويدلّ على ذلك وجود إثني عشر مسجداً. علماً بأنّ من بينهم مستوطنون مغاربة؛ خاصة إذا ما أدركنا أنّ نشر الدين الإسلامي وتعاليمه تستوجب عناية ومتابعة من قبل الدعاة. كما يذكر البكري أيضاً أنّ أهل التكرور مسلمون في زمنه، فيقول: "... أهلها سودان وكانوا على ما كان سائر السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم الصنم، حتى وليهم وارجابي بن ربيس فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها. وتوفي وارجابي سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة، فأهل التكرور اليوم مسلمون"³. أما الدرجيني فيذكر أنّ ملك مالي قد أسلم على يد علي ابن يخلف سنة 575هـ/1179م⁴. ويذكر الشماخي أنّ ركبا من التكرور قد أسلم على يد أبي عمرو ميمون بن محمد الشروسي⁵. كما ذكر أنّ أبا يحيى بن أبي القاسم الفرسطائي قد سافر

¹ Albergoni Gianni, *Op.cit.*, p.203.

² البكري، المصدر السابق، ج2، صص 871-872.

³ وكذلك الأمر بالنسبة لمدينة سلى التي تبعد عن مدينة غانة مسيرة عشرين يوماً. البكري، المصدر نفسه، ج2، ص868.

⁴ الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص517.

⁵ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص431.

إلى بلد السودان واستطاع أن يستقطب ملكهم فأسلم على يديه¹. ويذكر ابن بطوطة - في فترة متأخرة - أنه وجد قوما من الأباضييين في صحراء مالي شمالا².

ولعلّه من الجدير بالذكر أنّ نشر الإسلام في بلاد السودان لم يكن حكرا على أهل ورقلة أو الأباضييين فحسب، بل كان مهمّة اضطلع بها التجار المغاربة الوافدين على بلاد السودان عامة. وكان أن تلازمت ممارسة التجارة والدعوة للإسلام. وشهدت الكثير من المدن السودانية مثل غانة وجاو وأودغست وتادمكة والتكرور وغيارو وزافون وكوغة، ومنذ القرن (2هـ/8م)، حضورا للتجار الأباضييين القادمين من تاهرت وورقلة وبلاد الجريد وجبل نفوسة...³ كما رافق تبعا لنشر الإسلام نشر اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، ونشر أنواع من المعالم الحضارية المعمارية الإسلامية أيضا⁴.

تبيّن من خلال الدراسة أنّ توجّه الأباضية إلى الجنوب/منطقة الواحات (ورقلة) والإستقرار به لم يكن إعتباطيا بقدر ما كان حلاّ موضوعيا إرتأه الأباضييون. في مرحلة أولى، فرارا من القوات الفاطميّة في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع ميلادي. وفي مرحلة ثانية، فرارا من الهالبيين الذين دخلوا بلاد المغرب في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي. خاصة وأنّ هذه المناطق تمثّل المواطن الأصلية لأغلب عناصرها.

¹ المصدر نفسه، ج2، ص478.

² حركات، إبراهيم، "دور الصحراء الإفريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط"، في مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1981، سنة 3، عدد1، ص36.

³ Collectif, Histoire générale de l'Afrique, l'Afrique du VIIe au XIe siècle, Directeur M. El Fasi, Co-Directeur I. Hrbek, UNESCO, Paris, 1997, vol.3, p. 79.

⁴ شاختم، نقلا عن Lewicki, "Quelques extraits inédits relatives aux voyages des commerçants et des missionnaires Ibāḍites Nord Africains au pays du Soudan Occidental et Central au Moyen âge", dans Folia Orientalia, Plogne, 1960, Tome2, p.

ويبدو أن توجه الأبازيين إلى المناطق الجنوبيّة قد حكمته أوضاع اقتصادية أيضا. فمِنطقة الواحات (ورقلة) كانت البوابة التي ينفذ منها تجار الشمال إلى ما وراء الصحراء والعكس. فكان أن ارتبط هذا التوجه نحو الجنوب بقيام نشاط تجاري واسع مع بلاد السودان الأوسط والغربي على وجه الخصوص. واتضح ذلك من خلال العلاقات التجارية التي وقع تفصيلها. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا النشاط التجاري مع الجنوب لم يمثل ظاهرة جديدة للحركة التجارية النشطة بين شمال وجنوب الصحراء في العصر الوسيط. ولم يقتصر نشاط هؤلاء الأبازيين على التجارة وحسب بل تعداه إلى نشاط حضاري، على قدر من الأهميّة، في المناطق السودانية التي أمّوها واستقروا بها. فكان للأبازيين الدور البارز في نشر الإسلام واللغة العربية وأسهموا في خلق كيانات إسلاميّة في المناطق السودانيّة مسدين خدمة للعالم الإسلامي ومعبّرين على أنّ نشر الدين الإسلامي في المناطق السودانية لم يكن عن طريق الحملات العسكرية (الحرب) بقدر ما كان سلميًا ونتيجة للتواصل بين المسلمين (تجار ودعاة) وبين السودانيين الوثنيين.

Exploring English teachers' beliefs about CLT and difficulties in implementing it in Libyan schools

Rabiah Mohammed Almalul
Faculty of arts, Almergib University

Abstract

This study explores English language teachers' beliefs about the main aspects of communicative language teaching (CLT) and to identify the possible constraints teachers encounter in implementing CLT. The participants of the study are from ten public secondary schools found in Al Khoms city and the capital city Tripoli. The main instrument used to elicit data for the study is questionnaire. In addition, interviews with six of these teachers are conducted to know about constrains the teachers face when attempting to implement CLT. The findings of this study have revealed that the majority of the respondents mildly approve of most of the principles of communicative language teaching. The interviews responses reveal that there were some factors that hinder the teachers from successful implementation of communicative methodology in their classrooms.

Introduction

In Libya as in other countries, English teaching nowadays is receiving much attention realizing how important English is in the world. With a growing need to develop students' communicative abilities, some educational reforms have been introduced. An English curriculum based on the principles of communicative language teaching (CLT) was one of the most fundamental reforms. CLT is considered the most effective and widely used approach in English as a Foreign Language (EFL) teaching, (Anderson 1993). Yet, as in some other EFL contexts, it puts great demands on teachers who are expected to have a high level of English proficiency and ability to use English in real –life situations for both social and academic purposes. Educational institutions emphasise the importance of maximising the use of English in the classroom to promote the acquisition process for the students. In this regard, there are many concerns about discrepancy between the intentions of the curriculum and the actual classroom practices. The implementation of CLT has

encountered problems and resistance in several EFL classrooms (Ellis, 1996; Li, 1998). Various researches reported that instruction in EFL classrooms is still predominantly based on traditional approaches (Li, 1998; Rao, 2002; Nunan, 2003). The ideas of CLT are different from the educational values and traditions of many EFL settings (Burnaby & Sun, 1989; Li, 1998). In addition, situational factors such as large class size, exam-oriented instruction and students' low proficiency have also influenced CLT practices. Karavas-Doukas (1996) investigated teachers' attitudes toward the use of communicative approach in Greece. It was reported that although the English curriculum in Greece was based on the premises of communicative language teaching, teachers showed a tendency to carry on the traditional teacher-oriented instruction style. It is suggested that the communicative approach may conflict with EFL teachers' existing thoughts about teachers' roles and teaching methods.

Research findings emphasized that teachers' beliefs have a great influence on classroom practice. Borg (1998), Richards and Lockhart, (1996) explained how teachers' beliefs affected their classroom behaviour and decision-making. Teachers also play the key role in the success or failure of a planned innovation (Markee 1997) because they are the decision makers in the actual setting in which the intended innovation is to be accomplished – the classroom. Since teachers, as Riley (2000: 37) nicely puts it, “*are the key players in the reform process*”, the investigation of teachers' beliefs about the principles of CLT serves as a starting point to identify what may affect successful implementation of CLT in Libyan classrooms.

English teaching methodologies in Libya

According to Hashim (1997), from the 1940's onwards, the traditional method that focused on teaching grammatical rules and memorising vocabulary was the predominant method. In the 1960's, there was an attempt to improve the whole process of teaching English in Libya: a new syllabus was introduced and it was based on much more advanced methods and techniques i.e. the direct and the audio-lingual methods. What is worth mentioning is that it seems that teaching English in Libya was responsive to the developments in English methodologies but the ban of teaching English in Libyan schools and universities during the late 1980s led to considerable deterioration in teaching English in the country (Orafi and Borg, 2009). So in the last few decades, the focus of English

language teaching in Libya was on grammar and reading comprehension. Lessons were characterized by oral drills with a focus on correct grammar, memorization of vocabulary, and reading aloud. Arabic was extensively used in English lessons by teachers and students. All this had bad consequences for teaching English (e.g. university graduates who were to be teachers had limited grasp of English). The response to this situation by the educational authorities was the introduction of the new communication orientated curriculum. While the introduction of curriculum innovation seemed to be a necessity, it can be argued that this innovation was not paralleled with a change in the teachers' beliefs. Different strategies for implementing educational change are discussed in the literature (e.g. Fullan, 2001); the renewed curriculum was somehow top-down imposed by educational policy makers, teachers were not engaged in the design of this innovation. As previously mentioned, the beliefs held by language teachers generally affect their classroom practices (James, 2001). Beliefs about language and teaching methods, beliefs about learners and their role and beliefs about teacher roles, all have an impact on language teaching practices, such as teaching material, choices of activities and the teaching techniques. Consequently, there is a need to explore teachers' beliefs and attitudes towards CLT. It is important to know what teachers think of the CLT methodology and what may prevent them from applying it in their classes. The questions guiding the study were:

1. What are Libyan teachers' beliefs about communicative language teaching?
2. What are the factors which influence successful implementation of the communicative approach in the Libyan English language teaching and learning context?

Methodology

Participants

Sixty Libyan teachers of English participated in the study. These teachers completed a questionnaire concerning CLT aspects. Six of those teachers were also interviewed. Due to time and place constraints the interviews were not face to face, instead, they were over the phone

These teachers are from ten public secondary schools found in Al Khoms

city and the capital city, Tripoli. They have between 1 to 10 years teaching experience. These sixty participants are males and females. With respect to their qualifications, all of the teachers hold Bachelor of Arts (BA) degree majoring in English language. The age range of the teachers is between 23 to 40 years old. Convenience sampling (Nunan, 1999) procedures were used for selection of the participants.

Questionnaire

It is a Likert scale questionnaire developed by Karavas-Doukas (1996). It consisted of 24 statements. These statements are related to various areas of CLT principles like error correction, group and pair work, role relationship and the place and importance of grammar. In the questionnaire, the participants were asked to assess their beliefs about CLT principles on a five-point Likert scale, by indicating the extent to which they agreed with each statement using (1) SA = strongly agree, (2) A = Agree, (3) N = neither agree nor disagree, (4) D = Disagree, and (5) SD = strongly disagree. The themes the questionnaire focused on are:

- Group/pair work (statements 2, 9, 13, 21, 22).
- Error correction (statements 6, 10, 14, 18).
- The role of learners in the learning process (statements 4, 5, 8, 20).
- The role of the teacher in the classroom (statements 7, 11, 16, 19, 24).
- Place/importance of grammar (statements 1, 3, 12, 15, 17, 23).

Interviews

The interviews were semi-structured. The main focus of each question was on the problems teachers face in the implementation of CLT methodology. To ensure understanding, the interviews were in Arabic. All the interviews were recorded and later transcribed for further analysis.

Results

Analysis of the questionnaires

The items of the teachers' questionnaires were examined in terms of their percentage so as to see what their general reactions toward the items representing the CLT features. To illustrate the pattern of the respondents' answers better, the first two alternatives (Strongly Agree and Agree) and

the last two (Disagree and Strongly Disagree) were combined. Table 1 presents these results:

Table 1 Teachers' responses in terms of frequency and percentages

Items	SA+A		U		D+S	
	F	P	F	P	F	P
1. Grammatical correctness is one of the criteria to judge the learner's performance.	28	46.6%	12	20%	20	33.3%
2. Group work activities are essential	51	85%	6	10%	3	5%
3. Grammar is as a means not an end	48	80%	3	5%	9	15%
4. Learners can suggest the content and activities of the lesson	15	25%	9	15%	36	60%
5. Training learners to take responsibility for their own learning	33	55%	9	15%	18	30%
6. The teachers' feedback must be focused on the appropriateness	24	40%	9	15%	27	45%
7. The teacher is no longer an "authority" and "instructor"	36	60%	3	5%	21	35%
8. The learner-centered approach to LT encourages responsibility	45	75%	6	10%	9	15%
9. Group work allows students to explore Problems	33	55%	5	8.3%	22	36.6%
10. Errors are a natural part of learning Language	30	50%	9	15%	20	33.3%
11. Organizing the teaching so as to suit the needs of all is impossible in a large class	42	70%	4	6.6%	12	20%
12. Knowledge of the rules of a language is not sufficient	45	75%	6	10%	9	15%
13. Group work activities are practical	33	55%	–	–	27	45%
14. Much correction is wasteful of time	27	45%	9	15%	24	40%
15. CLT learners are fluent and accurate	27	45%	15	25%	18	30%

16. The teacher as transmitter of knowledge is only one of the many different roles he/she must perform during the course of a lesson	48	80%	6	10%	6	10%
17. Mastering the rules of grammar is not enough	45	75%	9	15%	3	5%
18-Language learning is about getting it right from the beginning.	42	70%	–	–	18	30%
19. Activities such as explanations, writing and examples are not the only role of the teachers	36	60%	9	15%	15	25%
20. Tasks and activities should be negotiated and adapted to suit the students' needs rather than imposed on them.	29	48.3%	3	5%	27	45%
21. Small group work can replace whole class and formal instruction	19	31.6%	9	15%	32	53.3%
22. Group work activities have little use since it is very difficult for the teacher to monitor the students' performance	27	45%	18	30%	15	25%
23. To communicate effectively, direct instruction in the rules and terminology of grammar is NOT essential	33	55%	9	15%	18	30%
24. The teacher must supplement the textbook with other materials and tasks	42	70%	12	20%	6	10%

It seems that the majority of the participants agrees with and values the principles of CLT. They welcome the ideas that “group work activities are essential”, “grammar is as a means not an end”, and “the learner-centered approach to language teaching encourages learning”. However, over half of the respondents disagreed with statement “learners can suggest the content and activities of the lesson”

Analysis using the five thematic categories

Table 2 presents the grouped data for the five principles in the questionnaire.

Principles	Mean
Group work/Pair work	4.34
Error correction	3.12
Role of Grammar	3.55
Teacher Role	3.66
Learner Role	3.17

With 5 being “Strongly Agree” and 1 being “Strongly Disagree” the table would suggest that teachers are rather moderately inclined towards the five factors that are related to CLT. The highest mean is for the significance of group and pair work suggesting that this is one area in which teachers’ beliefs about group and pair work are compatible with CLT principles. The lowest mean score is for error correction implying that teachers’ beliefs in this area are less communicative.

The constraints mentioned by the interviewees were considered in two main categories: (1) external and (2) internal constraints. The number of participants who emphasized the relevant theme is indicated. As there were six participants in the interviews, the maximum number possible for each category was 6.

Table 3 summarizes the interview data: the factors that hinder CLT implementation.

External factors	Frequency
Large classes	5
Examinations	6
Curriculum level/students level mismatch	5
Students’ low motivation	4
Internal factors	Frequency
Teachers’ inadequate competence	3

It is revealed that there were a range of factors that hinder the teachers' attempts to implement CLT. The interviewees stated that most of these factors are external. The factors reported by teachers were: large class size, mismatch between students' level and the curriculum, lack of motivation, grammar-orientated examinations, and teachers' English inadequate competence.

Discussion

Regarding pair work and group work, the picture that emerges is that the majority of respondents (85%) do acknowledge that group work is essential. However, their beliefs shaped by their everyday classroom experience leads many, about (60%), to be cautious about these modes of classroom organization and prefer the whole class instructions. So despite the positive beliefs about group and pair work, the unpredictable outcomes of such activities might be perceived as threatening to the teachers' managerial skills. These concerns of applying group work in large classes are also mentioned by the interviewees. As Suxian (2006) suggested in the classroom where more traditional methods are applied, the teachers may feel safe and secure as they always have access to pre-planned teaching/learning materials determined by the syllabus and could control new knowledge and classroom activities.

Regarding error correction, there was a variation in responses; it seems that it is in this area where most disagreement among teachers is. This variation may reflect a lack of understanding about the quality and quantity of error correction. There was also inconsistency in teachers' viewpoints on error correction because almost 50% did think that errors were a normal part of language learning and 45% that error correction was a waste of time whereas 71% held the view that students need to get it correct right from the beginning. This inconsistency of responding showed that a number of teachers had rather confused notions about error correction and lack of understanding (Karvas, 1996; Li, 1998). Furthermore, teachers' responses to statement 18 where 70% of the respondents believed that students need to get it correct right from the beginning may also indicate that some teachers hold rather audio-lingual attitudes towards error correction where students' errors are regarded as signs of imperfect learning.

The teachers' views about grammar teaching are in line with communicative principles. However, some teachers (30%) hold the view that direct teaching of rules and terminology of grammar is important. Though the same proportion shows doubt about CLT learners might be fluent and accurate. Perhaps this suggests that although teachers do agree with the basic communicative premises of teaching grammar as a means rather than an end, they also believe that in order to do so you have to teach the rules and the corresponding terminology. It can be assumed that the traditional grammar based exams make teachers think of direct teaching of grammar and terminology as essential. In this respect, all interviewees mentioned examinations are principally testing grammatical knowledge and hence teaching grammar is considered necessary.

On their role, about 60% of the respondents thought the teacher's role is no longer the instructor. Yet, the rest 40 % of teachers incorrectly believed that their role was to act as a director. It can be assumed that teachers' beliefs about their role seemed to be in line with CLT principles as reflected in the mean scores of the statements regarding teacher's role. However, this would be inconsistent with the interpretation made of the scores given to the statement 4 where 60 % of teachers thought that students cannot suggest the content of the lesson and statement 20 where 45% of the respondents did not subscribe to the view that tasks and activities should be negotiated and adapted to suit the students' needs rather than imposed on them. Traditionally, it is the teacher who selects the tasks and activities and organises the teaching, but it is the learners' responsibility to actually do the learning. Perhaps in this case, some scores regarding learners' role suggest a rather traditional distribution of roles in the classroom.

Conclusion:

The findings of this study have revealed that the majority of the respondents mildly approve of most of the principles of communicative language teaching, but they reported a number of constraints that hinder them from successful implementation of communicative methodology in the classrooms. As Genesee and Upshur (1996:30) maintain language teaching is affected by different factors that restrict the teacher's options of what to teach and how to teach.

References

- Anderson, J. (1993). 'Is a Communicative Approach Practical for Teaching English in China? Pros and Cons' *System* 21/4: 471-480.
- Borg, S. (1998) Teachers' pedagogical systems and grammar teaching: A qualitative study. *TESOL Quarterly*, 32 /1, PP 9-38.
- Burnaby, B. & Y. Sun. (1989). 'Chinese Teachers' Views Of Western Language Teaching: Context Informs Paradigms'. *TESOL Quarterly*. 23/ 2, 219-38
- Ellis, G. (1996). How culturally appropriate is the communicative approach? *ELT Journal*, 50(3), 213-218.
- Fullan, M. (2001) *Changing Forces: The Sequel*. London: Falmer Press.
- Genesee, F. & Upshur. J. (1996). *Classroom-based Evaluation in Second Language Education*. Cambridge: Cambridge University Press
- Hashim S (1997) *Review of Teaching English In Libya-Textbooks Used In Preparatory And Secondary Levels* in El-Haddad, El-Mustafa et al (eds) *ESP in the Arab World: Reality Check and Prospects*. Casablanca: Moroccan Association of Teachers of English.
- James P, (2001) *teachers in action*. Cambridge: Cambridge University press.
- Karavas, D.E. (1996) 'Using attitude scales to investigate teachers' attitudes to the communicative approach' *ELT Journal* 50/3, PP187-198.
- Li, D., (2001). *Teachers' perceived difficulties in introducing the communicative approach in South Korea*. In: Hewings, A., Hall, D. (Eds.), *Innovation in English Language Teaching*. Routledge, London, pp. 149-166.
- Orafi and Borg, (2009) 'Intentions and realities in implementing communicative curriculum reform' *System* 37, pp 243-253.

- Markee, N. (1997). *Managing Curricular Innovation*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Nunan, D. (1999). *Research methods in language learning*. Cambridge, U.K.: Cambridge University Press.
- Nunan, D., (2003) 'The impact of English as a global language on educational policies and practices in the Asia-Pacific region' *TESOL Quarterly* 37 (4), 589–613.
- Richards, J. C., & Lockhart, C. (1996). *Reflective teaching in the second language classroom*. New York: Cambridge University Press.
- Riley, K., (2000) 'Leadership, learning and systemic reform' *Journal of Educational Change* 1, 39–55.
- Rao, Z. (2002) 'Chinese Students' Perceptions of Communicative and Non- Communicative Activities in EFL Classroom' *System* 30, pp. 85-105.
- Suxian,z (2006) A pilot study: Chinese English teachers' theoretical orientations in language teaching and its implications. *APERA Conference*.

Caravan trade between Kuwait and "markets of Arabian Peninsula, Levant and Southern Iraq" in the pre-oil era (A study in modes and relations of production)

* د/مصطفى أحمد صقر

1.Introduction

Although pastoralism was the common occupation of all nomads, this does not mean that raising animals was their only economic activity. During the modern history of the Gulf and Arabian Peninsula Bedouin tribes had also intermittently engaged in considerable trade (mainly the caravan trade) with urban markets. The flexibility so characteristic of pastoral nomadism and the ability to transport goods and people have meant that pastoralism has long been associated with the caravan trade as one of the major livelihood strategies. Prior to the evolution of modern transport, animals were the only method of moving large quantities of goods across land. Consequently, pastoralists often became heavily involved in trade caravans, guiding, managing and supplying the appropriate livestock. In Arabia, this evolved into a quite sophisticated form of blackmail, whereby the nomads both guided the caravans and required payments to protect them.²

However, commercial caravans had effectively contributed to the activation of Kuwait's external trade and were one of the primary pillars for the growth and development of the Kuwaiti economy. Long-distance trade caravans played a major role in the economic exchanges and commercial relations that took place between Kuwait and the major centres of Arabia, Iraq, Syria and Egypt. They were the main links for Kuwait with distant cities in Syria, southern Iraq, eastern and central Arabia. These economic ties had an enormous impact on Kuwait's internal development and its external political relations. Another reason for the active caravan trade were the needs of the consumer Kuwaiti

¹ - أستاذ مشارك بقسم التاريخ - كلية الآداب الخمس.

² Louise E. Sweet, "Camel Pastoralism in North Arabia and the Minimal Camping Unit" in: *Man, Culture and Animal: The Role of Animal in Human Ecological Adjustment*, Edited by Anthony Leeds and Andrew Vayda (Washington: American Association for the Advancement of Science, 1965), p.137.

society and the needs of the neighbouring societies, which relied on the Kuwaiti market to supply the material and necessary commodities.

Accordingly, caravan trade, as an economic activity, attracted a considerable part of the Kuwaiti population who participated in it whether directly as merchants, money lenders and cameleers, or indirectly as guards and guides, .etc. Most importantly, the caravan trade was the most important economic activity jointly practiced by both the nomadic and the settled people of Kuwait. There was a complex system of interaction between the nomadic tribes and the settled population in which goods and services were exchanged between the two sides. Throughout their long history, nomadic tribes had lived on their herds, supplying the surplus Bedouin products to the sedentary communities in return for manufactured and agricultural goods that they were unable to produce. They also controlled the desert trade routes, escorted caravans, and provided them with drivers and guides. This economic interdependence between the nomadic and settled populations of Kuwait had been an important characteristic of society for several centuries.

This study, therefore, presents a complete historical analysis of Kuwait's caravan trade and the economic interactions between the settled and nomadic communities of Kuwaiti society. The object of this study is to ask how far the caravan trade contributed in the prosperity of the Kuwaiti economy in the pre-oil era? And to what extent did the caravan trade —as a critical element of the traditional nomadic mode of production with its specific patterns of ownership and relations of production— contributed in determining and affecting the social structure of Kuwaiti society? This will be attempted through a study of patterns of ownership of capital and animals (means of transportation), ways of finance and economic and social relations between the participants in this economic activity. This study will also investigate the size of caravans, destinations and types of commodities, with special attention being paid to the market of Kuwait and the Bedouin participation in its prosperity. It is hoped that this will help to elucidate the significance of this economic activity and thus its impact on the social structure of the Kuwaiti society. It is of utmost importance to mention at this point that the information regarding the caravan trade, its organization and the participation of Bedouin tribes is not exclusive to Kuwait only. It can be applied to all northern and central

Arabia, southern Iraq and Syria as this area was the homeland of the 'Anzah, Mutair, 'Ajman, Shmmar, Utaibah, Bani Khakid, Bani Hajer, Sbai'a, 'Awazim, Rashaidah, Harib, Sahul and Dhafir tribes to which the Bedouins of Kuwait belonged.

2. Factors Contributing to the Prosperity and Decline of the Caravan Trade

Since its inception, Kuwait has played an important role in the transit trade into the Arabian Peninsula, Iraq, and Syria. Goods and commodities were imported from India, Iran, and east Africa to the Kuwait port, and then re-exported to the Arabian Peninsula, southern Iraq, and Syria by using commercial caravans. And conversely, products of these areas were brought by caravans to the Kuwait City and re-exported to the international markets. What helped Kuwait play such a role was the period of instability that Basra had experienced due to the spread of plague in 1773 which led to immigration of large numbers of its inhabitants, including merchants, to Kuwait and so they practised their trade activities in Kuwait.¹ Another reason for the decline of the commercial status of Basra was the siege imposed by the Persians and the subsequent occupation of it by the Persians from 1775-1779. The result was the decline of trade in Basra and the transfer of its Indian trade with Baghdad, Aleppo, Constantinople and the hinterland of Arabia into Kuwait. This was also added to the transfer of the British East India Company's factory from Basra to Kuwait in 1775. Since then, Kuwait turned into a very important port and accordingly became a significant station for commercial caravans from Kuwait to southern Iraq, Syria, and eastern and central Arabia.² In addition to the factors mentioned in the commercial sea transportation, Kuwait was also helped by its geographical proximity to these regions.

¹ Ahmed Mustafa Abu Hakimah, *The Modern History of Kuwait 1750-1965* (London: Luzac & Company, 1983), p.110. Faiq Tahboub, *Tariekh Al-Bahrain Al-Siaysi [The Political History of Bahrain]* (Kuwait: Dar Dat Al-Salsil, undated), p.45.

² Abu Hakimah, op. cit., pp.23-27, Mohammed Hassan Al-'Adarous, *Tariekh Al-Khalij Al-Arabi Al-Hadit [The Modern History of the Arabian Gulf]* (Cairo: Dar 'Ain Lil Dirasat wa Al-Bohouth, 1996), p.62.

The caravan trade enjoyed the attention and the protection of the rulers of Kuwait, especially during the reign of Sheikh Mubarak Al-Sabah, 1896-1915. Because of its economic significance, Sheikh Mubarak paid a special attention to this trade, and encouraged those who were involved in it. He made constant efforts to secure the caravan trade routes and guarantee the safety and protection of caravaneers and their goods by punishing those who attacked them.¹ It should be noted that, in spite of its critical importance during the 18th and 19th centuries, the caravan trade declined and suffered during the first half of the 20th century. The caravan trade was often influenced by the current political circumstances and sometimes ceased completely due to the political disputes between Al Sabah and Al Rashid, and between the latter and Al Saud in the hinterland of the Arabian Peninsula. This situation might have been aggravated by the political disputes between the Ottoman State and the influential European states such as Britain. However, reasons for the decline of the caravan trade can be summarized as follows:

- The siege imposed by the British forces during the First World War in order to prevent the supply of food and goods from Kuwait to Britain's adversaries such as the Ottomans, the Germans in Syria and Lebanon, and Ibn Rashid, the ally of the Ottomans, in Arabia.²
- The commercial disputes between Kuwait and Najd (one of the most important destinations for this trade). This problem occurred because Abdul Aziz Ibn Saud, the governor of Najd at that time, prevented his subjects from trading with Kuwait as a result of his inability to reach an agreement with the ruler of Kuwait regarding the customs tax between the two countries.
- The dispute with Iraq over the lack of a definite custom tax between the two states. These two problems led to an increase of smuggling between these areas and the ceasing of the caravan trade.

¹ Abdul Aziz, Al-Rashid, *Tariekh Al-Kuwait [The History of Kuwait]* (Beirut: Dar Maktabat Al-Hayat, 1978), p. 64. H. R. P Dickson, *The Arab of the Desert: A Glimpse into Badawin Life in Kuwait and Saudi Arabia* (London: Allen & Unwin, 1951), p.443.

²Hussein Khalaf Al-Sheikh Khaz'aal *Tariekh Al-Kuwait Al-Siaysi [The Political History of Kuwait]* (Beirut: Dar Maktabat Al-Hilal, 1962), p.129. Al-Rashid, op. cit., pp.238-40.

- The economic great depression of 1930s and its negative implications for the economic life in general and trade in particular. However, shortly after that, trade started to prosper again during the years of the Second World War. This was because of the resumption of work for the Kuwaiti sailing ships and the stopping of the European steamers to come to the region. This enabled the Kuwaiti merchants to work as commercial mediators in the region and supplying food to the armies of the alliance working in Iran and Iraq during the war.¹

3. Routes of Commercial Caravans, their Sizes and the Time Needed for their Trips

The most important routes of the commercial caravans from Kuwait to Basra, southern Iraq, central and eastern Arabia and Syria² were as follows:

A- The route from Kuwait to Basra passes by Qasr Al-Sheikh, Umm Qasr, and Saffwan. It continues to Zubier or Basra. The length of this route from Kuwait to Safwan is 111.5 miles, and from Saffwan to Zubier is 17 miles.³

B- The route from Kuwait to Basra through Jahrah and then to Saffwan directly. This route goes in a straight line for around 56 miles north to Saffwasn. The total distance of this route is around 76 miles.⁴

C- The way from Kuwait to Al-Qasim towards Najd passes through Jahrah, Umm Al-‘Amarah, Wadi Al-Shiq then to Al-Qasim. The length of this route is between 25 to 30 miles.⁵

¹Isa, Al-Qatami, *Dalil Al-Muhtar fi ‘Alim Al-Bihar [The Guidebook of Seas Science]* (Kuwait: Kuwait Government Press, 1964), pp.216-7, Badder Al-Deen Abbas, Al-Khususi, *Dirasat fi Tariekh Al-Kuwait Al-Iqtisadi wa Al-Ijtima‘ai [Studies in Economic and Social History of Kuwait]* (Kuwait: Dar Dat Al-Salasil, 1983), p.264.

² The Kuwaiti Ministry of Guidance and News, *The Annual Book* (Kuwait: Kuwait Government Press, 1972), p.11.

³ J.G. Lorimer, *Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia*, vol.1, Historical (Calcutta: Superintendent Government Printing, 1915), pp.1067-70.

⁴ Ibid, pp.1070-71.

⁵ Amin Al-Rihani, *Muluk Al-Arab: Rihlah fi Al-Bilad Al-Arabia [Arab Kings: Trip in Arab Land]* (Beirut: Dar Al-Jeel, Undated), p.671.

D- The way to Hafar towards Najd passes through Jahrah, Umm Al-‘Amarah, Wadi Al-Shiq, Al-Qasim, Riq‘ai, Qasr Ballal in Wadi Al-Batin, to Hafar. The distance from Kuwait to Hafar is 180 miles.¹

E- The route from Kuwait to Hafar directly through Warah ‘Adan, Dibdibah plain until Hafar. It is around 180 miles.²

F- The route from Kuwait to Zilfi in Najd.³

G- The route from Kuwait to Najd through Wabrah. The distance is around 140 miles.⁴

H- The route from Subihah in Kuwait to Al-Hasa.⁵

J- The route from Kuwait to Aleppo in Syria. This route was very important during the 18th century but lost this status in the 20th century due to the prevailing political conditions and particularly with the eruption of the First World War.

The size of caravans varies according to the volume of the goods shipped and the commercial conditions in the destinations. Therefore, there was no fixed system for the size of caravans. Furthermore, the numbers of animals and camels were difficult to count due to the fact that, in some cases, these animals were bought from Bedouins on the way to destination and so did not count among the animals of caravans.

Despite the lack of detailed information on the size of the commercial caravans during the period under investigation, it is possible to make use of the information given by the European travellers, who accompanied such caravans in earlier times. This is because caravans, during the period under investigation, maintained the same routes in the desert and continued using the same means of transportation used by those travellers. If there were a difference, it was only in the types of goods and prices.

The traveller Bartholomew Plaisted mentions that the caravan that he accompanied from Basra to Aleppo in 1763 was composed of around 2 000 camels at the beginning. Some camels were not loaded but were only intended to be sold in Aleppo. In the middle of the route another caravan

¹ Lorimer, op.cit., pp. 1070-72.

² Ibid., pp. 1072-73.

³ Ibid., p.1073.

⁴ Ibid.

⁵ Al-Rihani, op. cit., p.671.

joined with 3 000 camels. Therefore, the subtotal was 5 000 camel and around 1 000 men¹. The caravan that Edward Ives intended to travel with from Kuwait to Aleppo in 1758 was composed of 5 000 camel guarded by 1 000 men.²

Despite the fact that this information refers to an earlier period, it is possible to say that the size of caravans was not defined. The increase or decrease in the size of caravans was due to several factors such as the volume of the goods to be transported, the commercial conditions in the intended markets, the probability of other caravans joining in the route, and buying animals during the trip in order to sell them in the intended markets.

The duration of trips through the desert varied according to differences in the size of the caravans, and the differences in the distances between different markets. Big caravans used to travel at a slower speed than small caravans. Furthermore, the nature of the landscape played a role in limiting the speed of the caravans. This is confirmed by the traveller G. Forster Sadleir who said about his trip across the Arabian Peninsula in 1819 that he calculated the average speed according to the number of hours as follows:

When the trip is no more than eight hours, there would be a decrease in the calculated distance to two miles and a half-mile to two miles and three quarters of a mile. The reduction in speed was due to the mountain and rocky nature of the land.³

In the light of what Forster Sadleir mentioned, it is difficult to calculate the time needed for a trip from Kuwait for example to Najd or Basra and vice versa. This is because it is not possible to define the speed of the caravans, the period of recess to get water, and the time needed to negotiate with tribes about the tribute of passing, and so on.

¹ Bartholomew Plaisted, A Journey from Busserah to Aleppo, in: *The Desert Route to India*, edited by Douglas Carruthers (Liechtenstein: Kraus Reprint, 1967), p.80.

² Ahmed Mustafa Abu Hakimah, *History of Kuwait*, vol.1, Part 1 (Kuwait: Kuwait Government Press, 1967), p.277.

³ G. Forster Sadler, *Dairy of a Journey across Arabia 1819* (Cambridge: Falcon & Oleander Press), 1977), p.27.

4. Economic Rewards of the Caravan Trade

To realise the size of the financial revenues of the Kuwaiti caravan trade for the period of this study, it would be helpful to shed some light on the organization of the Kuwaiti markets, transactions, currency and commercial dealings between nomads and merchants in these markets. Furthermore, an analysis of the caravan trade, as one of the critical pillars of the Kuwaiti economy, inevitably entails a close examination of the Kuwait customs as the place concerned for obtaining the most important revenue for the government treasury and because the caravan trade and the selling of Bedouins was part of it.

4.1 Kuwaiti Markets

Kuwaiti markets were the starting point and the returning point of the caravans to the neighbouring areas with economic and commercial links. These markets were the centres of trade activity and so it warrants giving some details about them.

The city of Kuwait, during the period under investigation, was composed of a number of neighbourhoods that were separated by a main road that connects the important markets with the beach.¹ One of the most distinctive features of these neighbourhoods was the existence of the markets where people assembled to sell and buy. The yard of Al-Safah was regarded as the main market in Kuwait. In this market, caravaneers used to do all their commercial transactions. This was also the main market for Bedouins who used to come to exchange their products such as ghee, sheep, and wool and for what was available such as clothes and food.²

Besides this central market, there were other markets that had special features such as the meat and fish markets, the blacksmith market, the vegetables market, and so on.³ There were also many shops for different

¹ Khalifa Al-Nabhani, *Al-Tuhfa Al-Nabhania fi Tariekh Al-Jazera Al-Arabia [The History of Arabian Peninsula]* vol.8 (Cairo: Al-Matba'ah Al-Mohamadia Al-Tijaria, 1949), p.144. Also Al-Rashid, op. cit., p.38.

² Faisal Al-'Adhamah *Fi Bilad Al-Lulu [In the Country of Pearl]* (Damascus: Committee of Culture in the Arab Youth Association, 1945), p.126.

³ *Ibid.*, p.126.

trade activities.¹ Accordingly, it is possible to argue that Kuwait, as well being a commercial centre for importing and exporting goods to the international markets (Iran, southern coast of Arabia, India and East Africa) was also a commercial link between these markets and the hinterland of Arabia, southern Iraq and Syria. This clearly illustrates that the economy of Kuwait City was not a subsistence-oriented economy but one in which trade was a key element. It should also be noted that Kuwait market served as a social and cultural centre in which distinctive systems and different cultures had evolved. The following table gives a clear picture for the commercial transactions and the number of people who specialized in them as merchants and craftsmen in the Kuwait for the year 1904.

Table 1
The Number of Merchants and Craftsmen in Kuwait Market for the Year 1904²

Number	Type of Trade or Vocational Activity	Number	Type of Trade or Vocational Activity
36	Piece goods dealers		
21	Goldsmiths	32	Dates merchants
11	Blacksmiths	16	Druggists
12	Tinsmiths	28	Fruiterers
7	Gunsmiths	24	Rice merchants
11	Lamp makers	15	Wheat dealers
132	Dealers in Bedouin requests (such as carpets, cheap cloaks, nails, horseshoes, lead and shot).	13	Leather workers
		3	Professional cooks
		2	Oil presses
13	Leather workers	147	Grocers and druggists
17	Quilt makers	9	Ghee sellers
23	Haberdashers	9	Grass sellers
21	Tailors	35	Brokers of private goods on commission who had fixed places of business.
37	Cloak embroiderers		
7	Gold and silk braid workers		
12	Arab head fillets makers	12	Tea shops
13	Barbers	7	Cafés
11	Confectioners	250	Warehouses for the storage of grain.
8	Bakers		
11	Fishmongers	70	Business offices
36	Butchers	6	Stores for the material used in pressing oil.
14	Tobacconists		

¹ Rasim Rushdi, *Al-Kuwait wa Al-Kuwaitiein [Kuwait and Kuwaitis]* (Beirut: Al-Matba'ah Al-Rahbania Al-Libnania, 1959), p.34.

² Lorimer, op. cit., p.1054.

The logical conclusion to be drawn from the above table is that Kuwait City was very important commercial centre for both the nomadic and the sedentary population. Within this commercial centre a complex division of labour existed. The major discernible divisions included the dealers in Bedouin requests and the craft workers whose products and work were marketed beyond the bounds of the city to the Bedouins.

More importantly, Kuwait market provided the framework that linked the sedentary community in the city with other communities in the region and the region as a whole to a wider world outside the Arabian Gulf. Of special significance in the regional economy were the Bedouins. Bedouins had completely relied on the Kuwait market for obtaining food, cloths, weapons and all of the manufactured goods and equipment required for herding activities. They also relied on the market of Kuwait in marketing their products which were sold to the Kuwaiti merchants who then either marketed them locally or sent them abroad as exports.

It can, however, be said that Kuwait City was the commercial centre not only for the city dwellers but also for the Bedouins and urban centres in different parts of central Arabia, Syria and southern Iraq who made good profits from trading in Kuwaiti markets. Among the most important commodities that were carried by caravans from Kuwait to the hinterland of Arabia were rice, wheat, barley, coffee, sugar, tea, cloths, weapons, and other materials which came to the Kuwaiti port from Iran, India, Arabian Peninsula, and East Africa and re-exported to the markets of Najd, Al-Qasim, 'Aneizah, Buridah, Al-Hasa, Jubayl, and others.¹

Kuwaiti imports from these places were Bedouins products such as sheep, camels, skins, and wool.² In addition, they come back with the products of the markets that the caravans reached in order to sell them in Kuwait or re-export them.³ Kuwait also played an important role in exporting horses

¹ Al-'Adhamah, op. cit., p.71, Abdulaziz Hamad Al-Saqer, *Al-Kuwait Qabl Al-Zait [Kuwait before the Oil]* (Kuwait: Kuwait Government Press, 1984), p.17.

² Al-'Adhamah, op. cit., p.71, Ghanim Sultan, *Al-Milaha Al-Arabia wa Ahmiatuha Qadiman wa Haditan [Arab Navigation and its Ancient and Modern Importance]* (Kuwait: Moasasat Al-Taquadum Al-'Almi, 1988), p.119.

³ "Markets in Kuwait: Old and Modern", *Al-Arabi Magazine*, (66), May 1964, pp. 129-

from Najd which were gathered in the Jahrah village in Kuwait to be re-exported to India. This trade was practised by a number of Kuwaiti traders and it prospered during the 19th century.¹ Lewis Pelly mentions in his reports on Kuwaiti trade between 1863-65 that Kuwait was exporting 800 horses annually, the average prices of each horse was 300 rupees, and it exported wool with annual income of 40 000 rupees. The value of the Kuwaiti trade from horses at the beginning of the 19th century was expected to have reached 90 0000 rupees annually.²

Although these figures go back to earlier times, they show clearly that Bedouin products were of greatest importance to the Kuwaiti external trade. These products kept flooding Kuwaiti markets during the first half of the 20th century, except for horses, which suffered a decline in demand in the Indian markets. The volume of trade between Kuwait and Najd was estimated at the beginning of the 20th century to be around 500 000-600 000 rupees annually, however it decreased to 300 000 rupees yearly with the outbreak of the First World War and the eruption of disputes in the middle of the Arabian Peninsula between Al-Saud and Al-Rashid.³

Another relevant point which needed to be highlighted here is the Kuwaiti currency. Kuwaitis in their commercial dealings used to employ different types of currency. For example, the gold Ottoman lira, the British sterling, the Maria Teresa dollar or riyal, which was known as the French riyal, the Indian rupee, and the Iranian *gawareen* were all used in Kuwait. In addition, other currency existed made of bad silver metal such as the Basri riyals, and the copper riyals.⁴

This situation was imposed on Kuwait because it was a desert state with an economy that relied on pearls and trade with neighbouring and distance countries. The sheikhs of Kuwait tried to issue their own

¹ Yosif bin Isa Al-Gina'ai, *Safahat min Tariekh Al-Kuwait [Pages from the History of Kuwait]* (Kuwait: Kuwait Government Press, 1968), pp.61-62.

² Lewis Pelly, quoted in Abu Hakimah, *History of Kuwait*, p.232.

³ Al-Rihani, op. cit., p.668.

⁴ Ibid., p.319.

currency in 1886 from copper but the use of this currency was short-lived.¹

Although it is difficult to define the periods of dealing with the currencies mentioned, it is possible to have an idea about the exchange rate by comparing the percentage of these currencies with each other. The Maria Teresa dollar during the period 1905-30 averaged between 133-165 Indian rupees,² it also equalled five Iranian gawareen. The Indian rupee was equal to 2.5 grain or 0.186621 grams of pure gold. ³ It was also equal to 1.5 British shilling or 33 American cents.⁴

The merchants agreed among themselves on the exchange rate of these currencies, and therefore they had no preferences of a specific currency. This situation was changed with the outbreak of the First World War and the decline of the Ottoman influence, especially in Kuwait. This pushed merchants to deal basically in Indian rupees because of the close trade connection between India and Kuwait.⁵ This was the currency that Kuwait and all other Arabian Gulf sheikdoms were unofficially tied to since 18356 and continued until 1959 when the Indian government issued issued special rupees for the Arabian Gulf region. These rupees continued

¹ Majidah Faiq Jundi, *Al-Siayah Al-Naqdhiah fi Al-Kuwait 1970-79 [The Monetary Policy in Kuwait 1970-79]* (Kuwait: Kuwait Government Press, undated), p.17.

² The Persian Gulf trade Reports 1905-1940, *Reports on the Trade of Kuwait 1905-1940* (Trowbridge: Redwood, 1987), different pages.

³ Kuwait Chamber of Commerce, *Kuwait Guidebook* (Kuwait: Kuwait Government Press, 1951), p.319. See also Abdullmuna'aim Al-Sayid Ali, *Al-Tatwar Al-Tariekhi lil Al-Andhima Al-Naqdhiah fi Al-Aqtar Al-Arabia [The Historical Development of the Monetary Systems in the Arab Countries]* (Beirut: Centre of the Arab Unity Studies, 1983), p.135.

⁴ Sayid Nofil, *Al-Khalij Al-Arabi aw Al-Hodod Al-Sharqiah Lil Al-Watan Al-Arabi [The Arabian Gulf or the Eastern Borders of the Arab World]* (Beirut: Dar Al-Talabah, 1969), p.196.

⁵ Kuwait Chamber of Commerce, *Kuwait Guidebook*, p.320.

⁶ Nourah Al-Qasimi, "Al-Wojoud Al-Hindi fi Al-Khalij Al-Arabi" [The Indian Presence in the Arabian Gulf], Unpublished MA Thesis (Cairo: 'Ain Shams University, 1984), p.107.

in Kuwait until the issuance of the first Kuwaiti currency, the Kuwaiti Dinar, in 1961.¹

4.2 Kuwait Customs

The customs tax from the caravan's trade, which was given to the sheikh of Kuwait before the reign of Sheikh Mubarak Al-Sabah, was calculated according to the kind of goods. A merchant paid a certain amount of money for each camel.² Some revenues were occasionally in kind such as fish and some of the Bedouin products.³ The tax was three percent of the goods and this tax was voluntary self-imposed by the merchants due to the absence of any customs departments in Kuwait at that time.⁴

The first customs department was established in Kuwait during the reign of Sheikh Mubarak. It was a small and simple administrative unit. The sheikh instructs one of his guards (*fidawi*) to supervise all the revenues of land and sea.⁵ The customs fees were fixed at the beginning, when the department was set up, by 4% of the goods size. This rate was increased to 5% and later to 10% on some items. In addition, Sheikh Mubarak imposed tax on houses that were sold. The amount of this tax was a third of the price of the property.⁶

In 1908, Sheikh Mubarak summoned all merchants and asked them to define a fixed percentage on all imported goods in order to cover the government's expenses. The merchants decided to pay a percentage of 4%. This percentage remained unchanged until Sheikh Ahmed Al-Jaber

¹ The Kuwaiti Dinar equals 2 48828 gram of pure gold. It is divided into 1000 pennies (fills). The Indian rupee equals 75 Kuwaiti pennies which mean that the Kuwaiti Dinar is 13 30 Indian rupees. Kuwait Chamber of Commerce, *Kuwait Guidebook*, p.320.

² Khalid Al-Sa'adoun, *Al-'Alaqat Bain Nijd wa Al-Kuwait (Relations between Najd and Kuwait)* (Riyadh: Matbo'at Darat King Abdul Aziz, 1983), p.140.

³ Hassan Mahmoud Suleiman, *Al-Kuwait Madhiha wa Hadhiruha [Kuwait: Its Past and Present]* (Cairo: Al-Maktaba Al-Ahlia, 1986), p.49.

⁴ Al-Khususi, op. cit., p.96.

⁵ Musa Hanoun Ghadban, "Tatwer Nidham Al-Hukum wa Al-Idarah fi Al-Kuwait" [The [The Development of the System of Governing and Administration in Kuwait], Unpublished MA Thesis (Cairo: 'Ain Shams University, 1988), p.58.

⁶ Suleiman, op. cit., p.49, Al-Sa'adoun, op. cit., p.190.

Al-Sabah (1921-50) raised it to 6%.¹ The revenue of this tax was divided among the government department of the state, which started to emerge in the early 1930s. It was decided that 1% would go to health services, 1% to education, 0.5% to municipality, and the rest to other government expenditures.²

On the whole, these taxes represented an important income for the sheikh of Kuwait. It was regarded the largest source of revenue for the government for that time. The customs tax on importation was estimated to be \$20 000 annually, the sea customs were \$150 000 annually³ whereas the sheikh of Kuwait received \$28 500 annually from the Bedouins as shown in the following table:

Table 2

The Annual Proceeds of the Sheikh of Kuwait from the Bedouins⁴

\$25 000	Alms on Bedouins' flocks
\$2 000	Tax on sheep sold in the Kuwait market
\$1 500	Tax on camels sold in the Kuwait market

The number of annual trade caravans between Kuwait and the neighbouring counties was estimated to be around twenty caravans from south of Najd and two caravans from Jabal Shammer in central Arabia.⁵ This was the case until the eruption of disputes between Al-Saud and Al-Rashid. There is no accurate information about the number of caravans between Kuwait and southern Iraq or between Kuwait and Syria.

Therefore, it is possible to argue that making an accurate account of the volume of the financial rewards coming from the trade exchange between

¹ Ibid., p.50.

1-Ibrahim Abduh, *Dawlat Al-Kuwait Al-Hadithah [The Modern State of Kuwait]* (Cairo: Dar Al-⁶Aroubah, 1962), p.135.

2-Lorimer, op. cit., p.1076.

3-Ibid.

1- Ibid., p.1316, and also Adel Mohammed Abdulmugani, *Al-Iqtisad Al-Kuwaiti Al-Qadim [The Ancient Economy of Kuwait]* (Kuwait: Kuwait Government Press, Undated), p.138.

Kuwait and the adjacent countries is difficult. This is due to the lack of accurate statistics that could define the volume of these annual dealings. Furthermore, the prevailing political conditions which governed the increase and decrease in the level of interactions made the above-mentioned statistics not one hundred percent accurate. However, it is possible to measure the volume of this interaction and its importance for Kuwait by noticing the impact of the trade problem between Kuwait and Najd and between Kuwait and Iraq and by noticing the impact of the British siege during the First World War on the economic life in Kuwait.

The problem between Kuwait and Najd goes back to 1913 when Abdul Aziz Ibn Saud, the governor of Najd, dominated Al-Hasa and controlled important naval outlets at Al-Uqair, Al-Qattif, and Jubayl. Ibn Saud sought to make these ports a substantial source of income for his country and benefit from their financial rewards. Another reason for this problem was the inability of Ibn Saud to impose customs fees on goods coming to his country through caravan routes. It is well known that a large number of his subjects, the inhabitants of Najd and central Arabia (merchants or Bedouins) favoured dealing with the Kuwaiti markets through desert routes.¹ As a consequence, he made many efforts to solve this problem with the sheikhs of Kuwait by giving some suggestions such as setting up a customs firm for him in Kuwait to collect the tax on these goods before they reach his country or appointing a Kuwait officer to collect this tax and send it to him. All these suggestions were rejected by the Kuwaiti sheikhs. Constantly, Ibn Saud ordered his subjects (merchants and Bedouins) to stop trading with Kuwait and to turn to his ports instead. This caused a very big crisis between the two countries which remained having a negative impact upon trade and the economic situation, until 1942 when the two sides signed a general agreement regarding trade, borders and travelling issues.²

1- Ibid., Najat Al-Gina'ai "Al-Tatwer Al-Siaysi wa Al-Iqtisadi lil Kuwait Bain A - Harbain 1919-1939" [The Economic and Political Development of Kuwait in the Inter War Period, 1919-1939], Unpublished MA Thesis, (Cairo: 'Ain Shams University 1972), p.84.

2-Ibid., pp.108-9, also Dickson, op. cit., p.49.

This impasse was a commercial disaster for Kuwait whose markets experienced serious losses. Kuwaiti income of customs declined from 100 000 rupees in 1922 to 60 000 rupees in 1932.¹ With regard to this, the historian Abdul Aziz Al-Rashid writes:

This crisis—between Kuwait and Najd—led Kuwait to the verge of bankruptcy...after you were seeing the markets and shops full, and after you were seeing caravans coming and going one after another, after all of this, the situation became desperate to the extent that if the ruling sheikh felt it, he would know that the country was going to ruins...the reason for all of this was the problem between Najd and Kuwait.²

This clearly shows the importance of trade exchange through the desert and the economic role it could play in raising the living standards and the development of the economic life in the city. It also shows the implication of the economic recession that was inflicted on Kuwait.

The importance of this trade interaction is also shown through the rejection of the Kuwaiti sheikhs to offer any solution to the smuggling problem with Iraq. This problem emerged due to the differences in the customs systems in both countries. In Iraq, the system was designed to increase the revenue of the state. As a consequence, the Iraqi government was increasing the tax to more than 100%. On the contrary, in Kuwait, the system was based on decreasing the customs fees in order to attract merchants to its ports and markets and this would ultimately lead to the increase in the volume of external trade exchange.³ As a result, the customs fees did not exceed 6%.⁴ The difference in the two customs system led to the spread of the process of smuggling from Kuwait to Iraq due to the gap in prices between the two countries and the huge profit smugglers could make. This problem persisted until the discovery of oil when trade and fees were no longer the primary source of income for both countries.

The importance of this trade can also be seen through the response of the sheikh of Kuwait, Sheikh Salem Al-Sabah (1917-21), to the British

3- Al-Rihani, op. cit., p.668.

² Al-Rashid, op. cit., pp.65-56.

³ Al-Gina'ai op. cit., p.148.

⁴ Abduh, op. cit., p.135.

request to stop exporting foodstuffs to their enemies during the First World War. The sheikh of Kuwait was completely unwilling to implement the siege imposed by Britain on the export of the food from Kuwait during the war. Therefore, the British were forced to place some of their officers to control and supervise the implementation of the siege on the borders of Kuwait.¹ This was because the Kuwaiti commitment would only mean depriving itself of an economic reward that comes from its borders through trade.

All these three problems indicate clearly that the caravan trade was a very important economic activity not only for Kuwait but for the region as a whole. It was an essential economic activity for a substantial part of the population and any decline or prosperity this occupation witnessed reflected directly on all other aspects of life.

The prosperity of caravan trade and the increase of the volume of trade between Kuwait and the neighbouring countries were due to the lack of restrictions on trade in Kuwait, low customs fees, simplification of procedures, and the Kuwaitis' good manners and treatment. These factors, in addition to the strategic location and the big trade fleet, had an impact on the development and prosperity of this important economic activity.²

5. Organization of Work and Economic Relations Involved in the Caravan Trade

The trade caravans were often comprised of a number of camels, and sometimes donkeys and mules owned or hired by professional persons called *Jammaleen* (cameleers). Each cameleer mostly owned a fleet of between 40 and 140 camels and used them as means of transportation between different cities throughout the Arabian Peninsula. The task of those cameleers was not only to rent their camels but also to accompany the caravans from the start until the destination and to provide guards and apprentices who were responsible for loading and unloading camels. All these tasks were done for an amount of money paid by the merchants to

¹ Al-Sheikh Khaz'aal, , op. cit., vol.4 , p.106.

² Al-Saqer, op. cit., p.67. Also Al-Khususi, op. cit., p.265.

whom these caravans were transporting goods. This amount also included tributes to be paid to tribes in the routes of caravans.¹

It might be useful to realise at this point that there is a mix-up between the terms *Jammaleen* and *'aqilat*: many resources have used the two terms to refer to the same category of people. It should be pointed out that there was not a great deal of variation between the two categories and many *jammaleen* worked as *'aqilat* and vice versa. The *jammaleen* can be best described as the organizers of the trade caravans between different cities of Arabia, Iraq, Syria, Egypt and Arabian Gulf. The *'aqilat*, on the other hand, is a term used to refer to a group of people who were primarily engaged in buying animals (camels, horses and in a lesser degree sheep) from Bedouin tribes in Arabia to re-sell them in the markets of Syria, Iraq and Egypt. They were town dwellers but specialized in buying animals from the Bedouins and selling them in the markets of the cities. Although some resources have mentioned that the *'aqilat* was a particular pure Arab race or even tribe,² this interpretation is completely wrong: the *'aqilat* was not a tribe, it was an occupational category or identity referring to a group of people who were of various tribal origins and had formed a network that specialized in buying and selling animals. They operated on a wide scale throughout Arabia, Iraq, Syria and Egypt. Some of the *'aqilat*, especially those who traveled frequently between the Bedouin camps in Arabia and urban markets in different cities, might have originally come from the same ancestry but this can not be applied to other *'aqilat* who were settled in communities in Baghdad, Kuwait, Al-Qasim and Buridah in Arabia, Syria and Egypt.³ The only distinction, therefore, between the cameleers and *'aqilat* was that while the cameleers were traders for themselves who buy goods from one place and re-sell them in another one or transporters of goods for a merchant in one place and his agent in another one. The *'aqilat* were an animal's wholesale

¹ Soraya Al-Torki and Donald Cole, "Mujtama'a Maqbl Al-Naft fi Al-Jazera Al-Arabia: Mujtama'a Morakab am Faudhah Qabalia" [The Arabian Peninsula's Society before the Oil: Tribal Anarchy or Compounded Community], *Al-Mustaqbal Al-Arabi Magazine*, (141), November 1991, p.50. Also Charles M. Doughty, *Travels in Arabia*, vol. 1 (London: Jonathan & The Medici Society, 1926), p. 11.

² Dickson, op. cit., p.112. Doughty, op. cit., p. 11. Lady Anne Blunt, *Bedouin Tribes of the Euphrates* (London: Frank Cass, 1968), p. 142.

³ Alois Musil, *The Manners and Customs of the Rwala Bedouins* (New York: American Geographical Society, 1928), pp.278-79.

traders who work for themselves by buying animals from the Bedouins and re-selling them in higher prices in the urban markets.¹ It was also possible for the *Jammaleen* and *'aqilat* to be engaged with these two occupations at once, for example the *'aqialy* can buy animals from the Bedouin camps on his way to the city and sells them in the city market, then returns with a load of goods to a particular merchant in his own city.

Although there is no detailed information about the occupation of cameleers and *'aqilat* —how they acquired it or if it was heredity— it is possible to argue that their tasks were based on their relationship with the tribes on the ways of the caravans. They might have belonged to one of these tribes or there might have been a sort of agreement between them and the tribes that the tribes would guarantee the security of the caravans for certain amount of money to be paid.

In most cases, the cameleer would deal with a particular merchant who had trade relations with an agent in the market of the destination. The merchant would give the cameleer a list of the goods he wanted to purchase in order to give it to the agent who in his turn would prepare the demands and would give them back to the cameleer to be given to the merchant. For example, a merchant from Najd would agree with a cameleer to bring his demands from an agent in the Kuwait market or vice versa. In other cases, if there was a relationship of trust, the merchant would give the money to the cameleer and ask him to make the purchases on his behalf. This way of obtaining goods was more advantageous to the merchant, because the agent charged a commission while the cameleer would charge only for the service. The merchant, in all cases, would pay the cameleer a certain amount of money for the service. This amount of money, however, was not defined. It varied according to the size of the caravans, the distance of the route from the departing point to the arrival point, and the volume of the goods carried by each camel.² In most cases, payments were paid per load and according to the types of goods. The

¹ Louise E. Sweet, “The Arabian Peninsula and Annotated Bibliography”, in: *The Central Middle East: a Handbook of Anthropology*, edited by Louise E. Sweet, vol.2 (New Haven: Human Relations Area Files, 1968), p.329.

² Abu Hakimah, *History of Kuwait*, pp.276-77.

camel roughly carried about 200 kg of sugar or rice. Some of this money had to go to the camels' owners if the cameleer was not the owner.¹

Although wages and fees had always been the method of paying for work in caravan trade, the sharing of profits, taking into account capital and labour, and often also responsibility, was also common. Sometimes the merchant and the *jammal* would work together on a shared basis in which the merchant would provide money and the cameleer would provide work. In such a case the net profit would be divided between the cameleer and the merchant in a way that the latter would get two-thirds or half of it. If the agreement was that the merchant was to get two-thirds, he must stand the entire loss that might result from the transaction. In the other case the loss was shared equally.²

Furthermore, the cameleers, in addition to their work as transporters, worked as merchants for themselves: they used to export goods from one city and re-sold them at a higher price in another one. They also used to buy camels, horses, sheep and other Bedouin products and re-sold them at higher prices in the markets of their destinations. They also supplied the Bedouins with arms, cloths, coffee and many other manufactured goods.³

It is possible to obtain a clear picture on how the caravan trips through the desert were organised from Ahmed Abu Hakimah's, book, History of Kuwait, in which he cites Captain Matthew Jenour. Jenour travelled the desert route from Aleppo to Iraq in 1785 and offered the following description:

Preparations hinged on the way the person want to travel, does he want a quick trip or slow or does he want to reduce expenses? If he wants a quick trip, he should agree with 4-6 Arabs, to take the minimum possible of stuff, and in this case he leaves everything to his guards to secure him because they know better what should be done and the best routes to be taken. If he wants a slow trip, he should buy in this case tents, mules, donkeys, camels, and food and this required larger number of the guards. The third way, which is the cheapest and most common, was caravan, this

¹ Al-Torki and Donald, op. cit, p.50.

² Musil, **op. cit.**, p.279.

³ Ibid. Al-Torki and Cole, op. cit., p.50.

comprises of a number of traders, travellers some of them ride horses and majority ride camels. They move regardless of their numbers under strong security. All of them move with instruction of sheikh. The shortcoming of this way that it takes a longer period.¹

Although Jenour was talking about the trade between Iraq and Syria in the 18th century, the third way he mentioned —caravans— was the one which continued until the mid of the 20th century in the region of the Arabian Gulf in general. The sheikh of the caravan that Jenour mentioned was the cameleer (the *Jammal*), under whose control and leadership the caravan was. In most cases, the cameleer owned a private herd of camels and animals. He may have obtained them through inheritance, but the major way of obtaining them was through a process known as *buda'aah*. This process was a way of joint investment between a merchant and a cameleer. The merchant would buy camels and entrust them to a cameleer who made journeys with them until the money obtained from the transports of goods by them covered their cost. At this point, the merchant and the cameleer became owners of the camels on a fifty-fifty basis. If one of them no longer wished to continue the relationship, the camel was sold and the money obtained from the sale was split in half and shared. If, on the other hand, both wanted to continue the relationship, the merchant would pay the cameleer half the market value of the camel. Then the process would begin over again as though the camel had been newly purchased.²

Each cameleer would have a number of apprentices (*subiyan*) working for him and accompanying the caravan. The number of these apprentices depended mostly on the number of camels in the caravan. They were either the cameleer's own sons, relatives or hired by him. The main task of these youths was loading and unloading the camels. These youths were divided into groups within the caravan. Each group was responsible for loading and unloading a certain number of camels in the caravan. In addition, there was a herdsman, usually a Bedouin, who accompanied the caravans with the task of supervising and grazing the camels and the animals along the way. All these apprentices and herdsmen were waged

¹ Ahmed Mustafa Abu Hakimah, *History of Kuwait*, p.277.

² Al-Torki and Cole, op. cit., p.50.

workers who were paid according to an agreed upon method of payment before the start of the caravan journey.¹

6. The Bedouins' Contribution to the Caravan Trade

The caravan trade was not only confined to merchants and caravans, it was also a very important source of income for the noble Bedouin tribes. The Bedouins were an influential part of it. It should be remembered that the noble tribes throughout the Arabian Peninsula remained as independent camel breeding societies whose social status, power and prestige depended on their great camel herds and means of maintaining them at full strength. Accordingly, these tribes were essentially autonomous and wielded a great deal of military strength by which they occupied huge territories in the desert and controlled all caravan trade routes throughout Arabia. The control of caravan routes had long been one of the sources of tribal income and power. However, the relationships between these tribes and other societies were managed in terms of mechanisms of inter-chiefdom, not mechanisms of state apparatus. And their control over caravans' routes and imposing tributes for the right of passage should be seen not only as a tribal custom but as a mechanism which provided protection and safe passage in the absence of state control.²

There are, however, two important points to be emphasised when considering the Bedouin participation in the caravan trade. On one hand, Bedouin tribes were the only producers of camels (the principal means of transportation in the caravan trade). The camel, by its capacity to tolerate heat and lack of water and moist forage and to bear heavy loads, was the most favourite and suitable means of transportation for caravaneers throughout Arabia. More importantly, Bedouins were the key source of many principal goods traded by caravans to be consumed by the cities' dwellers or re-exported to the international markets (such as animals, meat, wool, skins, ghee, dried cheese, etc).

Accordingly, during the summer, where the weather was very hot and the temperature was extremely high, cameleers and *'aqilat* did not make commercial trips. Instead, they used to go out to the Bedouin camps based

¹Ibid., p.49.

² Louise E. Sweet, "Camel Raiding of North Arabian Bedouin: A Mechanism of Ecological Adaptation", *American Anthropologist*, vol. 67, 1965, p.1134.

around wells to buy camels and other Bedouin products to re-sell them in urban markets. In such a case, the cameleer or '*aqialy* would travel to the Bedouin camp —whether as a trader for himself or as an agent for a city dweller merchant— and after permission from the sheikh of the tribe or the clan he would put up his white tents in the same camp. The Bedouins then would bring their camels and other products to be sold to him for cash. Sometimes, if the cameleer brought arms, ammunition or other manufactured goods from the city, the Bedouins might exchange their animals for these articles.¹ It worth pointing out that the sheikh of the tribe or clan —in which the cameleer had put up his tents to buy the Bedouin products— used to take a commission from the cameleer on the sale of every camel. The amount of this commission was estimated by Alois Musil during the first half of the 20th century to be one-half or one *majidi* (Ottoman currency) (\$0.45). In return, the cameleer was regarded as the host of the sheikh and enjoyed his protection along his stay within the *dirah* of this sheikh.²

Moreover, when cameleers or '*aqialt* bought animals from the Bedouins, these animals were branded by the marks of the tribe and left to graze within its territory until they took them to the market. Cameleers mostly had their own herdsmen who would accompany their herds along the way to the urban market but they also used to hire herders from the tribe from where they were buying at the time. These herdsmen were usually from sheep and goat herding tribes.³

Camels and other Bedouin products were also brought by the Bedouins themselves to the town market during the summer to be exchanged for foods and manufactured goods. It is worthy of note, however, that each tribe throughout Arabia had its special or favourite towns which they used to go up to for their necessities. For instance, from time immemorial, Kuwait was the supply town and favourite market for the Mutair, Harb, Shummar, 'Awazim and Northern 'Ajman tribes.⁴ Furthermore, many merchants worked in connection with Bedouin caravans which came to the *Safat* market where they unloaded their commodities. Other

¹ Musil, *op. cit.*, pp.279-80.

² *Ibid.*

³ *Ibid.* Also Sweet, "Camel Pastoralism in North Arabia", p. 145.

⁴ Dickson, *op. cit.*, p.49.

merchants in the town managed to specialise in supplying the Bedouins' needs. Most of them were from Bedouin origins, and there were some 132 merchants specialising in selling to suit the Bedouin needs.¹

Nevertheless, and in spite of their adaptability as producers and consumers, the Bedouins never took part in commerce (as merchants) on a large scale and never became merchants on their own account. Historically, Bedouins regarded themselves as free camel herders and raiders—these were the only manly jobs. They scorned other labour in agriculture, trade and crafts which were performed by slaves or by the settled population. More importantly, production, in the nomadic perspective, was evaluated not by its exchange value, but rather by its use value. Describing a camel merchant's trip to a Bedouin camp in Northern Arabia Doughty noticed that:

They purchase only of the best beast: although they bid high prices the Arab [Bedouins] are never very willing to sell them. They camel they think is a profitable possession, a camel will bring forth a camel, but money is a barren good that passes quite away in the using. Commonly, they will sell of their beats only when they have some present need of riyals, and then sooner of the males; but they are the better of carriage.²

Furthermore, Donald Cole stated that: "the Al-Murrah keep camels for subsistence and only rarely exchange them for cash or barter in any markets".³ Nevertheless, money as a medium of exchange was not a new thing in the desert.

The other point which needs to be mentioned here is that, as Bedouins used to move freely across the borders of Kuwait, Najd, and Iraq, they became one of the reasons for the economic problems between Kuwait and other adjacent countries over smuggling. By no coincidence at all, pastoralism had been associated with smuggling. The consolidation of national borders and the evolution of contradictory tariffs in neighbouring countries made nomads the ideal group to smuggle contraband between these countries. This was particularly highly developed between Kuwait,

¹ Lorimer, op. cit., vol. 2, p.1054.

² Doughty, op. cit., p.233.

³ Donald Powell Cole, *Nomads of the Nomads* (Chicago: Aldine, 1975), p.102.

Najd and Iraq where extremely different economies border one another and long featureless frontiers were almost impossible to control¹.

On the other hand, the second and most important part the Bedouins took in the caravan trade was their control of the caravan routes and imposing of tributes on their passage. With the relative absence of any other means of extracting surplus tribal chiefs depended, to some degree, on the extraction of surplus from other societies through tributes and fees. It can be said that the history of the caravan trade in Arabia was intimately connected with the history of the Bedouin tribes and completely subjected to their tribal organization. Movements of caravans across tribal territories, however, were controlled by the tribesmen through a general custom in all tribal territories of Arabia.

All caravans had to pay tributes (*Al-Khawah*) to the superior and powerful tribes while they were passing or trading throughout their *dirahs*. These tributes were paid for the safety and rights of crossing the territory of the tribe. In return, tribes who extract tributes had to grant full protection to the caravans while they were crossing their territories. It should be noted that the grantee of protection and free passage was only exclusive to tribes or clans who were paid. Accordingly, caravaneers used to deal and pay each tribe and, sometime each clan, separately.²

The amount paid to the tribes was subject to bargaining. They either would pay the highest percentage or the tribe would not take responsibility of securing the caravans, which practically meant that the caravans would be subject to raid and loot.³ Therefore, trading through lands belonging to Bedouins tribes known for their militancy was very expensive. So there were certain procedures to guarantee the immunity of caravaneers and their goods. These procedures included what was known as *al-wajeh* (literally face; honour) or the sending of *al-rafiq* (companion) to personally guarantee free passage. *Al-Wajeh* was a sign mostly on a stock or cane with a special notch, the same as the tribal *wasim* (brand)

¹ Mohammed Al-Farhan, *Al-Kuwait Bain Al-Ams wa Al-Yaom* [Kuwait between Yesterday and Today] (Damascus: Dar Samir Amis, 1959), p.111, Al-Gina'ai op. cit., p.149.

² Al-Torki and Cole, op. cit., p.50.

³ Sadlier, op. cit., p. 85. Dickson, op. cit., pp.442-43.

given to caravaner meaning that he is under the protection of this tribe. *Al-Rafiq*, on the other hand, was a man whose duty was to accompany the caravan along the tribe territory and personally guarantee its safe passage.¹ Consequently, tribes who gave *al-wajah* or sent *al-rafiq* with the caravans became partners in the trade activity in the desert.

It is worth pointing out that tributes were not only paid by caravaners or cameleers. Travellers and *'aqialt* were also subject to the Bedouin raids and, accordingly, they used to pay tributes to the Bedouin tribes. Furthermore, the *'aqialt* used to have in every large tribe or clan what was called *akh* (brother) to whom they pay an annual amount of money in addition to one good riding camel and some gifts. The main task of this *akh* was to restore to them every camel stolen by a member of his clan.²

Although there is an ample indication in the literature that tributes were transmitted to the sheikh of the tribe or the clan who would redistribute them among the kin groups of his tribe or clan,³ a great deal of confusion still remains on the questions of how these tributes were distributed and on what basis? And did the distribution include all the tribe members (sheikhs, tribesmen, servants and slaves) or was it only limited to the sheikhs and tribesmen? And were these tributes distributed equally or not?

However, there is no clear evidence that there was a specific principle of distributing tributes between sheikhs and their followers or whether these tributes were distributed equally or not. It is most likely that the distribution of tributes was based on the same principles of distributing the booty of raids. According to Musil—who spent many years with the *Rwala* Bedouins of North Arabia—the booty of raids was distributed unequally between the participants. By custom, the leaders of expeditions, who were mostly aspiring young men of the chief lineage, received more

¹ Doughty, op. cit., p. 235. Dickson, op. cit., pp.125-26. See also Christina Phelps Grant, *The Syrian Desert* (London: A. & C. Black, 1937), p.172.

² Alois Musil mentioned that the *akh* receives from the *'aqialy* 4 to 5 Turkish pounds (\$18-22.50), one good riding camel and two or three good cloaks annually for this task.

Musil, **op. cit.**, p.280.
³ Al-Torki and Cole, op. cit., p.50. Sweet, "Camel Pastoralism in North Arabia", p.140.

of the booty than the rank and file of raiders¹ and other clients and servants were regarded as non-combatants and received nothing.² On this basis, the chief lineage members of the tribes and clans were entitled to receive more of the tributes than their tribesmen. While other subordinate groups (herdsmen, servants and slaves) were definitely out of the distribution process at all.

The chief lineage members of the tribe were, by custom, entitled to enjoy many rights than others. They restricted the shiekhship as a legitimation for themselves. They maintained their exclusiveness through rules of martial exchange with their close relatives (first cousin marriage system) or with the chief lineage members of other tribes. They were also the collectors of tax and alms from their followers and tributes from other subordinate tribes, villagers and caravans. One result of this is that all these rights enforced the sheikhs' position both within the social structure of the nomadic society and with the central government they belonged to. It is important here to mention that central governments in the Gulf and Arabian Peninsula as whole were so dependant on the Bedouin tribes who provided a crucial source of income and a significant and indispensable military force for their protection. Accordingly, most of these governments paid special attention to the sheikhs of Bedouin tribes to obtain their loyalties and to achieve strong backing from their tribes.³ As a consequence, it is possible to argue that with the absence of state control in the desert, Bedouin sheikhs had enjoyed an ultimate authority and high position among their people. The superiority they achieved was derived mainly from the power they wielded in society through the economic resources they owned. Furthermore, this situation was consolidated by the encouragement of central governments which used the Bedouin sheikhs as representatives of the central authority in the desert. Besides their essential task as the leaders of the tribes, Bedouin sheikhs became the representatives of central governments in the desert. They used to collect tax and alms and keep peace among the Bedouin tribes on the behalf of the government during peacetime and lead tribesmen as military forces during war. In return, central authorities reinforced their positions among

¹ Musil, op. cit., pp.441-61.

² Sweet, "Camel Raiding of North Arabian Bedouin", pp.1136 -46.

³ Jacqueline Ismael, *Kuwait: Social Change in Historical Perspective* (Syracuse: Syracuse University Press, 1982), p.27.

their tribesmen by supporting them and giving them part of the tax they collected.

7. Conclusion

In conclusion, it is evident that the caravan trade was a key element of the Kuwaiti economy in general and the traditional mode of production in particular. Besides being a key pillar of the Kuwaiti economy in the pre-oil era, this economic activity was a very important link between the Kuwaiti market and the regional economy (Bedouins) and between the region and other different economies outside Arabia.

More importantly, this economic activity, as an essential element of the traditional mode of production, was characterized by its particular mechanism and its specific relations between those who were involved in it. The caravan trade or camel transportation was organized as a profit-making enterprise which entailed the participation of many members from both nomadic and settled communities. These participants, however, were from different economic and social standings and, accordingly, their relationship was established on an unequal basis and unsurprisingly led to an unequal result.

It is important to note that, whether or not the relationship between those participants was exploitive and led to an equal distribution of the final product. These factors were of intrinsic interest, but they should not obscure the fundamental point that the monopoly of capital and means of production (camels) was the key element of determining the nature of this relationship.

In order to obtain a clearer idea of how relations of production were organized and how surplus was extracted in the caravan trade, the participants in this occupation should be divided into two categories:

1-City dwellers: merchants (the capital owners), cameleers and *'aqilat* (the organizers and leaders of caravans) and loaders (the apprentices or *subiyan*) who do most of loading and unloading work.

2-Nomads: Bedouin sheikhs (the tributes and commission takers) guards and *rafiqs* (guides and protection providers) and herdsmen who were hired by caravaneers to graze their animals along the caravan way.

As this economic activity entailed the availability of money to buy goods and animals (the principal means of production) and to hire labourers and pay tributes and fees along the caravan route, the caravan trade depended almost entirely on the merchants (the capital owners). The ownership of capital was the major and indispensable element in this economic activity. As a consequence, the class of merchants, whether in Kuwait or in other urban centres throughout Arabia, Southern Iraq and Syria, was the backbone of the caravan trade and all other participants from both the settled and nomadic categories were connected to them.

Within the city dwellers category, merchants occupied the key position in this economic activity. All other participants (cameleers and *'aqilat* and their apprentices), because of their capital shortage, were completely dependant on them as this occupation was their key source of living. Within the nomadic category, all partakers (sheikhs, guides, *rafiqs* and herdsman) were also connected to the merchants through the tributes and fees they received for their participation.

The distinction between the relations of these two categories with the merchants was based on the nature of the relations of production involved in this economic activity and the method of surplus extraction. Taking into account the unequal amount of effort expended in obtaining profits and ways of distributing them in the caravan trade, it seems apparent that relations between the merchants and other city dwellers participants took an unequal form: the merchants were the most advantaged group in this activity followed by the cameleers and then latter the loaders. It is evident that the ownership of capital and means of production (camels) was severed from ownership of labour power. In addition, the relationship between the owners and non-owners permitted the transformation of labour power into a commodity (wage-relations). Through their exclusive control of capital and then the means of production, capital owners were able to control both the conditions under which others can work and the ways of distributing the final product.

On the other hand, relations between merchants and nomadic participants took another form. Nomadic participants (sheikhs, guides and *rafiqs*) had never taken direct part in trade or had become merchants on their own

account. Consequently, they had never become under the control of the merchants or were in desperate need to work with them. On the contrary, Bedouins, by virtue of their camel pastoralism which provided the basis of a viable economy and by virtue of their ability to move and dominate huge territories and control communication routes, maintained a distinctive pattern and a dominant position over other societies and settlements in their territories.¹ Consequently, they were in a superior position over the merchants who were in a constant need for: Firstly, Bedouin products which constituted a substantial part of the merchants' transactions and, secondly, the Bedouin sheikhs' consent and protection to use communication routes within their territories. As a result, the caravan trade played an essential part in the nature of relationships between the merchants and Bedouin chiefs because it made possible the transfer of part of the surplus from the former to the latter.

To some extent, it is also possible to talk about exploitation and unequal distribution of gains within the Bedouin category participating in the caravan trade. Taking into account the amount of effort expended by each of these partakers (sheikhs, guides, guards and *rafiqs*) in obtaining profits from caravans and comparing that with the distribution of these profits between them, it is very clear that there was a great deal of variation. Bedouin sheikhs, the aristocrats of the Bedouin society, who had never taken a direct part in this commercial process, were the most benefited group while others (guides, *rafiqs*, guards, etc.), who were involved directly in this business, gained less portion from the returns. Most importantly, it should not be forgotten that although tribal territories were owned communally by all members of the tribe, Bedouin sheikhs had the final word in using them and giving permission to other tribes and caravans to use or cross them. No Bedouin would think of disobeying the mandates of his sheikh. Accordingly, giving permission to caravans to pass and taking part in them was based on the consent and decisions taken by the Bedouin sheikhs and no Bedouin can do so without his sheikh's permission.² As a result, it is possible to say that the role of the Bedouin sheikhs in the caravan trade was not less important than that of the

¹ Sweet, "Camel Pastoralism in North Arabia", p.130.

² Grant, op. cit., p.172.

merchants. Both played a distinctive role as a dominant group within their categories and as an essential part in this occupation in general.

In the light of these considerations, one can argue that merchants (in the city) and Bedouin sheikhs (in the desert) were the two major effective participants in the caravan trade. Both were in a superior position that enabled them to control this economic activity. Because of their high positions, which were derived primarily from the power each group exercised in society through the economic resources they controlled, these two groups were able to set up an established mechanism by which they benefited more and made others completely dependent on them to take part in this economic activity.

Moreover, one may conclude that, in spite of their spatial and cultural differences and political rivalries, these two groups were economically interdependent. And despite what can be described as their inconsistent or quasi-antagonistic relationship, the dominant nomadic strata and merchant exploiting class were able to attain alliances or cooperative relationships that seemed to be aimed at maintaining and consolidating their economic gains in special circumstances.

Bibliography

1. Abduh, Ibrahim, (1962), *Dawlat Al-Kuwait Al-Haditha [The Modern State of Kuwait]* (Cairo: Dar Al-‘Aroubah).
2. Abdulmugani, Adel Mohammed, (undated) *Al-Iqtisad Al-Kuwaiti Al-Qadim [The Ancient Economy of Kuwait]* (Kuwait: Kuwait Government Press).
3. Abu Hakima, Ahmed Mustafa, (1967), *History of Kuwait* (Kuwait: Kuwait Government Press), two volumes.
4. ---, (1983), *The Modern History of Kuwait 1750-1965* (London: Luzac & Company).
5. Al-‘Adarous Mohammed Hassan, (1996), *Tariekh Al-Khalij Al-Arabi Al-Hadith [The Modern History of the Arabian Gulf]* (Cairo: Dar ‘Ain Lil Dirasat wa Al-Bohouth).

6. **Al-'Adhmah, Faisal**, (1945), *Fi Bilad Al-Lulu [In the Country of Pearl]* (Damascus: Committee of Culture in the Arab Youth Association).
7. Al-Farhan, Mohammed (1959), *Al-Kuwait Bain Al-Ams wa Al-Yaom [Kuwait between Yesterday and Today]* (Damascus: Dar Samir Amis).
8. **Al-Gina'ai, Yosif bin Isa**, (1968), *Safahat min Tariekh Al-Kuwait [Pages from the History of Kuwait]* (Kuwait: Kuwait Government Press).
9. **Al-Khususi, Badder Al-Deen Abbas**, (1983), *Dirasat fi Tariekh Al-Kuwait Al-Iqtisadi wa Al-Ijtima'ai [Studies in Economic and Social History of Kuwait]* (Kuwait: Dar Dat Al-Salasil).
10. **Ali, Abdullmuna'aim Al-Sayid**, (1983), *Al-Tatwar Al-Tariekhi lil Al-Andhima Al-Naqdiah fi Al-Aqtar Al-Arabia [The Historical Development of the Monetary Systems in the Arab Countries]* (Beirut: Centre of the Arab Unity Studies).
11. **Al-Nabhani Khalifa**, (1949), *Al-Tuhfa Al-Nabhania fi Tariekh Al-Jazera Al-Arabia [The History of Arabian Peninsula]* vol.8 (Cairo: Al-Matba'aah Al-Mohamadia Al-Tijaria).
12. **Al-Qatami, Isa**, (1964), *Dalil Al-Muhtar fi 'Alim Al-Bihar [The Guidebook of Seas Science]* (Kuwait: Kuwait Government Press).
13. **Al-Rashid, Abdul Aziz**, (1978), *Tariekh Al-Kuwait [The History of Kuwait]* (Beirut: Dar Maktabat Al-Hayat).
14. **Al-Rihani, Amin**, (undated), *Muluk Al-Arab: Rihlah fi Al-Bilad Al-Arabia [Arab Kings: Trip in Arab Land]* (Beirut: Dar Al-Jeel).
15. ---, (1988), *Tariekh Najd Al-Hadith [The Modern History of Najd]* 2nd ed (Beirut: Dar Al-Jeel).
16. **Al-Sa'adoun Khalid**, (1983), *Al-'Alaqaat Bain Nijd wa Al-Kuwait (Relations between Najd and Kuwait)* (Riyadh: Matbo'aat Darat King Abdul Aziz).

17. **Al-Saqer, Abdul Aziz Hamad**, (1984), *Al-Kuwait Qabl Al-Zait [Kuwait before the Oil]* (Kuwait: Kuwait Government Press).
18. **Al-Sheikh Khaz‘aal, Hussein Khalaf**, (1962), *Tariekh Al-Kuwait Al-Siaysi [The Political History of Kuwait]* (Beirut: Dar Maktabat Al-Hilal).
19. **Blunt, Lady Anne**, (1968), *Bedouin Tribes of the Euphrates* (London: Frank Cass).
20. **Cole, Donald Powell**, (1975), *Nomads of the Nomads* (Chicago: Aldine).
21. **Dickson, H. R. P.**, (1951), *The Arab of the Desert: A Glimpse into Badawin Life in Kuwait and Saudi Arabia* (London: Allen & Unwin).
22. **Doughty, Charles M.**, (1926), *Travels in Arabia*, vol. 1 (London: Jonathan & The Medici Society).
23. **Calverley, Eleanor**, (1958), *My Arabian Days and Nights: A Medical missionary in Old Kuwait* (New York: Macmillan Press).
24. **Grant, Christina Phelps**, (1937), *The Syrian Desert* (London: A. & C. Black).
25. **Jundi, Majidah Faiq**, (undated), *Al-Siaysah Al-Naqdhiah fi Al-Kuwait 1970-79 [The Monetary Policy in Kuwait 1970-79]* (Kuwait: Kuwait Government Press).
26. **Kuwait Chamber of Commerce**, (1951), *Kuwait Guidebook* (Kuwait: Kuwait Government Press).
27. **Ismael, Jacqueline**, (1982), *Kuwait: Social Change in Historical Perspective* (Syracuse: Syracuse University Press).
28. **Lorimer, J.G.**, (1915), *Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia*, Historical (Calcutta: Superintendent Government Printing).
29. ---, (1915), *Gazetteer of the Persian Gulf, Oman and Central Arabia*, Geographical and Statistical (Calcutta:

Superintendent Government Printing).

30. **Musil, Alois**, (1928), *The Manners and Customs of the Rwala Bedouins* (New York: American Geographical Society).
31. **Nofil, Sayid**, (1969), *Al-Khalij Al-Arabi aw Al-Hodod Al-Sharqiah Lil Al-Watan Al-Arabi [The Arabian Gulf or the Eastern Borders of the Arab World]* (Beirut: Dar Al-Talabah).
32. **Plaisted, Bartholomew**, (1967), "A Journey from Busserah to Aleppo", in: *The Desert Route to India*, edited by Douglas Carruthers (Liechtenstein: Kraus Reprint).
33. **Rushdi, Rasim**, (1959), *Al-Kuwait wa Al-Kuwaitiein [Kuwait and Kuwaitis]* (Beirut: Al-Matba'ah Al-Rahbania Al-Libnania).
34. **Sadlier, George Forster**, (1977), *Dairy of a Journey across Arabia 1819* (Cambridge: Falcon & Oleander Press).
35. **Suleiman, Hassan Mahmoud**, (1986), *Al-Kuwait Madhiha wa Hadhiruha [Kuwait: Its Past and Present]* (Cairo: Al-Maktaba Al-Ahlia).
36. **Sultan, Ghanim**, (1988), *Al-Milaha Al-Arabia wa Ahmiatuha Qadiman wa Haditan [Arab Navigation and its Ancient and Modern Importance]* (Kuwait: Moasasat Al-Taquadum Al-'Almi).
37. **Sweet, Louise E.** (1965), "Camel Pastoralism in North Arabia and the Minimal Camping Unit", in: *Man, Culture and Animal: the Role of Animal in Human Ecological Adjustment*, edited by Anthony Leeds and Andrew Vayda (Washington: American Association for the Advancement of Science).
38. ---, (1968), "The Arabian Peninsula and Annotated Bibliography", in: *The Central Middle East: a Handbook of Anthropology*, edited by Louise E. Sweet, vol.2 (New Haven: Human Relations Area Files).
39. **Tahboub, Faiq**, (undated), *Tariekh Al-Bahrain Al-Siaysi [The Political History of Bahrain]* (Kuwait: Dar Dat Al-Salsil).

40. **The Kuwaiti Ministry of Guidance and News**, (1972), *The Annual Book* (Kuwait: Kuwait Government Press).
41. **The Persian Gulf trade Reports 1905-1940**, (1987), *Reports on the Trade of Kuwait 1905-1940* (Trowbridge: Redwood).

Articles

1. **Al-Torki, Soraya and Donald Cole**, (November, 1991), "Mujtama'a Maqbl Al-Naft fi Al-Jazera Al-Arabia: Mujtama'a Morakab am Faudhah Qabalia" [The Arabian Peninsula's Society before the Oil: Tribal Anarchy or Compounded Community], *Al-Mustaqbal Al-Arabi Magazine*, (141), pp.41-53.
2. **Sweet, Louise E.** (1964), "Pirates or Politics? Arab Societies of the Persian or Arabian Gulf, 18th Century", *Ethnohistory*, vol.2 (3), pp.262-280.
3. ---, (1965), "Camel Raiding of North Arabian Bedouin: A Mechanism of Ecological Adaptation", *American Anthropologist*, vol.67, pp.1132-1150.

Unpublished Ph.D. Dissertations and Master's thesis

1. **Al-Gina'ai, Najat Abdulqadir**, (1972), "Al-Tatwer Al-Siaysi wa Al-Iqtisadi lil Kuwait Bain Al-Harbain 1919-1939" [The Economic and Political Development of Kuwait in the Inter War Period, 1919-1939], Unpublished MA Thesis, (Cairo: 'Ain Shams University).
2. **Al-Qasimi, Nourah**, (1984), "Al-Wojoud Al-Hindi fi Al-Khalij Al-Arabi" [The Indian Presence in the Arabian Gulf], unpublished MA thesis (Cairo: 'Ain Shams University).
42. **Ghadban, Musa Hanoun**, (1988), "Tatwer Nidham Al-Hukum wa Al-Idarah fi Al-Kuwait" [The Development of the System of Governing and Administration in Kuwait], Unpublished MA thesis (Cairo: 'Ain Shams University).